﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف: الآيات ٩٧ ـ ١٠١].

يقول الله جل وعلا: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

بيّن الله (جل وعلا) هنا إنكاره على أهل القرى الذين كفروا به وكذبوا رسله وعارضوا [شرعه][(١)] وأمنوا مكره، وبيّن (جل وعلا) تفاهة عقولهم وعدم علمهم، وأنكر عليهم بأداة همزة الإنكار ليفتحوا آذانهم ويخافوا عقاب الله ولا يأمنوا مكره.

ولذا قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف: آية ٩٧] قدمنا مراراً كثيرة[(٢)] كلام العلماء على همزة الاستفهام التي بعدها أداة عطف كالفاء والواو وثم. والهمزة هنا للإنكار، ومعنى إنكاره على أهل القرى جمعهم بين الكفر به، وتكذيب رسله، وعدم خوفهم من بطشه ونكاله، فهذا يدل على غاية الجهل بالله؛ ولذا قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ جمع قرية على غير قياس ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ أي: يأتيهم عذابنا ونكالنا وإهلاكنا المستأصل، والبأس: العذاب والنكال من الله (جل وعلا) بسبب كفرهم بنا وتكذيبهم لرسلنا.

﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [الأعراف: آية ٩٧] قوله: ﴿بَيَٰتًا﴾

---

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

أي: ليلًا، والحال: ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [أي: في غفلة][1] فيأتيهم في تلك الغفلة ﴿بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا فنهلكهم. وهذا معنى قوله: ﴿بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ أي: ليلًا في حال كونهم نائمين. والليل معروف، وهو الذي تشاهدونه من ظلام.

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الأعراف: آية ٩٨] في هذا الحرف قراءتان سبعيتان: قرأه جماهير القراء غير الحرميين والشامي: ﴿أَوَ أمن أهل القرىٰ﴾ بفتح الواو، كأنه تكرير للجملة بما يماثلها. وقرأه الحرميان ـ أعني: نافعاً وابن كثير ـ والشامي ـ أعني ابن عامر ـ: ﴿أَوْ أمن أهل القرى﴾ بـ(أو) العاطفة، وهما قراءتان معروفتان، ولغتان فصيحتان[2].

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ الضحى: هو وقت ارتفاع النهار.

﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ لاهون يشتغلون بما لا يجديهم شيئاً، وكل مشتغل بما لا ينفعه يُسمىٰ لاعباً كما هو معروف. والمعنى: أن الله (جل وعلا) قادر على إهلاكهم في الليل في حالة نومهم، وإهلاكهم في أول النهار في حالة لهوهم ولعبهم، كيف يأمنون مكره مع الكفر به وتكذيب رسله وقدرته على إهلاكهم؟ وهذا معنى قوله: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

ثم كرر الإنكار عليهم فقال: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: آية ٩٩] كان بعض العلماء يقول: إن المكر من الصفات التي لا تطلق إلا على سبيل المشاكلة. وهذه الآية من سورة الأعراف بيّنت أن المكر يُطلق في غير المشاكلة.

والمشاكلة: هذا اللفظ من اصطلاحات علوم البلاغيين[3]، يذكره

---

(١) في هذا الموضع كلام غير واضح. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٠ ـ ٢١١.

(٣) انظر: التلخيص للقزويني ص٣٥٦، جواهر البلاغة ص٢٩٩.

علماء البلاغة في (البديع المعنوي) يقولون: منه قسم يُسمىٰ (المشاكلة) وبعضهم يقول: إن ما يُسمىٰ (المشاكلة) هو مما يسمونه: بعض علاقات المجاز المرسل.

وهذا الذي يقولون له (المشاكلة) هو: أن يأتي لفظ موضوع في معنى غير معناه، بل موضوع في معنىٰ أجنبي من معناه الأصلي، إلا أنه وُضع فيه لأجل المشاكلة والمقارنة بينه وبين لفظ آخر مذكور معه، ومن أمثلته عندهم قول الشاعر[(١)]:

قالوا اقترح شيئاً نُجِد لك طبخَه قلتُ اطبخوا لي جُبَّةً وقميصَا

فقوله: «اطبخوا لي جبة» يعني: خيطوا لي جبة، فأطلق الطبخ وأراد الخياطة ـ والطبخ أجنبي من الخياطة ـ للمشاكلة بينهما. والتحقيق أنه هنا لا مشاكلة، وأن الله ذكر مكره وحده ولم يذكر مكر عبده كما قال هناك: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: آية ٣٠] ذكر مكرهم ومكره، وهنا ذكر مكره وحده؛ ولذا قال: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: آية ٩٩].

والتحقيق أن المكر صفة أطلقها الله على نفسه، ولا يجوز إطلاقها على الله إلا في الموضع الذي يُطلقها هو على نفسه أو رسوله ﷺ، وقد أجمع جميع العلماء أنه لا يجوز أن يُشتق له منها اسم، فلا تقل: من أسمائه الماكر؛ لأن ذلك لا يجوز إجماعاً.

ومعنى (مكر الله) أنه (جل وعلا) يستدرجهم ويغدق عليهم النعم والصحة والعافية حتى يكونوا أغفل ما كانوا، ثم يأخذهم بغتة ويهلكهم في غاية الغفلة، وهذا فعل أحسن ما يكون وأبلغ ما يُتصور، وقد ضربوا مثلًا ـ ولله المثل الأعلى ـ قالوا لو فرضنا أن هنالك رجلًا شديد البلية على الناس، يقتل هذا، ويظلم هذا، وجميع الناس في غاية التأذي منه، ثم إن رجلًا صالحاً كريماً طيباً احتال عليه بحيلة شريفة، حتى قتله وأراح الناس منه،

---

(١) البيت في المصدرين السابقين.

فكلهم يقول: جزاك الله خيراً. والله إن قَتْلَك له في صورة خفاءٍ إنه أحسن ما يكون.

وعلى كل حال فالله لا يصف نفسه إلا بما هو في غاية الحسن والجمال واللياقة، فوصف نفسه هنا بأنه يهلك الكافرين بمكره، وأن كيده متين كما قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف: آية ١٨٣] ونحن قد قدمنا لكم في هذه الدروس مراراً ـ وكررناه مراراً[١] من شدة الحاجة إليه ـ: أن المذهب المُنجي في صفات الله تبارك وتعالى التي ازدحمت فيها عقول العقلاء، وضلّ آلاف الناس من جهة التعطيل، وضلّ آلاف الناس من جهة التشبيه، والتمثيل، أن المذهب المنجي عند الله ـ الذي لا شك فيه، وأنه الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام وسلف هذه الأمة ـ: وهو ما يقال له: «مذهب السلف» في اصطلاح الناس، أن انتهاجه هو الصواب، وهو المنجي عند الله، وهو العمل بنور القرآن الذي لا شك فيه، فقد أوضحناه لكم مراراً سنين متعددة، ولا نزال نوضحه ونكرره لشدة الحاجة إليه، وكثرة من غلط فيه من فحول النظار.

اعلموا أيها الإخوان ـ وفقنا الله وإياكم لما يرضيه ـ أن العمل بضوء هذا المحكم المنزل الذي لا شك أنه على قدم الصواب أن تُجرى آيات الصفات على ثلاثة أصول، إن لقيتم الله وأنتم على هذه الأصول الثلاثة ـ لم تُخلّوا بواحد منها ـ فلا شك أنكم تلقون ربكم وأنتم على عقيدة صحيحة، وصلة بالله متينة، ومذهب حق. وإن أخللتم بشيء منها أدخلتم أنفسكم في بلية. واحذروا من قال وقيل، وعلم الكلام، وغير ذلك.

وهذه الأصول الثلاثة:

الأول منها: ـ أيها الإخوان ـ هو أساس التوحيد الأكبر، وهو الحجر الأساسي للصلة بالله صلة صحيحة. هذا الأساس الأعظم هو تنزيه خالق السماوات والأرض (جل وعلا) عن أن يشبه شيئاً من خلقه في شيء من

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الأنعام.

ذواتهم أو صفاتهم أو أفعالهم، وكيف يشبهونه؟! أليسوا صنعة من صنائعه؟ بلى هم صنعة من صنائعه ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: آية ٨٨] ومعلوم أن الصنعة لا تشبه صانعها بحال. هذا أصل التوحيد الأعظم في آيات الصفات، وأساسها الأكبر، وهو تنزيه رب العالمين تنزيهاً كاملاً تاماً لائقاً بكماله وجلاله عن مشابهته لشيء من صفات خلقه أو ذواتهم أو أفعالهم، وهذا الأصل الأعظم نصّ الله عليه في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: آية ٤] ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النمل: آية ٧٤] ونحو ذلك من الآيات.

الأساس الثاني ـ: هو أيها الإخوان إذا حققتم هذا الأصل الأعظم الذي هو التنزيه، فالأصل الثاني ـ: هو الإيمان بما جاء عن الله في كتابه المنزل، والإيمان بما جاء عن رسول الله ﷺ في سنته الصحيحة إيماناً مبنياً على أساس ذلك التنزيه؛ لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: آية ١٤٠] ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: الآيتان ٣، ٤].

هذان الأساسان العظيمان الذي هما: تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة خلقه.

والثاني: تصديق الله والإيمان بما مدح به نفسه إيماناً مبنياً على أساس التنزيه.

وهذان الأصلان العظيمان أيها الإخوان لم أقلهما لكم من تلقاء نفسي لا، لا، وكلا، وإنما بينتهما لكم على ضوء هذا الوحي المحكم المنزل الذي هو نور الله وهداه. وإيضاح ذلك: أن الله أوضح هذين الأساسين وارتباط أحدهما بالآخر في غاية الإيضاح في أوجز عبارة وأتمها وأكملها، وذلك بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١] فنؤمل ـ أيها الإخوان ـ أن تتأملوا في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وتربطوا أول الآية بآخرها، وآخرها بأولها

لتهتدوا كما ينبغي، وإيضاح ذلك: أن السمع والبصر ـ ولله المثل الأعلى ـ هما صفتان يتصف بهما ـ من حيث هما سمع وبصر ـ سائر الحيوانات، فجميع الحيوانات تسمع وتبصر، والله (جل وعلا) يسمع ويبصر ـ سبحانه وله المثل الأعلى ـ ولكن لما أراد أن يبين لنا أنه يسمع ويبصر وضع الأساس الأعظم أولًا فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] لأن الأساس لإثبات الصفات هو التنزيه عن المماثلة وعن التشبيه، فوضع التنزيه هو الأساس الأول فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ مبنياً على أساس: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي: سمعاً وبصراً لا يماثلهما سمع مخلوق ولا بصره أبداً ألبتة في حال من الأحوال. فكان أول هذه الآية الكريمة يدل على التنزيه التام من غير تعطيل، وآخرها يدل على الإيمان بالصفات إيماناً حقيقياً من غير تشبيه ولا تمثيل. فعلينا أن نعتقد أولها: وهو التنزيه. ونعتقد آخرها: وهو إثبات الصفات إثباتاً حقيقياً على أساس ذلك التنزيه، فكأن الله يقول لك: يا عبدي، يا عبدي تفهَّم وكن عاقلًا، ولا تذهب بسمعي وبصري إلى سمع المخلوقين وأبصارهم حتى تقول: هذه الصفة توهم غير اللائق فيجب تأويلها والإتيان بغيرها!! لا، لا، لا يا عبدي، بل لاحظ أولًا أن صفتي في غاية الكمال والجلال والتنزيه عن مشابهة صفات المخلوقين ليمكنك على ذلك الأساس أن تؤمن بها إيماناً مبنياً على أساس التنزيه، كما بينت لك في قولي: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قولي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] هذا أيها الإخوان بيان واضح لا لبس فيه.

الأساس الثالث: هو أن تعلموا ـ أيها الإخوان ـ أن العقول البشرية مخلوقة، وأنها واقفة عند حدها، وأنها متقاصرة عن إدراك الإحاطات والكيفيات بصفاته (جل وعلا)، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ [طه: آية ١١٠] فنفى إحاطة العلم البشري نفياً باتاً عنه (جل وعلا) لأن الخلق مخلوق، والخالق (جل وعلا) أعظم شأناً من أن يحيط به خلقه.

هذه الأسس الثلاثة ـ أيها الإخوان ـ من لقي منكم الله وهو عليها لقيه

على هدىً ونور من ربه، وعلى عمل بالقرآن. ومن حاد عنها تخبط في ظلام لا يدري في أي وقت يخرج منه. وأنا أقول لكم: إن هذه اللحظات من الأيام والليالي سائرة بنا إلى المحشر سيراً حثيثاً، كصاحب السفينة يكون نائماً في مُتكئه في البحر يظن أن السفينة واقفة وهي تقطع فيه المسافات العظيمة في الدقائق والثواني!! فنحن تسير بنا الأيام والليالي إلى ربنا (جل وعلا)، وعن قريب سينكشف لكم الغيب، ونكون جميعاً في صعيد واحد أمام رب العالمين (جل وعلا) والله قد يسألكم عن كل شيء كما قال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: آية ٦] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: الآيتان ٩٢، ٩٣] ويوشك أن يسألكم الله عن ماذا كنتم تقولون فيما مدح به نفسه من صفات الكمال، كاستوائه على عرشه، وكصفة اليد والأصابع، وغير ذلك من الصفات التي أثنىٰ الله بها على نفسه، وكالتي في قوله هنا: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٩٩﴾ [الأعراف: آية ٩٩] فإذا قال لكم رب العالمين: ماذا كان موقفكم في دار الدنيا من صفاتي التي مدحت بها نفسي، وأثنىٰ علي بها رسولي ﷺ، وبلَّغكم إياها عني في كتابي وسنة رسولي، هل كنتم تصدقونني، وتؤمنون بي، أو كنتم تنفون صفاتي وتكذبونني وتكذبون رسولي؟! فلا يخفى على أحد منكم ـ على طريق الإنصاف ـ أنه إن كان جوابه لربه في هذا التعليم الذي علمناكم في نور القرآن أنه تعليمٌ صاحبهُ ناج من هذه المشكلات، ولا تأتيه بليّة، بل إنك إن قلت لله: أما أنا فكنت في دار الدنيا أنزه صفاتك عن صفات المخلوقين، وأعتقد اعتقاداً جازماً أنك لا يماثلك ولا يشابهك شيء من خلقك، لا في ذاتك، ولا في صفاتك، ولا في أفعالك. فهذا الجواب لا شك أنه لا يسبب لك بلية، ولا مشكلة من الله ولا لوماً، ولا تقريعاً، ووالله لا يقول لك الله موبخاً: لم كنت تنزهني عن مشابهة صفات خلقي؟ لا، لا والله.

ثم إنك إذا قلت: أنا كنت أؤمن بصفاتك، وأصدقك بما تمدح به نفسك، وأصدق رسولك، ولا أكذبه فيما كان يثني به عليك من الصفات،

ولكن ذلك الإيمان والتصديق مبني على أساس تنزيهك وتعظيمك وإجلالك عن مشابهة صفات الخلق. والله لا يقول لك الله: لم كنت تصدقني في دار الدنيا، وتصدق رسلي، ولم لا تكذبني وتنفي صفاتي؟ لا، لا. هذا طريق سلامة محقق لا شك فيه. ولا يقول لك الله في الثالث: لم كنت[1] تدعي أن عقلك لا يحيط بصفاتي، ولا بكنهها؟؟ فهذه طرق حق واضحة، وعمل بنور القرآن، معلوم أنها ليس وراءها تبعة ولا بلايا ولا مشكلة؛ لأنها خروج من مأزق عظيم في ضوء نور كتاب الله (جل وعلا)، وهو المخرج من كل بلية، والمنقذ من جميع أنواع الضلال. واعلموا ـ أيها الإخوان ـ أن كثيراً من أجلاء المتعلمين من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من النظار ـ بعد أن نشأ علم الكلام ـ غلطوا غلطاً شديداً في هذه المسألة على كثرتهم وقوة علمهم وفهمهم، وهم كما قال الإمام الشافعي (رحمه الله) ـ قصدهم حسن، ولا يريدون سوءاً ولا يريدون إلا تعظيم الله وتنزيهه، ولكنهم غلطوا في طريق ذلك، وأخذوا غير الطريق الصواب فغلطوا، فهم كما قال الإمام الشافعي رحمه الله[2] ـ:

رَامَ نَفْعاً فَضَرّ من غير قَصْدِ ومن البرِ ما يكونُ عُقُوقَا

وسنضرب لكم مثلًا في صفة من الصفات كصفة الاستواء مثلًا، هذه من الصفات التي اشتهر غلط كثير من الطوائف فيها من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من أنواع الطوائف. فمعلوم أن الاستواء هو صفة من صفات الله الذي أثنىٰ الله بها على نفسه في سبع آيات من كتابه، وما ذكرها، مادحاً بها نفسه إلا مقرونة بأنواع من صفات الكمال والجلال تبهر العقول بعِظمها، فالسلفي إذا سمع الله يمدح نفسه بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: آية ٢] امتلأ قلبه من الإجلال والتعظيم والإكبار لصفة الاستواء، واعتقد اعتقاداً جازماً أنها منزهة كل التنزيه، مقدسة كل التقديس عن مشابهة استواء المخلوقين بجميع أنواعه، فكانت أرض قلبه طيبة طاهرة،

---

(١) في الأصل: «كنت لا تدعي».

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٤٨) من سورة الأنعام.

وعلى أساس هذا التنزيه العظيم وتنزيل صفات الله بما يليق بالله سهُل عليه أن يؤمن بها إيماناً مبنياً على أساس ذلك التنزيه على غِرار: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١] لأن الاستواء ليس أوغل في صفات المخلوقين من السمع والبصر، فيكون هذا السلفي أولاً: منزهاً صفة الله عن مشابهة صفات المخلوقين. وثانياً: مؤمناً بها على أساس ذلك التنزيه في ضوء: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ عالماً بأنه عاجز عن إدراك الكيفية والإحاطة بالكلّ، فهو مُنَزِّه أولًا، مؤمنٌ مصدق ثانياً على أساس التنزيه، واقف عند حدّه وعلمه، فلا يأتيه خطر، ولا يحول حوله غلط.

أما من غلط من النُظّار ـ مثلًا ـ فإن بلية الغلط جاءته أولًا من تفسير صفات الله بما لا يليق بالله، فصار مبتدئاً بنوع من التشبيه، فجاءته القلاقل والبلابل من التشبيه؛ لأن أقذر قذر عرفه الإنسان: هو تشبيه خالق السماوات والأرض بخلقه ـ سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ـ فيقول مثلًا: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: آية ٥] الاستواء: معناه الانتصاب المعروف كانتصاب المخلوقين، وهذا مستحيل في حق الله!! فجاءته البلية من أنه حمل استواء الله على مشابهة استواء الخلق، وهذا رأس الغلط ومنشأ البلية، وليس له فيه حق، كان حقه أن ينزه استواء الله، ويعلم أنه صفة الخالق، والخلق صنعة، فصفة الصانع لا تشبه صفة صنعته، وأنها صفة كمال وجلال منزهة عن جميع أنواع التشبيه. فلما حصل في ذهنه التشبيه أولاً وقع في بلايا لا يقصدها، وشر عظيم لا يريد الوقوع فيه، كما قلنا:

رَامَ نَفْعاً فَضَرّ من غير قَصْدِ ومن البر ما يكونُ عُقُوقَا[1]

فيقول أولًا: الاستواء معناه: انتصاب المخلوق هذا الانتصاب المعروف، وهذا لا يليق بالله. فكان مبتدأ قضيته بتشبيه صفة الله التي مدح بها نفسه بصفة الخلق، وهذا منشأ الغلط وسبب البلية، فلما وقع في ذهنه شيء من أنجاس التشبيه، وأقذار تشبيه الخالق بخلقه سبَّب له بليّة عظمى،

---

(١) مضى قريباً.

ومشكلة كبرىٰ، قال: إذاً لما كان الاستواء غير لائق بالله لا بد أن ننفيه ونؤوله بغيره من صفة لائقة، فقال: إذاً معنى الاستواء: الاستيلاء. والعرب تطلق (استوى) ـ كما يزعم ـ وتريد (استولى) ويستدل ببيت الرجز المشهور[1]:

قد استوىٰ بِشْرٌ على العراقِ   من غيرِ سيفٍ ودمٍ مهْراقِ

يقول: «قد استوى بشر» معناه: قد استولى، وإذاً: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: آية ٢] ثم استولى على العرش. وهذا ـ أيها الإخوان ـ غلط فاحش، وإن قال به من قال به، واعتقده من اعتقده، إلا أن المسلم يجب عليه الإنصاف والنظر في آيات الله، ولا سيما في صفات خالق السماوات والأرض، فليحذر من التعصب. وأنا أوضح لكم هذا غاية الإيضاح: فنحن مثلاً لو قلنا لمن قال: استوى معناه: استولىٰ. و«قد استوىٰ بشر على العراق». قلنا له: أيها الإنسان أما تخاف الله؟!! أما تستحي من الله؟ في أي مسوِّغ من كتاب أو سنة، أو أي نقل أو عقل سوَّغت لنفسك أن تُشَبِّه استيلاء الله على عرشه ـ الذي زعمت ـ باستيلاء بشر بن مروان على العراق؟! هل يعقل في الدنيا تشبيه أخس وأنتن وأوضع من تشبيه استيلاء الله على عرشه باستيلاء بشر بن مروان على العراق؟! هذا أخسّ تشبيه عرفه التاريخ وأدناه/ وأسفهه وأسحقه، فمن أين سوّغت لنفسك تشبيه العرش بالعراق، وتشبيه الله ببشر بن مروان؟! ومن بشر بن مروان حتى تشبه استيلاء الله باستيلائه على العراق؟! وما هو العراق حتى تشبهه بالعرش؟! فأنت أعظم المشبهين نصيباً في التشبيه، وأكثرهم تشبيهاً، وهذا الباب الذي فتحت، فتحت فيه عن بحور من أنواع التشبيه لا سواحل لها؛ لأنك كنت مشبهاً استيلاء الله على عرشه ـ الذي زعمت ـ بكل مخلوق قهر مخلوقاً فغلبه فاستولى عليه، صرت تشبّه استيلاء الله باستيلاء كل مخلوق قهر مخلوقاً فغلبه فاستولى عليه!! وهذا تحته من بحور التشبيه بحور لا سواحل لها. وهذا لا ينبغي أيها الإخوان.

١٥/أ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأنعام.

ولا شك أن هذا الذي حمل الاستواء على محمل غير لائق، ثم اضطره ذلك إلى أن نفى الاستواء، وجاء بدله بالاستيلاء، هو مضطر أن ينزه أحد اثنين: إما أن ينزه الاستواء الذي نص الله عليه أولاً، أو ينزه الاستيلاء الذي فسره به. فنقول: الاستيلاء الذي ذكرت استيلاء منزه عن استيلاء المخلوقين، وكيف ينزه عن استيلاء المخلوقين وأنت تسميه استيلاء بشر بن مروان على العراق؟ أليس بشر بن مروان من المخلوقين؟ واستيلاؤه من استيلاء المخلوقين؟ ولكن نحن نقول: هب أنك تقول: إنك لا بد أن تنزه أحدهما فهو الاستواء الذي نص الله عليه في كتابه، أو الاستيلاء الذي جئت به من قِبَل نفسك. ونحن نقول: أيهما أحق بالتنزيه؟ الاستواء الذي نص الله عليه في كتابه، وأنزل به ملكاً من فوق سبع سماوات قرآناً يُتلىٰ بكل حرف منه عشر حسنات، وهو قرآن يتلى، أهذا أحق بأن ينزه أم آلاستيلاء الذي جاء به قوم غير مستند لآية من كتاب الله، ولا حديث من سنة رسول الله، ولا لغة صحيحة معروفة من لغة العرب؟! الجواب: آلاستواء أحق بالتنزيه؛ لأنه كلام رب العالمين، وصفات رب العالمين أحق بالتنزيه كما بيناه في الأساس الأول في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١] فعلينا ـ أيها الإخوان ـ أن لا نمشي مع من تكلم في آيات الصفات بما لا يليق بالله، وحَمَلَها على محامل غير طيبة وغير لائقة ثم نفاها على ذلك الأساس، كل هذا لا ينبغي لنا، والذي ينبغي لنا أن نجزم ونعتقد أن الوصف الذي مدح الله به نفسه أنه بالغ من غايات الكمال والجلال ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فهو في غاية التنزيه وغاية القداسة والكمال والجلال والتباعد عن شبه صفات الخلق، وعلى هذا الأساس الكريم نؤمن بتلك الصفة على أساس قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ هذا هو الذي ينبغي لنا، ومن مات منا عليه مات على طريق واضحة لا لبس فيها ولا إشكال. مات غير مشبِّه ربه بأحد، ولا بقلبه قذر من أنجاس التشبيه، ولا في قلبه تعطيل، ولا جحود بشيء من الصفات، ولا بليّة من البلايا.

فنحن في هذه السور الماضية في تفسير آي هذا القرآن ـ المرة الأولى والثانية التي نحن فيها ـ بالغنا في بيان هذا جداً، ومراراً نذكر مذاهب المتكلمين في الصفات، وما يسمون به كل صفة منها، وتقاسيمهم لها، ونبين أنها جميعها جاءت في كتاب الله موصوفاً بها الخلق من جهة، وموصوفاً بها الخالق من جهة، وأن صفة الخالق حق، وهي لائقة بالخالق، وصفة المخلوق حق، وهي لائقة بالمخلوق، وبين صفة الخالق والمخلوق من المنافاة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق، كررنا هذا مراراً(١).

وسأضرب لكم منه بعض الأمثال الآن للتذكار والفائدة: لا يخفى عليكم أن من تقاسيم المتكلمين للصفات ـ في العلم المعروف بعلم الكلام ـ أنهم يقسمون الصفات إلى صفة معنى، وما يسمونه: صفة معنوية، وما يسمونه: صفة سلب، وما يسمونه: صفة جامعة، وما يسمونه: صفة فعل، كما هو معروف عندهم.

فمن صفات المعاني عندهم ـ وهي الصفات في اصطلاحهم الدالة على معاني وجودية قائمة بالذات زائدة على الذات، وهؤلاء الذين يؤولون الصفات ينكرون جميع المعاني الثابتة في كتاب الله وسنة رسوله إلا سبعاً منها ـ وهي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام. وينفون غيرها من المعاني الثابتة. وهذا غلط لا شك فيه؛ لأن جميع الصفات من باب واحد، فنحن أولًا نقول في صفات المعاني: إن الله وصف نفسه بالقدرة فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: آية ١٤٨] ووصف بعض خلقه بالقدرة فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: آية ٣٤] ونحن نعلم أن الله في كتابه صادق في وصف نفسه بالقدرة، وصادق في وصف بعض خلقه بالقدرة، وأن لله قدرة حقيقية لائقة بكماله وجلاله، وللمخلوق أيضاً قدرة مناسبة لحاله وعجزه وافتقاره والفناء، وبين القدرة والقدرة من المنافاة كمثل ما بين الذات والذات، فنثبت قدرة الخالق لائقة بالخالق، منزهة عن مشابهة قدرة المخلوق، ونثبت قدرة

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٧) من سورة الأنعام.

المخلوق منحطّة لائقة بالمخلوق، منحطّة عن مشابهة قدرة الخالق.

ووصف (جل وعلا) نفسه بالسمع والبصر فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: آية ١] ووصف بعض خلقه بذلك فقال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: آية ٢٨] ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: آية ٢] ونحن ـ أيها الإخوان ـ لا نشك في أن الله صادق في كتابه أن الله سميع بصير، وأن بعض خلقه سميع بصير، إلا أنّا نعلم أن سمع الله وبصره لائقان بكماله وجلاله، منزهان عن مشابهة سمع المخلوق وبصره، وأن سمع المخلوق وبصره ثابتان له حقاً ثبوتاً لائقاً به، متقهقراً منحطّاً عن مشابهة صفة الخالق جل وعلا.

وقد وصف الله نفسه بالحياة فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: آية ٢٥٥] ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: آية ٥٨] ووصف بعض خلقه بالحياة فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: آية ٣٠] ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم: آية ١٩] ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ [مريم: آية ١٥] ونحن لا نشك أن الله صادق في وصفه نفسه بالحياة، وصادق في وصفه خلقه بكتابه بالحياة، ونعتقد أن لله حياة حقيقية لائقة بكماله وجلاله، منزهة عن مشابهة صفات المخلوقين، كما أن للمخلوقين حياة حقيقية لائقة بحالهم، متقهقرة منحطّة عن مشابهة صفة خالق السماوات والأرض (جل وعلا) كانحطاط ذواتهم عن ذاته (جل وعلا).

وقد وصف (جل وعلا) نفسه بالعلم فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: آية ٧٥] ووصف بعض خلقه بالعلم فقال: ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: آية ٥٣] ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: آية ٦٨] فنحن لا نشك أن الله صادق في وصفه ـ في كتابه ـ نفسه بالعلم، وصادق في وصفه بعض خلقه بالعلم، إلا أن صفة الله لائقة بالله، وصفة المخلوق مناسبة للمخلوق، وبينهما من المنافاة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق كما لا يخفى.

وقد وصف (جل وعلا) نفسه بالكلام قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: آية ١٦٤] ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: آية ١٤٤] ﴿فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٦] ووصف بعض خلقه بالكلام فقال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف: آية ٥٤] ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [يس: آية ٦٥] إلى غير ذلك، ونحن نجزم بأن لله كلاماً حقاً لائقاً بكماله وجلاله، وللمخلوق كلام أيضاً مناسب لحاله، وبين هذا وهذا كما بين ذات الخالق وذات المخلوق كما لا يخفى. إلى غير هذا من صفات المعاني.

وكذلك ما يسمونه: (صفات السلوب) والسلبية عندهم هي ما يسمونه: القِدم، والبقاء، والمخالفة للخلق، والغنى المطلق الذي يعبرون عنه بالقيام بالنفس، والوحدانية. هذه هي صفات السلوب المعروفة عندهم. وقد جاء في القرآن وصف الخالق والمخلوق بها على نحو ما ذكرنا، فما يسمونه: القِدم والبقاء ويزعمون أن الله وصف بهما نفسه في قوله: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ [الحديد: آية ٣] قد جاء وصف الله نفسه بهما، وهو أعني الأولية والآخرية حيث قال: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ ووصف المخلوقين بالأولية والآخرية قال: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٧﴾ [المرسلات: الآيتان ١٦، ١٧] ووصف الخلائق بالبقاء فقال: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ [النحل: آية ٩٦] فوصف ما عند الله من بعض مخلوقاته بأنه باق وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ٧٧﴾ [الصافات: آية ٧٧] ووصف بعض المخلوقين بالقِدَم في قوله: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [يوسف: آية ٩٥] ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ [يس: آية ٣٩].

واعلموا أن جماعة من السلف أنكروا وصف الله بالقِدَم وقالوا: إنه من مبتدعات المتكلمين، ولا يجوز وصف الله بالقِدَم؛ لأن القِدَم في لغة العرب التي نزل بها القرآن هو تقادم زمن الشيء قديماً مع كونه مسبوقاً بعدم. وبعض العلماء خالف في هذا وقال: عُرف في الشرع إطلاق القِدم على ما يطلقه عليه المتكلمون؛ لأن القِدَم في اصطلاح المتكلمين هو عبارة عن كل

ما لا أول له بشرط أن يكون وجودياً، فالقِدَم عند المتكلمين أخف مما يسمونه (الأزل)؛ لأن الأزل في اصطلاحهم هو كل شيء لا أول له، سواء كان وجودياً كذات الله ـ جل وعلا ـ متصفة بصفات الكمال والجلال؛ لأن وجود ذاته الكريمة متصفة بصفاتها الكريمة لا أول له، فهي عندهم يُقال له: (أزلي) ويُقال له: (قديم) في اصطلاحهم، أما المعدوم فلا يقال له قديم عندهم، وإنما يُقال له: أزلي. فكل ما لا أول له من الأعدام فهو أزلي عندهم، ولا يُسمى قديماً كأعدام ما سوى الله، فنحن هؤلاء الموجودون هنا قبل أن نولد كنا معدومين، وعدمنا السابق لا أول له، فأعدامنا أزلية؛ لأنها لا أول لها، ولا نقول: إنها قديمة.

والأظهر أنه جاء ببعض الأحاديث عن النبي ﷺ ما يدل على أن إطلاق المتكلمين للقِدَم على ما لا أول له من الموجود أن له أصلًا، وأنه لا ينبغي أن يُنكر، وقد جاء في سنن أبي داود في دخول المسجد: «**أعوذ بالله العظيم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم**»[(١)] فأطلق اسم القِدَم على سلطان الله، ومعلوم أنه لا يريد بقِدم سلطان الله شيئاً سبقه عدم، فقد أخرج الحاكم في المستدرك في بعض الطرق التي يزعم أنها صحيحة أن القديم من أسمائه (جل وعلا)[(٢)] والله (جل وعلا) أعلم[(٣)].

---

(١) أبو داود في الصلاة، باب ما يقول الرجل عند دخوله المسجد. حديث رقم (٤٦٢)، (١٣٢/٢)، والبيهقي في الدعوات الكبير، حديث رقم (٦٨).

قال الحافظ في نتائج الأفكار (٢٨١/١): «حسن غريب، ورجاله موثقون، وهم رجال الصحيح إلا إسماعيل وعقبة» ا.هـ. وقال النووي في الأذكار ص٤٦: «حديث حسن، رواه أبو دواد بإسناد جيد» ا.هـ. وانظر: صحيح أبي داود ص٤٤١، صحيح الجامع (٤٥٩١).

(٢) وذلك في الزيادة على حديث الصحيحين: «إن لله تسعة وتسعين اسماً». وهي الزيادة المعروفة التي فيها ذكر الأسماء. وهي زيادة لا تصح، وقد أخرجها الحاكم من طريقين، وجاء اسم (القديم) في إحدى روايتي الحديث عنده. وعقَّب هذه الرواية بقوله: «وعبدالعزيز بن الحصين بن الترجمان ثقة وإن لم يخرجاه، وإنما جعلته شاهداً للحديث الأول» ا.هـ. (المستدرك ١٧/١). وسيأتي تخريجه عند تفسير الآية (١٨٠) من سورة الأعراف.

(٣) انظر: الفتاوى (٢٤٥/١)، لوامع الأنوار (٣٨/١)، (تعليق البابطين رحمه الله)، شرح الطحاوية ص٥٧ ـ ٥٨، كتاب مناهل العرفان دراسة وتقويم ص٢١٢، ٧٢٥.

فالحاصل أن جميع أنواع أقسام الصفات التي يذكرها المتكلمون جاء في القرآن وصف الخالق والمخلوق بها، والكل منهما حق، وهذا لائق بموصوفه، وهذا لائق بموصوفه، وبينهما من الفرق كما بينّا.

ومن أكبر ذلك: الصفات التي يسمونها: (الصفات الجامعة) التي تدل على العظمة واستلزامها لجميع الصفات، كالكِبَر، والعِظَم، والعلو، والملك، وما جرى مجرى ذلك، فقد وصف (جل وعلا) نفسه بأنه عَلَيّ عظيم قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: آية ٢٥٥] ووصف بعض خلقه بالعلو فقال: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: آية ٥٧] ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: آية ٥٥] ووصف بعض خلقه بالعِظَم فقال: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: آية ٦٣] ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: آية ٤٠].

وصف نفسه بالمُلك فقال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾ [الجمعة: آية ١] ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: آية ٢٣] وقد وصف [بعض خلقه](١) بالملك ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ [يوسف: آية ٥٤] ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: آية ٢٦] إلى غير ذلك من الآيات.

ووصف (جل وعلا) نفسه بالكِبَر فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: آية ٣٤] ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: آية ١٠] ووصف بعض خلقه بالكِبَر فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: آية ٧] ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٣١] ونحو ذلك من الآيات.

وكذلك الصفات التي هي من صفات المعاني على التحقيق، والمؤولون من الكلاميين يزعمون أنها من صفات الأفعال، وهي صفات معنى لا شك فيها، كالرأفة، والرحمة، وما جرى مجرى ذلك. فإن الله وصف بها نفسه قال: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: آية ٤٧] ووصف بها بعض خلقه فقال في صفة نبينا (صلوات الله وسلامه عليه): ﴿لَقَدْ

---

(١) في الأصل: «نفسه». وهو سبق لسان.

جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: آية ١٢٨].

وصف نفسه بالحلم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: آية ٥٩] ووصف بعض خلقه بالحلم ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: آية ١٠١] ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: آية ١١٤] ونحو ذلك من الآيات.

وكذلك صفات الأفعال وصف نفسه بها ووصف خلقه بها، وصف نفسه بأنه المعلّم قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ [الرحمن: الآيتان ١، ٢] ووصف مخلوقه بأنه يعلّم، وجمع الوصفين في قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: آية ٤].

ووصف نفسه بأنه المُنبىء قال: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: آية ٣].

ولو تتبعنا هذا لأطلنا فيه الكلام، فحاصل هذا أن جميع الصفات التي يذكرها علم الكلام جاء بالقرآن العظيم وصف الخالق بها ووصف المخلوق، فيجب علينا أن نتمشىٰ مع القرآن، ونسلك طريق الحق الواضح الذي لا تبعة فيه، ولا غرر فيه، ولا سخط من رب السماوات والأرض يستوجبه، فنضع كل شيء في موضعه، فنثبت للخالق صفته على وجه الكمال والجلال وغاية التنزيه عن مشابهة الخلق، ونثبت للمخلوق صفته على الوجه الملائم للمخلوق، المناسب للمخلوق، المتواضع المنحط المتسافل عن صفة الخالق (جل وعلا)، ونعلم أن كلّا حقٌ في موضعه، وأنه لا مناسبة بين صفة الخالق والمخلوق حتى نشبهها بها، أما الذهاب بصفة الخالق إلى صفة المخلوق فهذا غلط لم يقله أحد من السلف الصالح، وهو غلط حدث من مقالات الكلام؛ لأنه لما دخل علم الكلام وصارت الناس تُحكم العقول، ولو كان كذا لكان كذا، وتُجري العقائد على الأقيسة المنطقية جاءت البلايا؛ لأن كلّا يظن صحة الربط بين هذا اللازم والملزوم فينتج منهما قضية، ويكون الربط بينهما منفكاً فيأتي الآخر ويبين انفكاك الربط بينهما، وصارت مقالات وطوائف كل منهما تكذّب الأخرىٰ، وتُقيم الدليل والبرهان العقلي في زعمها على أن الحق معها والغلط مع غيرها.

ونحن نقول: إن الفصل في كل شيء هو هذا المحكم المنزل، والنور الذي أنزله رب العالمين على لسان سيد الخلق ﷺ، فهو الذي يوضح الحقائق، ويكشف ظلمات الجهل، ويبين الحقيقة ناصعة واضحة على وجهها الأكمل، وقد بين لنا الطريق المثلى، والمعتقد الصواب الذي لا شك فيه، وهو أنّا ننزه ربنا عن مشابهة صفات الخلق، ونؤمن بماوصف به نفسه، ونصدقه على أساس ذلك التنزيه، ونقف عند حدنا، ونعرف قدرنا وقدر عقولنا، ولا نتجاوز حدنا. هذه طريق القرآن، وهي طريق مأمونة لا غائلة وراءها ولا عاقبة سيئة، وعلى هذا فقوله جل وعلا: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: آية ٩٩] نقول: هذه صفة مدح الله بها نفسه، وهذا الذي أثنى به على نفسه فهو لا شك أنه في غاية اللياقة والكمال والجلال، والسلامة من النقص والمباعدة عن مشابهة مكر المخلوقين وصفاتهم، فنثبته ونصدق الله بما وصف به نفسه منزهين ربنا غاية التنزيه، معترفين بالقصور والوقوف عند حدنا كما بين في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١] وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: آية ١١٠] وقد بينا أن بعض مكر المخلوقين ـ ولله المثل الأعلى ـ قد يكون في غاية الاستحسان عند الناس، كما بينا أنه لو كان الرجل في غاية الشر وعِظَم الأذية على العامة، يقتلُ هذا، ويسبي هذا، ويأخذ مال هذا، ويظلم هذا، والناس عاجزون عنه، حتى جاءه رجل عظيم معروف بالفضل والمروءة والخير واحتال عليه بطرق خفيّة حتى قدر على قتله وأراح المسلمين منه، فكل الناس يقولون: إن كيدك هذا لفي غاية الكمال، وفي غاية الحسن، وفي غاية اللياقة والقبول عند عقول المخلوقين. هذا في كيد مخلوق، فما ظنك ـ ولله المثل الأعلى ـ بخالق السماوات والأرض ـ جل وعلا ـ.

يقول الله جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف: آية ١٠٠].

قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ قال جمهور علماء

التفسير: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ معناه: أولم يُبيِّن للذين؟ ف (هدى) تستعمل في معنى (بيّن) ومنها هذه كما رُوي عن غير واحد من علماء التفسير من الصحابة فمن بعدهم. فمن إطلاق (هدىٰ) بمعنىٰ (بيّن): قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت: آية ١٧] أي: بينّا لهم على لسان نبينا صالح. فهو هداية بيان لا هداية توفيق، بدليل قوله بعده: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ الآية. ومن إطلاق (هدىٰ) بمعنى البيان والإرشاد: قوله تعالى في الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: آية ٣] أي: بينّا له السبيل. وليست هداية توفيق، بدليل قوله بعده: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ وهذا معنى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٠٠] أَوَ لَم يُبَيِّن للذين ﴿يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ اعلموا أولاً أن هذه الآية الكريمة من الآيات التي تشكل على كثير من المنتسبين للعلم، ويتبين معناها ببيان إعرابها وإيضاح موضع الفاعل والمفعول منها، وفي ذلك ثلاثة أوجه معروفة لا يُكذب بعضها بعضاً[١]:

الأول: أن الفاعل لقوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ ضمير عائد إلى الله ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ هو، أي الله. أي: يبين هو، أي: الله ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ وعلى هذا فالمفعول في محل المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ والمعنى: ألم يبين لهم الله أنه لو شاء إصابتهم بذنوبهم لأصابهم بها ـ وكون الفاعل هنا ضميراً يعود إلى الله تدل عليه قراءة بعض السلف: ﴿أَوَلَمْ نَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ﴾ بالنون[٢]، فهي وإن كانت غير سبعية إلا أنها قرأ بها بعض السلف، وهي تفيد في التفسير. وعلى هذا المعنىٰ أن الله بين لهؤلاء الأمم الذين أورثهم الله في الأرض بعد أن أهلك أهلها، بيّن لهم بإهلاك الظالمين المكذبين للرسل واستخلافهم بعدهم، بيّن لهم بهذا إصابته لهم بذنوبهم لو شاء أن يصيبهم بها كما أصاب من قبلهم، وهذا وجه لا إشكال فيه.

---

(١) انظر: الدر المصون (٣٩٣/٥).

(٢) انظر: البحر المحيط (٣٤٩/٤، ٣٥٠)، الدر المصون (٣٩٣/٥).

الوجه الثاني: أن الفاعل في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ﴾ ضمير عائد على ما كان يُذكر من قصص الأمم الماضية، والمعنى: ألم يبين قصص الأمم الماضية من إهلاك الله لها لما كذبت رسلها ألم يبين ذلك للذين يرثون الأرض أن الله قادر على إهلاكهم بذنوبهم كما أهلك من كان قبلهم لما كفروا وكذبوا رسله؟ وعلى هذين الوجهين فالمصدر المنسبك من (أن) المخففة من الثقيلة وصلتها في محل نصب على المفعول به.

الوجه الثالث: أن مفعول (يهد) محذوف، وفاعلها هو المصدر المنسبك من (أن) وصلتها، والمعنى: أولم يبين للذين يرثون الأرض إصابتُنا الأمم الماضية وإهلاكنا إياهم ألم يبين لهم ذلك أنَّا لو شئنا لأهلكناهم؟ أولم يبين لهم ذلك وخامة عاقبة أمر من عصى الله؟

وهذا هو حاصل معنى كلام العلماء في هذه الآية، يدور على أن الله (جل وعلا) أهلك الأمم الماضية التي كذبت الرسل كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وبيّن أن ذلك يدل على أن من أهلكهم بذنوبهم لو شاء لأهلك من جاء بعدهم بذنوبهم كما أهلك الأولين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: الآيات ١٦ ـ ١٨] وهذا معنى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٠٠] معنى: ﴿يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ يخلفون أهلها الذين هلكوا ويسكنون أرضهم بعدهم؛ لأن هؤلاء الجيل يبيدهم الله فيموتوا فيسكن مواطنهم قوم آخرون، فذلك معنى إيراثهم الأرض بعدهم. فالإرث هنا معناه: انتقال شيء كان عند أحد إلى أحد آخر، ولو لم يكن على سبيل الإرث المعروف؛ لأن العرب تطلق في لغتها الإرث على مجرد الانتقال من ميت إلى حيّ كما هو معروف. وهذا معنى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٠٠] أي: الذين كانوا يسكنونها ودمرهم الله.

﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ﴾ (أن) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن كما هو معروف في محله، وخبرها جملة: ﴿لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أنه أي: الأمر والشأن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم.

اعلموا أن المقرر في علوم العربية أن فعل المشيئة إن اقترن بأداة الشرط فإن مفعوله يُحذف لدلالة جزاء الشرط عليه، وتقدير المفعول المحذوف هنا: أن لو نشاء إصابتهم بذنوبهم أصبناهم بذنوبهم. فحذف المفعول لدلالة جزاء الشرط عليه، وربما أُظهر نادراً كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ﴾ [الأنبياء: آية ١٧] الأغلب أن يُقال: لو أردنا لاتخذنا لهواً، ولكنه هنا ذكر مفعول الإرادة مع جزاء الشرط، وذلك يوجد في كلام العرب في بعض الحِكم، ومنه قول الشاعر[1]:

ولو شئتُ أن أبكي دماً لبكيتُه   عليك ولكن ساحةُ الصبرِ أوْسَعُ

هذا معنى قوله: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأعراف: آية ١٠٠].

قرأ هذا الحرف جماهير القراء غير نافع، وابن كثير، وأبي عمرو: ﴿لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ بتحقيق الهمزتين. وقرأه نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: ﴿أن لو نشاءُ وَصَبْنَاهُم﴾ بإبدال الهمزة الثانية واواً[2]، وهما قراءتان سبعيتان صحيحتان ولغتان معروفتان فصيحتان. وصيغة الجمع في قوله: ﴿نَشَآءُ﴾ وفي قوله: ﴿أَصَبْنَـٰهُم﴾ كِلتاهما للتعظيم. وقوله: ﴿أَصَبْنَـٰهُم﴾ أي: بالعذاب، أصبناهم بالعذاب والإهلاك بسبب ذنوبهم، والذنوب: جمع ذنب، والذنب معروف. أهلكناهم بسبب ذنوبهم ككفرهم ومعاصيهم، وهذا معنى قوله: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

وأقرب الأقوال وأصحها في قوله: ﴿وَنَطْبَعُ﴾ أنها جملة مستأنفة على التحقيق، أي: ونحن نطبع على قلوبهم. والطبع هنا على القلب معناه الختم عليه والاستيثاق منه حتى لا يصل إليه خير ولا يخرج منه شر، فمعنى (طَبْعُ الله على القلوب) أنه ـ والعياذ بالله ـ يختم على قلب المجرم ويطبع عليه بحيث لا يخرج منه شر ولا يدخل إليه خير، كالقارورة إذا ختمتها وطبعت عليها لا يخرج شيء مما فيها، ولا يصل إليها شيء آخر.

---

(١) البيت لأبي يعقوب الخزيمي، مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: إتحاف فضلاء البشر (٢/٥٥).

وهذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن تصحح عقيدة من عقائد السلف المشهورة التي وقع فيها القيل والقال والخلط الكثير، وذلك لا يخفاكم - أيها الإخوان - أن هذه المسألة التي هي مسألة (الجبر والاختيار والكسب) أنها هي أصعب مسألة في دين الإسلام، وأعقد تخلصاً على العوام؛ لأن الناس انقسمت فيها إلى ثلاث طوائف: طائفة ضلّت في الإفراط، وطائفة ضلت في التفريط، وطائفة خرج من هضمها حقاً صافياً كاللبن يخرج من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين. وهو أفعال العبد؛ لأن أفعال العبد، وقدرة العبد، وإرادته، هي أصعب شبهة وقعت في دين الإسلام وأعسرها تخلصاً. ونحن في بعض المرات نهاب أن نثيرها لئلا يقع منها شيء في قلوب بعض الناس الذين لا يعرفون، فيعسر عليهم التخلص منه، وتارة نستعين بالله ونذكرها ونبينها ليرزق الله الهدى في ذلك وتستنير قلوب من وفقه الله.

اعلموا أولّا أن من يَتَسَمَّون باسم المسلمين من طوائفهم التي هي على الحق والباطل انقسمت في كسب العبد إلى ثلاثة أقسام: فطائفة قالت: إن العبد يخلق أعمال نفسه بلا تأثير لقدرة الله فيها - والعياذ بالله - كالمعتزلة. وهذا المذهب ينصره محمود الزمخشري في تفسيره دائماً، يزعم أن الله لا يريد الشر ولا يخلق الشر، وأن الله أنزه من أن يريد الشر، وأن الشر بمشيئة العبد وإرادته وقدرته من غير تأثير لقدرة الله فيه. وهذا - والعياذ بالله - مذهب باطل باطل، صاحبه يريد أن يسلب الله قدرته - سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً - وهذه الطائفة ضلت في التفريط؛ لأنهم فرطوا في قدرة الله حتى زعموا أنه تقع في ملكه أفعال العبيد من غير قدرته ولا مشيئته!! وهذا تفريط في صفات الخالق (جل وعلا)، فإنه (جل وعلا) لا يمكن أن يقع في خلقه تحريكة ولا تسكينة ولا طرفة عين إلا بمشيئته وإرادته (جل وعلا) وله الحكمة البالغة في كل ما يشاء. وهذا المذهب الذي يقول: إن العبد يخلُق أعمال نفسه بلا تأثير لقدرة الله فيها هو الذي ردّت عليه هذه الآية الكريمة الرد الواضح كما ترون؛ لأن الله إذا بيّن أنه هو الذي طبع على قلبه فمنعه من سماع الحق لحكمة كيف يقول الإنسان إن ذلك

الشر لم يقع بمشيئته (جل وعلا) فهذه الآية وأمثالها تردّ رداً صريحاً على مذهب المعتزلة أقوى رد وأعظمه، فهم ينتحلون شُبهاً وتأويلات كل عاقل يعرف أنها باطلة.

المذهب الثاني: هو مذهب الجبرية، وهؤلاء ضلّوا بالإفراط حيث زعموا أن العبد لا تأثير له ولا فعل له، وأن هذا كله فعل الله، وأن الله لا يعذب العبد بذنب؛ لأن الله هو الذي شاءه وقدّره عليه، وهذا من أخطر الباطل كما ترون.

المذهب الثالث الذي هو الحق: مذهب المسلمين وسلف هذه الأمة وجماعتها: أن العبد خَلَقَ الله له قدرة وإرادة، وله مشيئة وفعل يختار ويفعل ويقدر، إلا أن قدرة الله وإرادته تصرفان قدرة العبد وإرادته إلى ما سبق به العلم الأزلي فيأتيه طائعاً مختاراً.

وهنا سنّة سنتكلم عليها لعل الله ينفع بها، فلنضرب مثلًا: مناظرة للجبريّ ومناظرة للقدري:

أما مناظرة الجبري فانقطاعه فيها قريب، وهي واضحة؛ لأن الجبري لو قال: أنا لا فعل لي، وهذا فعل الله، وأنا لا أُوخذ بشيء من ذلك؛ لأن الله فعل هذا ولا ذنب لي. فإنك لو فقأت عينه، أو ضربته ضرباً مؤلماً، أو قتلت ولده لا يجعل لك القدر حجة، ولا يقول: هذا فعل الله وأنت بريء، لا وكلا، بل يسارع كل المسارعة في ضربك وقذفك والانتقام منك مصرحاً بأن هذا فعلك!! وانقطاعه قريب.

وأما المشكلة القوية فهي مشكلة المعتزلة الذين يزعمون أن العبد يخلق أعمال نفسه بلا تأثير لقدرة الله فيها. وسنبين لكم إن شاء الله الجواب عنها موضحاً من كتاب الله:

اعلموا أولًا أنّا لو فرضنا رجلًا يعتنق هذا المذهب ورجلًا من أهل السنة يتناظران، فقال معتنق هذا المذهب: إن كانت ذنوبي التي أُآخذ عليها بمشيئة الله، ولست مستقلًا بمشيئتي، فمن أي وجه هو يشاء الذنب فيعذبني أنا عليه؟ وأنا غير مستقل المشيئة، إذ لو كنت مستقل المشيئة لما فعلت إلا

ما يرضيه، وقد كتب على البعيد قبل وجوده أنه يرتكب هذا الكفر وهذا الذنب، ولا بد أن يرتكبه؛ لأن علم الله لا يتغير، وما سبق في علمه الأزلي لا بد أن يقع؛ لأن علمه لا يستحيل جهلًا. فيقول: إذا كان الله قدّر عليه - عياذاً بالله - أنه يكفره ويعصيه، ولا قدرة له على التخلص من قدر الله، فبأي ذنب يُؤخذ؟ وأي استقلال له في فعله حتى يؤخذ عليه؟! هذه حجته وأقصىٰ شبهته.

فيقول له السُّنّي: جميع الأسباب التي أعطىٰ الله للمهتدين الذين اهتدوا بسببها أعطاكها جميعها، إلا شيئاً واحداً هو الذي حصل به الفرق، لا حجة لك فيه ألبتة على ربك، فإن هؤلاء الذين اهتدوا، وأطاعوا الله، ودخلوا الجنة، جميع أسباب الهدىٰ التي اهتدوا بها كما أعطاهم الله أعطاك، فالعيون التي أصابوا بها آيات الله، واستدلوا بها على قدرته وعظمته، وأنه الرب المعبود وحده أعطاك عينين مثلها، وكذلك القلوب التي عقلت عن الله، وأدركت وحي الله، وصارت سبباً للإيمان أعطاك مثلها، فجميع أنواع الأسباب التي أعطاها الله للمهتدين أعطاك مثلها. بقي هنالك شيء واحد هو الذي حصل به التفاوت لم يعطكه وهو تفضله بالتوفيق، فقد تفضّل على هؤلاء بالتوفيق، ولم يتفضل عليك بالتوفيق، فمن هنا حيث إنه تفضّل على هؤلاء ولم يتفضل عليك من هنا حصل الفرق بينكما، وتفضله ليس واجباً لك عليه حتى تحتج به عليه. ويوضحه بعض المناظرات، فإن المناظرة المشهورة التي دارت بين أبي إسحاق الإسفراييني وعبدالجبار من كبار المعتزلة توضّح هذا المعنى، وقد بينّاها في هذه الدروس مراراً[(١)]، وذلك أن المعتزلي الكبير المشهور عبدالجبار جاء يتقرب بهذا المذهب الباطل، وناظره أبو إسحاق الإسفراييني وقطعه في جمع بهذه الحجة التي أصلها القرآن كما سنبينه، فجاء عبدالجبار وقال: سبحان من تنزّه عن الفحشاء. يعني أنه تنزه عن أن تكون السرقة والزنى بمشيئته، فيزعم أن الله أنزه وأجل وأعظم من أن تكون السرقة والزنى والضلالة بمشيئته، وقال في هذا: سبحان من تنزّه عن الفحشاء.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

فقال أبو إسحاق: كلمة حق أُريد بها باطل، ثم قال/: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء. ١٥/ب

فقال عبدالجبار: أتراه يشاؤه ويعاقبني عليه؟.

فقال أبو إسحاق: أتراك تفعله جبراً عليه؟ أأنت الرب وهو العبد؟.

فقال عبدالجبار: أرأيت إن دعاني إلى الهدىٰ، وقضىٰ عليّ بالردى، دعاني وسدّ الباب دوني، أتراه أحسن إليّ أم أساء؟!.

فقال أبو إسحاق: أرىٰ أن هذا الذي منعك إن كان حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك وقد أساء، وإن كان ملكه المحض فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل، فبُهت عبدالجبار!! وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب[1].

وهذا الجواب الذي أجاب به أبو إسحاق هو مضمون قوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: آية ١٤٩] حجته البالغة على خلقه هي تفضله بالهدىٰ، فمن شاء أن يتفضل عليه بالهدىٰ فهو فضل منه، ومن لم يتفضل عليه فما ظلمه، وقد أنصفه من جميع النواحي، ومن أعطىٰ فضله ففضل، ومن منعه فعدل كما ذكرنا.

ومما يوضح هذا ما يذكرون عن عمرو بن عبيد[2] ـ وهو من كبار المعتزلة المشهورين المعروفين بالعبادة والنسك ـ أنه جاءه بدوي وقال له: يا شيخ ادعُ الله أن يردَّ عليّ دابتي، سرقوها. فقام عمرو بن عبيد يتقرب بهذا المذهب الباطل، وقال: اللهم إنها سُرقت ولم تُرد سرقتها؛ لأنك أكرم وأنزه وأجلّ من أن تريد هذه القذرة القبيحة. فالبدوي أعرابي جاهل، قال له: ناشدتك الله يا هذا إلا ما كففت عني من دُعائك الخبيث، إن كانت سُرقت ولم يُرد سرقتها، فقد يُريد ردّها ولا تُرد، فربٌّ يقع في ملكه ما لا يشاء لا ثقة لي به. فألقمه حجرا!!

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

والتحقيق في هذا المعنىٰ أن الله خلق للعباد قُدراً وإرادات يقدرون بها ويريدون، والله (جل وعلا) أقام عليهم الحجة من جميع الوجوه، فتفضّل على بعضهم بالتوفيق، ولم يتفضّل على بعضهم، وتفضُّله فضل منه، وعدم تفضّله بملكه المحض عدل منه، فهو (جل وعلا) يصدُر منه إما فضل وإما عدل، وليس هنالك ظلم لأحد. أما المخلوقون فلا شك أن لهم قُدراً وإرادات، وعامّة العقلاء يطبقون علىٰ أن هنالك فرقاً بين حركة اليد الاختيارية والحركة الارتعاشية كحركة [المحموم][1] كما لا يخفىٰ على أحد، وأن الله خلق للعبد قدرة وإرادة، وأقدره بتلك القدرة والإرادة على فعل ما يشاء مما هو في مقدوره، إلا أن قدرة الله وإرادته تصرف قدرة العبد وإرادته إلى ما سبق به العلم الأزلي، فيأتيه العبد طائعاً في غاية الطوع، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: آية ٣٠] فصرح بأن للمخلوقين مشيئة، وأنهم لا يشاؤون إلا ما شاءه الله، والله (جل وعلا) قد علم في أزله ما تستحقه عبيده، فمنهم من هو أهل للخير وفقه للخير، ومنهم من هو أهل للشر وفّقه للشر، كما قال ﷺ لما سأله أصحابه عن هذه الشبهة، قال: «**كل ميسر لما خُلق له**»[2]. والمعنى: أن الله خلقهم وأمرهم وسيوفق كلاً منهم إلى ما سبق له به العلم الأزلي في الكتاب.

وهذا كلام موجز عن قضية الكسب، فعلينا أن نعلم أن الله خلق لنا قُدراً وإرادات نؤاخذ بها، وأنّا نأتي الأفعال طائعين، ولنا قدرة مخلوقة وإرادة مخلوقة كلتاهما خلقها الله بقدرته وإرادته، فربنا يصرف إراداتنا ومشيئاتنا وقُدرنا إلىٰ ما سبق به علمه الأزلي فنأتيه طائعين. نرجو الله (جل وعلا) أن يوفقنا إلىٰ ما يرضيه منّا، ولا يصرف قلوبنا إلا لما يرضيه. وهذا معنى قوله: ﴿وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٠٠].

اعلموا أن السمع في القرآن وفي اللغة يُطلق إطلاقين: يُطلق السمع على ما سمعه الإنسان وسمعته أذنه فوعاه قلبه. ويُطلق السمع علىٰ القبول

---

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

والاستجابة، ومن إطلاق السمع على القبول والاستجابة: قوله في الصلاة: «سمع الله لمن حمده» أي: لمن أطاعه فاستجاب له. فالعرب تقول: سمعاً وطاعة. أي: إجابة وقبولًا. ومنه هذه الآية. فقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ السمع المنفي هنا هو سمع الطاعة والقبول. أي: إن الله إذا طبع على القلوب فالأسماع تسمع ولكن ذلك السمع لا ينشأ منه طاعة ولا قبول، والله (جل وعلا) بيّن أنه إذا وقع على القلوب مثل هذا الطبع وما جرىٰ مجراه أنهم لا يستطيعون أن يسمعُوا. ونفي الاستطاعة ذكره في آيات كقوله: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: آية ٢٠] فنفىٰ عنهم استطاعة السمع. وكقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: آية ١٠١] وقال (جل وعلا) في الفرقان: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: آية ٩] وهذه الاستطاعة نفيها إنما هو بحسب مشيئة الله من معاقبة الإنسان على ذنب، لأن هذه الآيات فيها سؤال معروف مشهور لطالب العلم أن يسأل عنه ويُجاب عنه، وهو أن يقول طالب العلم: إن الله في غاية الإنصاف والعدالة، فهو (جل وعلا) منصف عدل في غاية الإنصاف والعدالة؛ وفي هذه الآيات بيّن أنه طبع على قلب هذا الإنسان، قال في بعض الآيات: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: آية ٧] ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأعراف: آية ١٠٠] ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: آية ٥٧] ومن جُعل على قلبه الطبع والختم، وجُعل في عينه الغشاوة، وفي أذنه الوقر، فهذا في حكم العاجز، فعلىٰ هذا يكون في هذه الآيات شبهة للجبرية، فنحن نقول: إن القرآن العظيم بيّن أن هذا الطبع وهذا الختم والإزاغة النهائية عن الحق لا يأتي الإنسان إلا بسبب ذنب من ذنوبه، فهو جزاء وفاق على بعض الذنوب، وذلك ما دلت عليه آيات كثيرة أن الله (جل وعلا) يُسبب للإنسان الضلالة بسبب ارتكاب الذنوب كما يسبب له الهدىٰ بسبب الطاعات، فالعبد إذا سارع إلى الكفر، وتكذيب الرسل، وإلى ما يُسخط الله عاقبه الله بأن زاده ضلالاً فوق ضلاله، وظلاماً على ظلامه، وجاءه هذا الطبع بسبب كفره وبغيه وتمرده على الله. وقد بيّن (جل وعلا) هذا في

آيات كثيرة كقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: آية ١٥٥] (الباء) في قوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ سببية، فبيّن أن هذا الطبع بسبب كفرهم الذي سارعوا إليه، وكقوله جل وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: آية ٣] وكقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: آية ٥] ما أزاغها بالطبع والختم حتىٰ بادروا إلى الذنوب والكفر فعاقبهم الله وجزاهم جزاء وفاقاً، وكقوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: آية ١٠] وكقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: الآيتان ١٢٤، ١٢٥] والآيات القرآنية كثيرة في هذا، ومن هنالك يُعلم أن الحسنات وطاعة الله أن الله يجعل ذلك سبباً لهدىٰ عبده، كما أن السيئات والمبادرة إلى ما لا يرضيه تكون سبباً للرّين علىٰ القلوب والطبع عليها كما قال: ﴿بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: آية ١٤] وقال في الهدى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: آية ١٧] ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ﴾ [العنكبوت: آية ٦٩] وأمثال ذلك من الآيات.

قوله جل وعلا: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٠٠] قوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بيّن هنا أن موضع هذا الطبع القلوب، والقلوب: جمع القلب، وهو عضو من الإنسان معروف على هيئة شكل حب الصنوبر وهو معروف، وكون الطبع محله على القلوب يبين أن مركز العقل هو القلب كما أشرنا له مراراً[1]، وإنما بينّا هذا مراراً لئلا تبقى الناس مصدّقة للكفرة الملاحدة الإفرنج، مكذّبة لله ولرسوله، فالقرآن العظيم في عشرات الآيات، والسنة النبوية في أحاديث صحيحة كلها مطبقة على أن مركز العقل هو قلب الإنسان لا دماغه؛ لأن الله يقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: آية ٤٦] فصرح بأن العقل

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

والإدراك بالقلوب لا بالأدمغة، ثم قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: آية ٤٦] ولو كان الإدراك ليس في القلب الذي في الصدر لما كان له عمى ولا إبصار، ولم يقل الله يوماً ما: ولكن تعمىٰ الأدمغة التي في الرؤوس. لم يقل هذا أبداً، وإنما قال: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ وقال جل وعلا: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ فبين أن الفِقه منفي عن محله الذي يفقه به وهو القلب، والآيات علىٰ هذا لا تكاد تحصيها في المصحف الكريم، أن العقل الذي به الإدراك محلّه في القلب، والآيات الدالة على هذا كثيرة، والأحاديث لا تكاد تحصيها، والنبي ﷺ قد قال: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله**» ثم فسرها صلوات الله وسلامه عليه قال: «**ألا وهي القلب**»[1]. ولم يقل: «ألا وهي الدماغ». هذا أمر معروف، ومعروف أن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية طافحة بهذا. والغريب أنك ترى عامّة من ينسبون للإسلام يضربون بهذه النصوص الحائط، ويزعمون كلهم بأن مركز العقل الدماغ!! ونحن نعلم أن الله هو الذي خلق العقل، وهو الذي وضعه في محله، ولا شك أن من خلقه وأبرزه من العدم إلى الوجود، ووضعه في محله أنه أعلم بمحله من الملاحدة الذين يبرهنون على ما يزعمون بفلسفات قد لا تكون مبنية على مقدمات يقينية، ولا ينبغي للمسلم أن يضرب بالقرآن عرض الحائط. فالآيات القرآنية لا تكاد في المصحف تحصيها دالة علىٰ أن العقل في القلب؛ لأنه دائماً يذكر القلوب ويجعل الإثم مكانه القلب، والتقوى مكانه القلب فالله، يقول: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: آية ٢٨٣] [ولم يقل:][2] «إنه آثم دماغه» يوماً ما!! وقال جل وعلا: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: آية ٣٢] ولم يقل: «من تقوى الأدمغة» يوماً ما. فالقرآن طافح بهذا بكثرة، والسنة النبوية طافحة بهذا بكثرة.

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها المعنى.

أما الذين يقلدون ملاحدة الإفرنج فهم على نوعين: من جاء منهم بطريق لا تُكذب القرآن فما علينا منه، ومقالته لا نتعرض لها؛ لأن كل ما يصعب علينا هو ما يعارض نصوص السماء التي أنزلها خالق السماوات والأرض، فإذا جاء بما يخالفه مخالفة قطعيّة وجب علينا أن نرد عليه ونكذبه، وإن كان لم يكن هناك مخالفة فمن عنده دليل خاص فليبرزه، ومن ليس عنده فليسكت.

وهنا تجب مسألة: يجب على المسلمين أن يتحفظوا كل التحفظ من أن يُحَمِّلُوا القرآن ما لا يحتمله، فعلينا أن لا نقول: إن الله قال في كتابه هذا إلا بعد اليقين الجازم والتحري العظيم، خوفاً أن يكون ذلك الظاهر الذي نفهمه غير المراد فنقول على الله بغير حق، ويكون الحق عند غيرنا. هذا أمر يجب أن يُتحفظ منه. ولكن الآيات القرآنية الدالة على أن العقل في القلب لا تكاد تحصيها، وهو أمر قطعي لا نزاع فيه.

أما الذين قالوا من فلاسفة الملاحدة: إن مركز العقل مثلًا: القلب، ولكن نوره روحاني يمتد نوره فيتصل شعاعه بالدماغ؛ ولذا من قال إنه في الدماغ لم يكذب لاتصال أحد طرفيه به، من قال هذا وجاء بهذا فما علينا منه، وقد يمكن أن يكون صادقاً، ولم يأتِ بما يخالف نصوص ربنا، فلو قال هذا فهو أهون. أمّا الذي يقطع علاقة العقل بتاتاً بالقلب، ويقول: كله في الدماغ. فهذا الذي نقول له: كذاب، كذاب، كذاب؛ لأن الله يقول: إنه في القلب.

وهذه الفكرة أن شعاعه يتصل بالدماغ، وأنه بين هذا وهذا، فمن قال في القلب فقد صدق، كما جاء به الوحي، ومن قال في الدماغ بهذا الاعتبار فقد صدق لاتصال نوره به. من قال هذا فقوله أهون، والمسألة على قوله أسهل؛ لأنها لا تستلزم تكذيب الله.

ومعلوم أن البحث في العقل بحث فلسفي معروف، وأن الفلاسفة بحثوا في العقول أكثر من مائة نوع من البحوث مختلفة، ومنها بحثهم في محل مركزه، وقدماء الفلاسفة كانوا يستدلون على أن مركز العقل الدماغ، ويستدلون بما إذا نُظر في الاصطلاح إذا هو شرطيّ مركب من شرطية متصلة لزومية، يظنون أنها لزوميّة وهي اتفاقية!! وإيضاح ذلك: أنهم بحسب

الاستقراء والتتبع وجدوا كل ما يؤثر علىٰ الدماغ من جميع المؤثرات يضر بالعقل، وهذا أمر مُشاهد لا نزاع فيه؛ لأن كل ما يضرّ بالدماغ يؤثر على العقل. فزعموا من هنا أن مركزه الدماغ لتأثره بما يؤثر عليه، فقالوا: في الشرطية المتصلة المذكورة: لو لم يكن محله الدماغ لما تأثر بجميع المؤثرات علىٰ الدماغ، لكنه تأثر بها، ينتج: محله في الدماغ.

ومتأخروهم يزعمون أن عندهم آلات رصدوه بها حتى رأوا حركة الفكر أنها في الدماغ.

وعلى كل حال فهذه النظرات الفلسفية إنما يُنظر فيها إذا لم تخالف نصوص كتاب الله، ومقصودنا أن ننبهكم على أن لا تنجرفوا مع أقوال الكفرة، ضاربين بقول خالق السماوات والأرض الحائط، وأن لا تقبلوا إلا شيئاً يمكن ألا يكون مخالفاً لكتاب الله كما أشرنا إليه، وهذا معنى قوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٠٠].

ثم إن الله قال: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٠١] الإشارة في قوله: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة للقرىٰ، ومعلوم أن (القرىٰ) وما جرىٰ مجراها أنه يعامل معاملة المؤنثة المجازية التأنيث. والقرىٰ: جمع قرية على غير مثال. والقرىٰ المشار إليها هي ما تقدم ذكرها في آيات سورة الأعراف الماضية، كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب كما تقدم قصصهم مفصلاً[1].

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ بعضهم يقول: ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، و ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ خبره، و ﴿نَقُصُّ﴾ جملة حالية، كقوله: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ [هود: آية ٧٢] على أن (هذا) مبتدأ، و(بعلي) خبره، و (شيخا) حال، ولهم فيه غير ذلك[2]. وبعضهم يقول: إن (تلك) مبتدأ و (القرىٰ) نعته. وهذا مبنيّ على ما يقوله جماعة من النحويين أن أسماء الأجناس الجامدة

---

(١) انظر: الأضواء (٣٢٨/٢).
(٢) انظر: الدر المصون (٣٩٧/٥).

أنها ربما نُعِت بها ووُصِفَ بها، وبه قال جماعة من علماء النحو كما هو معروف في محله.

وقوله: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٠١] صيغة الجمع للتعظيم، ومعنىٰ: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا﴾ نتلوا عليك أخبارها في هذا الكتاب العظيم. والأنباء: جمع النبأ وهو الخبر، وقد قدمنا مراراً[١] أن النبأ أخص من الخبر، فكل نبأ خبر وليس كل خبر نبأ؛ لأن النبأ لا يطلق إلا على الخبر الخاص، وهو الخبر الذي له خطب وشأن، كما قلنا: إنك لا تقول: «جاءني اليوم نبأ عن حمار الحجام» لأن حمار الحجام لا خطب له ولا شأن، فلا يطلق فيه النبأ، وإنما يطلق فيه الخبر. وإنما كانت هذه الأنباء عن هذه القرىٰ أخبار لها خطب وشأن؛ لأنها دلت على كمال قدرة الله، وعلى صبر أنبيائه، وعلى شدة بطشه وعدالته وإنصافه، وإهلاكه للظالمين، وأن فيها من التخويف للموجودين من عذاب الله وسخطه ما ينهاهم أن يقع منهم مثل ما وقع من الأولين؛ ولذا كان لها شأن وخطب؛ ولذا قال: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٠١].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ﴾ اللام موطئة لقسم محذوف، وقوله: ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ ضمير جماعة الذكور راجع إلى سكان القرىٰ المعبّر عنهم بقوله: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ فأنث في قوله: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا﴾ نظراً إلى لفظ القرىٰ، وذكّر في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ﴾ نظراً إلى سكانها.

وبعض العلماء يقول: القرىٰ تطلق إطلاقين: تطلق على الأبنية، كما تطلق على السكان. وعلى هذا فلا إشكال.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ﴾ قد قدمنا فيما مضى[٢] أن البينات جمع بينة، وأن البينة هي الحجة القاطعة التي لا تترك في الحق لبساً، ومنه (البينات في الشهادات)؛ لأنها شهادات قوم عدول لا تترك في الحق لبساً، فالبينات: الحجج الواضحة البينة التي لا تترك في الحق لبساً. ومعنىٰ

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

(البينات) هنا على التحقيق: المعجزات؛ لأن الله ما أرسل نبياً قط إلا ومعه معجزة تُقارب التحدي، يعجز عنها الخلق، فتثبت بها نبوته؛ لأن إثبات الله للمعجزات للرسل هي بمثابة قوله لهم: أنتم صادقون في خبركم عني. فهي تصديق من الله لهم؛ لأنه ما خرق لهم العادة وقت التحدي وجاء بهذا العلم الخارق الذي لا يقدر عليه غيره إلا ومعناه عنده: أنت صادق يا عبدي فيما تنقل عني. فهو تصديق من الله؛ ولذا سُمي معجزة؛ لأن المعجزة فعل خارق يحصل عند التحدي لا يقدر عليه البشر[١].

وقد ذكرنا فيما مضىٰ في الكلام على قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ [الأعراف: آية ١٠١] تصريف هذه الكلمة، وما جاء من أمثلتها في القرآن ببعض أمثلتها[٢]، وكان ذلك الذي ذكرنا هنالك سقط منه قسم نسياناً، وكنا نتحرىٰ إن جاءت لها مناسبة أخرىٰ أن نبيّن القسم الذي سقط من كلامنا سهواً لئلا يضيع على بعض طلبة العلم الذين يسمعون هذه الدروس. ذكرنا فيما مضى أن (البينة) أنها صفة مشبهة من (بان يبين) فهو (بيّن) والأنثى (بينة) بمعنى: وضح. وأنها المعجزة الواضحة، وأن النبي ﷺ صرح في الحديث الصحيح أن الله ما أرسل رسولاً إلا أتاه بمعجزة كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**ما من نبي من الأنبياء إلا أُوتي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»[٣]. هذا حديث صحيح صرح فيه النبي ﷺ أن الله ما بعث نبياً قط إلا أعطاه ما آمن عليه البشر، أي: معجزة تفحم الناس وتلزمهم الحق كما هو واضح.

وقد ذكرنا فيما مضى[٤] أن البينة جاء من تصاريفها في القرآن ولغة العرب أربعة تصاريف، واحد منها مجرد، وثلاثة مزيدة ـ وهذا محل النسيان

---

(١) في هذا الموضوع راجع: كتاب مناهل العرفان للزرقاني دراسة وتقويم (١/٢٩٢ ـ ٣١٠).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنعام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

ـ لأنها جاءت على خمسة أنواع، أربعة منها مزيدة وواحد مجرد، ومن هنا وقع الغلط، وكنا نريد إذا جئنا بمناسبة كهذه أن نتدارك النسيان السابق لنبين القسم الذي سقط. اعلموا أولًا: أن هذه المادة أعني مادة (الباء والياء والنون) (ب، ي، ن) جاء منها لفظ (بان) ثلاثياً مجرداً، ومنه هذه؛ لأن قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ [الأعراف: آية ١٠١] البينات: وزنه (فيعلات) وهو من (بان) الثلاثية بلا نزاع عند من يعرف فن الصرف معرفة معروفة، فـ(بان) الثلاثي المجرد دل عليه قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ﴾ ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ [الأنعام: آية ١٥٧] لأنها (فَيْعِلَة) وهي من (بان) الثلاثية المجردة بلا نزاع عند من له إلمام بموازين الصرف وأصوله. هذا الوجه المجرد، وهذا لازم في القرآن، وفي اللغة العربية، ولم يُسمع متعدياً بقية الأوزان الأربعة المزيدة التي تُستعمل لازمة ومتعدية. ذكرنا فيما مضى منها ثلاثة، وهي: (أبان) بزيادة الهمزة على وزن (أفعل) ومن هذه المادة قوله في جميع القرآن: ﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ [الدخان: آية ٢] ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: آية ١] لأن المبين هو الوصف من (أبان) الرباعية بالهمزة بلا نزاع عند من له إلمام بالفن.

[وقد قدمنا الكلام على هذه المسألة][(١)] فقد بينا[(٢)] أن (أبان) بالهمزة تكون متعدية وتكون لازمة، وذكرنا شواهد ذلك، وقلنا: إن من إتيانها متعدية: أبان حجته، وأبان للناس ما كان يخفى عنهم، وأنها تأتي لازمة، ومنه: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: البين الواضح، ومنه لازماً قول كعب بن زهير[(٣)]:

قَنْواء في حُرتيها للبصيرِ بها ... عِتْقٌ مبينٌ وفي الخَدينِ تَسْهيلُ

وقد بينا هذا فيما مضى.

الثاني من الأوزان المزيدة: (بيّن) بالتشديد على وزن (فعّل) بتضعيف العين، وهذه في القرآن كثيرة كما قال: ﴿نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَـٰتِ﴾ [المائدة: آية

---

(١) في هذا الموضع كلام غير واضح. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

٧٥] وهي كثيرة في القرآن العظيم، وهي تأتي في كلام العرب أيضاً متعدية ولازمة، وذكرنا شواهدها لازمة كما في مثل: (قد بيَّنَ الصبحُ لذي عينين)[١] إلى آخر ما ذكرنا من شواهدها.

الثالث: (استبان) على وزن (استفعل) وقد ذكرنا أنها تأتي متعدية أيضاً ولازمة، وأن تعديها ولزومها جاء مثالهما في القراءتين في قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: آية ٥٥] لأنه فيه قراءتان سبعيتان[٢] ﴿ولتستبين سبيلَ المجرمينِ﴾ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فعلى قراءة: ﴿سَبِيلُ﴾ بالرفع، ف (تستبين) لازمة معناه: تظهر وتتضح، وعلى قراءة: ﴿سبيلَ المجرمين﴾ ف (تستبين) متعدية للمفعول، تستبين أنت يا نبي الله ﴿سبيلَ المجرمين﴾ أي: تعلمها وتعرفها حتى تتضح لك، هذه الأوزان التي ذكرنا، والذي نسيناه في ذلك، وهو سبب الرجوع لهذا الكلام:

الوزن الرابع من المزيد وهو قوله: (تبيَّن) علىٰ وزن (تفعَّل) بزيادة التضعيف والتاء، وهذا موجود في القرآن بكثرة، وفي كلام العرب، ومن أمثلته في القرآن: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: آية ١١٤] ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [الرعد: آية].

(وتبين) أيضاً بزيادة التاء مع التضعيف تأتي في لغة العرب لازمة ومتعدية، مثال إتيانها لازمة: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: آية ٤٥] ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ وقد سُمعت في كلام العرب متعدية، ومن سماعها متعدية قول الشاعر[٣]:

ولما تزايقا من الجزعِ والنأى مشرق ركب مصعداً عن مغرب
تبينتُ ألاّ دارَ من بعدِ عالجٍ تُسرّ وألاّ خُلّة بعد زَينبِ

فالمصدر المنسبك في قوله: «أن لا دار» في محل المفعول لـ (تبين).

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٣) البيتان للبحتري، وهما في ديوانه ص(٨٨/١) وقد ذكر الشيخ (رحمه الله) البيت الأول بلفظ مغاير، لكن لما كانت بعض الكلمات غير واضحة بسبب ضعف التسجيل أثبته كما في الديوان.

فنحن نذكر هذه المناسبات لأننا نعلم أن القرآن العظيم هو مصدر العلوم، وله في كل علم بيان، فنتطرق الآية من وجوهها، وقصدنا انتفاع طلبة العلم؛ لأن القرآن أصل عظيم تُعرف به أصول التصريف والنحو وأصول الفقه والتاريخ والأحكام إلى غير ذلك من جميع النواحي، فنحن جرت عادتنا بأن نتطرق الآية من جميع نواحيها بحسب الطاقة لينتفع كل بحسبه.

١٦/أ / يقول الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٠١ - ١٠٥] اللام موطئة لقسم محذوف، والله لقد جاءتهم. والضمير في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ﴾ عائد إلى الأمم المذكورة في قوله: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ والله لقد جاءت تلك القرىٰ التي قصصنا عليك من أنبائها رسلهم بالبينات، فجاء نوح قوم نوح، وهود عاداً، وصالح ثمود، وقوم لوط لوط، وقوم شعيب شعيب. هذه الرسل جاءت هذه الأمم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والله ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ [الأعراف: آية ١٠١] من عندنا، أي: من عند خالقهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالأدلة الواضحة، وهي المعجزات؛ لأن الله ما أرسل نبياً قط إلا ومعه معجزة تثبت قوله وتقوم بها الحجة على من أُرسل إليهم.

وقوله: ﴿رُسُلُهُم﴾ الرسل[1] جمع رسول، والرسول هو من أُرسل بشيء إلى غيره، وأصل الرسول مصدر، وإتيان المصادر على (الفَعُول) قليل، كالقبول والولوع والرسول، وإنما قلنا: إن أصل الرسول مصدر لأن ذلك يزول به بعض الإشكالات في القرآن؛ لأن الرسول أصله مصدر بمعنى الرسالة، ومنه قول الشاعر[2]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

لقد كذبَ الواشُونَ ما فُهتُ عندهم بقولٍ ولا أَرْسَلتُهم برسولِ

أي: ما أرسلتهم برسالة، وإنما قلنا: إنه مصدر لأن كونه مصدراً يزيل بعض الإشكالات؛ لأن المصادر إذا وُصف بها ونُعت بها جاز إفرادها وتذكيرها من غير جمع؛ ولذلك جاز إفراد الرسول في حالة التثنية والجمع نظراً إلى أن أصله مصدر، ومن إفراده في التثنية: قوله تعالى في الشعراء: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: آية ١٦] وقد ثنّاه في طه في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: آية ٤٧] فإفراده وهو تثنية نظراً إلى أن أصله مصدر، وتثنيته اعتباراً بوصفيته الطارئة وقطعاً للنظر عن مصدريته الأصلية، وسُمع في كلام العرب إطلاق الرسول على الجمع بلفظ المفرد، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي[1]:

أَلِكْني إليها وخيرُ الرسولِ أعلمهم بنواحي الخَبَر

إذا علمت أن أصل الرسول مصدر، وأنه وُصف به، فإذا جُمع كقوله: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ أو ثُنّي كقوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: آية ٤٧] فذلك للاعتداد بالوصفية العارضة، وإذا أُفرد كقوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: آية ٦١] فذلك نظراً إلى المصدرية الأصلية كما لا يخفى.

قوله: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات.

وقوله: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ﴾ [الأعراف: آية ١٠١] هذه الآية الكريمة فيها أوجه عديدة من التفسير، معروفة عند علماء التفسير[2]، لا يرجحون منها شيئاً، وأظهرها عندي واحد لدلالة القرينة القرآنية هنا عليه، وكثرة ما يدل عليه في القرآن، فمن هذه الأوجه المذكورة في تفسير هذه الآية: أن المعنى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ بعد الموت إذا بُعثوا وردوا ﴿بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ﴾ في دار الدنيا التي هي وقت الإيمان. وهذا الوجه قال به جماعة من العلماء، واستدلوا له بمطابقته لقوله جل وعلا: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] ومن أوجه

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: ابن جرير (٧/١٣)، القرطبي (٧/٢٥٥)، الأضواء (٢/٣٢٨).

التفسير في هذه الآية: ما قاله بعض أهل العلم: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ بعد مجيء الرسل بالمعجزات ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ قبل مجيء الرسل بالمعجزات. واستأنس أهل هذا القول بقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: آية ٦].

وقال بعض العلماء: هي لقوم لم يؤمنوا طوعاً ليلة أخذ الميثاق التي سيأتي الكلام موضحاً عليها - إن شاء الله - في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: آية ١٧٢] على أحد الوجهين: أن الله أخرجهم من أصلاب آبائهم في صفة الذر، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، وأن بعضهم شهد كرهاً لا طوعاً، وهو بطوعه ليس بمؤمن، قالوا: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ [الأعراف: آية ١٠١] بعد مجيء الرسل بما كذبت أرواحهم ليلة طلب الإيمان منهم كالذر. وهذا قال به جماعة من أهل العلم، ولا يخلو من بُعد، إلى غير ذلك من أوجه التفسير في الآية. والذي يظهر لنا صوابه لدلالة القرينة هنا عليه، والآيات القرآنية عليه: هو أن معنىٰ هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف هو الذي قدمناه موضحاً في سورة الأنعام، وإيضاح ذلك: أن الله إذا أرسل الرسل إلى خلقه قام المتنطعون الكفرة فبادروا إلى الكفر وتكذيب الرسل، والمبادرة إلىٰ ذلك التكذيب يكون ذنباً عظيماً يمنعهم الله بسببه أن يؤمنوا بعد ذلك، فيزيغ قلوبهم ويطبع عليها ويختم، ويبعدهم عن الخير نتيجة لمسارعتهم إلى ذلك الشر.

وإنما قلنا: إن هذا الوجه هو أظهر الأوجه لدلالة القرآن عليه لأمرين:

أحدهما: القرينة المقترنة به هنا، وهو أنه قال: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: لأن الله طبع على قلوبهم بسبب تكذيبهم السابق؛ ولذا قال بعده مقترناً به: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٠١] كذلك الطبع الذي منعهم من أن يؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك الطبع يطبع الله على قلوب الكافرين، وقد صرح (جل وعلا)

في آيات من كتابه أن هذا الطبع يقع بسبب كفر سابق كما قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: آية ٣] فبين أن الطبع بسبب كفر سبقه. وكذلك قال: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: آية ١٥٥] ومن أوضح ما يوضح هذا المعنىٰ آية الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: آية ١١٠] على أظهر التفسيرات، أي: نقلب أفئدتهم وأبصارهم بالطبع والختم والغشاوة عليها وإزاغتها عن الحق ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كما أنهم سارعوا إلى الكفر أول مرة عاقبناهم بعدم الهدىٰ ـ والعياذ بالله ـ كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: آية ٥] ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: آية ١٠] ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: آية ١٢٥] ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: آية ٨٢] ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: آية ٦٤] وهذا معنى قوله: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: آية ١٠١] أي: كذلك الطبع الذي طبع الله على قلوب هؤلاء الأمم الذين كذبوا رسلهم يطبع الله على قلوب الكافرين طبعاً مانعاً لهم من الإيمان لتكذيبهم السابق ومبادرتهم إلى الكفر والعياذ بالله.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: آية ١٠٢].

(ما): نافية. وصيغة الجمع في (وجدنا) للتعظيم، و (وجد) هنا علمية. والمعنى: ﴿مَا وَجَدْنَا﴾ ما علمنا. ومعلوم أن (وجد) في اللغة من أخوات (عَلِمَ) وهذا أظهر الأقوال فيها هنا[1]. ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم﴾ أي: لأكثر الأمم السابقة. وقال بعض العلماء: لأكثر الخلق ما وجدنا لهم ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ (مِنْ) دخلت على المفعول به، فالأصل: ما وجدنا لهم عهداً. ولكن (من) إذا دخلت على النكرة في سياق النفي نقلتها من

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٤٠٠).

الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم[١].

والعهد: هو ما تجب المحافظة عليه والوفاء به. والأصل: ما وجدنا لأكثرهم عهداً.

ويُفهم من قوله: ﴿لِأَكْثَرِهِم﴾ أن هنالك عدداً قليلًا لهم عهد. وهذا هو ظاهر الآية؛ لأن الذين هم الأكثر لا عهد لهم.

ثم قال: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ (إن) هذه وهذه (اللام) فيها خلاف معروف بين البصريين والكوفيين، المذهب المشهور عند علماء العربية وهو مذهب البصريين أن (إن) مخففة من الثقيلة، وأنها مهملة، وأن (اللام) فارقة بين (إن) المخففة من الثقيلة، وبين (إن) النافية، ولا يكاد هذا يوجد إلا مع الفعل الناسخ كما هنا؛ لأن (وجد) ك (علم) وغيرها من أفعال القلوب.

ومذهب الكوفيين يقولون: إن (إن) نافية، و (اللام) بمعنىٰ (إلا). وهو غريب. والمعنىٰ عندهم: وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين.

والناس على ارتضاء مذهب البصريين دون مذهب الكوفيين في هذه[٢].

وقوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف: آية ١٠٢] بيّن الله في هذه الآية الكريمة أن أكثر الناس لا عهد لهم ـ والعياذ بالله ـ لأن من لا عهد له لا خير فيه؛ لأن كل التكاليف عهود. ومن لا يفي بعهد لا يطيع الله في شيء، وقد جاءت آيات قرآنية كثيرة تبين أن أكثر الخلق لا خير فيهم كقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: آية ٥٩] ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: آية ١٠٠] ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: آية ١٠٣] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الشعراء: آية ٨] ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الصافات: آية ٧١] إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المصدر السابق (٥/٣٩٩ ـ ٤٠٠).

وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أن نصيب الجنة من الألف واحد، وأن نصيب النار من الألف تسع وتسعون وتسعمائة. ولما شق ذلك على أصحابه ﷺ أخبرهم بكثرة الكفار، وأنه يمكن أن يكون من يأجوج ومأجوج ألف ومنكم واحد، وهذا يدل على أن أكثر الخلق ضُلال[1] ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ [الأنعام: آية ١١٦] وأهل الهدى قلة، وهذا قضاء الله وقدره في الجميع. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف: آية ١٠٢].

هذه الآية فيها سؤال معروف: وهو أن يقال: إن أكثر الكفار لهم عهد، ولكن لا يوفون بهذا العهد، والعهد على قسمين: عهد مُوفى به، وعهد يُنقض، والمذموم هو العهد الذي يُنقض به، والممدوح هو الذي يُوفى به، فبعض العلماء يقول[2]: إن معنى ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ أن الذي ينقض العهد تقول العرب: لا عهد له. فالذي لا وفاء له كأنه لا عهد له؛ ولذا قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ وهذا لا يتعين، وقد يظهر للناظر في الآية أن فيها حذف الصفة، وهو في نظري أقرب مما يذكرون، أن فيها حذف الصفة؛ لأن حذف الصفة إذا دل المقام عليها أسلوب معروف واضح في القرآن العظيم وفي غيره لا لبس فيه. وعلى هذا فالمعنى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف: آية ١٠٢] . أي: ما وجدنا لهم من عهد مُوفىً به. أي: ما وجدنا لهم من عهد يحصل فيه الوفاء خاصة. أما العهد المنقوض فقد يُوجد لكل من الفجرة. وهذا الوجه ظاهر لا خفاء به، ونظيره في القرآن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: آية ٧٩] والمعنى: يأخذ كل سفينة صحيحة صالحة؛ لأنه لو كان يأخذ السفينة التي خُرقت لما كان خرق الخضر لتلك السفينة فيه فائدة؛ لأن الخضر صرح بأنه خرقها لِتَتَعَيَّب بذلك الخرق، ويكون ذلك سبباً لسلامتها من غصب ذلك الملك لها؛ ولذا قال: ﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ وظاهره يعم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: القرطبي (٧/٢٥٥).

المخروقة وغيرها، فالصفة محذوفة دلّ المقام عليها.

ونظيره قوله: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ [الإسراء: آية ٥٨] يعني: من قرية ظالمة، بدليل قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: آية ٥٩] وحذف النعت موجود في كلام العرب بكثرة، وإن قال ابن مالك في خلاصته: إنه يقل(١). فهو كثير في كلام العرب. ومن أمثلته في كلامهم: قول المرقَّش الأكبر(٢):

وَرُبَّ أسيلةِ الخدينِ بِكْرٍ ... مُهَفْهَفَةٍ لها فرعٌ وَجِيْدُ

فقول المرقش الأكبر: «لها فرع وجيد» يعني: لها فرع فاحم وجيد طويل. فحذف الصفة لدلالة المقام عليها. ومنه قول عبيد بن الأبرص الأسدي(٣):

من قولُه قولٌ، ومن فَعْلُه ... فِعْلٌ، ومن نائِلُهُ نائِلُ

يعني: من قوله قول فصل، ومن فعله فعل جميل، ومن نائله نائل جزل. فحذف النعوت لدلالة المقام عليها، ومن هذا القبيل قول الآخر(٤):

أكُلَّ امرىء تحسبينَ امْرَأً ... ونارٍ توقَّدُ بالليلِ ناراً

يعني: كل امرىءٍ تحسبينه امرأً طيباً له شأن، وكل نار تحسبينها ناراً. يعني: ناراً موقدةً للقِرىٰ. فحذف الأوصاف لدلالة المقام عليها كما هو معلوم في محله.

قوله: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٠٢] (إن)

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧١) من سورة البقرة وهو قوله:

وما من المنعوت والنعت عُقل ... يجوز حذفه وفي النعت يقل

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) البيت لأبي داؤد الإيادي. وهو في الكتاب (٦٦/١)، شواهد الكشاف ص٤٧، الدر المصون (٦٣٤/٥).

مخففة من الثقيلة، والتقدير: وإنه، أي: الأمر والشأن وجدنا أكثر الناس لفاسقين. (اللام) هي الفارقة على التحقيق بين المخففة من الثقيلة والنافية، كما هو معروف في محله.

والفاسقون: جمع تصحيح للفاسق، والفسق في لغة العرب: الخروج، فكل من خرج عن الطريق فقد فسق، ومنه قول الراجز[1]:

يَهْوَيْنَ فِي نَجْدٍ وغَوْراً غائِراً فَوَاسِقاً عن قَصْدِهَا جَوائِراً

أي: خوارج عن قصدها الذي تمشي عليه. هذا أصل الفسق في لغة العرب[2]، ومنه قولهم: فسقت الرطبة. أي: خرجت. وهو في اصطلاح الشرع: الخروج عن طاعة الله. كما قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: آية ٥٠] أي: خرج عن طاعة ربه والخروج عن طاعة الله قد يكون أعظم أنواع الخروج وهو الكفر، وقد يكون خروجاً دون خروج وهو المعاصي، ومن هنا أُطلق في القرآن الفسق على الكفر والمعاصي. فمن إطلاقه على الكفر قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: آية ٢٦] ومن إطلاقه على المعاصي دون الكفر: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: آية ٦] وهذا معنى قوله: ﴿وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٠٢].

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٠٣﴾ [الأعراف: آية ١٠٣].

معلوم أن (ثم) حرف عطف مع الترتيب والانفصال، و ﴿بَعَثۡنَا﴾ معناه: أرسلنا. وصيغة الجمع للتعظيم ﴿مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾ من بعدهم أي: من بعد الرسل المذكورين في هذه السورة، وهم: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، ﴿بَعَثۡنَا﴾ من بعد هؤلاء نبينا موسى، بعثناه ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وهي الآيات التسع والمعجزات التي جاء بها فرعونَ، كاليد البيضاء، والعصا الآتية في

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

هذه السورة، وبعض الآيات المذكورة في سورة الأعراف كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [الأعراف: آية ١٠٣] الملأ[١]: أشراف الجماعة من الذكور. و (فرعون) هو ملك مصر. يقولون: إن كل من مَلَكَ مصر يُسمى (فرعون) كما هو معروف من تسمية (كسرى) و (قيصر) لكل من مَلَك ذلك المحل المعروف، وبعض العلماء يقول: (فرعون) لفظ عربي من تفرعن الرجل إذا كان ذا مكر ودهاء، وعلى تقدير أن (فرعون) لفظ عربي فوزنه: (فِعْلَول) باللام لا (فِعْلَون) بالنون. وبعضهم يقول: هو اسم أعجمي. وهو الأظهر؛ لأنه لو كان عربياً لما مُنع من الصرف؛ لأن هذا الوزن إذا كان عربياً قد لا يُمنع من الصرف[٢]. وفرعون المذكور هنا هو ملك مصر الذي جاءه موسى وأُرسل إليه، وقصّ الله من خبره ما قص، والمؤرخون والمفسرون بعضهم يقول: اسمه: (طالوس). وبعضهم يقول اسمه: الوليد بن مصعب بن الريان كما هو معروف في تاريخه.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشراف جماعته ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ [الأعراف: آية ١٠٣] أي: بمعجزاتنا التي جاء بها موسىٰ.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[٣] أن المحققين من علماء العربية يقولون: إن أصل الآية (أَيَيَة) فوزنها (فَعَلَة) وفاؤها همزة، وعينها ولامها كلاهما ياء (أَيَيَة) وقد اجتمع فيها موجبا إعلال؛ لأن العين واللام كلتاهما ياء مفتوحة قبلها فتحة أصلية. فالإعلال تكرر مُوجبه هنا، وقد عُرف في فن الصرف أن الإعلال إذا تكرر موجبه يكون الإعلال غالباً في الأخير. وهنا خولف الأغلب، وصار الإعلال في الأول، فأُبدلت الياء الأولىٰ ألفاً، وصُححت الياء الثانية، وفيه أقوال غير هذا ولكن هذا أشهرها عندهم.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٠) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

والآية في لغة العرب: تطلق إطلاقين:

أحدهما: تطلق الآية ويراد بها العلامة. وهذا إطلاقها المشهور. تقول: آية كذا. أي: علامة كذا. وقد جاء في شعر نابغة ذبيان ـ وهو عربي جاهلي ـ تفسير الآية بالعلامة، وذلك في قوله[١]:

تـوهـمـتُ آيـاتٍ لـهـا فـعـرفْـتُـهـا لِـسِـتَّـةِ أعـوامٍ وذا الـعـام سـابـعُ

ثم فسر الآية بأنه يريد بها علامات الدار، وما تشخص من آثارها بقوله:

رمـاد كـكُـحْـلِ الـعـيـنِ لأيـاً أُبـيـنُـه ونُؤْيٌ كـجِـذْمِ الحوضِ أثْلَمُ خاشِعُ

الإطلاق الثاني: هو إطلاق الآية على الجماعة؛ لأن العرب تقول: جاء القوم بآيتهم. أي: بجماعتهم. ومنه قول برج بن مسهر الطائي أو غيره[٢]:

خرجنا من النقبين لاحيَّ مثلِنَا بـآيـتـنـا نـزجـي الـلـقـاحَ الـمَـطَـافِـلاَ

أي: بجماعتنا.

والآية هنا بمعنى العلامة؛ لأن المعجزات أفعال خارقة للعادة هي علامات واضحة قاطعة على أن الله مصدق لمن أعطاه إياها مقارنة للتحدي كما هو معروف[٣].

وقوله: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ الباء في قوله: (بها) عدّى به. و(ظلموا) فيه وجهان معروفان لعلماء التفسير[٤]:

أحدهما: أن (ظلموا) معناه: كفروا. أي: فكفروا بها، وإذا كان (ظلموا) بمعنى: كفروا فلا إشكال في الباء، والظلم كثيراً ما يُطلق بمعنى

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٠١) من سورة الأعراف.

(٤) انظر: القرطبي (٢٥٦/٧)، الدر المصون (٤٠٠/٥).

الكفر كقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣] ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: آية ١٠٦] وعلى هذا فالظلم بمعنى الكفر، وتعديته بالباء واضحة، وبعض العلماء يقول: فظلموا بسببها، حصل منهم الظلم الكبير بسببها حيث كذبوا بها ولم تدلهم على الحق وعاندوا. وذلك الظلم قد بين (جل وعلا) أنهم أيقنوا أن الآيات حق، وأنهم ظلموا عدواناً منهم، كما قال في قوم فرعون لما علموا الحق من آيات موسىٰ في أول سورة النمل: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: آية ١٤] فقوله: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ في النمل يوضح قوله: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: بسببها، وقد قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: آية ١٠٢] أي: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون ﴿مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ﴾ الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ أي: دلالات قاطعة لا تترك في الحق لبساً، وهذا معنىٰ: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[1]: أن الظلم في لغة العرب، هو وضع الشيء في غير موضعه، فكل من وضع شيئاً في غير موضعه فقد ظلم، وأكبر أنواع وضع الشيء في غير موضعه: وضع العبادة في غير من خلق، ثم يليه: وضع الطاعة في الشيطان دون الله (جل وعلا)، والعرب كلُّ من وضع شيئاً في غير موضعه تقول له: ظَلَم. ومن هذا المعنىٰ قالوا للذي يضرب لبنه قبل أن يروب: إنه ظالم؛ لأن الضرب وقع في غير موضعه؛ لأنه يُضيع زُبده؛ ولذا كانوا يُسمّون الذي يضرب [لبنه][2] قبل أن يروب: ظالماً، ففي لُغز الحريري يقول: «هل يجوز أن يكون الحاكم ظالماً؟ قال: نعم إذا كان عالماً»[3]. فقوله: «ظالماً» يعني: يضرب لبنه قبل أن يروب، وهذا معنىٰ معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[4]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) في الأصل: (زبده) وهو سبق لسان.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة الأنعام.

(٤) السابق.

وقـائـلـةٍ ظـلـمـتُ لـكـم سِقَـائـي وهـل يـخفىٰ على العَكَدِ الظَّلِيمُ

وقول الآخر[١]:

وصاحبِ صدقٍ لم تربني شَكَاتُه ظلمتُ وفي ظَلْمي له عامداً أَجْرُ

فهذا معروف في كلام العرب بكثرة، ومنه قيل لمن وضع شيئاً في غير موضعه: (ظالم)؛ ولذا سموا الحفر في الأرض التي ليست محلّاً للحفر والماء سموها: (مظلومة)، ومنه قول نابغة ذبيان[٢]:

إلا الأَوَارِيَّ لأيـاً مـا أُبَـيِّـنُـهـا والنُّؤيُ كالحوضِ بالمظْلُومةِ الجَلَدِ

وسمّوا تراب القبر: (ظليماً)؛ لأنه يُحفر وهو ليس محلّاً للحفر أصلًا، ومنه قول الشاعر[٣]:

فـأَصْـبَـحَ فـي غَـبْـراءَ بـعـد إِشَـاحـةٍ من العيش مردودٍ عليها ظَلِيمُها

هذا معروف في كلام العرب، ولم يأت الظلم في القرآن إلّا بهذا المعنى، إلا في موضع واحد في سورة الكهف: الظلم منه بمعنىٰ النقص، وهو قوله: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم﴾ [الكهف: آية ٣٣] يعني: ولم تنقص ﴿مِنْهُ شَيْـًٔا﴾.

إذا عرفتم هذا فكل من كفر بالله فقد وضع العبادة في غير موضعها، ومن عصىٰ ربه وأطاع الشيطان فقد وضع الطاعة في غير موضعها، ووضع المعصية في غير موضعها، ومن هنا كان الظلم يُطلق على الكفر وعلى المعاصي، قد قدمنا إطلاق الظلم على الكفر آنفاً في قوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣] ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: آية ١٠٦] وقد يطلق الظلم على معصية الله ولو لم تكن كفراً

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

كقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: آية ٣٢] ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: آية ٣٦] لا تعصوا الله فيهن. هذا معنى قوله: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي: بسببها.

﴿فَٱنظُرْ﴾ يا نبي الله ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٠٣] ماذا يؤول إليه أمر المفسدين من الوبال والدمار والخسار فإن جميع الأمم الماضية كانت عاقبة إفسادها عاقبة وخيمة جداً، فأهلك الله قوم نوح بالطوفان، وقوم هود بالريح العقيم، وقوم صالح بالصيحة، وقوم شعيب بالصيحة والرجفة والظّلة، وأهلك قوم موسىٰ ـ فرعون وقومه ـ بالغرق كما سيأتي إيضاحه، وهذا معنى قوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أهل الإفساد، وقد قدمنا أنهم الذين يحاولون أن يعملوا في الأرض بغير ما أنزل الله (جل وعلا) على رسله.

يقول الله جل وعلا: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٠٤، ١٠٥] قرأ هذا الحرف جماهير القراء، منهم السبعة كلهم غير نافع: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وقرأه نافع وحده من السبعة: ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ **حقيق عَلَيَّ أنْ لا أقول على الله إلا الحق**﴾[١]، وقراءة الجمهور فيها إشكال معروف سنُلم به الآن إن شاء الله[٢].

معنى الآية: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ نبي الله موسىٰ يعلم أن فرعون ينكر رسالته كما بينّه تعالى في الشعراء بقوله: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١١.

(٢) في توجيه هذه القراءات انظر: حجة القراءات ص٢٨٩، ابن جرير (١٣/١٣)، القرطبي (٢٥٦/٧)، البحر المحيط (٣٥٥/٤)، الدر المصون (٤٠١/٥).

[الشعراء: الآيتان ١٨، ١٩] من يقول فرعون عنه هذه الأوصاف لا يصدقه، وموسى يعلم ذلك. فأكد له في هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف أنه رسول حقيق الرسالة، ليست رسالته بكذب ولا بزعم باطل، أنها رسالة صحيحة حق لا شك فيها، وأنها كائنة من رب العالمين، وهذا معنى قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ﴾ ناداه باسمه ﴿إِنِّي رَسُولٌ﴾ رسالته مبدؤها ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (العالَمون) تشمل من في السماوات والأرض وما بينهما كما يأتي في الشعراء في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٢٣، ٢٤] ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (من) لابتداء الغاية.

﴿حَقِيقٌ﴾ أصل مادة (الحاء والقاف والقاف) في لغة العرب تدل على الثبوت وعدم الاضمحلال. معناه: إني رسول حقيق. أي: رسالتي لا شك فيها، وأني رسول ثابت في ديوان المرسلين، رسالتي حق لا شك فيها، وأني رسول مبدأ رسالته من رب العالمين.

أما على قراءة نافع فمعنىٰ الآية واضح.

ومعنى ﴿عَلَيَّ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يلزمني ويجب علي أن لا أقول على الله إلا الحق، فما أخبرتك يا فرعون إلا بالحق، وأني رسول من رب العالمين، ولو ربيتني وقتلتُ القبطي قتلة متقدمة، كل ذلك لا ينافي أني رسول، وأني صادق في مقالتي.

ومعنى: ﴿عَلَيَّ أَن لَّآ أَقُولَ﴾ يلزمني ويجب علي أن لا أقول على الله إلا الحق، فما قلت على الله إنه أرسلني إليك إلا وأنا قائل عليه بالحق لا كاذب عليه ولا متخرص، ومعنى قراءة نافع هذه واضح.

أما على قراءة الجمهور فمعنىٰ الآية الكريمة مشكل؛ لأن معنى ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ فهذا معناه لم يتبادر إلى الذهن. وللعلماء في تفسير هذه الآية أجوبة معروفة عن هذا الإشكال، أقربها عندي واحد دلت عليه القرينة القرآنية، ولا ينبغي العدول عنه ومع أنه أصوب الأقوال فيما يظهر يَقِلُ من يتطرقه من العلماء، فأكثر

أقوال المفسرين لا يذكرونه فيها، والظاهر أنه الصواب وإن قلّ من يذكره منهم، وسنذكر الآن أقوال أهل العلم في الآية ـ على قراءة الجمهور ـ الكريمة: أن (على) بمعنىٰ (الباء)، وقالوا: إن حروف الجر يخلف بعضها بعضاً، قالوا: و (الباء) تأتي بمعنىٰ (على)، و (على) تأتي بمعنى (الباء). قالوا فمن إتيان الباء بمعنى (على): ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ أي: على كل صراط، كما زعموا. ومن إتيان (على) بمعنى (الباء) قالوا: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ﴾ أي: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أي: حقيق أي: جدير وخليق بأن لا أقول على الله إلا الحق. وهذا التفسير تشهد له قراءة أُبي بن كعب رضي الله عنه ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾[1] قرأها أُبيّ هكذا، وهي وإن كانت قراءة شاذة فإنها تفيد بالنسبة إلى التفسير. ومما لا ينافي هذا قراءة بعض الصحابة غير أُبي: **﴿إني رسول من رب العالمين حقيق ألا أقول على الله إلا الحق﴾**. لأن هذه تحتمل تقدير الباء أيضاً. فهذا قول.

القول الثاني: هو ما زعمه بعضهم من أن قوله: ﴿حَقِيقٌ﴾ مُضمّن معنىٰ (حريص) على قراءة الجمهور، قالوا: **﴿حقيق على أن لا أقول﴾** [الأعراف: آية ١٠٥] أي: حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق، واستشهد لهذا التضمين صاحب الكشاف في كشافه[2] بالبيت الذي أنشده سيبويه في الكتاب[3]، قال: ومثله تضمين بيت الكتاب (هيجني) بمعنى: ذكّرني. والبيت الذي يعني هو البيت المشهور في كتاب سيبويه وهو قول الشاعر[4]:

إذا تَغنّى الحمامُ الوُرْقُ هَيَّجَنِي ولو تَسَلَّيْتُ عنها أُمَّ عَمَّارِ

---

(١) انظر: القرطبي (٢٥٦/٧)، البحر المحيط (٣٥٦/٤)، الدر المصون (٤٠٥/٥).

(٢) الكشاف (٨٠/٢).

(٣) الكتاب (٢٨٦/١).

(٤) البيت للنابغة، وهو في ديوانه ص٢١.

قالوا: (هَيَّجَنِي) معناه: ذكَّرني أم عمار ولو تسلَّيت عنها، وهذا القول من الأقوال التي لا تظهر، فلا يخلو عندي من بعُد، والله أعلم.

وقال بعض العلماء[١]: في الآية الكريمة قلب. وهذا القلب الذي يعنون هنا هو المعروف بالقلب العربي الذي فيه النزاع بين البلاغيين والنحويين كما هو معروف في محله. وهذا القلب أنكره جماعة من العلماء، وقال به جماعة. والحق أن هذا القلب العربي وإن أنكره البلاغيون وقالوا لا يجوز في العربية إلا إذا تضمن اعتباراً لطيفاً، وسراً من أسرار اللغة العربية، وبغير ذلك لا يجوز. والنحويون يجيزه أكثرهم أنه أسلوب عربي إذا دل المقام عليه، وهو موجود في القرآن، وكثير في كلام العرب كما سنُلم به الآن إن شاء الله.

واعلموا أن القلب يُطلق إطلاقين: يطلق في البديع، وهذا ليس من غرضنا؛ لأنه في فن البديع يسمى نوع منه القلب، وهو أن يكون الكلام إذا جئته من آخره قرأته كما جئته من أوله، فيكون الكلام يُقرأ معكوساً كما يُقرأ مرتباً[٢]، كقوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾ [المدثر: آية ٣] وقوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ [الأنبياء: آية ٣٣] وقول الشاعر[٣]:

مَوَدَّتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَولٍ وَهَلْ كُلٌّ مودتُه تدومُ

فالآيتان والبيت تقرؤهما بالانعكاس كما تقرؤهما بالاطراد، وهذا ليس من غرضنا.

النوع الثاني: القلب الذي يُذكر في المعاني، وهو القلب الذي يكون فيه قلب الفاعل مفعولًا مثلًا. وهذا أسلوب عربي معروف إذا دل المقام عليه، وهو موجود في كلام العرب، وفي القرآن العظيم، ومن أمثلته في القرآن العظيم: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ [القصص:

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٤٠١ ـ ٤٠٢).

(٢) انظر: التلخيص للقزويني ص٤٠٤.

(٣) البيت في المصدر السابق ص٤٠٤.

آية ٧٦] فالآية تقول: إن المفاتح تنوء بالعصبة، والمقصود القلب العربي؛ لأن العصبة من الرجال هي التي تنوء بالمفاتح، أي: تنهض بها بمشقة وجهد كما هو واضح، قال بعضهم: ومنه في القرآن: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنْبَآءُ﴾ [القصص: آية ٦٦] قالوا: يعني: فعموا عن الأنباء؛ لأن الإنسان هو الذي يعمى والأنباء لا تعمى، في أمثلة قرآنية. وهذا المعنى/ إن دلت عليه القرائن، كثير في كلام العرب، ومنه قول كعب بن زهير[1]:

١٦/ب

.... وقد تَلَفَّعَ بالقُورِ العَسَاقِيل

لأن الكلام مقلوب؛ لأن (القُور) وهي الحجارة هي التي تتلفع. أي: تلتحف بالعساقيل، وهو السراب، فهو قال: إن السراب يلتحف بالعساقيل. والكلام مقلوب؛ لأن الحجارة هي التي تتلفع بالسراب، وهذا معنى قوله:

.... وقد تَلَفَّعَ بالقُورِ العَسَاقيل

ومنه قول الآخر[2]:

.... كما طَيَّنْتَ بالفِدَنِ السَّيَاعَا

يعني: كما طينت الفدن بالسياع. أي: طينت القصر بالطين. وهو معروف في كلام العرب بكثرة، ومنه قول الشاعر[3]:

نزلت بخيلٍ لا هوادةَ بينها وتشقى الرماحُ بالضَّياطِرةِ الحُمر

---

(١) هذا هو الشطر الثاني من البيت، وشطره الأول هو قوله:
كأن أوب ذراعيها إذا عرقت ....
شرح قصيدة بانت سعاد للتبريزي ص٢٧.

(٢) البيت للقطامي، وهو في اللسان (مادة: سيع) (٢/٢٥٣)، الأمالي (٢/٢١١)، مغني اللبيب (٢/٢٠٠)، وصدره: «فلما أن جرى سِمَنٌ عليها».

(٣) البيت لخداش بن زهير، وهو في الدر المصون (٥/٤٠١)، شواهد الكشاف ص٤٦، والضياطرة: جمع ضيطار، وهو الضخم.

يعني: وتشقى الضياطرة بالرماح. وهذا النوع من القلب أنكره علماء البلاغة وقالوا: لا يجوز إلا بما تضمن اعتباراً وسراً لطيفاً كقلب التشبيه. فالتشبيه المقلوب يُقلب فيه المشبه مشبهاً به، والمشبه به مشبهاً. قالوا: إنما جاز هذا لنكتة، وهي إيهام أن الفرع أقوىٰ في وجه الشبه من الأصل كقوله[1]:

وبَلَدٍ مُغْبَرةٍ أرجاؤُهُ كأنَّ لونَ أرضِهِ سَمَاؤُه

والذين قالوا: في الآية قلب قالوا: المعنى: حقيق على أن لا أقول على الله، كأنه جعل نفسه حقيق على أن لا يقول على الله إلا الحق. والمراد: قلب الكلام. أي: يجب عليه، حقيق عليه هو ﴿أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ فكأنه جعله هو الحقيق على القول. والمقصود: أن القول هو الحقيق عليه أن لا يقوله إلا بالحق، وفي الكلام قلب كما ترىٰ، وهذا لا يلزم، وأنكره كثير من علماء العربية.

والوجه الذي يظهر أنه أصوب الأوجه ولا ينبغي العدول عنه وإن قلّ من تنبه إليه من علماء التفسير: هو إن معنى الآية الكريمة: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ حَقِيقٌ﴾ [الأعراف: الآيتان ١٠٤، ١٠٥] وأما قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ تتعلق بمعنى الرسالة المشار إليها في الرسول، أي: أُرسلت مشترطاً علي، أُرسلت ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي: أرسلني ربي على شرط ووتيرة معينة، وهي أن لا أقول عليه إلا الحق.

وقال بعض العلماء: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ﴾ تتعلق بقوله: ﴿رَسُولٌ﴾ ﴿إِنِّي رَسُولٌ﴾ أي: رسول ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

وبعضهم يقول: هذا لا يجوز. والنحويون من البصريين يقولون: إن العامل إذا أخذ نعته ـ نُعت ووُصف ـ لا يعمل بعد ذلك. وعلى هذا

(١) البيت لرؤبة، وهو في شذور الذهب ص٣٢٠، مغني اللبيب (٢/٢٠٠).

لا يجوز إعمال (رسول) في قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ﴾ لأنه نُعت بقوله: ﴿حَقِيقٌ﴾ ولكن الأصوب في هذا أن يُقدّر عامل من جنس الرسول، فيكون المعنى: إني رسول حقيق من رب العالمين أُرسلت. أي: أرسلني رب العالمين، أرسلني على أن لا أقول عليه كذباً، ولا أقول على الله إلا الحق، وهذا الوجه واضح لا إشكال فيه، ليس فيه تعسف ولا تكلف، فلا ينبغي العدول عنه إلى غيره وإن قل من انتبه إليه من علماء التفسير. وهذا معنى قوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: آية ١٠٥].

الحق في لغة العرب: الثابت الذي ليس بزائل ولا بمضمحل، وعكسه الباطل. والمراد بالحق هنا: هو الشيء المطابق للحقيقة والصواب والواقع في نفس الأمر.

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قد قدمنا أن البينة[١] هي الدليل الواضح الذي لا يترك بالحق لبساً.

﴿بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (من) لابتداء الغاية، والرب هو السيد الخالق المدبر الذي يدبر أمور الناس، وهو مُشْتَرك بين عشرة معان كما قدمنا[٢].

﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (إسرائيل) هو نبي الله يعقوب (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام)، ومعنى: (إسرائيل): عبدالله، و(إسرائيل): هو يعقوب، و(بني إسرائيل): أولاد يعقوب؛ لأنكم عرفتم في القرآن في قصة يوسف أنه لما أرسل إليهم وجاؤوه في آخر حياة يعقوب، واجتمعوا به في مصر، سكنوا بعد ذلك في مصر وتناسلوا، وحتى سلط الله عليهم فرعون وأهانهم الإهانة المشهورة المعروفة بالقرآن، وسيأتي بيانها في هذه السورة الكريمة ـ سورة الأعراف ـ وكان الله (جل وعلا) سلط فرعون مصر على الإسرائيليين فكان يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم ويستعمل

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

الموجودين منهم بالخدمة الشاقة، وأنقذهم الله منه على يد موسىٰ بن عمران (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام). يزعم بعض المفسرين والمؤرخين أن بين مجيء يعقوب وأولاده ليوسف في مصر وبين مجيء موسىٰ من مدين ـ لينقذهم من فرعون ـ يزعمون أن بينهما أربعمائة سنة والله أعلم. ويزعمون أيضاً أن مجيء يعقوب وأولاده أنهم كانوا حول الثمانين، وأن خروج الإسرائيليين الآتي ذكره من مصر عند فلق البحر لهم وإغراق فرعون وقومه أنهم كانوا يزيدون على ستمائة ألف والله تعالى أعلم.

وهذا معنى قوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ معنى (أرسل معي بني إسرائيل) ارفع يدك عنهم، ولا تعذبهم، ولا تتعرض لهم بسوء، وخلّهم يذهبون معي إلى حيث يشاؤون. هذا معنى قوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: آية ١٠٥].

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ [الأعراف: آية ١٠٦] في هذه السورة الكريمة لم يذكر عن فرعون أنه تعرض لموسى بكلام وإنما أجابه على طبق السؤال؛ لأن موسىٰ قال: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ورتب عليه بالفاء ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: آية ١٠٥] قال فرعون مجاوباً على طبق السؤال: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ﴾ يعني إن كنت صادقاً في قولك: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فالبينة[1]: الدليل الذي لا يترك في الحق لبساً. والآية: العلامة على الصدق، وهي المعجزة كما ترى هنا. ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾ يعني: إئتنا بها وبين لنا إن كنت من الصادقين ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ جزاء الشرط فيه محذوف دل عليه ما قبله، أي: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فأت بها. عند البصريين، ولا مانع عند الكوفيين من تقدم جزاء الشرط عليه فيكون قوله: ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾ جواب شرط ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهذا عند الكوفيين لا مانع منه.

---

(١) مضى قريباً.

(...)[١] تجيب بها إلا كلاماً لا نفي فيه، لا تكاد تجد (نعم) في كلام العرب إلا جواباً لكلام إثبات لا نفي فيه؛ لأن الكلام إذا كان فيه نفي كان جوابه بـ(بلى) لا بـ(نعم). فلو قلت لك: هل جاء زيد؟ أعندك ذا؟ تقول: نعم. ولو قلت لك: ألم يأت كذا؟! تقول لي: بلى ولا تقول: نعم. وإذا سُمع عن العرب إتيان (نعم) في كلام فيه نفي فإنه يُحفظ ولا يُقاس عليه؛ لأنه لا ينقاس، ولكنه سماع يُحفظ ولا يقاس عليه، وقد سُمع عن العرب إتيان (نعم) جواباً لسؤال مقترن بنفي. فالمحل إذْ ذاك بـ(بلى) لا بـ(نعم)، إلا أنهم جاؤوا بـ (نعم) سماعاً، ومنه قول الشاعر[٢]:

أَلَيْسَ اللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو ... وَإِيَّانَا فَذَاكَ بِنَا تَدَانِي
نَعَم وَتَرىٰ الهِلَالَ كَمَا أَرَاهُ ... وَيَعْلُوهَا النَّهَارُ كَمَا عَلَانِي

فالمحل هنا لـ(بلى) لا لـ(نعم)، ولكنه جاء بـ(نعم) هنا، وقد نص علماء العربية أنها لو سمعت عن العرب في مثل هذا حُفظ ولا ينقاس عليه[٣].

قوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: ولكم عندي زيادة على الجُعل الذي تطلبون وهو كونكم من المقربين، أي: من أهل المكانة والوجاهة والجاه العظيم عندي، ذلك زيادة لكم على ما سألتم من الجعل. هذا معنى قوله: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف: آية ١١٤].

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، والكلام الآتي متعلق بالآية رقم (١١٤)، وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾...﴾.

(٢) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٤٤) من سورة الأعراف.

(٣) في الكلام على هذه المسألة راجع ما مضى عند تفسير الآية (٤٤) من سورة الأعراف.

﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١١٥ ـ ١٢٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١١٥، ١١٦].

بين (جل وعلا) في سورة طه أنه عند هذه المناظرة والمغالبة نصح [موسى][1] السحرة وقال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ وفي القراءة الأُخرى[2]: ﴿فَيَسْحَتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ [طه: آية ٦١] ثم ذكر عن السحرة ما ذكر في قوله: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه: الآيات ٦٢ ـ ٦٤]. لما أجمعوا كيدهم وجاؤوا صفاً قالوا لموسىٰ: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: آية ١١٥] (إما) هذه أداة تقسيم معروفة، والمصدر المنسبك من (أن) وصلتها في إعرابه للعلماء وجهان:

أحدهما: أنه في محل نصب بمفعول محذوف. والمعنى: إما أن تختار أن تلقي أولًا، أي: تختار إلقاءك قبلنا، وإما أن تختار كوننا من الملقين؟ ومفعول الإلقاء لم يذكر هنا إلا أنه ذكر في آيات أُخر، فإلقاء موسىٰ مفعوله العصا، والمعنىٰ: إما أن تلقي عصاك وإما أن نكون نحن الملقين حبالنا وعصينا؛ لأن الذي يلقيه هو: هو عصاه، والذي يلقونه: هو حبالهم وعصيهم كما قال هنا: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [الأعراف: آية ١١٧] فبين أن الذي يلقي هو عصاه، وذكره في طه والشعراء، وبين في سورة الشعراء أن الذي يُلقيه السحرة هو حبالهم

(١) في الأصل: (فرعون) وهو سبق لسان.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٩٥.

وعصيهم كما قال: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشعراء: آية ٤٤] هذا معنىٰ قوله: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾.

الوجه الثاني: أن المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في محل رفع مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: إما إلقاؤك أولَ، وإما كوننا نلقي أولَ.

وقال بعض العلماء: هو خبر مبتدأ محذوف: إما الأمر إلقاؤنا، وإما الأمر إلقاؤك. والكل متقارب. وهذا معنى قوله: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾.

يقول جماعة من علماء التفسير هنا: إن هذا حُسن أدب من السحرة، تأدبوا مع موسىٰ هل يحب أن يكون هو أول من يلقي، أو يلقي هو الآخِر. وحتىٰ قال بعضهم[1]: لما تأدبوا مع نبي الله كان من حكمة الله أن تفضّل عليهم بالهدىٰ والإيمان. والتحقيق الذي يظهر: أن السحرة في ذلك الوقت كفرة فجرة قبل أن يهديهم الله، وأن هذا كأنه إظهار ثقتهم بأنفسهم وسحرهم واعتقادهم أنهم غالبون، يعنون: إن ألقيت قبلنا غلبناك، وإن ألقينا قبلك غلبناك، فإن شئت فتقدم، وإن شئت فتأخر!! هذا هو الأظهر، وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: آية ١١٥] قال لهم نبي الله موسى: تقدموا أنتم أولاً وألقوا قبلي. ومفعول (ألقوا) محذوف، ألقوا ما أنتم ملقون.

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشعراء: آية ٤٤] فلما قال لهم نبي الله موسى: «ألقوا» يعني: ألقوا ما أنتم ملقون. يزعم بعض المفسرين أنهم نحو من سبعين مائة ألف عند كل واحد منهم عصا ضخمة، وحبل ضخمة، وأن كل واحد منهم جعل السحر في عصاه وحبله، حتى كانت الدنيا كأنها حيات كالجبال يركب بعضها بعضاً، وخاف الخلق جميعاً خوفاً عظيماً. وذكر الله في سورة طه أن موسى داخله

(١) انظر: القرطبي (٧/٢٥٩).

بعض الخوف كما يأتي في قوله: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧﴾ [طه: آية ٦٧] حيث قال: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧﴾ [طه: الآيات ٦٥ ـ ٦٧] وهذا الترتيب بالفاء لأن نبي الله موسىٰ أوجس في نفسه الخيفة من عِظَم سحرهم كما قال هنا: ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: آية ١١٦].

وبعض المفسرين يقولون: لم يخف نبي الله من سحرهم، وإنما خاف أن يتفارق الناس ويهربوا قبل أن يُقيم حجته أمامهم. هكذا قاله بعضهم والله أعلم، هذا معنى قوله: ﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ﴾.

وهذه الآية فيها سؤال معروف، وهو أن يُقال: إن نبي الله موسىٰ بن عمران (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) رسول كريم، والرسول لا يأمر بمنكر، وقوله لهؤلاء السحرة: ﴿أَلۡقُواْۖ﴾ أمر بمنكر؛ لأنه أمرهم بأشد المنكر، وهو الإتيان بالأسحار تُعارض بها معجزات الله التي أيَّد بها رسله؟

والجواب عن هذا معروف[1]: وهو أن نبي الله موسىٰ (صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم) لا يريد أمرهم بإلقاء الحبال والعصي سحراً خبيثاً تُعارض به آيات الله، وإنما مراده إبطاله؛ لأنه في ذلك الوقت لا طريق إلى إبطاله إلا هذا، وهي أن يبرزوه ثم تأتي آية الله ومعجزة الله التي هي هذه العصا فتبتلع جميع ذلك وتترك الميدان خواء ليس فيه شيء، ولما كان هذا هو الطريق الوحيد للحق اضُطر إليه (صلوات الله وسلامه عليه)، وهذا معنى قوله: ﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ﴾.

وفي الكلام حذف دل المقام عليه، أي: ألقُوا حبالكم وعصيكم فألقَوا، فلما ألقَوا حبالهم وعصيهم ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ دل قوله: ﴿أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ على أن سحرهم من جنس الشعبذات؛ لأنهم جاؤوا بسحر أخذ بعيون الناس حتى صارت ترى تخييلات ليست بحقيقية، وترىٰ

---

(١) انظر: القرطبي (٢٥٩/٧).

العصي والحبال تظنها حيات ـ ثعابين ـ من أضخم الحيات، بالمئات والآلاف مكدّسة كالجبال، يركب بعضها بعضاً، حتى خاف الخلق منها خوفاً شديداً، فقوله هنا: ﴿أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ يدل على أنه تخييل بالنسبة للعين لا حقيقة. وقد صرح بذلك في طه بقوله: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: آية ٦٦] وزعم بعض المفسرين أن الزئبق كان متوفراً عندهم، وأنهم ملؤوا داخل العصي والحبال من الزئبق وطرحوها حتى تأثر الزئبق بحرّ الشمس فلما تأثر الزئبق تحركت العُصي والحبال صار بعضها يلتوي على بعض ويركب بعضها بعضاً!! هكذا يقول بعضهم(١). ويظهر أنه سحر أخذوا به عيون الناس حتىٰ صار يَتَراءىٰ لهم هذا من الحيات العظام الكبار الضخام يركب بعضها بعضا. وهذا معنى قوله: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾. ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ قد تقرر في فن العربية أن تأتي (اسْتَفْعَل) مزيدة بهمزة الوصل والسين والتاء بمعنىٰ (أَفْعَل) وهو موجود في القرآن وفي كلام العرب، ومن أمثلته في القرآن: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: آية ١٩٥] يعني: أجاب. ومما يدل عليه من كلام العرب قول سعد بن كعب الغنوي(٢):

وداعٍ دَعَا يا من يُجيبُ إلى الندىٰ فلم يَسْتجبه عند ذَاكَ مجيبُ

فإنه جاء بـ (مجيب) التي هي اسم فاعل (أجاب) جاء بها فاعلًا لـ(استجاب)، فدل علىٰ أنه أطلق (استجاب) وأراد (أجاب) كما هو واضح.

معنىٰ: ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أرهبوهم. والرهب: الخوف. يعني: خوفوا الناس خوفاً شديداً. قال بعض العلماء: استرهبوهم: استدعوا رهبتهم وخوفهم بهذا السحر العظيم.

وفي هذه الآية من سورة الأعراف سؤال معروف: وهو أن يُقال: دلت آية الأعراف هذه علىٰ أن سحر سحرة فرعون من نوع الشعبذات والأخذ

---

(١) انظر: المصدر السابق (٧/٢٥٩).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام.

بالعيون حتى يتراءى للإنسان غير الواقع في الحقيقة؛ لأنه قال: ﴿أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ وصرح بما يدل على ذلك في قوله في طه: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: آية ٦٦] وهاتان الآيتان ـ آية طه وآية الأعراف ـ كلتاهما تدل على أن سحر سحرة فرعون من نوع الخيالات والشعبذات، ومع هذا وصفه الله بالعِظَم في قوله: ﴿بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ هذا هو وجه السؤال؟؟

وللعلماء عنه جواب[1]: وهو أنه في الحقيقة تخييل وأخذ بالعيون حتى صار يَتَراءىٰ لها غير الواقع، وإنما وصفه بالعِظَم قالوا: لكثرة العصي والحبال وضخامتها. فهذا التخييل وإن كان تخييلاً خيل للناس هذا العدد الضخم الكبير من هذه الحيات العظام الكبار كأنها جبال يركب بعضها بعضاً، فصار بهذا المنظر الهائل مع التخييل وكثرته كأنه عظيم، وصار في نفس الأمر أخذاً بالعيون وتخييلاً، وفي هذا يزول الإشكال بين الآيات، وهذا معنى قوله: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: أخافوهم. والرهب: الخوف. أرهبه: أخافه. والإرهاب: التخويف ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أرهبوهم، أي: أخافوهم. فجاؤوا بسحر عظيم لكثرة تلك الحبال والعصى وضخامتها وكبرها، وكون بعضها يركب بعضاً حتى امتلأ الوادي بالحيات العظام والأفاعي، حتى خاف جميع الناس، وهذا معنى قوله: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: آية ١١٦].

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١١٧ ـ ١١٩].

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

في هذا الحرف ثلاث قراءات سبعيات[2]: قرأه جمهور القراء غير

(١) انظر: القرطبي (٧/٢٥٩).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٣، حجة القراءات ص٢٩٢.

حفص عن عاصم والبزي عن ابن كثير: ﴿**فإذا هي تَلَقَّفُ ما يأفكون**﴾ وقرأه البزي وحده عن ابن كثير: ﴿**فإذا هي تَّلَقَّفُ ما يأفكون**﴾ بتشديد التاء بإدغام إحدىٰ التاءين في الأخرىٰ؛ لأن أصله: (تتلقف) وقرأه حفص عن عاصم: ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ مضارع لقِفه بكسر القاف يلقَفه بفتحها. فَتَحصَّل أن قراءة الجمهور: ﴿**تلَقَّف ما يأفكون**﴾ وهو مضارع (تَلَقَّفه يَتَلَقَّفه) إذا ابتلعه بسرعة هائلة. والمعنى: كلِ من التقم شيئاً بسرعة تقول العرب: «تَلَقَّفَه ولَقِفَه». فقراءة الجمهور حُذف فيها إحدىٰ التاءين، أصلها: فإذا هي تتلقف ما يأفكون، أي: تبتلعه وتلتقمه بسرعة، وعلى قراءة البزي فأصله: فإذا هي تَّلَقَّف ما يأفكون. في الصلة خاصة، فهي واضحة؛ لأن (تفعّل) و (تفاعل) يجوز فيها الإدغام. واستجلاب همزة الوصل، وهو كثير، كاطّيرنا بمعنى: تطير، وازيّنت بمعنىٰ: تزين، وادّارك بمعنىٰ: تدارك، وهو كثير، ومن أمثلته في الماضي في كلام العرب قول الشاعر[١]:

تُولي الضجيعَ إذا ما الْتَذَّهَا خَصِراً عَذْبَ المَذَاقِ إذا ما اتَّابَعَ القُبَلُ

يعني: تتابع القُبل. وهذا لا إشكال فيه.

أما على قراءة حفص عن عاصم: ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ فهو مضارع لقفه يلقفه إذا ابتلعه بسرعة. فمعنى القراءتين واحد.

ومعنى: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: آية ١١٧] يأفكون: مضارع أفكه يأفكه بالكسر، وأصل المادة الهمز والفاء والكاف (أَفَكَ) معناه: قَلْبُ الشيء وصرفه، فالأَفْك قلب الشيء وصرفه؛ ولذا سُمي الكذب إفكاً لأنه قلب للكلام وصرف له عن حقيقته الواقعة إلى الكذب والباطل، ومن أجل هذا سُميت قرىٰ قوم لوط: (المؤتفكات)، سمَّاها الله: (المؤتفكات) وسماها: (المؤتفكة) في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم: آية ٥٣] وإنما سماها: (مؤتفكة) لأن جبريل عليه السلام أَفَكَها بإذن الله. أي: قلبها، ومعنى أَفْكِهِ لها هو قلبها وجعل عاليها سافلها كما صرح الله به في قوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

سَافِلَهَا﴾ [الحجر: آية ٧٤] وما جُعل عاليه سافله فقد أُفك، أي: قُلب حتى صار أعلاه أسفله. هذا أصل الإفك[١]. ومعنىٰ: (يأفكون) يختلقون ويكذبون ويفترون من أن هذه العصي والحبال أنها حيات حقيقية مثل العصا التي عند موسىٰ. سماه إفكاً لأنه قلب [لحقيقة الأمر][٢] وصرف له عن حقيقته الصحيحة إلى الكذب والافتراء.

ومعنى الآية الكريمة: أن سحرة فرعون لما جاؤوا بذلك السحر العظيم أوحىٰ الله إلى نبيّه موسىٰ أن يلقي عصاه؛ ولذا قال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ وصيغة الجمع للتعظيم؛ يعني: فألقىٰ عصاه بأمر من الله ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ فاجأ ذلك من العصا، إذا هي ﴿تَلْقَفُ﴾ أي: تبتلع جميع ما يأفكون. فلما ألقاها موسى من يده، وانقلبت إلى ذلك الثعبان العظيم، وجاءت بسرعة وقوة هائلة وعناد هائل، قال ابن زيد: كانت مناظرة موسىٰ وسحرة فرعون في الإسكندرية من مصر، وكان ذَنَبُ العصا لما انقلبت حية وراء البحر كما يزعمون والله أعلم.

وعلى كل حال فقد صرّح الله بأنها ابتلعت جميع ما في الميدان من الحبال والعصي. يقولون: انقلبت إلى ذلك الثعبان العظيم، وجاءت تبتلع ذلك الموجود حبلًا حبلًا، عصاً عصاً، تلتقم ذلك وتبتلعه ولا يظهر في ضخم جثتها ولا يزيد فيها حتى تركت الميدان ليس فيه حبل وليس فيه عصا!!

ويقول المؤرخون والمفسرون[٣]: إن الخلق خافوا خوفاً شديداً، وأنه مات منهم عدد من الآلاف كثير من شدة الزحام هرباً من خلقها!! ويزعمون أن فرعون كان في مجلس له هو وقومه ينظر، وأنه داخله خوف شديد حتى قال بعضهم: إِنَّهُ سَلَحَ ثلاثمائة سلحة[٤]!!

وقال بعضهم: كان لا يأتي الغائط في أربعين يوماً إلا مرة واحدة وفي ذلك اليوم وقع منه ذلك أربعون مرة كما يقولون!! والله أعلم.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأعراف.

(٢) في هذا الموضع كلام غير واضح، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) انظر: القرطبي (٧/٢٥٨ ـ ٢٥٩).

(٤) قال في المصباح المنير: «سلح الطائر من باب (نفع) وهو منه كالتغوط من الإنسان» ا.هـ. (مادة: سلح) ص١٠٨.

وعلى كل حال لما ألقىٰ موسىٰ العصا واستحالت إلى هذا الثعبان العظيم والتقمت جميع ما كانوا يكدّسونه من الحبال والعصي ولم يبق فيهم شيء، وجاء موسى وأخذها بيده فإذا هي عصاه، ولم يوجد أثر ولا عين لتلك الحبال والعصي، عرف السحرة أن هذا أمر من خالق السماوات والأرض فخرّوا ساجدين لله بإيمان صحيح، وإخلاص عظيم رغم فرعون، وقالوا: آمنا بالله رب العالمين، رب موسىٰ وهارون، وداخلتهم بشاشة الإيمان مداخلة هائلة عظيمة، فعبّر الله عن شدة عظم البرهان بقوله: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأعراف: آية ١٢٠] عبر بقوله: ﴿وَأُلْقِيَ﴾ كأن إنساناً أمسكهم وألقاهم ساجدين بالقوة لقوة البرهان الذي رأوا به الحق، ومن هنا تعلم أنه قد يكون الشيء الخسيس الحقير وفيه بعض النفع كما قالوا:

(. . .)[1] لأن علم السحر ـ قبّحه الله ـ من أخسّ العلوم وأقبحها، وقد صرح الله (جل وعلا) في المحكم المنزل في سورة البقرة أن تعلمه يضر ولا ينفع، فهو ضرر محض لا نفع فيه كما قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ ولكن الله قد نفع هؤلاء القوم بهذا العلم الخسيس الخبيث، فتبين أن قوله: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: آية ١٠٢] من جميع الحيثيات غير هذه الحيثية وهو انتفاعهم به أنهم كانوا عالمين بالسحر عارفين بحدوده التي ينتهي إليها، فلما جاءت العصا والتقمت جميع الحبال والعصي ولم يجدوا حبلاً ولا عصا عرفوا أن هذا من الله؛ لأنهم يعرفون السحر ويعرفون مدىٰ تأثيره، فمعرفتهم بالسحر كانت نفعاً لهم بأن عرفوا أن العصا ليست من جنس السحر، فلو كانوا جاهلين بالسحر لظنوا أن عصا موسىٰ من جنس السحر والشعوذة، وهم لما عرفوا السحر تماماً عرفوا أن البرهان خارج عن طور السحر، وأنه لا يدخل فيه، وأنه أمر إلهي؛ ولذا ذُكر عنهم أنهم قالوا: لو كانت العصا من جنس السحر لوجدنا حبالنا وعصينا، فما انعدمت حبالنا وعصينا من أصلها إلا ببرهان من السماء. قيل: وقد قالوا لفرعون: إن كان هذا من سحر أهل الأرض فثق

---

(١) في هذا الموضع كلام غير واضح.

بأنا نغلبه، والذي لا طاقة لنا به هو شيء يأتي من السماء، فإن كان عنده شيء يأتي من السماء فلا طاقة لنا به، فلما كان من أمر العصا ما كان علموا أنه من السماء وأنه من أمر الله فآمنوا هذا الإيمان العظيم؛ ولذا قال الله عنهم: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠﴾ [الأعراف: آية ١٢٠].

ومعنىٰ قوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ لما ابتلعت العصا كل ما في الميدان مما أفكوه واختلقوه من الحبال والعصي لما ابتلعت العصا ذلك كله قال تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١١٨﴾ رتب على ذلك وقوع الحق بالفاء، قال بعض العلماء: (وقع الحق) معناه: حصل وانثبت. وجماهير المفسرين يقولون: (وقع الحق) هنا معناه: ظهر واستبان واتضح، حيث ظهر الحق واستبان واتضح، وبطل الباطل واضمحل، وعُرفت الحقيقة على بابها. والعرب يطلقون الوقوع على الظهور، قال بعضهم: الوقوع في لغة العرب: ظهور الشيء بوروده منحدراً إلى مستقره. وعلى كل حال فأكثر العلماء منهم ابن عباس وغيره يقولون: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر واستبان واتضح الحق أنه مع نبي الله موسى، وبطل ما كان يعمله السحرة من المخطط في الحبال والعصي.

وهذا معنى قوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١١٨﴾ [الأعراف: آية ١١٨].

وكان نبي الله موسىٰ قبل أن يلقي عصاه عالماً أن سحرهم باطل، وأنه سيبطله ويضمحل كما جاء عنه في سورة يونس: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ٨٢﴾ [يونس: الآيتان ٨١، ٨٢].

﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ١١٩﴾ [الأعراف: آية ١١٩] معروف أن (هنالك) إشارة لمكان بعيد، والواو في قوله: ﴿فَغُلِبُوا۟﴾ راجع إلى السحرة، (غُلبوا هنالك) غلبهم موسى ببرهان العصا لما ابتلعت جميع ما عندهم من الحبال والعصي ﴿وَٱنقَلَبُوا۟﴾ أي: السحرة وكل من كان معهم كفرعون وحزبه ﴿وَٱنقَلَبُوا۟﴾ رجعوا صاغرين. أي: أذلاء حقيرين داخرين، وهذا معنى قوله:

﴿وَانقَلَبُوا صَٰغِرِينَ﴾ الصاغر: هو وصف من الصَّغار، والصَّغار: الهوان والدخور والذلة كما هو معروف، وهذا معنى قوله: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١١٩، ١٢٠] بعد أن غُلبوا عرفوا برهان الله وآمنوا بالله إيماناً صحيحاً. وهو أمر في الحقيقة فيه عجب؛ لأنهم أول النهار كانوا يجادلون بالباطل ويعارضون آيات الله بالسحر، وفي آخر النهار صاروا من أولياء الله، وصار تعذيب الدنيا وما فيها كله ليس عندهم بشيء لقوة الإيمان الداخل في قلوبهم؛ ولذا هدّدهم فرعون بأعظم تهديد وهو أن يقطع يد الواحد اليمنىٰ ورجله اليسرىٰ ويصلبه على جذع النخلة، وجذع النخلة هو أخشن جذع خلقه الله في الأشجار، وهذا عذاب شديد، ومع هذا احتقروا عذابه ولم يكن عندهم بشيء، كما قال الله عنهم: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: الآيتان ٤٩، ٥٠] أي: لا ضرر علينا في ذلك. حتىٰ قالوا له في سورة طه: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: آية ٧٢] أي: وليس فيها شيء يهم؛ [لسرعة زوالها][1] وانقضائها، نحن نرغب فيما عند الله، ولا نبالي بما في الدنيا، كما يأتي في قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأعراف: آية ١٢٥] ونحو ذلك.

فالإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب هان على صاحبه كل شيء، وصغرت في عينه الأذيّات والتعذيب، ورجا ما عند الله كهؤلاء السحرة.

وقوله هنا: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأعراف: آية ١٢٠] هم وقت إلقائهم ساجدين ليسوا بسحرة، بل إنما هم من عباد الله المكرمين المؤمنين الأفاضل، ولكنه سماهم سحرة نظراً لحالهم الماضية كما سمىٰ البالغين (يتامىٰ) نظراً لهم في حالهم الماضية في قوله: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: آية ٢] كما هو معروف، وهذا معنى قوله: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ أي: لله إيماناً بالله.

---

(١) في الأصل: (لزوال سرعتها). وهو سبق لسان.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١﴾ [الأعراف: آية ١٢١] أي: خالق السماوات والأرض وما بينهما؛ لأن (العالمين) تشمل السماوات والأرض وما بينهما، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ الآية [الشعراء: الآيتان ٢٣، ٢٤].

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢﴾ [الأعراف: آية ١٢٢] الذي أنزل عليهما هذه المعجزة العظيمة الدالة على صدقهما وعلى ربوبيته وحده جل وعلا.

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ قرأ هذا الحرف حفص عن عاصم وحده من السبعة قال: ﴿ءَامَنتُم﴾ بلا همزة استفهام على الخبر، وقرأه الجمهور: ﴿ءآمنتم به﴾[1] وهم على أصولهم في تسهيل الهمزتين، من يسهل الثانية ويأتي بألف الإدخال. ومن يحققهما كما هو معروف في محله: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي: أآمنتم به أيها السحرة؟ آمنتم بموسىٰ قبل أن آذن لكم في ذلك؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي تواطأتم أنتم وهو عليه ﴿لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ [الأعراف: آية ١٢٣] لحيلة احتلتموها وتوافقتم عليها وتواطأتم عليها لتخرجوا أهل البلد من بلادهم ـ وهم القبط ـ وتُسكنوا في أرضهم بني إسرائيل، وتتفقوا معهم على ذلك!! وهذا فعله فرعون مكراً منه وخداعاً، وخوفاً منه أن تتبع الناس السحرة فيؤمنوا بموسىٰ!! فجعل أن موسىٰ والسحرة تواطؤوا على مكر خبيث يريدون ظلم أهل البلد وإخراجهم من بلدهم وإسكان غيرهم فيه ـ قبّحه الله ـ وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ﴾ يعني: إيمانكم أنتم بموسىٰ وسجودكم لربه وموافقتكم له ﴿مَكۡرٞ﴾ أي: حيلة احتلتم أنتم وإياه بها، احتلتم بها على أهل البلد لتخرجوهم من بلادهم، وهذا معنىٰ قوله: ﴿لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ بعضهم يقول: المدينة التي وقع فيها: الإسكندرية. والله تعالى أعلم.

﴿لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ﴾ لأجل أن تخرجوا منها أهلها باتفاقكم عليهم ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: فسوف تعلمون ما أنكلكم به من التعذيب على

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٣.

مكركم وموافقتكم مع موسىٰ على المكر، وإخراج أهل الأرض منها. ثم بين ما يعدهم به/ فقال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ [الأعراف: آية ١٢٤] الأيدي: جمع يدٍ، ووزنه (أَفْعُل) والأرجل كذلك وزنه (أَفْعُل) ومعلوم أن (أَفْعُل) من جموع القلة، إلا أن المقرر في الأصول وفي علوم العربية: أن جموع القلة لا تكون جموع قلة إلا إذا كانت مُنكَّرة خاصة، أما إذا أُضيفت إلى معارف فهي صيغ عموم، وهي إذاً من جموع الكثرة.

١/١٧

ومعنى قوله: ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: من جهتين مختلفتين بأن يقطع اليد اليمنىٰ من شِق فيضعف ذلك الشِّق باليد [ويقطع][1] الرجل اليسرىٰ من الشق الآخر فيكون كل من الشّقين قد ضعف.

﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لم يبيّن هنا في الأعراف ولا في الشعراء ما ذا الذي يصلبهم عليه، وقد بيّن في سورة طه أنه يصلبهم في جذوع النخل[2] كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: آية ٧] وجذع النخل هو أخشن جذع من جذوع الشجر خلقه الله ـ جل وعلا ـ وأصعب على المصلوب الصلب عليه. وعلماء البلاغة يقولون: إن قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: آية ٧١] فيه ما يسمونه (استعارة تبعية) في معنى مُتَعَلَّق الحرف[3]. والأظهر أنه أسلوب عربي معروف، فالعرب تقول: صلبه على الجذع، وصلبه فيه، وهو معنىً معروف في كلام العرب، ومن قولهم: «صلبه في الجذع» قول الشاعر[4]:

هموا صلبوا العَبْديَّ في جِذْعِ نَخْلةٍ فلا عطستْ شيبانُ إلا بأَجْدَعَا

وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٢٤] لأصلبنكم في جذوع النخل أجمعين.

---

(١) في الأصل: «ويضعف». وهو سبق لسان.
(٢) انظر: الأضواء (٢/٣٣٠).
(٣) انظر: جواهر البلاغة ص٢٤٨.
(٤) البيت في اللسان (مادة: فيا) (٢/١١٥٨).

وهذا يدل على أن أولياء الله يُمتحنون دائماً في الله، فخير ما تكون به المحنة: المحنة في الله، فعلى المسلم إذا بُلي في دينه وامتُحن في الله أن يصبر ويصمد، ويعرف أن هؤلاء السحرة وُعدوا بقطع أيديهم وأرجلهم، والصلب على جذوع النخل، ومع هذا هم صامدون صابرون لا يلتفتون إلى فرعون، بل يقولون له: ﴿فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَآ﴾ [طه: آية ٧٢] فالله قصّ علينا خبر هؤلاء لنعتبر بهم كما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِى الْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: آية ١١١] فإذا جاءتنا أذيّة وبلايا في ديننا فعلينا أن نصبر على المحن بالغة ما بلغت، ولا نتلاشى ولا نضعف، ولا نضيع ديننا؛ لأن خير ما يُبلى الإنسان فيه ويصمد ويصبر هو دينه.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا۟ بِاللَّهِ وَاصْبِرُوٓا۟ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَالْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٢٥ ـ ١٢٩].

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ هذا جواب السحرة لفرعون لما آمنوا بالله إيماناً عظيماً، وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وقال لهم فرعون إنهم هم وموسى تواطؤوا واتفقوا على إخراج أهل قريتهم من مدينتهم مكراً منهم، وتواطؤوا على الظلم، ووعدهم بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلبهم في جذوع النخل، لمّا توعدهم فرعون هذا الوعيد الشديد، وعابهم هذا العيب المختلق أجابوه هذا الجواب الإيماني العظيم، وقالوا له كأنهم يقولون له: ﴿فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: آية ٧٢] وأوعد من العذاب ما أنت واعد فنحن لا نبالي بك ولا نرائي بك ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٢٥] راجعون إلى رب رحيم كريم عظيم الجزاء سنجد عنده من النعيم ما يُنسينا جميع مضار الدنيا وما فيها من البؤس، كأنهم برغبتهم فيما عند الله وعلمهم بما يجازيهم به الله من النعيم سقط من أعينهم عذاب الدنيا،

وصاروا يعتقدونه كَلاَ شيء، وهذا هو الصحيح بالآية، وقد بيّنه الله في سورة الشعراء، وبيّنه بإيضاح: أنه لما ذكر في سورة الشعراء أن فرعون توعدهم هذا التوعد بالعذاب في قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأعراف: آية ١٢٤] أجابوه قائلين كما قصّ الله عنهم في سورة الشعراء: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: آية ٥٠] (لا ضير) الضير معناه: الضرر. قالوا: ضَارَّه يضيره ضيراً، وضره يضره ضراً بمعنىٰ واحد، كما قدمنا إيضاحه بشواهده في قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ على قراءة: ﴿لا يَضِرْكُم كيدهم شيئاً﴾ [آل عمران: آية ١٢٠][1].

وقوله: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ بناه مع (لا)، والنكرة المبنية مع (لا) تدل على أن (لا) هي التي لنفي الجنس، فكأنهم نفوا جنس الضرر في عذاب الدنيا واحتقروه وهان في أعينهم ورأوه لا شيء بالنظر إلى ما عند الله. ثم بيّنوا علّة انتفاء ذلك الضرر في أعينهم فقالوا: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٢٥] كما يوضح آية الأعراف هذه.

ثم قالوا موضحين: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء: آية ٥١] فالمؤمن الحق إذا علم ما عند الله من النعيم والثواب هان وصغر في عينه كل عذاب وبلاء في الدنيا، كما قالوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: آية ٧٢] أي: وليس فيها شيء يهم [لسرعة زوالها][2] وانقضائها. فهذا معنى قوله: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٢٥].

هذا الانقلاب ينقلب به كل أحد كائناً ما كان، فينبغي لكل إنسان أن يُحسِّن منقلبه إلى الله؛ لأن الله يقول: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: آية ٢٢٧] فمعنىٰ: ﴿مُنقَلِبُونَ﴾ أنهم يموتون فيبعثون فيُقلبون إلى الله، يرجعون إليه فيجازيهم، هذا معنى قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأعراف: آية ١٢٥].

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٦٨.

(٢) في الأصل: «لزوال سرعتها». وهو سبق لسان.

ثم بيّنوا لفرعون أنه ظالم لهم وليس لهم ذنب يعيبهم به ولا يعذبهم لأجله، وقالوا: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ العرب تقول: (ما تنقم مني)؟ معناه: ما تعيب مني وما تَنْتَقِدُ مِنيّ؟ وأقوال علماء التفسير متقاربة[1]، كلها راجعة إلى شيء واحد، فبعضهم يقول: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ ما تعيب منا، ما تُنكر منا، ما تكره منا؟ ونحو ذلك، فهي أقوال معروفة، والعرب تقول: نقم عليّ فلان كذا ونَقِمَهُ. أي: انتقده وأنكره عليّ وكرهه مني. فكأنهم يقولون لفرعون: ما تعيب وتكرهه منا وتنكره حتىٰ تجعله سبباً لتعذيبنا إلا أعظم الأشياء وأحسنها وأشدها استجلاباً للمودة والمحبة، فهو الإيمان بالله أي: ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ يعني: ما تعيب علينا شيئاً ولا تكره منّا شيئاً فعلناه ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ﴾ [الأعراف: آية ١٢٦] واضحة لا لبس فيها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ﴾.

ولما بينوا لفرعون أنهم ما فعلوا شيئاً يستوجبون عليه تعذيباً سألوا الله أن يرزقهم الصبر على العذاب الدنيوي، وأن يميتهم وهم على إسلامهم، سألوه سؤالين عظيمين:

أحدهما: أن يعطيهم الصبر ويعينهم عليه.

والثاني: أنه يثبتهم على إيمانهم وإسلامهم حتىٰ يموتوا ويلقوه مسلمين؛ ولذا قال الله عنهم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ الإفراغ في لغة العرب التي نزل بها القرآن: الصبُّ الشديد الذي يترك الإناء فارغاً لا شيء فيه ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا﴾ معناه: اصبب علينا صبراً من عندك. ونكّر الصبر هنا للإشعار بالتعظيم. أي: صبراً عظيماً جميلًا عظيماً نواجه به تعذيب هذا الجبار ﴿وَتَوَفَّنَا﴾ أمِتْنا، ﴿مُسْلِمِينَ﴾ أي: ونحن على إسلامنا لا تزغ قلوبنا ولا تُشقنا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

وهذه الآية الكريمة نظائرها كثيرة في القرآن وفي كلام العرب، وأسلوبها الذي جاء بها هو الذي يقول له البلاغيون: (تأكيد المدح بما يشبه الذم)[2]

---

(١) انظر: ابن جرير (٣٥/١٣)، القرطبي (٢٦١/٧).

(٢) انظر: التلخيص للقزويني ص٣٨٢.

ونظيرها في القرآن قوله: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: آية ٧٤] ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: آية ٨] وهو كثير في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[1]:

ما نَقِموا من بني أميةَ إلا أنهم يَضْرِبُون فَيَغْلِبُون

وهو كثير في كلام العرب، كقوله: ﴿أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: آية ٤٠] ومنه قول نابغة ذبيان[2]:

ولا عَيْبَ فيهم غير أن سيوفَهم بهنَّ فُلُولٌ من قِراعِ الكَتائبِ

وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [الأعراف: آية ١٢٦] اصبب علينا صبراً عظيماً نواجه به نكال هذا الجبار.

والصبر في لغة العرب التي نزل بها القرآن: هو حبس النفس عن المكروه، تقول: صبرت نفسي. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ ومادته تتعدىٰ وتلزم، ومن تعديها قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ [الكهف: آية ٢٨] وقول عنترة العبسي[3]:

فصبرتِ عارفةً بذلك حُرةً ترسُو إذا نفسُ الجبانِ تَطَلَّعُ

كما هو معروف.

والصبر في اصطلاح الشرع[4] خصلة عظيمة يندرج فيها جميع خصال الإسلام؛ ولذا قال الله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: آية ١٠] ومن سادات الصابرين: الصائمون؛ لأنهم صبروا لله عن شهوات بطونهم وفروجهم طاعة لربهم.

---

(١) البيت لعبيدالله بن قيس الرقيات. وهو في اللسان (مادة: نقم) (٣/٧١٠)، البحر المحيط (٥/٧٣)، الدر المصون (٦/٨٧).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٤) السابق.

والصبر في اصطلاح الشرع يستلزم الصبر عن جميع المعاصي ولو اشتعلت نار الشهوات، والصبر على الطاعات وإن كان كالقابض على الجمر، والصبر على البلايا عند الصدمة الأولى كما طلبه هؤلاء؛ لأنهم في بليّة ومحنة كبرىٰ يطلبون الصبر عليها، ويدخل فيه الصبر على الموت تحت ظلال السيوف عند التقاء الصفين[1].

وقوله: ﴿مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٢٦] قدمنا مراراً معنى الإسلام والإيمان، وأن الإسلام في لغة العرب معناه: الإذعان والانقياد، فكل مذعن منقاد فهو مسلم. وأسلم له إذا أذعن وانقاد[2]، وهو معروف في كلامهم، ومنه قول زيد بن نفيل مؤمن الجاهلية[3]:

وأسلَمتُ وجهي لمن أسلَمَتْ ... له الأرضُ تحملُ صخراً ثِقَالا
دَحَاهَا فلما استوتْ شَدَّها ... جميعاً وأَرْسَىٰ عليها الجِبَالا
وأسلَمْتُ وجهي لمن أسلَمَتْ ... له المزنُ تحمل عذباً زُلالا
إذا هي سِيْقَتْ إلى بلدةٍ ... أَطَاعَتْ فصبت عليها سجالا

فقوله: أسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ له الأرض، وأسلمتْ له الصخر.

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ ... له الريح تُصْرَفُ حالاً فحالا

معناه: أذعنتُ وانقدتُ لمن أذعن له الريح والمزن والحجارة. هذا أصل معنىٰ الإسلام في لغة العرب.

وهو في اصطلاح الشرع[4]: الإذعان والانقياد التام من جهاته الثلاث، أعني: انقياد القلب بالاعتقاد والنيات، وإذعان اللسان بالإقرار، وإذعان

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٢) انظر: المقاييس في اللغة. كتاب السين، باب السين واللام وما يثلثهما ص٤٨٧.

(٣) مضت هذه الأبيات عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأعراف. ولفظ البيت الثاني في السيرة لابن هشام (٢٤٧/١):

دحاها فلما رآها استوت ... على الماء أرسى عليها الجبالا

(٤) انظر: شرح الطحاوية ص٤٨٨.

الجوارح بالعمل. أي: توفنا منقادين لك ولطاعتك بقلوبنا وألسنتنا وجوارحنا حتى نلقاك وأنت راض عنا. وهذا معنى قوله: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٢٦].

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: آية ١٢٧].

لما وقع ما وقع وآمن السحرة لله حرّض أشرافُ جماعة فرعون حرضوا فرعون على موسى وقومه يريدون أن يقتلهم أو يُنكّل بهم؛ ولذا قال الله عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: أشراف جماعة فرعون قالوا لفرعون: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾ (أتذر موسى) معناه: أتترك موسى وقومه الذين هم معه مؤمنون به وهم بنو إسرائيل، أتذرهم أي: تتركهم لأجل أن يفسدوا في الأرض؟

وهذا الفعل الذي هو (تذر) لم يُسمع منه إلا مضارعه وأمره، تقول العرب: (ذر) بمعنى اترك. و (تذر) بمعنى: تترك. ولم يُسمع منه غير هذا[1]. فلم يأت من كلامهم فعل ماض، ولا مصدر، ولا اسم فاعل، ولا اسم مفعول، فاسم فاعله: تارك. واسم مفعوله: متروك. وهكذا نطقت به العرب أمراً ومضارعاً فقط. أي: أتترك موسى وقومه؟

واللام في قوله: ﴿لِيُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هذه لام التعليل المعروفة بلام كي، وأصلها تُشكل على طلبة العلم: كيف جاءت هذه اللام المُعَلِّلة بهذا الوضع؟

والجواب عن ذلك: أن الملأ من قوم فرعون زعموا أن مجرد تركه لهم هو علة لإفسادهم في الأرض، فجعلوا مجرد ترك فرعون لموسى وقومه، وعدم قتلهم أو التنكيل بهم جعلوه هو نفس علّة الإفساد في الأرض؛ ولذا جاؤوا بعد قولهم: ﴿أَتَذَرُ﴾ باللام في قوله: ﴿لِيُفْسِدُوا﴾ [الأعراف: آية ١٢٧] كما يزعمون: (إن السّفيه إذا لم يُنه مأمور)[2]؛ لأنك إن لم تنههم فتضرب على أيديهم فكأنك قد أمرتهم بالإفساد في الأرض!!

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة المائدة.

(٢) انظر: جمهرة الأمثال للعسكري ص٥١٢، معجم الأمثال العربية (٣٦٦/٢).

وقد قدمنا مراراً أن الكفرة الفجرة يزعمون العمل بكتب الله واتباع رسله إفساداً في الأرض. وقد أوضحنا ذلك فيما مضىٰ. فمعنىٰ إفسادهم في الأرض: أنهم يزعمون أنهم يؤمنون بموسىٰ، ويكونون معه، ويكونون حرباً على القبط فيخرجوهم من بلاد مصر، هذا معنىٰ إفسادهم في الأرض المزعوم.

﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ نصب ﴿وَيَذَرَكَ﴾ عطفاً على ﴿لِيُفْسِدُوا۟﴾ وقيل: إنه منصوب بـ (أن) بعد الواو؛ لأن الواو هي أخت الفاء، فبعد الاستفهام يُنصب بعدها المضارع بـ (أن) مضمرة، كما هو معروف، كقول الحطيئة[1]:

ألَمْ أكُ جارَكم ويكونَ بيني وبينكمُ المودةُ والإخَاءُ

كما هو معروف في محلّه، وأظهر القولين: أنها عطف على الفعل المنصوب في ﴿لِيُفْسِدُوا۟﴾.

﴿وَيَذَرَكَ﴾ يعني: يتركك وآلهتك، لا يعبدك ولا يعبد آلهتك. يزعم المؤرخون أن لفرعون آلهة يأمر قومه بعبادتها، وهم يتقربون إليه هو بعبادتها، وهو كأنه هو الإله الكبير، كما يأتي في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: آية ٢٤] عليه لعائن الله، وقراءة الجمهور ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ ويذرك فلا يعبدك ويذر آلهتك فلا يعبدها، وقراءة ابن عباس: ﴿ويذرك وإِلَاهَتَكَ﴾[2] أي: وعبادتك. وهي قراءة شاذة، فـ (الإلاهة): العبادة. قال فرعون لهم: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾، سننكل بهم ولا نمهلهم، ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾، كل من يولد لهم قتلناه ﴿وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ نترك بناتهم ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾ (. . .)[3] يعني: فوقيّة مكانة ومنزلة، قاهرون لهم، مذللون لهم تحت سلطاننا.

وهذه الآية الكريمة تدل على أن فرعون ذبح أولاد بني إسرائيل تذبيحتين:

التذبيحة الأولى التي كانت سبباً لجعل أم موسىٰ موسى في التابوت،

---

(١) البيت في ديوانه ص٥٤، والقرطبي (٢٧٥/١).

(٢) مضت عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

(٣) في هذا الموضع وقع مسح يسير في التسجيل، وهو لا يؤثر؛ لأن المعنى مستقيم بصورته الحالية.

كما سيأتي خبرها مفصَّلًا في سور من كتاب الله، حيث قال لها: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: آية ٧] وخوفها عليه أي من قتل فرعون للأولاد حذراً من ذلك الغلام الذي سيزول ملكه عليه.

وتذبيح الأولاد الثاني: هو بعد أن جاءهم موسىٰ نبياً من الله، كما صرح الله به هنا، وأوضحه في سورة المؤمن في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر: آية ٢٥] وهذا معنى قوله: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ وقرأ بعضهم: ﴿سَنَقْتُل أبناءهم﴾[1].

﴿وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٢٧] لما هددهم فرعون هذا التهديد بقتل الأبناء جزع الإسرائيليون، جزعوا جزعاً شديداً من ذلك، وخافوا منه خوفاً شديداً، فصار نبي الله موسىٰ يهدئهم ويشير لهم إلى الوعد الذي عنده من الله، قال موسى لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: آية ١٢٨] استعينوا: معناه اطلبوا العون من الله، والياء في (استعينوا) مُبدلة من واو؛ لأن المادة واوية العين، ووزن (استعينوا): (اسْتَفْعِلُوا)[2] والسين والتاء للطلب، أي: اطلبوا العون من الله على هذا الطاغية العظيم، وهذا الجبار الكافر، وترقبوا ما عند الله من الفرج، ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ احبسوا نفوسكم على المكروه حتى يخلصكم الله بفضله: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ الأرض بجميعها ويدخل فيها أرض مصر ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: يجعلها في آخر الأمرين لمن يشاء أن يجعلها له من عباده ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾[3]: الحال الحسنة التي تكون في آخر الأمرين، وما يؤول إليه الحال ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه. وقد قدمنا مراراً في هذه الدروس[4] أن المتقي اسم فاعل الاتقاء، وأن (الاتقاء) في لغة العرب التي نزل بها القرآن

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٣.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٤) من سورة الأعراف.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

معناه: اتخاذ الوقاية. تقول مثلًا: اتقيت الرمضاء بنعلي، والسيوف بِمِجَنِّي. وكل شيء جعلت بينه وبينك وقاية فقد اتقيته، ومنه قول نابغة ذبيان[١]:

سَقَطَ النَّصِيْفُ ولم تُرِدْ إسقَاطَهُ فَتَنَاوَلَتْهُ واتَّقَتْنَا باليَدِ

أي: جعلت يدها وقاية بيننا وبين وجهها لئلا نراه.

وأصل مادة التقوى من (وقي) ففاؤها واو، وعينها قاف، ولامها ياء[٢]. فهي مما يسميه الصرفيون: لفيفاً مفروقاً[٣]، هذا أصلها.

والاتقاء: اتخاذ الوقاية، والاتقاء في الشرع: هو اتخاذ الوقاية التي تقي سخط الله وعذابه، وهذه الوقاية التي تقي الإنسان سخط ربه وعذابه هي امتثال أمره واجتناب نهيه (جل وعلا). فالاتقاء: امتثال الأمر واجتناب النهي، وهو اتخاذ الوقاية التي تقي سخط الله وعذابه، وهذا معنى قوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٢٨].

لما هدَّأ موسىٰ قومه، وأمرهم بالصبر، وأشار لهم إلى وعد الله، وأن العاقبة لمن اتقى الله وهم المؤمنون لا الكافرون قال له قومه: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ [الأعراف: آية ١٢٩] حُذف الفاعل هنا وهو معروف، أي: آذانا فرعون وقومه من قبل أن تأتينا من مدين بعد أن صرت نبياً، وذلك الإيذاء هو ذبح أولادنا، واستحياء نسائنا، وإهانتنا بالأعمال الشاقة. وقعت لنا منه هذه الإهانات وأنت هنالك في مدين قبل أن تأتينا ووقع لنا ذلك بعد ما جئتنا، فتراه الآن يقول: إنه يذبح أبناءنا!! فقد حصل لنا الأذىٰ في كل الأوقات قبل مجيئك وبعده. وهذا معنى قولهم: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ فهَدَّأَهم نبي الله موسى، وأشار لهم إشارة أكبر من الأول إلى الوعد بنصر الله لعباده المؤمنين، وإهلاك الكفرة الظالمين، قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ (عسىٰ) فعل ترجي يدل على رجاء اتصاف المبتدأ بالخبر، وخبره غالباً إنما يكون فعلًا مضارعاً مقروناً بـ (أن) وربما جُرِّد من (أن) كما

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) لأن حروف العلة غير متوالية فيه، بخلاف اللفيف المقرون.

هو معروف في محله. أي: فأرجو لكم رجاءً قوياً من عند خالقكم (جل وعلا)، أي: من خالقكم ومدبر شؤونكم عسى أن يهلك عدوكم فرعون وقومه بأمر من عنده ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يجعلكم خلفاء في الأرض من بعدهم ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فذلك يدل على أن المستخلفين في الأرض لم يُستخلفوا فيها لأجل الإنعام بها عليهم، بل كل ذلك للابتلاء والامتحان، فيطيعون الله فيما استخلفهم فيه أو يعصونه.

وهذه الآية الكريمة فيها وعيد شديد، وتخويف عظيم، لمن استخلفه الله في الأرض بعد عدوِّه الذي كان يقاومه وبسط يده بالأرض، فإذا كان عنده عقل فإنه يخاف من نظر الله إليه كيف يفعل، فيطيع الله في كل ما يفعل كما لا يخفى. فهذه من أعظم المواعظ وأكبرها التي يعظ الله بها الذين يُستخلفون في الأرض بعد الذي كانوا فيها. وهذا معنى قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٢٩].

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٣٠ ـ ١٣٥].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٠، ١٣١].

اللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ﴾ موطئة للقسم، وصيغة الجمع للتعظيم،

والمراد بـ (آل فرعون): فرعون وقومه[١]، والمعنىٰ: أن السحرة لما غُلبوا، وأظهر الله معجزة نبيه، وعرف فرعون وقومه أنه الحق، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: آية ١٤] امتحنهم الله بآيات فيها بعض العذاب، أخذهم أولاً بالسنين ونقص من الثمرات، كما قال هنا: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ﴾ والله لقد أخذنا ﴿ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: فرعون وقومه.

﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ والمراد بالسنين: الجدب والقحط حتى تقل بسببه الأرزاق. يعني: هذا البلاء بالسنين، العرب تقول: هذه سنة، وهذه سنون. يعنون أنها عام أو أعوام جُدب، يقلّ فيه المطر، ويكثر فيه الجدب، ويقل فيها الأرزاق. وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قوله ﷺ: «**اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»[٢] حتى إن العرب ليقولون: أسنت القوم. أي: أصابتهم السنة الشهباء المجحفة، التي فيها جدب وعدم المطر. ومنه قول ابن الزبعرى السهمي[٣]:

عمروُ العُلا هَشَم الثريد لقومهِ ورجالُ مكةَ مُسْنِتُون عِجَافُ

(مسنتون): أصابتهم السنة بالقحط وعدم المطر حتى جاعوا، وهذا معنىٰ قوله: ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي: وأخذناهم بنقص من الثمرات بحيث لا تثمر أشجارهم. قال بعضهم: كانت النخلة قد تكون فيها تمرة واحدة. قال بعض العلماء: السنين: هي الجدب بباديتهم، ونقص الثمرات: قلة الزروع والثمرات لأمصارهم[٤].

وعلى كل حال فالمراد أن الله يُقل عليهم المطر حتى تقل أرزاقهم من زروع وثمار وغيرها، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: آية ١٣٠] أي: يتعظون.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأنعام.

(٣) البيت في القرطبي (٧/٢٦٤)، الدر المصون (٥/٤٢٧).

(٤) انظر: ابن جرير (١٣/٤٦).

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[١] أن أشهر معاني (لعل) معنيان:

أحدهما: أنها حرف ترجّي كما هو معروف، إلا أن الترجّي فيها بالنسبة إلى خصوص علم المخلوقين؛ لأن الله (جل وعلا) عالم بما كان وما سيكون وما تؤول إليه عواقب الأمور. وعلىٰ هذا فمعنىٰ قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه: آية ٤٤] أي: على رجائكما أنتما أنه يتذكر، أما الله فهو عالم أنه لا يتذكر ولا يخشىٰ.

المعنىٰ الثاني: هو ما ذكره بعض العلماء من أن كل (لعل) في القرآن هي بمعنى التعليل إلا التي في سورة الشعراء: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: آية ١٢٩] قالوا: هي بمعنىٰ: كأنكم تخلدون. هكذا ذكر بعضهم، ومن المعلوم أن (لعل) تأتي في القرآن مُراداً بها التعليل، منه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: آية ٧٨] أنعم عليكم بهذه النعم لأجل أن تشكروا. ومن شواهد إتيان (لعل) مراداً بها التعليل قول الشاعر[٢]:

وقُلتُم لنا كُفُّوا الحروبَ لعلنا نكفُّ ووثَّقتُم لنا كل مَوْثِقِ

يعني: كفوا الحروب لأجل أن نكف عنكم. وهذا معنى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون بما سلط الله عليهم من السنين ونقص الثمرات، وهذا معنى قوله: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٠].

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ﴾ المراد بالحسنة هنا بإجماع المفسرين: هو ذاك الخصب، وكثرة المطر، وكثرة الأرزاق والعافية. أي: فإذا جاءهم الله بالحسنة فأدر عليهم السماء، وأنبت لهم الزروع والثمار، وأكثر غلات مواشيهم من ألبان، وأسمان، وأزباد، ولحوم، وشعور، وأوبار، وأصواف، إلى غير ذلك مما ينتفعون به من متاع الدنيا، إذا جاءتهم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

هذه الحسنة ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ المعنى: هذه لنا ونحن نستحقها، وما أُعطيت لنا إلا أننا قوم عظام يستحقون هذه الكرامة، فهذا مما نستحقه. افتراء وكذباً على الله.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [الأعراف: آية ١٣١] المراد بالسيئة هنا في أقوال المفسرين: هو ضد الحسنة، والمراد: إذا جاءهم قحط، وكان في الأرض جدب، وقلَّت أرزاقهم، وجاءتهم الأمراض. والمعنى: أن الله إذا قلّل عليهم الأرزاق، وأمسك عنهم المطر، وجاءتهم الأمراض، إن جاءتهم هذه البلايا ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾ أصله: يتطيروا ﴿بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: آية ١٣١] والتطير في لغة العرب: التشاؤم. أي: يتشاءموا بموسىٰ ومن معه، ويقولون: هذا الجدب، وهذه قلة الأرزاق، وهذه الأمراض ما جاءنا إلا بسبب شؤمكم، وسبب ما جئتم به من دين موسىٰ، كل هذه البلايا بسبب شؤمكم. وهذه عادة الكفار إذا تمردوا على الله، وعصوا الله، وكذبوا رسله، وعذبهم الله على ذلك، زعموا أن ذلك جاءهم من قِبل الأنبياء[1]. ونظائره في القرآن كثيرة، كما قال الكفار لنبينا ﷺ مثل ذلك لما ذكره الله عنهم في سورة النساء في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النساء: آية ٧٨] وكما قال عن الرسل المذكورين في يس إن قومهم قالوا: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ﴾ [يس: الآيتان ١٨، ١٩] وكما ذكر عن قوم صالح أنهم قالوا له: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل: آية ٤٧] والتطير معناه: التشاؤم، والتشاؤم هو أن يقول: جاءني هذا بشؤمك. وأصل التطير[2] مشتق من الطير،/ لأن عادة العرب أن أكثر ما كانوا يتشاءمون به الطير، وهو الطيرة المعروفة، كانوا يأتون الطير ويطيرونها من مواقعها، فإذا طارت على اليمين قالوا: هذا سانح. وتيمنوا به، وإذا طارت إلى الشمال ١٧/ب

(١) انظر: الأضواء (٢/٣٣٠ ـ ٣٣١).

(٢) انظر: القرطبي (٧/٢٦٤).

قالوا: هذا بارح، وتشاءموا له، كما قال علقمة بن عبدة التميمي[(١)]:

ومن تعرض للأطيار يزجرها … على سلامته لا بد مشؤوم

وكانوا يدّعون أنهم يعرفون أمور الغيب من طيران الطيور، وجِهَات طيرانها، وأصواتها، والأشجار التي تنزل عليها، وكان من المشتهرين بذلك بنو لِهْب من قبائل العرب، وفيهم قال الشاعر[(٢)]:

خبيرٌ بَنُو لِهْبٍ فلا تَكُ مُلْغِياً … مَقَالَةَ لِهْبِيٍ إذا الطيرُ مرتِ

وقد جاءت أحاديث عن النبي ﷺ تنهى عن الطيرة، وتحذر المسلمين منها، حديث ابن مسعود في سنن أبي داود وغيره أنه ﷺ قال: «**الطيرة شرك**»[(٣)] وفيه أحاديث كثيرة معروفة تنهى عن ذلك، وجاء ببعض الأحاديث إن الإنسان إذا وجد شيئاً منها يقول: «**اللهم لا خير إلا خيرك، ولا ضرر إلا ضرك**»[(٤)]. الحديث المشهور.

وعلى كل حال فالتطير والتشاؤم من صفات الكفار، وعلى المسلمين

---

(١) البيت في ديوانه ص٥٦، وشطره الأول في الديوان هكذا:

ومن تعرض للغربان… …………………………

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنعام.

(٣) أخرجه أحمد (٣٨٩/١، ٤٣٨، ٤٤٠)، والبخاري في الأدب المفرد، حديث رقم (٩١٢)، وأبو داود في الكهانة والتطير، باب: في الطيرة. حديث رقم (٣٨٩٢)، (٤٠٥/١٠)، والترمذي في السير، باب ما جاء في الطيرة. حديث رقم (١٦١٤)، (١٦٠/٤)، وقال: «حسن صحيح» ا.هـ. وابن ماجه في الطب، باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة. حديث رقم (٣٥٣٨)، (١١٧٠/٢)، والحاكم (١٧/١ ـ ١٨)، والطيالسي في المسند ص٤٧، والطحاوي في المشكل (٣٥٨/١)، وشرح المعاني (٣١٢/٤)، وابن حبان (الإحسان (٦٤٢/٧)، والبيهقي (١٣٩/٨)، والبغوي في شرح السنة (١٧٧/١٢ ـ ١٧٨)، من حديث ابن مسعود (رضي الله عنه). وهو في صحيح الأدب المفرد برقم (٦٩٨)، السلسلة الصحيحة برقم (٤٢٩)، صحيح أبي داود (٣٣٠٩)، صحيح ابن ماجه (٢٨٥٠)، غاية المرام (٣٠٣)، صحيح الترمذي (١٣١٤).

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٠/٢)، وابن السني في عمل اليوم والليلة ص١١٧، ولفظه: «**اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك**».

اجتنابه، وأن يتوكلوا على الله، ولا ينبغي لهم أن يمنعهم التطير من سفر، ولا أن يجزعوا من التطير. واعلموا أن الأمور بيد الله، وأن الشؤم الحقيقي الذي يستجلب كل الضرر هو مخالفة رب العالمين (جل وعلا)، أما كل فعل لم يخالف به الله فهذا لا ضرر فيه ولا طيرة؛ لأن الله ما أباحه إلا لأنه لا ضرر فيه. وعلى المسلم أن يتحرز من هذا كله، ولا يتشاءم بشيء، وأن يبني الأمور على التوكل على الله، ومراعاة أوامره ونواهيه، كما هو معلوم لا يخفى. وهذا معنى قوله: ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾.

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أظهر الأقوال في هذه الآية الكريمة: أن الله لمّا ذكر أنهم يكفرون به، ويتمردون ويعارضون رسله، وأنهم مع ذلك يزعمون أن الذي يصيبهم [إنما هو بسبب شؤم نبيهم موسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين، فأكذبهم][1] الله ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: الطائر المشؤوم التي جاءتهم البلايا منه عند ربهم وذلك إنما جاءهم بسبب كفرهم بالله ومعصيتهم لله؛ لأن الكفر بالله ومعصية الله هو الطائر المشؤوم الذي يأتي صاحبه بسببه كل سوء ومكروه في الدنيا والآخرة. وقال بعض العلماء: طائرهم وحظهم عند الله هو الذي يأتيهم بالخير ويأتيهم بالشر، وليس ما جاءهم من قِبلنا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لا يعلمون أن ذلك هو الحق فيكذبون على الله ويتقولون على موسىٰ ومن معه أن ما أصابهم بسبب شؤمهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٣١].

﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٢، ١٣٣].

﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٣٢﴾ [الأعراف: آية ١٣٢].

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(. . .)[١] و (ما) الثانية مؤكدة لها تأكيداً لها؛ لأن تكريرها يفيدها تأكيداً، وأصلها: ما ما بتكرير لفظة (ما) وأنهم استثقلوا توالي حرفين متجانسين فأبدلوا ألف (ما) الأولى هاء، وقالوا: (مهما) هذا قول الخليل، واختيار جُلّ البصريين.

وقال جماعة آخرون: إن (مهما) أصلها: (مه) التي هي اسم فعل بمعنىٰ: اكفف. وأن (ما) الأخرىٰ هي (ما) التي تُعلِّق الشرط بالجزاء، والمعنى: اكفف. اكفف يا موسىٰ ما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين أي: كف عنا مجيئك بالآيات، ما تأتينا به من آية لستحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين.

وعلى هذين القولين فأصل (ما) مركبة لا بسيطة.

وقال جمهور علماء العربية: إن (مهما) أصلها حرف بسيط وضعته العرب هذا الوضع تُعلِّق به الجزاء على الشرط، وهو عند الأصوليين من صيغ العموم، وعمومها من جهة الأحوال والأوضاع. والمعنىٰ: أي شيء تأتينا به كائناً ما كان من آية. الضمير في قوله: (به) راجع إلى (مهما) وكذلك الضمير المؤنث في قوله: (بها) راجع إلى الآية التي هي مبنية لـ(مهما)، فكلا الضميرين راجع في الحقيقة إلى (مهما) إلا أن الضمير المذكر رُوعي به لفظ (مهما) والضمير المؤنث روعي به معنىٰ الآية المبينة لـ(مهما). ومن علامات الاسم عند علماء العربية: رجوع الضمير، فمن علامات أن (مهما) اسم: رجوع الضمير إليها، وقد رجع إليها ضمير مذكر باعتبار اللفظ، وضمير مؤنث باعتبار المعنىٰ، كما جاء ذلك فيها في قول زهير[٢]:

---

(١) في هذا الموضع ذهب بعض التسجيل كما ترى، ويمكن أن يُستدرك بعضه مما ورد في الدر المصون (٤٣١/٥)، وهو قوله: «واختلف النحويون في (مهما) هل هي بسيطة أم مركبة؟ والقائلون بتركيبها اختلفوا: فمنهم من قال: هي مركبة من ما ما، كُررت (ما) الشرطية توكيداً فاستُثقل توالي لفظين فأبدلت ألف (ما) الأولى هاء. وقيل: زيدت (ما) على (ما) الشرطية كما تُزاد على (إنْ) في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ فعُمل العمل المذكور للثقل الحاصل. وهذا قول الخليل. . .».

(٢) البيت في معلقته (شرح القصائد المشهورات ١٢٥/١)، البحر المحيط (٣٧١/٤)، الدر المصون (٤٣٢/٥).

ومهما تكنْ عند امرئٍ من خليقةٍ ولو خَالَها تخفىٰ على الناس تُعْلَمِ

﴿تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ﴾ (من) بيانية. والآية بيان لـ(مهما). أي: من شيء تأتينا به مبنياً كونه آية.

وفي الآية سؤال: كيف أقروا بأنه آية، وزعموا أنه جاء بها ليسحرهم؟

وأُجيب عن هذا: بأن قولهم: ﴿مِن ءَايَةٍ﴾ أي: بزعمك ودعواك، لا أنهم يُقرون بذلك.

﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ لتصرفنا بها عن ديننا وتخدعنا عما نحن فيه.

﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بوجه من الوجوه، ولا بحال من الأحوال، ولو أتيت بما أتيت به من الآيات؛ لأن (مهما) عموم شامل يدل على أنه لو جاء بجميع الآيات لكانوا كما قالوا، فلما تمردوا هذا التمرد العظيم، وعاندوا هذا العناد الكبير، ولجوا هذا اللجاج الشديد، عاقبهم الله معاقبات دنيوية بعضها يتبع بعضاً، قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٣] قد تقرر في فن الأصول في الكلام على مسلك الإيماء والتنبيه: أن (الفاء) من حروف التعليل[١]، يقولون: سهىٰ فسجد. أي: لِعِلَّة سهوه. سرق فقُطعت يده. أي: لِعِلَّة سرقته، قالوا: ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ أي: لِعِلَّة عنادهم وضلالهم وكفرهم وعدم إيمانهم بآيات الله. وصيغة الجمع في قوله: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ للتعظيم.

﴿عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ قال بعض العلماء: أصل الطوفان مصدر من: طاف يطوف، كالرجحان، والكفران، والغفران، نُعت به وللعلماء في الطوفان المذكور هنا أقوال متقاربة[٢]:

أشهرها وعليه الجمهور أن المراد بالطوفان: الماء الكثير كما صرح الله بذلك؛ لأنه أهلك قوم نوح بالطوفان، وأن الله أولًا عذبهم

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) انظر: ابن جرير (٤٩/١٣)، القرطبي (٢٦٧/٧).

بالماء الكثير، فأرسل عليهم مطراً كثيراً حتى دخل الماء بيوتهم، وصار الواحد منهم في بيته والماء إلى ترقوته، وإذا جلس غرق في الماء، ومنعهم الماء حراثتهم أن يحرثوا أو يزرعوا أو يعملوا شيئاً، صار يكاد يهلكهم. هذا هو الأظهر في الآية، أن المراد بالطوفان: الماء الكثير بأن أرسل الله عليهم الأمطار الغزيرة حتى فاض الماء على وجه الأرض ودخل بيوتهم. يقول المفسرون والمؤرخون(١): حتى إن الماء ليبلغ تراقيهم، ومن جلس منهم غرق في الماء، فمنعهم النوم وحالة المعائش والعمل في أرضهم، وكاد يقضي عليهم. وهذا هو القول المشهور الذي عليه أكثر العلماء.

وقال جماعة من علماء التفسير: الطوفان: الجدري. وهو قول غريب، وإن ذكره غير واحد.

وقال بعض العلماء: الطوفان: المُوتان. والمُوتان بضم الميم: موتٌ كثيرٌ يأتي الحيوانات فيقع فيها موت كثير، وربما أُطلق على الطاعون؛ لأنه يموت به موت كثير. وكان بعض علماء السلف يقول: الطوفان: هو كل ما طاف بك ليهلكك ولا قدرة لك عليه(٢)، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [القلم: آية ١٩].

فالحاصل أن أشهر أقوال علماء التفسير: أن المراد بالطوفان هنا: الماء الكثير. وقيل: إنه الجدري. وقيل: المُوتان، وهو موت الحيوانات الكثير، أي: الطاعون. والأظهر هو القول الأول: أنه الماء الكثير الذي دخل بيوتهم ومنعهم من أن يعملوا شيئاً. وبعض علماء التفسير يقولون: مكث عليهم سبعة أيام، من السبت إلى السبت. ومنهم من يقول: أربعون يوماً، ومنهم من يقول غير ذلك(٣). فلما شق عليهم وأجهدهم شكوا إلى فرعون، فجاء فرعون إلى موسى وقال له: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا

---

(١) انظر: ابن جرير (٦٥/١٣).

(٢) انظر: ابن جرير (٥٢/١٣)، القرطبي (٢٦٨/٧).

(٣) انظر: ابن جرير (٦٥/١٣، ٦٩)، القرطبي (٢٦٨/٧).

﴿ٱلرِّجْزُ﴾ أي: هذا العذاب والله ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٤، ١٣٥] فكشفه الله عنهم. قال المفسرون: وأنبتت أرضهم من ذلك الماء أكثر ما كانت تنبته، وجاءهم نعيم، فرجعوا إلى كفرهم، وقالوا: والله إنه لساحر.

ثم إن الله بعد الطوفان ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ﴾ سلط الله عليهم الجراد. والتحقيق أن الجراد هو هذا الجراد المعروف الذي يطير، الذي تعرفونه. وبعض العلماء يقولون: إن أصله نثرات الحوت. وقد جاء ذلك في حديث عند ابن ماجه من حديث أنس وجابر (رضي الله عنهما)[1]. وتسليط الجراد عليهم: أكثر الله عليهم الجراد. قال بعض العلماء: حتى كانوا لا يرون شعاع الشمس من كثرة الجراد، وأنه [كثر عليهم][2] وملأ بيوتهم، وأكل أبوابهم ومساميرها، وسقوف البيوت، حتى تساقطت البيوت، وأكل جميع ما عندهم من غلات وثمار وزروع، وكاد يهلكهم.

والجراد هو الحيوان المعروف، وهو يؤكل، يجوز أكله على التحقيق[3]، كما ثبت في الصحيح عن ابن أبي أوفى قال: «غزونا مع

---

(١) وهما في الترمذي في الأطعمة، باب ما جاء في الدعاء على الجراد. حديث رقم (١٨٢٣)، (٢٦٩/٤)، وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه» ا.هـ. وابن ماجه في الصيد، باب صيد الحيتان والجراد. حديث رقم (٣٢٢١)، (١٠٧٣/٢)، والخطيب في تاريخ بغداد (٤٧٨/٨، ٤٧٩)، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (١٤/٣)، وعقبه بقوله: «هذا لا يصح عن رسول الله ﷺ» ا.هـ. وقال البوصيري في مصباح الزجاجة: (٦٤/٣ ـ ٦٥): «هذا إسناد ضعيف» ا.هـ. وقال السيوطي في اللآلىء المصنوعة (٢٣٢/٢ ـ ٢٣٣): «أخرجه ابن ماجه عن هارون به وأسقط والد زياد. والله أعلم» ا.هـ. كما ذكره الكناني في تنزيه الشريعة (٢٥١/٢ ـ ٢٥٢)، وعزاه للخطيب ثم قال: «وأخرج الحاكم في تاريخ نيسابور والطبراني عن ابن عمر أن جرادة...» وذكر نحوه. كما ذكره الفتني في تذكرة الموضوعات ص١٥٤، ١٥٥، وضعفه الحافظ في الفتح (٦٢١/٩).

(٢) في هذا الموضع كلام غير مفهوم، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) انظر: القرطبي (٢٦٨/٧).

رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد»[١] وفي ابن ماجه: «كان أزواج النبي ﷺ يتهادين الجراد على الأطباق»[٢].

وعامة العلماء على أن الجراد كالسمك، ميتته حلال، ولم نعلم مخالفاً في هذا إلا مالك بن أنس (رحمه الله) وأصحابه يقول: لا يؤكل الجراد إلا إذا ذُكّي بما يموت به. أي: ولو مات حتف أنفه فهو ميتة لا يؤكل[٣].

واحتج جمهور العلماء بحديث ابن عمر المشهور: «**أُحل لنا ميتتان ودمان، أما الميتتان: فالسمك والجراد، والدمان: الكبد والطحال**»[٤].

ومالك يقول ـ وهو صادق ـ: إن هذا الحديث لم يأتِ من طريق صحيحة مرفوعة، فجميع طرقه المرفوعة ضعيفة لا تقوم الحجة بشيء منها.

واحتج على المالكية من خالفهم بأنه جاء من رواية موقوفة على ابن عمر من طريق سليمان بن بلال، وهي طريق صحيحة، وهي موقوفة على ابن عمر، إلا أن لها حكم الرفع؛ لأن طريق سليمان بن بلال صحيحة، وكونها موقوفة على ابن عمر لا يضر؛ لأن لها حكم الرفع، وكل ما هكذا له حكم الرفع؛ لأن من المعلوم أنه لا يُحله إلا هو ﷺ.

أما المالكية فقالوا: نعم، نحن نعلم طريق سليمان بن بلال هذه، ونعلم أن هذا له حكم الرفع، ولكن كونه له حكم الرفع هذا من صناعة

---

(١) البخاري في الذبائح والصيد، باب أكل الجراد. حديث رقم (٥٤٩٥)، (٩/٦٢٠)، ومسلم في الصيد والذبائح، باب إباحة الجراد. حديث رقم (١٩٥٢)، (٣/١٥٤٦)، من حديث ابن أبي أوفى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه عبدالرزاق (٤/٥٣٣)، وابن أبي شيبة (٨/١٣٨)، وابن ماجه في الصيد، باب صيد الحيتان والجراد. حديث رقم: (٣٢٢٠) (٢/١٠٧٣)، والبيهقي (٩/٢٥٨) وانظر: ضعيف ابن ماجه (٦٩١).

(٣) انظر: القرطبي (٧/٢٦٩).

(٤) أحمد (٢/٩٧)، وابن ماجه في الصيد، باب صيد الحيتان والجراد. حديث رقم (٣٢١٨)، (٢/١٠٧٣)، وأخرجه في موضع آخر، حديث رقم (٣٣١٤)، والدارقطني (٤/٢٧٢)، وعبد بن حميد (المنتخب) (٨١٨)، والبيهقي (١/٢٥٤)، والعقيلي (٢/٣٣١)، وابن عدي (١/٣٥، ٣٨٨).
وانظر: السلسلة الصحيحة (١١١٨)، صحيح ابن ماجه (٢٦٠٧).

الحديث التي اتفق أهل الحديث عليها، لا من قول الله، ولا من قول رسوله، ونحن يجب علينا أن نتمسك بعموم كلام الله وهو قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: آية ٣] وميتة الجراد داخلة في عموم الميتة، فلا ننصرف عن تحريم الله للميتة إلا بدليل جازم يجب الرجوع إليه من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ.

هذا كلام العلماء فيه، ووجه اختلاف وجهات نظرهم في ذلك، وهو معروف. وجاء في سنن ابن ماجه من حديث أنس وجابر أن النبي ﷺ دعا على الجراد وقال: «**اللهم أهلك كباره، واقتل صغاره، وأفسد بيضه، واقطع دابره، وخذ بأسرابه عن معائشنا وأرزاقنا إنك سميع الدعاء**». وأن جابراً لما سمعه يدعو عليه قال له: كيف تدعو على جند من جند الله؟ وأنه قال له: «**هو نثرة حوت**»[1]. هكذا ذكروا في سنن ابن ماجه (رحمه الله) عن هذين الصحابيين. وذكر القرطبي في تفسير هذه الآيات[2] أن الجراد إن هجم على زروع الناس اختلف العلماء: هل تجوز مقاتلته ومكافحته؟؟ وأن أظهر القولين أنه تجوز مكافحته وقتله لكف أذاه عن الناس، وهذا القول هو الذي لا ينبغي العدول عنه لجريه على ظاهر النصوص؛ لأن المسلم إذا تعدىٰ علىٰ أموال الناس لزم دفعه عنها ولو أدى إلى القتال، فكيف بالجراد!! وهذا معنى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٣].

لما أنهكهم الجراد وكاد يهلكهم جاؤوا إلى فرعون وشكوا إليه، فذهب فرعون إلى موسىٰ وقال له: ﴿يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ يعني الجراد ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ...﴾ [الأعراف: آية ١٣٤] إلى آخر القصة.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: آية ١٣٥] يقول بعض المفسرين: فمكثوا شهراً في عافية[3].

(١) مضى قريباً في تفسير هذه الآية.

(٢) القرطبي (٢٦٨/٧).

(٣) انظر: ابن جرير (٦٦/١٣).

وبعضهم يقول: سنة. فأرسل الله عليهم القُمَّل، هذا القُمَّل الذي أرسل الله عليهم فيه للعلماء أقوال متقاربة[١]:

كان ابن عباس (رحمه الله) يقول: هو سوس الحنطة. أرسل الله عليهم سوس الحنطة ـ على قول ابن عباس ـ فتكدس عليهم، وملأ عليهم بيوتهم وآنيتهم وأطعمتهم، وكان يدخل بين الواحد وبين ثيابه، فبلغوا منه أذى شديداً.

وقال بعض العلماء: القُمَّل: صغار الدَّبَى، والدَّبَى: صغار الجراد قبل أن تنبت له أجنحة.

وكان أبو عبيدة في طائفة من علماء التفسير يقول: القُمَّل هو المعروف بالحمن[٢]، ويقال له: الحمنان، وهو نوع من القراد صغير، وأن الله ملأ عليهم الأرض منه. وذكر بعضهم: أن موسىٰ جاء لكثيب أعفر[٣] وضربه بعصاه، فجعله الله قُمّلاً[٤]. وأنه تكدس عليهم فملأ بيوتهم وآنيتهم وأطعمتهم، وامتص دماءهم تحت ثيابهم حتىٰ بلغوا منه غاية الجهد.

والحاصل أن القُمَّل هنا فيه أقوال متقاربة، بعضهم يقول: هو الحمنان المعروف بالحمن، وهو نوع من القردان صغير، وبعضهم يقول: هو صِغار الدَّبى، والدَّبى: الجراد الصغار قبل أن تنبت له أجنحة، وبعضهم يقول: هو البراغيث[٥]. هذه أقوال فيه لا يُكذب بعضها بعضاً، وعلى كل حال فهو شيء من خلق الله سلّطه الله عليهم فعذبهم به، وآذاهم إيذاءً كثيراً، حتىٰ ضجوا وزعموا أنهم يتوبون، فهذا معنى قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٣] لما عذبهم

---

(١) انظر: ابن جرير (٥٤/١٣)، القرطبي (٢٦٩/٧).

(٢) انظر: ابن جرير (٥٦/١٣)، القرطبي (٢٦٩/٧).

(٣) في ابن جرير: (٦٤/١٣): «فمضى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه...» ا.هـ.

(٤) انظر: ابن جرير (٦٤/١٣ ـ ٦٦).

(٥) انظر: هذه الأقوال في المصدر السابق (٥٤/١٣ ـ ٥٧).

القُمَّل ـ سواء قُلنا: إنه البراغيث، أو قُلنا: إنه الدَّبى، أو قلنا: إنه سوس الحنطة، أو قلنا: إنه الحمن والحمنان، وقال بعضهم: هو حيوانات تُشبه القُراد الكبير لها ريح منتنة سلطها الله عليهم ـ قال بعض المفسرين[١]: مكث عليهم أيضاً سبعة أيام، من السبت إلى السبت، فشكوا إلى فرعون، فجاء فرعون موسى فقال: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٤، ١٣٥] والقمل هذا كان يأتي بعض الناس فيتأذى به كما هو معروف، قال بعضهم: ومنه قول الأعشى[٢]:

قَوْماً يُعالِجُ قُمَّلاً أبناؤهُم وَسَلاسِلاً أُجُداً وباباً مؤصداً

أن هذا القمل يؤذيهم، وقد عرفنا أقوال العلماء في تفسيره، وهذا معنى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٣].

لما رفع الله عنهم القُمَّل وأزاله ولم يبق له أثر مكثوا شهراً في عافية، كما قال بعضهم، وقال بعضهم غير ذلك[٣]، فأرسل الله عليهم الضفادع، والضفادع جمع ضفدع، وهو الحيوان المعروف، وكان بعضهم[٤] يزعم أن الضفادع كانت بريّة، وأنها لم تكن من حيوانات البحر كما زعموا، فلما عذّب الله بها قوم فرعون صارت تقتحم في قدورهم وهي تفور، وتقتحم في تنانيرهم في شدة حرها، ومنعتهم الطعام، كان الرجل يجلس في الضفادع إلىٰ عنقه، وإذا أراد أن يتكلم بادرته الضفدع فجاءت في فِيه، ولقوا منها العذاب الشديد ـ والعياذ بالله ـ فلما لقوا منها ذلك كانوا ليس عندهم شيء إلا به الضفادع، لا يرفعون ثوباً ولا إناء إلا وبه الضفادع، وبيوتهم ملأى منها، والواحد جالس في

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٦٧).

(٢) ديوان الأعشى ص٥٤. والأُجد: مُحكمة الربط.

(٣) انظر: ابن جرير (١٣/٦٧).

(٤) انظر: السابق (١٣/٦٣).

الضفادع إلى عنقه، تتساقط لهم في قدورهم وأطعمتهم وتنانيرهم، وكادت تهلكهم، فمكثت عليهم ـ يقولون ـ سبعة أيام، من السبت إلى السبت، فشكوا ذلك إلى فرعون، فجاء فرعون موسى فقال: ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٤] إلى آخر ما ذكرنا[١].

والضفادع حيوانات تكون برية وتكون بحرية، والتحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه أنها لا يجوز أكلها ولا قتلها، وقد ثبت في السنن من حديث صحيح أن النبي ﷺ سأله طبيب في ضفدع يجعلها في دواء فنهى ﷺ عن قتلها[٢] هذا جاء في السنن في حديث صحيح عن النبي، وما نهى النبي ﷺ عن قتله لا يجوز أكله؛ لأنه لا يوصل إلى أكله إلا بقتله بالذبح، هذا هو التحقيق. فالذين يأكلون الضفادع يرتكبون الحرام الذي لا شك فيه، وظاهر هذا الحديث سواء كانت بريّة أو بحرية، وهو الأظهر والله تعالى أعلم. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٣].

ولمّا رفع الله عنهم الضفادع، وبقوا في عافية شهراً أو غير ذلك، وهم راجعون لأشد ما هم فيه من العذاب، وقالوا: تبيّن لنا أن هذا الرجل هو رئيس السحرة وكبيرهم، كما قص الله عنهم في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: آية ٧١] عندما آمن السحرة لرب موسى وهارون، فلما رجعوا إلى كفرهم بعد ذلك أرسل الله عليهم الدم، والدم: هو الدم هذا المعروف الذي تعرفونه، وأصل الدم (دَمَيٌ) بالياء، فهو من الأسماء الثلاثية

---

(١) انظر: المصدر السابق (١٣/٥٨ ـ ٦٩).

(٢) أبو داود في الطب، باب في الأدوية المكروهة. حديث رقم (٣٨٥٣)، (١٠/٣٥٢)، وأخرجه في موضع آخر. انظر: حديث رقم (٥٢٤٧)، والنسائي في الصغرى، كتاب الصيد والذبائح، باب الضفدع. حديث رقم (٤٣٥٥)، (٧/٢١٠)، وفي الكبرى، كتاب ما قذفه البحر، باب الضفدع: حديث رقم (٤٨٦٧)، (٣/١٦٦)، والبيهقي في الصغرى، كتاب الصيد والذبائح، باب ما يحرم من جهة ما لا تأكله العرب. حديث رقم (٤٢٣٢)، (٢/٤١١)، والطيالسي في المسند ص١٦٣، والطحاوي في المشكل (٢/٣١٢ ـ ٣١٣).

التي حذفت العرب لامها وعاضتها على العين. والتحقيق أن لامه المحذوفة ياء، خلافاً لمن زعم أنها واو، فهو (دمي) على وزن (فَعَل)[١] وربما ظهرت ياؤه المحذوفة عند التثنية وغيرها، ومن ظهورها عند التثنية قول سحيم بن وثيل الرياحي[٢]:

فلو أنّا على حَجَرٍ ذُبحنا جرى الدَّمَيَانِ بالخبرِ اليقين

وهذه الياء المحذوفة من الدم تظهر في كثير من التصاريف، تظهر في الفعل الماضي، وتظهر في المضارع، ومن ظهورها في الفعل الماضي المشتق من الدم قول الراجز[٣]:

هل أنتِ إلا أصبعٌ دميتِ وفي سبيل الله ما لَقِيْتِ

لأن الياء من (دَمِيَ) (فَعِلَ). و (دمي) معناها: جاء منها الدم. وكذلك تظهر في المضارع، ومنه قوله[٤]:

ولسنا على الأعقابِ تدمىٰ كُلُومنا ولكن على أقدامنا تقطُرُ الدما

ومعنى: (تَدْمَىٰ) أصله: (تَدْمَيُ) (تَفْعَلُ) أُبدلت الياء ألفاً لسبق الفتحة قبلها كما هو معروف، هذا أصل الدم.

ومعنىٰ تعذيبهم بالدم[٥]: أنهم كانوا كلما أخذوا الماء ليشربوا فإذا ذلك الماء دمٌ أحمر قانٍ عبيط، ليس لهم ماء، فإذا صبوا من أوعيتهم ماء فإذا ذلك الماء دم، وإذا استقوا من الأنهار فإذا الماء الذي استقوا منها دم، وإذا استقوا من الآبار فإذا هو دم.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٥) من سورة الأنعام.

(٢) البيت للمثقب العبدي، وهو في ديوانه ص٩٩، رصف المباني ص٢٤٢، اللسان (مادة: أخا) ص٣٢، (مادة: دمي) ص١٠١٧، ونسبه بعضهم لعلي بن بدال.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٤٥) من سورة الأنعام.

(٤) السابق.

(٥) انظر: ابن جرير (١٣/٥٨ ـ ٦٨).

يذكرون أن فرعون كان يجمع القبطي والإسرائيلي، والإسرائيلي يشرب الماء من إناء واحد فما أخذ منه الإسرائيلي فهو ماء، وما أخذه القبطي يكون دماً، حتى إنهم زعموا أن القبط لما أضرّ بهم العطش؛ لأن جميع مياههم صارت دماً، وصار كل ماء استقوه دماً عبيطاً، أن القبطية كانت تقول لجارتها الإسرائيلية: اجعلي الماء في فيك ومُجيه في فيّ لأتبرد به، فإذا مَجَّتْه في فيْها نزل من فم الإسرائيلية ماء، فإذا وصل فم القبطية إذا هو دم عبيط!! هكذا يقولون[١].

والمفسرون يقولون: إن هذا الذي وقع كله للقبطيين لم يقع منه شيء للإسرائيليين، فلم يدخل الماء بيوتهم، ولم يأتهم القمل، ولم تأتهم الضفادع، ولم يأتهم الدم كما يقولون ـ والله تعالى أعلم.

قالوا: زعموا أن فرعون ـ قبّحه الله ـ أضرّ به العطش، وعطش عطشاً شديداً؛ لأنه صار كلما استقىٰ ماء فإذا هو دم عبيط، وأنه اضطر إلى مصّ مياه الشجر التي تكون في الشجر، قالوا: فإذا مصّ ماء الشجرة فوصل فاه فإذا هو دم ـ والعياذ بالله تعالى ـ قالوا: مكث عليهم الدم سبعة أيام، من السبت إلى السبت، فلما تأذوا به كثيراً شكوا إلى فرعون، وجاء فرعون موسىٰ وقال: الآن حُق لنا أن نتوب التوبة النصوح فـ ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٤] فلما كشفه عنهم رجعوا إلى أخبث كفرهم وأشده، وهذا من اللجاج؛ ولأجل هذا ـ اللجاج والكفر وإخلاف الوعد ـ غضب موسىٰ عليهم غضباً شديداً، ودعىٰ ربه ذلك الدعاء الحاد العظيم حيث ذكره الله في سورة يونس في قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمۡوَٰلًا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾ [يونس: آية ٨٨] وفي قراءة أخرى[٢]: ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ

(١) انظر: المصدر السابق (١٣/٦٤).

(٢) مضت عند تفسير الآية (٥٥) من هذه السورة.

حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: الآيتان ٨٨، ٨٩] لأن [هارون](١) قال: آمين. والمُؤَمِّن أحد الداعيين. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: آية ١٣٣] (آيات) حال. أرسلنا عليهم هذه الأشياء في حال كونها آيات. أي: علامات ودلالات واضحات لا شك في الحق معها.

وقوله: ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ قال بعض العلماء: ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي: بينات واضحات لا لبس فيها أنها من الله، وأنها حق، وأن هؤلاء الكفرة عاندوا الحق الواضح.

وقال بعض العلماء: مفصلات: بينها فصل؛ لأنه كلما جاءتهم آية وعذبهم الله بها وضَجُّوا إلى فرعون، وضَجَّ فرعون إلى موسىٰ، وقال: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٤] فكشف عنهم الرجز ومكثوا زمناً في عافية فصار بين الآيات فصل من العافية بين هذه وهذه، وأن ذلك هو معنى قوله: ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي: متتابعات بين كل اثنتين منها فصل، هكذا قاله بعضهم، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي: تكبروا عن قبول الحق مع مشاهدة هذا عندما ينزل بهم العذاب يستكينون ويخضعون قهراً لا رغبة في الخير، فإذا رُفع عنهم أعرضوا إلى ما كانوا عليه، هذا معنىٰ: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٤] قدمنا مراراً(٢) أن القوم في لغة العرب التي نزل بها القرآن: اسم جمع لا واحد له من لفظه، يختص في الوضع في الذكور دون الإناث، وربما دخل فيه الإناث بحكم التبع، والدليل على اختصاصه بالذكور في الوضع قوله تعالى في الحجرات: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ فلو دخل النساء في اسم القوم وضعاً لما قال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾

---

(١) في الأصل: «موسى». وهو سبق لسان.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

[الحجرات: آية ١١] ونظيره من كلام العرب قول زهير بن أبي سلمى[(١)]:

وما أدري وسوف إِخالُ أَدْرِي أقومٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

ومن الدليل على أن النساء ربما دخلن في القوم بحكم التبع: قوله تعالى في بلقيس: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: آية ٤٣] وهذا معنى قوله: ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٣].

المجرمون: جمع تصحيح للمجرم، وهو اسم فاعل الإجرام، والمجرم هو مرتكب الجريمة، والجريمة: الذنب الذي يستحق صاحبه التنكيل والعذاب، وهذا معنى قوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٣].

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٤، ١٣٥].

هذه الآية كأنها تُقرأ عند كل واحدة من الآيات السابقة ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: آية ١٣٠] قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٣] أي: ولما عُذبوا بالطوفان ووقع عليهم رجز الطوفان ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ فلما رفعه عنهم ووقع عليهم رجز الجراد ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٤].

[وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾][(٢)] هم بنو إسرائيل بإجماع العلماء[(٣)]، وكونهم ﴿كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ [الأعراف: آية

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) انظر: الأضواء (٢/٣٣١).

١٣٧] كان فرعون يستضعفهم ويأخذهم أخذ الضعيف الذي لا حيلة له فيقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويستخدمهم في الأعمال الشاقة، إلى غير ذلك من الإهانات، كما يأتي في قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: آية ١٤١].

فقوله: ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: آية ١٣٧] جماهير العلماء على أن مشارق الأرض هو المفعول الثاني لـ(أورثنا)[(١)]، أورثنا المستضعفين مشارق الأرض ومغاربها. أي: جعلناها آيلة إليهم بعد أن أهلكنا الكفار الذين كانوا فيها، وهذا هو التحقيق خلافاً لما نُقل عن الكسائي والفراء[(٢)] من أنه منصوب بنزع الخافض، وأن المعنىٰ: وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون في مشارق الأرض ومغاربها، وعلىٰ هذا القول فمفعول الإيراث محذوف. ولا يخفىٰ أن هذا القول غير صواب، وإن نقل عن الكسائي والفراء وغيرهم، وأن التحقيق أن الإيراث واقع على بني إسرائيل، وأن قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ﴾ أن (أورثنا) تطلب مفعولين، المفعول الأول: هو قوله ﴿ٱلَّذِينَ﴾ والمفعول الثاني: هو قوله: ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أورثناهم مشارق الأرض كما جاء موضحاً في آيات أُخر، كقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: آية ٢٨] ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: آية ٥٩] ونحو ذلك من الآيات.

ومعنىٰ: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ قال أكثر المفسرين[(٣)]: ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ﴾: الشام، ومغاربها: مصر. وأن الله أهلك فرعون وقومه وأورث بني إسرائيل أرضهم كما صرح بذلك في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: آية ٢٨] وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: آية ٥٩] وهي ما تركوا من

---

(١) انظر: الدر المصون (٤٣٨/٥).

(٢) انظر: القرطبي (٢٧٢/٧).

(٣) أكثر السلف على القول الثاني. راجع: ابن جرير (٧٦/١٣)، الدر المنثور (١١١/٣ ـ ١١٣).

جنات وعيون، وزروع، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وأن مشارق الأرض: هي الشام، أورثهم الله إياها بعد أن أهلك الجبارين الكنعانيين وأبادهم. هذا يقوله أكثر العلماء، ويزعمون أن في التوراة: أن هذه المشارق والمغارب من الفرات، وأنها من الفرات إلى المحل الذي خرجوا من البحر منه [وطلبهم][١] منه فرعون!!

وبعض العلماء يقول[٢]: مشارق الأرض ومغاربها: الشام فقط؛ لأنه أورثهم أرضه من مشرقها ومغربها، أي: ما يلي المشرق منها وما يلي المغرب.

واعلموا أن الآيات القرآنية دلت دلالة واضحة على أن الله أورث بني إسرائيل ما كان عند فرعون وقومه من الجنات والعيون، والزروع والكنوز، والمقام الكريم، هذا جاء في آيات متعددة، جاء موضحاً في سورة الشعراء، وفي سورة الدخان، وأشير له هنا في الأعراف.

وبعض العلماء يقول: في إيراثهم ديار مصر وأمواله، وديار قومه وأموالهم، فيه إشكال؛ لأنه لم يُعلم في التاريخ أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد أن أنجاهم الله من عذاب فرعون وفلق لهم البحر ـ والله تعالى أعلم ـ ولأجل ذلك قال بعض العلماء: أراضي الشام، ومشارقها: ما يلي جهة المشرق من أرض الشام من أطرافها، وما يلي جهة المغرب. هذا أقوال العلماء في الآية.

وقوله: ﴿ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾ أي: أكثرنا فيها البركات من كثرة المياه والزروع والثمار ونحو ذلك من بركات الأرض وخيراتها. وهذا معنى قوله: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ﴾.

﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: آية ١٣٧] جماهير العلماء[٣]

---

(١) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٧٦)، القرطبي (٧/٢٧٢).

(٣) انظر: ابن جرير (١٣/٧٧)، القرطبي (٧/٢٧٢)، الأضواء (٢/٣٣١).

على أن المراد بهذه الكلمة التي صرح الله بأنها تمت على الإسرائيليين أنها هي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: الآيتان ٥، ٦] ومعنىٰ تمام الكلمة: أنها أولاً كانت وعداً، فلما أُنجز هذا الوعد فقد تم ذلك بإنجازه كما لا يخفىٰ. وهذا معنى قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الحسنىٰ: تأنيث الأحسن، والأحسن: الذي يفوق غيره في الحسن ويفضُله.

وقوله: ﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تمت عليهم: أي: مضت عليهم وكملت عليهم بإنجازها لما كانت وعداً.

وقوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ الباء سببية، و (ما) مصدرية، أي: بسبب صبرهم. وذلك يدل على أن الصبر سبب للفرج كما هو معروف، وكما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: آية ٤٥] وهذا معنىٰ قوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾.

وقوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ التدمير: الإهلاك التام. والمعنىٰ: دمرنا وأهلكنا ما كان يصنعه فرعون وقومه من القصور التي كان يبنيها، والبنايات التي كان يضعها في الأرض دمرها الله، وهدمها وأهلكها.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ قرأ هذا الحرف جماهير القراء غير ابن عامر وشعبة عن عاصم: ﴿وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ بكسر الراء مضارع عَرَشَه يعرشه. وقرأ من السبعة: ابن عامر وشعبة عن عاصم: ﴿**وما كانوا يَعْرُشُون**﴾[1] وهما لغتان وقراءتان صحيحتان، (يعرُشون) بضم الراء لغة بني تميم.

ومعنى: ﴿يَعْرِشُونَ﴾ فيه وجهان للعلماء[2]: قال بعض العلماء: ﴿يَعْرِشُونَ﴾ أي: لجنات الكرم، وهو العنب يجعلون لها العريش لتمتد عليه، كما تقدم في قوله: ﴿جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: آية ١٤١].

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٤.

(٢) انظر: ابن جرير (١٢/١٥٦)، (١٣/٧٨)، القرطبي (٧/٢٧٢).

وقال بعضهم: عَرَشَه إذا رفع بناءه، والعرش أصله السقف، وعروش الأبنية: سقوفها. يعني: ودمرنا ما كانوا يرفعونه من البناء كصرح هامان المشهور، ونحو ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٣٧].

١٨/أ / ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٨، ١٣٩].

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ العرب تقول: جاوز الشيء وجاوز به غيره إذا جازه وتعدّاه، و (فَاعَلَ) هنا بمعنى المجرد بمعنى: جاز. أي: إذا تخطاه وتعداه، وذلك أن الله (جل وعلا) لما أمر نبيه موسى أن يُسري ببني إسرائيل ويرفع عنهم يد قهر فرعون، وأسرى بهم ليلًا ذاهبين إلى جهة البحر الأحمر، وأن فرعون استيقظ من الصباح فلم يجد من الإسرائيليين أحداً، فأرسل فرعون في المدائن حاشرين، وزعم أن الإسرائيليين قليل ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الشعراء: الآيتان ٥٤، ٥٥] وأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً، فلما ارتفع النهار تراءا الجمعان: بنو إسرائيل على شاطىء البحر، وفرعون يتبعهم من ورائهم، فخاف الإسرائيلون خوفاً شديداً كما أوضحناه سابقاً في سورة البقرة، فقالوا: إن تقدمنا فالبحر أمامنا، وإن تأخرنا ففرعون وجنوده من ورائنا. فقال الله لهم ما قال في سورة طه: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ وفي قراءة أخرى: **﴿لا تخفْ دركاً ولا تخشىٰ﴾**[1] [طه: آية ٧٧] دركاً مما وراءك من فرعون وجنوده، ولا تخشىٰ من البحر أمامك، سيجعل الله لكم مخرجاً.

وعند ذلك أوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر فضرب البحر بعصاه فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم. يعني صار البحر كأنه جبال عظام بينها طرق، وأرسل الله عليها الريح ـ كما يقول المفسرون ـ فيبست كما أشار له تعالىٰ بقوله: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: آية ٧٧] يزعم المفسرون

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٩٦.

أنه كانت في البحر اثنتىٰ عشرة طريقاً، وأن الأمواج ممسكة بين الطرق بقدرة الله وإرادته كأنها الجبال الشامخة، كما قال تعالى: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: آية ٦٣] أي: كالجبل الشامخ المنيف، ويزعم المفسرون أن الله جعل بينها فُرجاً كالكَّوة التي تكون في البيوت حتى صار ينظر بعضهم إلى بعض[(١)]، وأنهم سلكوا في تلك الطرق قاطعين للبحر، وأن فرعون لما وجدهم دخلوا البحر يزعمون أنه كان على جواد ذكر من الخيل، وأن جبريل جاء أمامه على فرس وديق ـ وهي التي تحب الفحل، وإذا كانت تحب الفحل كان يُشم فيها ريح ذلك ـ وأن الجواد شم فيها ريح ذلك واقتحم، فاقتحموا في البحر مع تلك الطرق[(٢)]، ولما جاوز موسىٰ البحر ببني إسرائيل أراد أن يضرب البحر بعصاه ليلتئم، فقيل له: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدخان: آية ٢٤] أي: خَلِّه ساكناً منفلقاً. ليدخل فرعون وقومه فيغرقوا؛ لأنه لو التطم لرجع إلى حالته ولرجعوا، فلما تكامل خروج بني إسرائيل ومجاوزتهم البحر، وتكامل دخول القبط ـ فرعون وقومه ـ أطبق الله عليهم البحر، وتلاطمت أمواجه، فلم يبق منهم داعٍ ولا مجيب، كما أوضحناه سابقاً في البقرة[(٣)]. وذلك معنىٰ قوله: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ [الأعراف: آية ١٣٦].

لما ماتوا كلهم وأنجىٰ الله بني إسرائيل، ووقع الغرق بالقبط وهم ينظرون، كما تقدم في قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: آية ٥٠] لما وقع هذا وجاوزوا البحر كانوا في الحقيقة قوماً غير طيبين؛ لأنهم لما جاوزوا البحر أتوا على قوم يعبدون الأصنام، أتوا على قوم يعكفون وراء البحر لما جازوه، وهؤلاء القوم يقول بعض المؤرخين: إنهم من لخم قبيلة العرب المشهورة. وبعضهم يقول: من لخم وجذام. وبعضهم يقول: هم من الكنعانيين الذين أُمروا بقتالهم في البلاد المقدسة[(٤)]. وكان ابن جريج يقول: أصنامهم أمثلة البقر، فلما رأوا أمثلة البقرة كأنهم من ذلك الوقت أحبوا

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٢٧١/١).

(٢) انظر: ابن جرير (١٩٥/١٥).

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٠) من سورة البقرة.

(٤) هذه الأقوال ذكرها ابن جرير في التفسير (٨١/١٣).

عبادة البقر[١]؛ ولذلك أخرج لهم السامري العجل كما هو معروف، وكان بعض المؤرخين يقول: هم قوم كانوا نازلين بالرّقة من مصر. ويقولون: إنها من الريف، قريب من الساحل، يُوصَل منها إلى الفيوم. هكذا يقولون ـ والله تعالى أعلم ـ.

وعلى كل حال فلما جاوز الله بهم البحر بعد هذه الآيات والعبر وهذه النعم العظيمة طلبوا من نبيهم عبادة الأوثان ـ والعياذ بالله ـ وهذا يدل على عدم الطيب؛ ولذا قال: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ معناه: مروا على قوم.

﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ قرأ هذا الحرف جمهور القراء منهم السبعة غير حمزة والكسائي: ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ بضم الكاف. وقرأه من السبعة حمزة والكسائي: ﴿يَعْكِفُون على أصنام لهم﴾ بكسر الكاف[٢]. وهما قراءتان سبعيتان صحيحتان، ولغتان عربيتان فصيحتان.

والعكوف: معناه الإقامة، أي: يقيمون ملازمين عبادة الأصنام.

﴿عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ يعكفون مقيمين عليها دائماً يعبدونها، يُقال: إنها تماثيل بقر كما قاله ابن جريج.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ صنماً مثل أصنام هؤلاء نعبده ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ (ما) بقوله: ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ قيل: هي كافة للكاف؛ ولذا جاءت بعدها جملة. وبعضهم يقول: هي مصدرية. وبعضهم يقول: موصولة. والخطب في ذلك سهل[٣]. والمعنى: كما أن هؤلاء لهم آلهة فاجعل لنا إلٰهاً كآلهتهم نعبده ـ والعياذ بالله ـ وبعض العلماء يقول: هم كفروا بهذا القول؛ لأن من طلب عبادة غير الله فقد كفر. وقال بعض العلماء: كانوا قوماً يتمكن منهم الجهل، يظنون أن من تقرب إلى الله بعبادة

(١) انظر: المصدر السابق (١٣/٨٠).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٤.

(٣) انظر: الدر المصون (٥/٤٤٢).

غيره أن ذلك يقربه إلى الله!! ويعتقدون أن ذلك يصح! وهذا غاية الجهل، كما قال لهم نبي الله موسى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ وصفهم بالجهل المطلق، وجاء بصيغة المضارع يشير إلى أن الجهل كأنه معهم في الحال والمستقبل لا يفارقهم، ثم أجابهم هنا قال: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ الذين يعبدون هذه الأصنام ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف: آية ١٣٩] المُتَبّر: اسم مفعول (تبّره) والعرب تقول: تبّره يتبّره تتبيراً، إذا كسّره ودمره، والإناء المُتَبّر: معناه المكسر. والذهب المتَبَّر: المكسر. والتِّبر: قطعة من الذهب إذا تُبّر، أي: إذا كُسّر. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٧] هذا الذي فيه هؤلاء من عبادة الأوثان مُدمَّر، مُحْرِقٌ، مُكسر لا خير فيه؛ لأنه كله باطل، ولا ينبغي لأحد أن يفعله[1] ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وأظهر أوجه الإعراب في هذا[2]: أن قوله: ﴿مُتَبَّرٌ﴾ هو خبر (إن) وأن قوله: ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ نائب فاعل (مُتبّر) وكذلك ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فاعل به لقوله: ﴿وَبَٰطِلٌ﴾. هذا أجود الأعاريب في الآية. وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ الباطل: هو الزائل المضمحل الذي لا بقاء له؛ لأن الله يقول: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: آية ٢٣] فهذا معنى قوله: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ [الأعراف: آية ١٤٠] بهمزة استفهام الإنكار، ينكر عليهم إنكاراً شديداً، والعرب تقول: أبغيك وأبغي لك. معناه: أطلب لك. أفغير الله أطلب لكم إلهاً؟ ﴿إِلَٰهًا﴾ غير الله. والهمزة للإنكار، أنكر عليهم هذا الطلب إنكاراً شديداً، أولاً وصفهم بالجهل، وبيّن لهم بطلان عبادة الأصنام، ثم أنكر عليهم طلبهم إلهاً غير الله؛ ولذا قال: ﴿أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أبغي لكم وأطلب لكم معبوداً غير الله سبحانه عن ذلك وتعالى علواً كبيراً ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والحال: هو فضلكم على العالمين. ومن تفضيله لكم: أن أهلك عدوكم وأنجاكم وأنقذكم من هذا

---

(١) انظر: القرطبي (٢٧٣/٧).

(٢) انظر: الدر المصون (٤٤٤/٥).

الطاغية العظيم، وهم في ذلك الوقت - جميع الناس كفرة - وهم عندهم إيمان، فهم أحسن الموجودين على ما كان منهم مما لا ينبغي، وهذا معنى قوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقد بينّا مراراً النصوص الصحيحة الدالة على أن هذه الأمة الكريمة أفضل منهم مراراً[1]، وهذا معنى قوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٤٠].

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف: آية ١٤١].

قرأ هذ الحرف عامة السبعة غير ابن عامر: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وقرأه ابن عامر وحده من السبعة: **﴿وإذ أنجاكم من آل فرعون﴾** من غير ياء ولا نون[2]. فعلى قراءة ابن عامر: اذكروا إذ أنجاكم الله. أنجاكم هو، أي: الله. وعلى قراءة الجمهور: ﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾ فالنون للتعظيم، والله هو المتكلم بذلك معظماً لنفسه. وقوله: واذكروا ﴿إِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ حين أنجيناكم ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: من فرعون وقومه.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال بعض العلماء: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يبغونكم سوء العذاب، كما تقول لمن طلب السلعة: سامها. والعلماء يقولون: سامه كذا. إذا أذاقه إياه، ومنه: سامه العذاب إذا أذاقه العذاب وكلفه إياه. وهو معنىً مشهور في كلام العرب، ومنه قول عمرو بن كلثوم في معلقته[3]:

إذا ما المَلْكُ سَامَ الناسَ خَسْفاً أَبَيْنَا أنْ نُقِرَّ الذُلَّ فينا

ومعنى ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: يذيقونكم ويكلفونكم سوء العذاب، والإضافة في قوله: ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ من إضافة الصفة إلى موصوفها. أي: يذيقونكم العذاب الموصوف بسوء من يقع عليه. أي: العذاب السيء الشديد.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٤.

(٣) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.

﴿يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ قرأ هذا الحرف عامة القراء غير نافع: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ وقرأه نافع وحده: ﴿يَقْتُلون أبناءكم﴾ بسكون القاف وضم التاء[(١)]. وقرأ مع نافع ابن كثير: ﴿سَنَقْتُلُ أبناءهم﴾[(٢)] [الأعراف: آية ١٢٧] والجمهور يقرؤون: ﴿سَنُقَتِّلُ﴾ و﴿يُقَتِّلُونَ﴾ بصيغة التضعيف؛ لأن التضعيف يدل على التكثير، يقتل أولادهم كثيراً. وهذا معنى قوله: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡ﴾ أي: إناثكم يتركوهن حيات.

وفي هذه الآية الكريمة ونظائرها في القرآن سؤال معروف، وهو أن التحقيق في قوله: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡ﴾ كأنه بدل من قوله: ﴿يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [الأعراف: آية ١٤١] فتقتيل الأبناء واستحياء النساء هو من نفس سوء العذاب الذي كان يسومهم. ووجه السؤال هو أن يُقال: أما تقتيل الأبناء فكونه من العذاب الذي يسومهم به [فظاهر][(٣)]، وأما استحياء النساء فمن أين كان يُعد من جملة العذاب الذي يسومهم؛ لأن استحياءها قد يسبق إلى الذهن إنه خير من موتها، وأن بقاء أحد الولدين خير من موتهما جميعاً، والإناث هبة من الله أيضاً، كما قال تعالىٰ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: آية ٤٩] فوجه السؤال: كيف عدّ استحياء النساء من جملة العذاب الذي يسومهم، مع أن ترك قتلهم أهون، كما قال[(٤)]:

حمدتُ إلهي بعد عُروة إذ نَجا خراشٌ وبعضُ الشَّرِّ أهونُ من بعضِ

فما وجه جعل استحياء النساء من جملة العذاب الذي يسومهم؟ هذا وجه السؤال.

وأجاب بعض العلماء عن هذا السؤال: بأن استحياء الأنثىٰ قد يكون خيراً[(٥)] [من تذبيح الكل، كما قال الهذلي:

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٤.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٣.

(٣) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.

(٥) في هذا الموضع ذهب بعض التسجيل. وتجد جواب هذا السؤال فيما مضى عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة وما بين المعقوفين نقلته منه (بتصرف).

حمدتُ إلٰهي بعد عروة إذْ نجى خِراشٌ وبعض الشر أهون من بعض

لكن استحياءهم للنساء هنا هو من جملة العذاب؛ لأنهم يفعلون ذلك لإعمالهن في الأعمال الشاقة، وليفعلوا بهن ما لا يليق من العار والشنار، ولا شك أن بقاء البنت ـ وهي عورة ـ تحت يد عدو لا يشفق عليها، ويفعل بها ما لا يليق، ويكلّفها ما لا تطيق أن هذا من سوء العذاب، وقد قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ...﴾ الآية [النساء: الآية ٩] وهذا معروف، وقد كان العرب إنما وأدوا بناتهم وفعلوا ذلك الفعل القبيح يخافون أن تبقىٰ بعدهم فيهينها الناس، أو يتزوجها غير الأكفاء، فإهانة البنت وفضيحتها عذاب على وليها؛ ولذا كان العرب يتمنون الموت لبناتهم خوفاً من العار، وخوفاً من الأذيّة والفضيحة والاضطرار لتزويج غير الأكفاء. وهذا كثير معروف في كلامهم، وكان شيخ كبير له بنت تُسمى (مودّة) كان يقول فيها[1]:

مودةُ تهوىٰ عُمْرَ شيخٍ يَسرُّهُ لها الموت قبل الليل لو أنها تدري
يخافُ عليها جَفْوةَ الناسِ بعده ولا ختناً يُرجى أود من القبر

ولما خُطِبَتْ عند عقيل بن عُلَّفَة المري ابنته الجرباء قال[2]:

إني وإن سيق إليَّ المَهْرُ ألفٌ وعُبدان وذَوْدٌ عَشْرُ
أحبُّ أصهاري إليَّ القبرُ

وفي شعر الحماسة[3]:

تهوى حياتي وأهوى موتَها شَفَقاً والموتُ أكرمُ نَزَّالٍ على الحُرَمِ

والله يقول في كتابه: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء: آية ٩] قال

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.
(٢) السابق.
(٣) السابق.

بعض العلماء: هذا وجه كون استحياء النساء من جنس العذاب[1]، ولا شك أن الرجل المسلم إذا خُيّر بين أن يقبض الله ابنته إليه ويسترها برحمته وعفوه، وبين أن تبقىٰ تحت يد الكفرة الفجرة يفعلون بها ما يشاؤون من الفواحش والعار والعيب والشنار، ويُعملونها بالأعمال الشاقة والخدمة العظيمة والإهانة، أنه يختار لها ما عند الله، أنها تصير إلى الله، وأن بقاءها بعده فيه تعذيب لقلبه، حتى إن الإنسان إذا كانت بناته بعده تجوع أو تعرىٰ يألم من ذلك ويحزن كما قال الحماسي[2]:

لقد زادَ الحياةَ إلي حُبّاً بناتي، أنهن من الضِّعَافِ
فأكره أن يَرَيْنَ البُؤسَ بعدي وأنْ يشربن كدراً بعد صافي

ولا سيما التعذيب والفواحش ونحو ذلك والعياذ بالله، وهذا معنى قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ مرجعها فيه وجهان معروفان[3]:

أحدهما: أنها راجعة إلى الإنجاء: أنجيناكم وفي ذلك الإنجاء بلاء، أي: بلاء بالنعمة من الله عظيم عليكم.

القول الثاني: أن الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكُم﴾ راجعة إلى ما يسومهم من سوء العذاب من تقتيل الأبناء، وعليه فقوله: ﴿بَلَآءٌ﴾ [الأعراف: آية ١٤١] أي: بلاء بالشر - والعياذ بالله - عظيم من ربكم.

والبلاء يكون بالخير ويكون بالشر كما هو معروف[4]، ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٨].

---

(١) السابق.

(٢) البيتان لعمران بن حطان، وقيل لعيسى بن فاتك، أو محمد بن عبدالله الأزدي، أو لأبي خالد القناني. وهما في تاريخ دمشق (٤٣/٥٠٠)، عيون الأخبار (٣/٩٧)، الكامل ص١٠٨٢، وطرف البيت الثاني: «مخافة...»، وشطره الثاني: «وأن يشربن رَنقاً...».

(٣) انظر: القرطبي (١/٣٨٧)، الدر المصون (١/٣٤٨).

(٤) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأنعام.

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: آية ١٤٢].

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير أبي عمرو ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ﴾ بألف بين الواو والعين من المواعدة. وقرأه أبو عمرو وحده: ﴿**ووعدنا موسى ثلاثين ليلة**﴾ من غير ألف بين الواو والعين[١]. ومعنى القراءتين واحد.

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ﴾ صيغة الجمع في قوله: ﴿وَوَٰعَدۡنَا﴾ للتعظيم، كان الله وعد نبيه موسىٰ أنه إن أهلك عدوه وأراح قومه من تعذيب فرعون وإهانته لهم أن الله يُنزل عليه كتاباً فيه شرع تام، وأوامر ونواهي، وشريعة كاملة؛ وذلك الكتاب الموعود به هو التوراة، فلما جاوزوا البحر جاء وقت الميقات فذهب موسىٰ إلى الميقات، وكان أولًا ثلاثين، وقال لبني إسرائيل: إن الميقات ثلاثون فقط؛ لأنه ما كان يدري عن العشرة التي صار بها أربعين. والمفسرون يقولون: إن سبب العشرة: أن الله وعد موسىٰ ثلاثين ليلة ـ يقول جماهير من أهل التفسير: إنها هي شهر ذي القعدة، أولها من ذي القعدة، وأن العشر الذي تُمم بها أربعون: عشر ذي الحجة[٢]، وأن إعطاء التوراة كان يوم النحر في اليوم العاشر، انتهاء العشر. يقولون: إن الله لما أراد الميعاد مع موسىٰ واعده ثلاثين ليلة ـ ليصوم فيها وينقطع للعبادة لمناجاة الله، فلما صام الثلاثين يقول المفسرون[٣]: إنه لما صام ثلاثين يوماً أحس بخلوف فمه ـ خلوف فم الصائم ـ فاستاك فغير السواك ريح خلوف الفم، وأن الملائكة قالوا: كنا نشم من فِيك ريح المسك فأفسدته بالسواك، وأنه لما استاك بعد الثلاثين أمره الله أن يصوم عشرة أيام أُخر لأجل أن يرجع له خلوف الفم، ويكون وقت المناجاة عند انتهاء الميقات وفمه فيه خلوف الصائم، وخلوف فم الصائم معروف، وفي الحديث عنه ﷺ:

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٢٩.

(٢) انظر: ابن جرير (٨٦/١٣)، ابن كثير (٢٤٣/٢)، القرطبي (٢٧٤/٧).

(٣) انظر: ابن كثير (٢٤٣/٢)، القرطبي (٢٧٤/٧).

«لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[1]. وهذا معنى قوله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ يصوم أيامها ويتعبد هذه المدة قبل المناجاة، وذلك يدل أنه ينبغي العبادات والانقطاع إلى الله قبل مناجاته.

﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ كما ذكرنا.

﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: آية ١٤٢] بالعشر التي زيدت على الثلاثين، ومعلوم أن العشر إن زيدت على الثلاثين صارت أربعين كما قال: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: آية ١٩٦] وبعضهم يقول[2]: نصّ على الأربعين لئلا يتوهم متوهم أن الثلاثين تُممت بعشر من الثلاثين، بل بين أنها تُممت بشيء زائد على الثلاثين، وهذا معنى قوله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ ليصومها ويتعبد فيها فيناجيه الله وينزل عليه الكتاب المعروف التوراة ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ للسبب الذي ذكرنا ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: آية ١٤٢] يقولون: إن انتهاءها عاشر ذي الحجة، وأن الله أنزل عليه التوراة في عشر ذي الحجة.

قال بعض العلماء[3]: هذه الآية الكريمة يؤخذ منها بعض الأحكام: وهي أن ضرب التأجيل وتحديد المُدة للميعاد ونحوه أنه أمر معروف قديم، فيدل على ضرب الأجل، والتحديد بثلاثين أو أربعين لموعد ونحو ذلك كدين أو غيره مما يحتاج إلى الآجال.

وقال جماعة من العلماء[4]: هذه الآية من سورة الأعراف دلت على أن التأريخ بالليالي لا بالأيام، وذلك هو المقرر في فن العربية كما دلت عليه هذه الآية أن التأريخ بالليالي لا بالأيام، فتقول: وقع هذا لكذا وكذا ليلة. ولا تقول: لكذا يوماً. فالتأريخ بالليالي؛ لأن الليالي أوائل الشهور

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم، باب فضل الصوم. حديث رقم: (١٨٩٤)، (١٠٣/٤). وأطرافه في: (١٩٠٤، ٥٩٢٧، ٧٤٩٢، ٧٥٣٨). ومسلم في الصوم، باب: فضل الصيام حديث رقم: (١٦١ ـ ١٦٥)، (٨٠٦/٢).

(٢) انظر: القرطبي (٢٧٥/٧).

(٣) انظر: المصدر السابق (٢٧٥/٧).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

وهي سابقة للأيام، فالتأريخ بها لا بالأيام، وهذه الآية نص صريح في ذلك؛ لأن الله قال: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ ولم يقل: ثلاثين يوماً. وقال: ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ حذف منها التاء ولم يقل: «بعشرة»؛ لأن الليالي مؤنثة، ولو أراد الأيام لقال: «بعشرة». بالتاء كما هو معروف في محله، وهذا معنى قوله: ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ الميقات: (مِفْعَال) من الوقت، أي: الزمان المؤقت لهذه المناجاة وإعطاء هذا الكتاب العظيم الذي هو التوراة ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: آية ١٤٢] أي: ولمّا تم ذلك الميقات ناجاه الله وكلمه الله. وسيأتي تكليمه له قريباً في الآيات الآتية، وأعطاه التوراة كما سيأتي موضحاً في هذه السورة الكريمة، ولما أراد موسىٰ أن يغيب عن قومه وكّل أخاه هارون على قومه؛ لأن موسىٰ هو الذي نُبيء وأُرسل أولاً، وهو الذي شفع لأخيه في الرسالة فكأنه هو الأصل في هذا كله، وهارون إنما نبّأه الله لمّا سأله موسىٰ ذلك كما في قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: آية ٣٦] لما أراد السفر إلى الميقات للمناجاة قال: يا هارون ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ معنى: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ أي: كن خليفتي فيهم ﴿وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف: آية ١٤٢] يعني: أصلح كل ما يحتاج إلى الإصلاح من أمرهم، وإذا رأيت من يريد الفساد كمن يريد عبادة العجل لا تتبع سبيله، بل كن على الإصلاح دائماً، كن خليفتي فيهم وافعل فيهم ما كنت أفعل، وكن مصلحاً كل ما يحتاج إلى الإصلاح، ولا تتبع سبيل من أراد الفساد. هذه وصية موسىٰ لأخيه هارون لما أراد السفر، ولما عجل عن قومه، وجاء ربه للميقات، وسأله ربه عن سبب عجلته عنهم ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه: الآيتان ٨٣، ٨٤].

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٤٣، ١٤٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: آية ١٤٣].

(لما) هذه هي التي تربط شرطاً بجزاء، وقد قدمنا أن علماء العربية اختلفوا فيها: هل هي حرف أو اسم؟[1].

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ﴾ نبي الله موسى بن عمران ﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾ أي: جاء للوقت الذي حددناه له للميعاد للمناجاة وإعطاء التوراة بعد انتهاء الأربعين يوماً كما تقدم إيضاحه، كما تقول: جاءني فلان لستة خلون من شهر كذا، لما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه وسمع كلام الله (جل وعلا) اشتاق موسى إلى رؤية الله لما كلّمه الله، قال موسىٰ لربه: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ﴾ (رب) أصله: يا ربي. حُذفت أداة النداء، وحُذفت ياء المتكلم اكتفاء عنها بالكسرة. وحَذْفُ ياء المتكلم إحدىٰ اللغات الخمس المشهورة في المنادىٰ إن كان صحيح الآخر، مضافاً إلى ياء المتكلم كما هو معروف في محله[2].

وقوله: ﴿أَرِنِيٓ﴾ قرأ هذا الحرف جماهير القراء منهم السبعة غير ابن كثير وأبي عمرو ﴿أَرِنِيٓ﴾ بكسر الراء كسرة تامة. وقرأ هذا الحرف ابن كثير والسوسي عن أبي عمرو: ﴿أرْني أنظر إليك﴾ بسكون الراء. وقرأه الدوري عن أبي عمرو بكسرة مُختلسة. فتحصّل أن جميع القراء غير ابن كثير، وأبي عمرو قرؤوا: ﴿أَرِنِيٓ﴾ بكسرة تامة، وأن ابن كثير قرأ بسكون الراء، وكذلك قرأه السوسي عن أبي عمرو، وقرأ الدوري عن أبي عمرو بكسرة مُختلسة[3] ـ وقد قدمنا ـ بأن هذه القراءات في: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ﴾ هي بعينها في قوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: آية ١٢٨].

---

(١) انظر: الحروف العاملة في القرآن الكريم ص٥٩٦.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.
(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٣٦.

وفي إسكان الراء في القراءة السبعية إشكال، فلطالب العلم أن يقول: ما وجه إسكان الراء ﴿أَرْنِي أَنظر إليك﴾ في قراءة ابن كثير والسوسي عن أبي عمرو؟.

والجواب عن هذا السؤال: أن من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن أنها ربما اعتبرت العين كأنها لام، وكانت العين وراءها حرف لين محذوف لأمر أو لجزم ـ مثلًا ـ فتتخيل العرب العين كأنها اللام وتُنزّلها منزلة الحرف الأخير فتسكنها، ونظير هذا في القراءات: قراءة حفص في سورة النور[1]: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ [النور: آية ٥٢] بسكون القاف، قوله: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ كقوله هنا: ﴿أَرْنِي﴾ في قراءة ابن كثير والسوسي، وهذا معروف في كلام العرب، ومن أساليب اللغة أن العين المتحركة إذا كانت بعدها لام محذوفةٌ حرف علّة أنهم ربما اعتدوا بالعين فتخيلوا أنها اللام فسكنوها للأمر، وعليه قراءة: ﴿ويخش الله ويتقْه﴾ وقوله: ﴿أَرْنا مناسكنا﴾ [البقرة: آية ١٢٨] ﴿أَرْني أنظر إليك﴾ ونظيره من كلام العرب قول الشاعر[2]:

أَرْنَا إِدَاوَةَ عبدالله نَمْلَؤُهَا ... من ماءِ زَمْزَمَ إن القومَ قد ظَمِئُوا

وقول الآخر[3]:

ومن يَتَّقْ فإن الله مَعْه ... فَرِزْقُ الله مُؤْتَابٌ وغَادِ

ومن شواهده المشهورة قول الراجز[4]:

قَالتْ سُلَيْمَىٰ اشْتَرْ لَنا سَوِيْقاً ... وهَاتِ خُبزَ البُر أو دَقِيقَا

لو كنتُ يا سلمى لذا مُطيقاً ... ما كان عيشي عندكم طَمِيقَا

فقوله: «اشتر» أصله: (اشتري) وهو كقوله: ﴿أَرِنَا﴾ في القراءة

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

المذكورة، وهذا معنى قوله: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾.

قال بعض العلماء: مفعول (أرني) الثاني محذوف[١]. أي: أرني نفسك أنظر إليك، والفعل المضارع مجزوم بجواب الطلب، فقد قدمنا أن علماء العربية[٢] يقول جماعة منهم: إن المضارع المجزوم في جواب الطلب إنه مجزوم بشرط محذوف. أي: إن تُرني أنظر إليك.

ولما قال موسىٰ هذا وسأل ربه أن يُريه ينظر إليه، طلب الله النظرَ إليه (جل وعلا)، قال الله مجيباً لموسى: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: آية ١٤٣] (لن) هنا حرف نفي ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ يعني: لن تراني في هذه الدار الدنيا كما سنوضحه قريباً إن شاء الله، والمعنى: أنت أضعف يا موسىٰ من أن تقدر على رؤية خالق السماوات والأرض؛ لأن شأنه أعظم وأمره أكبر وأجلّ من أن يقدر على رؤيته أحد في الدنيا؛ لأن الناس في الدنيا مركّبون تركيباً لا يبلغ غاية القوة، معرضون للموت والهلاك، فأنت بهذه الدار لا تقدر أن ترىٰ رب السماوات والأرض، وهذا هو التحقيق في الآية كما سنوضحه إن شاء الله. ثم إن الله كأنه يقول له: هذا الجبل لا شك أنه أقوى منك وأصلب، فهو إذن سأتجلىٰ له، فإنْ تحمّل الجبل رؤيتي وتجلّيَّ له فأنت يمكن أن تقدر وستراني، وإن عجز الجبل عن ذلك ـ صار دكاً وصار فتاتاً تراباً ـ علمتَ أن الشيء الذي يدك الجبال لا يقدر عليه الدم واللحم منك يا موسى، وهذا معنىٰ قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ مع قوته وصلابته ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ وتحمّل تجلّيّ له فيمكن أن تراني، وإن صار الجبل فتاتاً فالذي يدك الجبال لا تقدر عليه أنت يا موسى، فأنت أضعف من أن تتحمل ذلك، وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ جاء في حديث عند الحاكم[٣] أن الله كشف من

---

(١) انظر: الدر المصون (٤٤٩/٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٩) من سورة البقرة.

(٣) أخرجه أحمد (١٢٥/٣، ٢٠٩)، والترمذي في التفسير، (ومن سورة الأعراف) حديث رقم (٣٠٧٤)، (٢٦٥/٥)، وقال: «حديث حسن غريب صحيح، لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة» ا.هـ. والحاكم (٣٢٠/٢)، وقال: «صحيح على شرط مسلم» ا.هـ. ووافقه =

نوره شيئاً قليلًا بقدر بعض الخنصر، فلما كشفه وظهر للجبل صار الجبل دكاً، اندك الجبل حتى استوىٰ بالتراب، وصار تراباً.

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾ الصحيح أن معنى قوله: ﴿صَعِقًاۚ﴾: مغشياً عليه، خلافاً لقتادة القائل: (خرّ صعقاً) أي: ميتاً[1]. وفي الآية الكريمة قرينة تدل علىٰ أن معنىٰ (صعقاً): مغشياً عليه، وهي قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ لأن الإفاقة من الغشية والموت يقال: بعثه بعد الموت. لا أفاق بعد غشيته منها. وهذا معنى قوله: ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِىۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾.

قرأ هذا الحرف عامَّة القراء غير حمزة والكسائي ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول، وقرأه حمزة والكسائي: **﴿فلما تجلىٰ ربه للجبل جعله دكّاءَ وخر موسىٰ صعقاً﴾**[2].

أما على قراءة الجمهور: صار الجبل دكاً، أي: مدكوكاً[3]، والدك: أصله طحن الجبال، فطحنه الله. قال بعضهم: حتى استوى بالتراب وصار فتاتاً تراباً لعظمة رب العالمين (جل وعلا). فتبين لموسىٰ أن الله لو تجلىٰ له - يعني - لما أطاق ذلك؛ ولأن ما فتت الجبال لا يقدر على حمله موسىٰ، هذا معنى الآية.

ومعلوم أن المعتزلة والخوارج وبعض الضُلَّال يستدلون بهذه الآية من سورة الأعراف على أن رؤية الله مستحيلة بتاتاً في الدنيا والآخرة، ويزعمون

= الذهبي. وابن جرير (٩٨/١٣)، والطبراني في الأوسط (٢٣٢/٢)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٥٥٩/٥)، (١٥٦٠)، وابن عدي في الكامل (٦٧٧/٢)، وأورده البغوي في التفسير (١٩٧/٢)، وابن كثير (٢٤٤/٢)، والسيوطي في الدر (١١٩/٣)، وعزاه لأحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدي وأبي الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الرؤية. وقد صحح سند الحديث ابن كثير في التفسير (٢٤٤/٢)، ومحمود شاكر في التعليق على ابن جرير (٩٨/١٣). وقد أخرج ابن جرير (رحمه الله) نحوه موقوفاً على ابن عباس (رضي الله عنهما) (٩٧/١٣).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٥٦١/٥)، وأورده ابن كثير (٢٤٤/٢)، والسيوطي في الدر (١٢٠/٣)، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٤.

(٣) انظر: حجة القراءات ص٢٩٥.

١٨/ب أن (لن) في قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أنها للنفي المؤبد في المستقبل/ وأنها تنفي الرؤية مستقبلًا بتاتاً في الدنيا والآخرة، وأن موسى تاب إلى الله من هذا الطلب، حيث قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾[١].

والتحقيق الذي لا شك فيه الذي يجب على كل مسلم اعتقاده في شأن رؤية الله (جل وعلا) أنها بدار الدنيا جائزة عقلًا غير واقعة شرعاً، أما جوازها عقلًا فمن أعظم الأدلة عليه: أن نبي الله موسىٰ طلبها من ربه، ولا يخفىٰ علىٰ موسى الجائز عقلًا من المستحيل عقلًا، فمن المحال الباطل أن يكون نبي الله موسى يجهل المستحيل بحق الله ويعلمه أشياخ القدرية الجهلة الضُّلال!! أشياخ المعتزلة الجهلة الضُّلّال!! هذا مما لا يكون ولا يقع!! فقول موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ يدل على أن رؤية الله في دار الدنيا جائزة عقلًا، والذي منع منها عجز الآدميين عن تحمّلها؛ لأن الله لما تجلىٰ للجبل اندك الجبل، فما بالك باللحم والدم؟! فهي في دار الدنيا جائزة عقلًا، وأما في الآخرة فلا شك أنها واقعة، ومن أنكرها فهو ملحد في دين الله، ضال مُضل منابذ للسنة المتواترة والقرآن العظيم. فلا شك أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة بأبصارهم، وقد جاءت آيات تدل على ذلك كقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣] وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: آية ١٥] يفهم من دليل خطابه ـ أعني مفهوم مخالفته ـ أن المؤمنين ليسوا يومئذ محجوبون عند ربهم، وقد استحسن العلماء استدلال الإمام الشافعي (رحمه الله) بهذه الآية على رؤية الله يوم القيامة[٢]، أما الأحاديث فحدث ولا حرج، فقد تواترت الأحاديث الصحاح في الصحيحين وغيرهما من السنن والمسانيد والأجزاء عن نحو من عشرين صحابياً كراماً فضلاء عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، ولا يكاد ينازع من له إنصاف، في تواتر أحاديث رؤية الله يوم القيامة[٣].

---

(١) انظر: شبهتهم هذه والجواب عنها في شرح الطحاوية ص٢١٢، الأضواء (٣٣٢/٢)، دفع إيهام الاضطراب ص١٢٠ ـ ١٢٢ وراجع ما سبق عند تفسير الآية (١٠٣) من سورة الأنعام.

(٢)(٣) مضى عند تفسير الآية (١٠٣) من سورة الأنعام.

وجاء في الصحيحين وغيرهما [أحاديث كثيرة تدل على ذلك، وقد][(١)] روىٰ رؤية الله يوم القيامة عن النبي ﷺ نحو من عشرين صحابياً، والأحاديث في ذلك متواترة مشهورة منها: «**إنكم ترون ربكم عياناً هل تُضارون في رؤية الشمس ليس دونها حجاب؟ هل تضارون في رؤية القمر ليس دونه سحاب؟ إنكم ترون ربكم كذلك**»[(٢)] «**إنكم ترون الله كما ترون القمر**» وأحاديث الرؤية صحيحة متواترة لا يطعن فيها إلا ملحد، والمعتزلة يحاولون دفعها، وهي لا تُدفع بالتأويلات الباطلة، والكلام الذي لا طائل تحته، فتحصّل أن التحقيق أن رؤية المؤمنين لربهم أنها في دار الدنيا جائزة عقلاً، وأنها في الآخرة واقعة شرعاً، فهي في دار الدنيا جائزة عقلاً غير واقعة شرعاً، وفي الآخرة واقعة شرعاً بلا نزاع ممن يُعتد به لتصريح النبي ﷺ بذلك في الأحاديث المتواترة.

وما استدل به المعتزلة على استحالة رؤية الله: أما الأدلة العقلية التي يزعمون فكلها فلسفات باطلة لا طائل تحتها، كزعمهم أن رؤية الله تستلزم الجهة، وأن ذلك محال، وتستلزم أنواعاً من المقابلات، وأن كل ذلك محال، وأنهم يقولون: لو خيلنا أن بين العبد وربه حين يراه شكلًا مثلثاً،

---

(١) في هذا الموضع كلام غير واضح، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) جاء ذلك من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) عند البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾... حديث رقم: (٧٤٣٧)، (٤١٩/١٣).

ومسلم في الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية. حديث رقم: (١٨٢)، (١٦٣/١)، ومن حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) عند البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾... حديث رقم: (٧٤٣٩)، (٤٢٠/١٣)، ومسلم في الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية. حديث رقم: (١٨٣)، (١٦٧/١).

ومن حديثهما كما في البخاري (الكتاب والباب السابقان). حديث رقم: (٧٤٣٨)، (٤٢٠/١٣)، ومسلم (الكتاب والباب السابقان). حديث رقم: (١٨٢)، (١٦٣/١).

ومن حديث جرير البجلي (رضي الله عنه) عند البخاري في مواقيت الصلاة، باب: فضل صلاة العصر. حديث رقم: (٥٥٤)، (٣٣/٢). وأطرافه: (٥٧٣، ٤٨٥١، ٧٤٣٤، ٧٤٣٥، ٧٤٣٦).

ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب: (فضل صلاتي الصبح والعصر). حديث رقم: (٦٣٣)، (٤٣٩/١).

فشعاع العين الذي يمشي مع المستقيم يسبق إليه (جل وعلا) قبل الذي يمشي مع الزاوية المنفرجة فيسبق هذا هذا، وهذا محال. وهو كلام كله باطل وضلال لا طائل تحته!!

وما استدلوا به من قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ فقد أجاب العلماء عنه بأن المنفي بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: آية ١٠٣] الإدراك المشعر بالإحاطة، أما مطلق الرؤية فليس هو المنفي في ذلك بدليل قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: الآيتان ٢٢، ٢٣] فما يدّعونه من الاستحالات العقلية لا طائل تحته.

وما تمسكوا به من النقل لا حجة لهم فيه، والتحقيق الذي لا شك فيه أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة لا يضارون في ذلك، كما صرّح به الصادق المصدوق ورواه عنه نحو عشرين صحابياً من أصحابه (رضي الله عنهم). هذا هو التحقيق في هذا المقام.

وقول المعتزلة: «إن (لن) حرف نفي يدل على نفي الشيء للمستقبل نفياً باتاً» هو كذب أيضاً، وتَقَوُّلٌ على اللغة العربية بما ليس منها!! والذي دلت عليه أدلة العربية الواردة في القرآن الذي هو في الطرف الأعلىٰ من الفصاحة والإعجاز دلّ على أن قول المعتزلة هذا بأن (لن) إنها للنفي في المستقبل نفياً أبدياً باتاً هذا باطل كذب.

وقد دلت ثلاث آيات من كتاب الله على كذب هذا القول، وأنه ليس بصحيح:

إحداها: أن (لن) لو كانت نصاً صريحاً في النفي المستقبل البات الأبدي لما جاز تقييد نفيها في يوم ولا ظرف معين، وقد جاء بالقرآن تقييد نفيها بيوم معين، في قوله: ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: آية ٢٦] لو كان نفي (لن) للكلام نفياً مؤبداً إلى يوم القيامة لكان قول مريم مناقضاً لذلك التأبيد كما ترىٰ.

الموضع الثاني: أن (لن) لو كانت تقتضي التأبيد الأبدي لما كان الله يقول بعد نفيها (أبداً)؛ لأن لفظة (أبداً) تكون تكراراً مع التأبيد الذي دلت عليه (لن) كقوله: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: آية ٩٥] لأن قوله: ﴿أَبَدًا﴾

على زعم المعتزلة يكون تكراراً مع النفي الأبدي الذي زعموا أنه تدل عليه (لن) فلما قال الله بعد نفيها: ﴿أَبَدًا﴾ عرفنا أنهم كاذبون في ذلك.

الموضع الثالث: أن (لن) لو كانت تدل على النفي المؤبد البات إلى الأبد لما جاز أن يوقت نفيها بغاية معينة، وقد جاء في القرآن أن الله غيَّا نفيها بغاية معينة، وكونه غيّاه بغايَة معينة يناقض أنه إلى الأبد، كما في قوله: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ قوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ [يوسف: آية ٨٠] قَصْرُ هذا النفي على وقت الإذن ينافي كون (لن) هي نصٌ في النفي البات كما ترى، فتبين من هذا أن قول المعتزلة: إن (لن) للنفي المستقبل البات الأبدي ولو فرضنا أن العربية تساعدهم على ما يقولون - فرض جدل - لما كان لهم في ذلك حجة؛ لأن النبي ﷺ - وهو الصادق المصدوق - بيّن في الأحاديث الصحيحة المتواترة أن نفي ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ منقطع يوم القيامة، فصرح بأنهم يرونه يوم القيامة كما لا يخفى، وهذا معنى قوله: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾.

قرأ هذا الحرف من السبعة: عاصم وأبو عمرو وحمزة: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ بكسر نون (لكن) على قاعدة التخلص من التقاء الساكنين.

وقرأه باقي السبعة: ﴿ولكنُ انظر إلى الجبل﴾ بضم النون إتْباعاً لضمة الراء كما هو معروف[1].

﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ﴾ الجبل ﴿مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾ أي: ظهر (جل وعلا) وكشف نوره للجبل انهد الجبل، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ أي: مدكوكاً، قال بعض العلماء: رفاتاً تراباً مختلطاً بالأرض. وعلى قراءة حمزة والكسائي: ﴿جعله دكَّاءَ﴾[2] [الأعراف: آية ١٤٣] كأنه شبهه بالناقة الدكّاء، والعرب تقول: ناقة دكّاء، وجبل أدك. فالناقة الدكّاء هي التي لا سنام لها. أي: لا ارتفاع في ظهرها، فظهرها كله مستو غير مرتفع، فكانت أرض الجبل كأنها لا ارتفاع فيها،

---

(١) انظر: الإتحاف (٢/٦١).

(٢) مضى قريباً.

وأنها دكّاء مستوية بالأرض، خلافاً لبعضهم القائل: إن دكَّاء مرادها: المرتفعة عن الأرض قليلاً كالدكة، وعلى كل حال فالله (جل وعلا) لما تجلّى للجبل دك الجبل وأزاله وكسّره، وصار رُفاتاً لعظمة خالق السماوات والأرض على القراءتين: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ ﴿جعله دكَّاء﴾.

﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾ خرّ نبي الله موسىٰ من شدة الخطب الذي دك الجبل، خرّ في حال كونه صعقاً، أي: مغشياً عليه، خلافاً لقتادة القائل: ميتاً، وأن الله أحياه.

وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ أي: نبي الله موسىٰ أفاق من غشيته قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ (سبحان) كلمة تدل على التنزيه. معناه: تنزيهاً لك عن كل ما لا يليق بكمالك وجلالك[(١)]، وهذه الكلمة أعربها الشيخ سيبويه بأنها مصدر منصوب بفعل يُحذف دائماً[(٢)]، أي: أُسبحك سبحانك. أي: تسبيحاً أنزهك عن كل ما لا يليق بكمالك وجلالك. ولفظة (سبحان) ملازمة للإضافة إلى المفرد، وسُمع نادراً إتيانها غير مضافة، ومنه قول الأعشى: في شعره بالمنافرة بين علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطفيل المشهورة[(٣)]:

فقلتُ لما جاءني فَخْرُهُ   سُبحانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الفَاخِرِ

وهذا معنىٰ قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك عما لا يليق بكمالك وجلالك، ومن ذلك أن يتحمل أحد رؤيتك في دار الدنيا، فإن عظمتك تدكّ الجبال.

وقال بعضهم: قوله: ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ لأن موسىٰ تجرّأ على سؤال الرؤية من غير إذن[(٤)]، وقد كان يظن أن قدرته تتحملها، فالذي جهله موسىٰ هو مدىٰ قدرة نفسه، أما ما يجوز في الله وما يستحيل فلا يجهله نبي الله موسىٰ كما هو معروف.

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٢٦٥).

(٢) الكتاب (١/٣٢٢ ـ ٣٢٧).

(٣) ديوان الأعشى ص٩٣، وأوله: «أقول...».

(٤) انظر: القرطبي (٧/٢٧٩).

﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ هذا الحرف عامّة القراء غير نافع: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من غير مدّ النون. وقرأه نافع وحده: ﴿تبت إليك وأنآ أول المؤمنين﴾[1].

قال بعض العلماء[2]: أول المؤمنين من بني إسرائيل. وقال بعضهم: أول المؤمنين بأن البشر لا يقدرون على رؤيتك في دار الدنيا. هكذا قاله بعضهم[3]، والله أعلم. هذا معنى قوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال الله ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ﴾ قرأه بعض السبعة: ﴿إنـيَ اصطفيتك﴾[4] اصطفيتك: معناه: اخترتك. والطاء مبدلة من تاء الافتعال؛ لأن المقرر في فن الصرف: أن تاء الافتعال إذا جاء بعد حرف من حروف الإطباق أُبدل طاءً كما هو معروف في محله[5].

والاصطفاء معناه: الاختيار. أي: اخترتك على الناس ﴿بِرِسَٰلَٰتِى﴾.

قرأ هذا الحرف جمهور القراء غير نافع وابن كثير: ﴿بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ بصيغة الجمع المؤنث السالم، وقرأه من السبعة نافع وابن كثير: ﴿إني اصطفيتك على الناس برسالتي﴾ بالإفراد[6]، ومعنى القراءتين واحد؛ لأن الرسالة أُضيفت إلى معرفة فهي تعم، وتكون بمعنى الجمع كما هو معروف.

﴿بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ الذي كلمتك به ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾. ﴿مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ وهو التوراة. يعني: خذها كما يأتي: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٤٥].

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٤٤] لله على هذه النعم العظام حيث كلمك، وأهلك عدوك، وكتب لك هذا الكتاب العظيم الذي هو التوراة.

---

(١) انظر: الإتحاف (٢/٦٢).
(٢) انظر: ابن جرير (١٣/١٠٤).
(٣) المصدر السابق (١٣/١٠٢ ـ ١٠٣).
(٤) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٩.
(٥) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٤١٨ ـ ٤١٩. وراجع ما سبق عند تفسير الآية (١١٩) من سورة الأنعام.
(٦) انظر: السبعة ص٢٩٣.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الشاكرون جمع الشاكر، وهو اسم فاعل الشكر. وقد قدمنا مراراً[١] أن الشكر في لغة العرب: الظهور، ومنه: (ناقة شكور) يظهر عليها السِّمَن، و (الشكير): الغصن الذي يظهر في الجذع الذي كان مقطوعاً كما هو معروف.

والشكر في القرآن يطلق من الرب لعبده، ومن العبد لربه، كما قال في شكر الرب لعبده: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: آية ١٥٨]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: آية ٣٤] ومعنىٰ شكر الرب لعبده: هو أن يثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل. ويطلق الشكر من العبد لربه كقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: آية ١٣] ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: آية ١٤] وضابط شكر العبد لربه: هو أن يصرف نعمته بما يرضيه.

اعملوا أيها الإخوان أن شكر خالقنا واجب علينا[٢]، فهذه العيون التي فتح الله في أوجهكم من أعظم نعمه عليكم، فمِنْ شُكْرِها: أن لا تنظروا بهذه العيون إلا ما يرضي من خلقها وتفضل عليكم بها، أما النظر في المحرمات فلا ينبغي للعبد أن يستعمل نعمة الله فيما يغضب الله ويسخطه، فهذا أمر فظيع شنيع!! منّ الله عليكم بهذه الأيدي، وفرّق أصابعها، وأبعد إبهامها من الأصابع ليمكنكم العقد والحل، وشد رؤوسها لكم بالأظفار، فَشُكْر هذه الأيدي: ألا تبطشوا بها، ولا تتناولوا بها إلا ما يرضي من خلقها وامتنّ عليكم بها، وهكذا في سائر الأعضاء والجوارح، والجاه والمال، وغير ذلك، فلا تستعينوا على سخط الله بنعم الله، بل اشكروا لله نعمه، واصرفوا نعمه فيما يرضيه، واعلموا أن من أقبح القبائح وأرذل الرذائل أن يكون العبد الضعيف الحقير يمُنّ عليه خالق السماوات والأرض (جل وعلا) مع عظمته وجلاله بنعمه ثم إنه يصرف نعمه فيما يغضبه ويسخطه!! هذا من أقبح الأفعال وأخسها، ومن له عقل يستحي من أن يفعل ذلك.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

واعلموا أن مادة (الشكر) تتعدىٰ إلى النعمة بنفسها بالإجماع، كقوله: ﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل: آية ١٩] أما تعدي مادة (الشكر) إلى المنعم فاللغة الفصحىٰ أنها تتعدىٰ باللام، وبالغ قوم من علماء العربية فقالوا: لا يجوز تعديها بنفسها[(١)]، وهذا إفراط شديد!! فمثلاً لو قلت: نحمد الله ونشكره. هذا لا ينبغي أن يُقال!! وليس هو الأولى. وزعم بعضهم أنه لا يجوز. فيقول: نحمد الله ونشكر له. ولا يقول: ونشكره. ومن ادعىٰ أن: (ونشكره)، وأن تعدي مادة الشكر إلى المفعول الذي هو المنعم بنفسها لا يجوز؛ خلاف التحقيق.

والحق الفصل الذي لا شك فيه في هذا المقام: أن اللغة الفصحىٰ أن تتعدىٰ إليه باللام لا بنفسها، وأن تقول: نحمد الله ونشكر له. هذه اللغة الفصحىٰ بلا نزاع. وهي لغة القرآن، يقول: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: آية ١٤] ولم يقل: أن اشكرني. ويقول: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: آية ١٥٢] ولم يقل: واشكروني. أما قولهم: إن مثل قوله: «أحمده وأشكره» أنه لحن لا يجوز. فليس بصواب، بل (أشكره) لغة مفضولة، و (أشكر له) هي اللغة الفصحىٰ، وقد جاء عن العرب أنهم يُعَدُّونَ ـ مثلاً ـ الشكر إلى المنعم بلا واسطة الحرف، وهو متبوع في كلامهم، ومن أمثلته في كلامهم قول أبي نخيلة[(٢)]:

شكرتُكَ إن الشُكْرَ حبلٌ من التُّقىٰ ... وَمَا كُلُّ من أَوْلَيْتَهُ نعمةً يَقْضِي

ولم يقل: شكرت لك. وإنما قال: شكرتك. ومنه بهذا المعنىٰ قول جميل بن معمر[(٣)]:

خَلِيْلَيَّ عُوجَا اليومَ حتى تُسَلِّمَا ... على عَذْبَةِ الأَنْيَابِ طَيِّبَةَ النَّشْرِ
فإنكُما إنْ عُجْتُمَا لِيَ ساعةً ... شكرتُكُمَا حتى أُغَيَّبَ في قبري

فإنه عربي قح، وقد قال: شكرتكما. ولم يقل: شكرت لكما.

---

(١)(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

وقول الله في هذه الآية: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: آية ١٤٤] صفة الكلام هي التي جاء بها الذين يبحثون عن الكلام[١]، وجاؤوا ببلايا، وجاؤوا بعلم الكلام، وغيّروا عقائد الناس، وجاءت البلايا من ذلك الوقت لما دخل علم الكلام في المسلمين، وصاروا يحكِّمون العقل في صفات الله تعالىٰ، وينفون الصفات بالتأويلات، بزعمهم أن العقل يمنعها، جاء من ذلك شر كبير، ومصدر هذا الشر الكبير، عسىٰ الله أن يعفو عن المأمون فيه؛ لأنه هو أول من ترجم الكتب اليونانية، وكان منها هذه المقاييس المنطقية، وقد قدمنا لكم مراراً[٢] أن الطريق الأحوط الذي يُنجي المسلم ويخلصه من القيل والقال والبلايا كلها حتى يلقىٰ الله سالماً على أساس صحيح في نور القرآن العظيم هو أن يلتزم الأسس الثلاثة التي أكثرنا من تكرارها في هذه الدروس، ونحن كررناها قصداً لشدة الحاجة إليها، وكثرة من غفل عنها من المتعلمين، وقد بيّنا لكم مراراً أن من أراد منكم أن يلقىٰ الله سالماً ويتخلص من هذا المأزق في آيات الصفات، كصفة الكلام، وصفه اليد، والاستواء وجميع الصفات أن يبنيه على ثلاثة أُسس:

أولها: وهو أساس العقيدة الصحيحة: تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة خلقه في شيء من ذواتهم أو صفاتهم أو أفعالهم. والخلق صنعة، وهو (جل وعلا) صانعها، والصنعة لا تشبه صانعها لا في ذاته، ولا في فعله، ولا في صفته. فإذا استقر هذا الأساس الأعظم في القلوب وطهرت من أقذار التشبيه، وغلب عليها تنزيه خالق السماوات والأرض عن مشابهة خلقه سهل عليها:

الأساس الثاني: وهو أن تؤمن بصفات الله الثابتة في كتابه وسنة رسوله الصحيحة ﷺ إيماناً مبنياً على أساس ذلك التنزيه. ونحن نكرر لكم مراراً أن هذا التعليم ما قلناه من تلقاء أنفسنا، لا والله وكلا، ولكنا نقوله في ضوء المحكم المُنَزَّل، كلام رب العالمين؛ لأنه أوضح هذا إيضاحاً شافياً لا يترك

---

(١) يريد أنهم جاؤوا فيها بالخوض في الباطل، وإلا فمن المعلوم أن صفة الكلام ثابتة في الكتاب والسنة.

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الأنعام.

في الحق لبساً، وذلك أنه لما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أتبعه بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فجميع الحيوانات تبصر - ولله المثل الأعلى - فكأن الله يقول لك في هذه الآية: يا عبدي لا تتنطع وكن عاقلًا، ولا تذهب بصفتي إلى صفة خلقي فتكون مشبهاً، وتضطر إلى التأويلات والبلايا، بل لاحظ في إثبات الصفات أني لا مثيل لي ولا نظير، وأثبت لي صفاتي على ذلك الشرط المعين؛ ولذا جاء بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] أي: أثبت لي سمعي وبصري، ولا تذهب بهما إلى مشابهة أسماع الخلق وأبصارهم، بل أثبتهما على أساس ما ذكرتُ قبلهما، وهو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فتثبت له سمعه وبصره على أساس التنزيه والتقديس والتكريم عن مشابهة صفات المخلوقين، فتكون أولًا مُنَزِّهاً، وثانياً مُثْبِتاً على أساس التنزيه، وإن جئت يوم القيامة لا يأتيك لوم ولا توبيخ من أنك نزهت الله، والله لا يقول لك الله: لِمَ كنت تنزهني في دار الدنيا عن مشابهة خلقي؟ لا أبداً. هذا طريق سلامة محقق. ولا يقول لك: لِمَ كنت تصدقني في صفاتي التي مدحت بها نفسي وأثنى عليَّ بها رسولي ﷺ؟ وعليك أن تقف عند حدّك[1].

هذا ذكرناه مراراً مطولًا ومختصراً، فعلينا أن ننزّه خالقنا عملًا بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: آية ٤] ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: آية ٧٤] وعلينا أن نصدقه بما وصف به نفسه، ولا نقول: هذا نص يوهم غير اللائق!! فنثبت: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ على أساس: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] ولا نقول: هذا نص يوهم غير اللائق؛ لأن الحيوانات تسمع وتبصر فنؤوّله!! لا نفعل ذلك، ونقف عند حدّنا ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: آية ١١٠] ونعلم أن الله وصف نفسه بأنه كلم موسى، وأكد ذلك التكليم في سورة النساء بالمصدر في قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ

---

(١) لم يذكر الأساس الثالث وقد ذكره في الموضع السابق عند الكلام على هذا الموضوع، وهو قطع الطمع عن إدراك كيفيات الصفات.

تَكْلِيمًا﴾ [النساء: آية ١٦٤] يجب علينا أن نعلم أن الكلام صفة الله الأزلية، وأنه لم يتجرد يوماً ما عن أنه متكلم، وأنه في كل يوم يتكلم بما شاء، كيف شاء، على الوجه اللائق بكلامه وجلاله المنزّه عن مشابهة كلام المخلوقين من جميع الجهات، ونُمِرُّه كما جاء مع تنزيه الله وتعظيمه، ولا نأتي بشيء من المحالات والبلايا.

وهنا للمتكلمين ضلالات طويلة، وكلام باطل طويل في الكلام لا يسعه هذا المقام.

١/١٩ / ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٤٨ ـ ١٥٠].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

﴿قَوْمُ مُوسَىٰ﴾ هم بنوا إسرائيل، أي: واتخذ بنو إسرائيل ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ أصل هذا الحلي للقبط استعاره منهم الإسرائيليون لعُرس أو ليوم زينة عندهم كانوا يتزينون فيه، وأُمر موسىٰ أن يسري ببني إسرائيل قبل أن يردوا الحلي للقبط، فسافروا به، وأهلك الله فرعون وقومه، وبقي ذلك الحلي المستعار منهم عند الإسرائيليين، فاتخذ السامري العجل من ذلك الحلي. وهنا قال: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ قال بعض العلماء: لأن الله أورثهم أموالهم بعدهم كما في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: آية ٥٩] ولذا أضافه إليهم بعد هلاك فرعون وقومه. وقال بعض العلماء: الإضافة تقع بأدنىٰ ملابسة، فلما كان تحت أيديهم عاريةً عندهم أضافه إليهم بهذه الملابسة، وقد بيَّن في «طه» أنه من زينة قوم آخرين كما ذكر عن الإسرائيليين أنهم قالوا: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ [طه: آية ٨٧] وهي حلي

القبط. هذا وضابط ذلك أن السامري ـ قبّحه الله ـ موسى بن ظفر رأى جبريل لما جاء على فرس ليأخذ موسىٰ إلى الميعاد، أو ليمشي أمام فرعون وقومه، والأكثرون يقولون: إن موسىٰ لما أراد الله إتيانه للميعاد أرسل إليه جبريل. قالوا: وكان جبريل راكباً علىٰ فرس فلاحظها السامري، كل شيء مسه حافر تلك الفرس ينبت فيه النبات، فعرف السامري أن الله (جل وعلا) جعل في أثر تلك الفرس خاصة الحياة، فجاء وقبض قبضة من التراب الذي مسه حافر ذلك الفرس ثم أمسك ذلك التراب عنده، وكان السامري ـ قبّحه الله ـ صائغاً فصاغ ذلك العجل. يقول بعض المؤرخين: إنه بعد غيبة موسىٰ قال لهارون: هذا الحلي صار غنيمة، والغنائم لا تحل لكم فاجعلوه في النار ليكون قطعةً واحدةً ليكون ذلك أيسر لأمره حتىٰ يأتي نبي الله موسىٰ فيرىٰ رأيه فيه، وأنهم لما جعلوه في النار صاغه السامري علىٰ صورة عجل، ولما صاغ ذلك الحلي على صورة عجل جعل فيه ذلك التراب الذي كان مُدخُراً له ـ الذي مسه حافر فرس جبريل وجعل الله فيه خاصة الحياة ـ فصار ذلك العجل جسداً له خوار. وقد أشار الله إلى هذا في سورة (طه) في قوله عن موسىٰ والسامري: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ يعني من أثر حافر فرس الرسول، يعني جبريل ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ [طه: الآيتان ٩٥، ٩٦] أي: على العِجْل. فجعله الله جسداً له خوار، فلما ألقى السامري ذلك التراب على العِجْل وصار ذلك العِجْل المصوغ من الحلي جسداً له خوار. الخوار في لغة العرب: هو أصوات البقر خاصة، تقول العرب: خارت البقر تخور وتخاورت البقر. أي: صَوَّت بعضها إلى بعض، وهذا معروف في كلامهم، ومنه قول العباس بن مرداس السُلمي في غزوة حنين في معرض مدحه لسليم[1]:

لا يغرسونَ فَسِيْلَ النخلِ حولهم ولا تَخَاوَرُ في مَشْتَاهُم البقرُ

---

(١) البيت في السيرة لابن هشام (١٣١٧/٤)، وسيأتي في سياق أبيات القصيدة عند تفسير الآية (٢٥) من سورة التوبة. وشطره الأول:

«لا يغرسون فسيل النخل وسطهم»

فالخوار: صوت البقر.

وقرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة والكسائي: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ بضم الحاء وتشديد الياء[١]. والحُلي أصله: (حُلُوْي) جمع حَلْي (فَعل) مجموع على (فُعُولَ) وجمعه (حُلُوْي) كفَلْس وفُلُوس، وظَهْر وظُهُور، وحَلي وحُلُوْي، اجتمعت فيه الواو والياء، أولاهما ساكنة غير عارضة ولا عارضة السكون، فوجب إبدال الواو ياءً، وقُلبت ضمة اللام كسرة لمجانسة الياء فقيل: من حُليِّهم[٢].

وقرأه حمزة والكسائي: ﴿**واتخذ قوم موسى من بعده من حِلِيِّهِمْ**﴾ بكسر الحاء إتباعاً للاَّم، وأصل الحاء مضمومة[٣].

وقوله: ﴿عِجْلًا﴾ العجل ولد البقرة، ويجمع على عجاجل على غير قياس[٤].

وقوله: ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ [الأعراف: آية ١٤٨] قال بعض العلماء: الجسد هو البدن الذي فيه اللحم والدم، ويدل لهذا قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾ [الأنبياء: آية ٨] واختلف العلماء في هذا العجل هل جعل الله فيه لحماً ودماً وجعله حياً، أو هو عجل باقٍ في صورة الذهب والفضة إلا أن الرياح إذا دخلت في منافذه كان يُسمع في داخله صوت يشبه أصوات البقر؟ قال بكلٍ منهما بعض العلماء[٥].

وظاهر قوله: ﴿جَسَدًا﴾ أن الله جعله عجلًا، والله (جل وعلا) قادرٌ على كل شيء لا يتعاصى على قدرته شيء. وقوله الآتي: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ [طه: آية ٥٧] على أن التحريق معناه التحريق بالنار كما قاله جماعة من العلماء، فيظهر أن العجل صار

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٤.

(٢) انظر: معجم مفرادت الإبدال والإعلال ص٨٦.

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٤.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٥) انظر: ابن جرير (٦٣/٢)، فما بعدها.

جسداً لحماً ودماً؛ لأن اللحم والدم إذا أُحرق بالنار يبس وأمكن دقه ونسفه في البحر؛ لأن الذهب والفضة لا يمكن دقهما ونسفهما في البحر، وأما على أن المعنىٰ لنحرّقنّه: نبردنّه بالمبارد كما تشهد له القراءة الأخرى: ﴿لَنَحْرُقَنَّه﴾[١] [طه: آية ٩٧] فعلىٰ هذا المعنىٰ فالأليق أن يكون بقي ذهباً وفضةً إلا أنه يصوّت صوت البقر إذا دخلت الريح في داخله.

وقوله: ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ مفعول (اتخذ) الثاني محذوف لدلالة المقام عليه، أي: اتخذوا عجلًا جسداً إلٰهاً معبوداً من دون الله. فحذف المفعول الثاني لدلالة المقام عليه، وهذا هو التحقيق، والنكتة في حذفه: أنه لا ينبغي أن يُتلفظ بأن عجلًا مصطنعاً إلٰهاً[٢] فحذف لهذه النكتة كما قاله بعضهم.

﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ قال في سورة طه: إنّ السامري لمّا اصطنعه لهم قال لهم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه: آية ٨٨] فنسي موسى أن هذا إلٰهه، وذهب يطلبه في موضع آخر. وقال هنا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ قرر علماء التفسير أن كل فعل مضارع مجزوم بـ (لم) إذا جاءت همزة الاستفهام قبل لم ففيه في جميع القرآن وجهان معروفان لعلماء التفسير[٣]:

أحدهما: أن المضارع تنقلبُ مُضَارَعَتُه مَاضَويَّة، وينقلب نفيه إثباتاً، فيصير قوله هنا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ينقلب المضارع ماضياً، والنفي إثباتاً، فيصير المعنى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ﴾ أي: رأوا أنه لا يكلمهم، أي: علموا بذلك، وعليه فيكون معنىٰ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ [الشرح: آية ١] شرحنا لك. ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ [الكهف: آية ٧٥] قلت لك، ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾﴾ [البلد: آية ٨] جعلت له عينين، وهكذا.

أما انقلاب المُضَارَعَة مَاضَوِيَّة فلا إشكال فيه؛ لأن (لم) حرف قلب،

---

(١) انظر: إتحاف فضلاء البشر (٢/٢٥٦)، وانظر: القرطبي (١١/٢٤٢).
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة. وانظر: الأضواء (٢/٣٣٣).
(٣) انظر: الحروف العاملة في القرآن الكريم ص٦٣٣.

تقلب المضارع من معنىٰ الاستقبال إلى معنى الماضي، كما هو معروف لا إشكال فيه.

أما وجه قلب النفي إثباتاً: فالهمزة الداخلة على (لم) مضمنة معنى الإنكار، ففيها معنى النفي، فيتسلط النفي الكامن فيها على النفي الصريح في (لم) فينفيه، ونفيُ النفي إثبات.

الوجه الثاني: أن الاستفهام في (ألم) في جميع القرآن هو استفهام تقرير[1]، والمقرر في فن المعاني أن المراد باستفهام التقرير: هو حمل المخاطب على أن يقر ويقول: بلى[2]. وعلى هذا فالمراد بالاستفهام: حمل المخاطبين على أن يقروا ويقولوا: بلى هو لا يكلم، ولا يهدي سبيلًا، وليس بشيء يستحقُ أن يُعبد. وهذا معنى قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ ألم يروا أن هذا المعبود الذي افتروه واختلقوه لا يكلمهم؟. والمعبود الحق لا بد أن يكون يُكلم، ومعبود أهل السماوات والأرض بالحق يقول عن كلام نفسه: ﴿لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: آية ١٠٩] وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: آية ٢٧] هذه صفة المعبود حقاً، أمّا الذي لا يقدر على أن يتكلم كلمةً واحدة فهذا ليس بمعبود.

وقوله: ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ المعبود هو الذي يهدي، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ [يونس: آية ٣٥] أما الذي لا يهدي سبيلاً أي: طريقاً كائناً ما كان فلا يمكن أن يكون برب ولا بمعبود. فلما قرر (جل وعلا) أن هذا العجل الذي اتخذوه إلهاً تنتفي عنه الصفات التي يجب أن تكون للإله صرح بأنهم عبدوه وهم ظالمون في ذلك فقال: ﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ اتخذوه إلهاً ﴿وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ ظالمين في ذلك.

---

(١) انظر: الإتقان (٢٣٥/٣)، الحروف العاملة في القرآن الكريم ص٦٣٤.

(٢) انظر: البرهان للزركشي (٣٣٣/٢)، (٢٣٥/٤)، جواهر البلاغة ص٧٨.

وقد فسرنا الظلم مرارا[١]، وبيّنا أن أصله في لغة العرب: وضع الشيء في غير موضعه، وأكبر أنواع وضع الشيء في غير موضعه: وضع العبادة في عجلٍ مصطنع جماد!! من عبد هذا وأعطاه حق الله فقد وضع العبادة في غير موضعها، وأكبر أنواع الظلم: وضع العبادة في غير موضعها كظلم هؤلاء بعبادة هذا العجل؛ ولأجل ذلك كثر في القرآن إطلاق الظلم على الشرك بالله كقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣] وقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: آية ١٠٦] أي: من يعبد عجلاً مصطنعاً فهو من الظالمين الواضعين العبادة في غير موضعها كما هو ظاهر.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأعراف: آية ١٤٩].

قوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن شدة الندم، فكل من أصابه ندمٌ شديد حتى بقي حائراً من شدة ندمه تقول العرب: سُقط في يده[٢]. فمعنىٰ: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ لما ندموا غاية الندم وبقوا متحيرين على كفرهم بالله وعبادتهم لعجلٍ مصطنع ﴿وَرَأَوْا۟﴾ رأى هنا بمعنى علم[٣]. أي: وعلموا علماً يقيناً ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟﴾ ضلوا عن طريق الصواب والرشد، وقد بيّنا في هذه الدروس مراراً[٤] أن الضلال جاء في القرآن إطلاقه على ثلاثة معان، وهي إطلاقات معروفة مشهورة في كلام العرب مستفيضة فيه، فمن إطلاقات الضلال: إطلاقه على الذهاب عن الإيمان إلى الكفر، وعن طريق الجنة إلى طريق النار، وهذا أكثر إطلاقاته. ومنه بهذا المعنى:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) انظر: القرطبي (٢٨٥/٧)، الدر المصون (٤٦٢/٥).

(٣) انظر: الدر المصون (٤٦٤/٥).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: آية ٧] وإطلاق الضلال مراداً به الذهاب عن علم شيء، فليس من الضلال في الدين، فكل من ذهب عن علم شيء تقول العرب: ضل عنه. ومنه بهذا المعنىٰ قول أولاد يعقوب لأبيهم: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: آية ٩٥] أي: ذهابك عن معرفة حقيقة يوسف، هو قد مات من زمان وأنت كل يوم تسأل عنه. وكقولهم فيه: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: آية ٨] لا يعنون الضلال في الدين، وإنما يعنون الذهاب عن حقيقة الأمر حيث زعموا أنه فَضَّل يوسف وأخيه عليهم، وأنهم أكثر نفعاً على أبيهم من يوسف وأخيه. ومنه بهذا المعنىٰ قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ أي: تذهب عن علم معرفة المشهود به ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: آية ٢٨٢]، ومنه بهذا المعنى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى﴾ [طه: آية ٥٢] أي: لا يذهب عنه علم شيء سبحانه وتعالى عن ذلك،، ومنه بهذا المعنى قول الشاعر[1]:

وتظنُّ سلمىٰ أنني أَبْغي بها بدلاً أراهَا في الضلالِ تَهِيْمُ

أي: في عدم معرفة الحقيقة حيث ظنت أني أبغي بها بدلًا، والأمر على خلاف ذلك.

الاستعمال الثالث: هو استعمال العرب الضلال في الغيبة والاضمحلال، يقولون لكل شيء غاب واضمحل يقولون فيه: ضل، كقولهم: ضل السمن في الطعام. إذا غاب واضمحل فيه، ومنه بهذا المعنى قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٤] وقوله: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: آية ١٠] يعنون: إذا ضلت عظامهم في الأرض؛ أي: أكلها التراب واختلطت به وغابت واضمحلت فيه. ومن أجل هذا كانت العرب تسمي الدفن (إضلالاً) لأن من دُفن يضل في التراب، وتأكل الأرض عظامه، ويختلط بها؛ ولذا كانوا

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

يسمون الدفن إضلالاً، ومنه قول نابغة ذبيان(١):

فـجـاء مُـضـلُّـوهُ بـعـيـنٍ جـلـيـةٍ   وغُـودرَ بـالـجـولانِ حـزمٌ ونـائـلُ

مضلوه: يعني دافنيه. وقول المخبل السعدي يرثي قيس بن عاصم المنقري التميمي(٢):

أَضلتْ بنو قيس بن سعدٍ عَميدهَا   وفَارِسَهَا في الدهرِ قيسَ بن عَاصمِ

ومن إطلاق العرب الضلال على الغيبة والاضمحلال قول النصراني الشاعر الأخطل(٣):

كنتَ القذى في موجٍ أكدر مُزْبدٍ   قَـذَفَ الأَتِـيُّ بـه فَـضَـلَّ ضَـلالاَ

أي: إذا غاب غيبوبة واضمحل اضمحلالًا، ومنه بهذا المعنى قول الآخر(٤):

ألـم تـسـأل فـتُـخـبـرك الـديـارُ   عن الـحـي الـمُـضـلـلِ أيـن سـارُوا

أي: المغيب.

زاد بعض العلماء: أن العرب تُطلق الضلال على الحبّ، وهذا إطلاق غير مشهور معروف كهذه الإطلاقات الثلاثة التي ذكرنا.

﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ أي: علموا أنهم قد ضلوا عن طريق الإيمان إلى طريق الكفر، أنابوا إلى الله وتابوا ملتجئين إلى الله.

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ [الأعراف: آية ١٤٩] قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة والكسائي: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بـ (ياء الغيبة) و ﴿رَبُّنَا﴾ مرفوعٌ فاعل: ﴿يَرْحَمْنَا﴾.

وقرأه حمزة والكسائي من السبعة: **﴿قالوا لئن لم ترحمنا ربَّنا وتغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾**(٥).

---

(١)(٢)(٣)(٤) مضت عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام، وصدر بيت النابغة كما في الديوان: «فآب....».

(٥) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٥.

فمعنى قراءة حمزة والكسائي[١]: لئن لم ترحمنا يا ربنا، وتغفر لنا يا ربنا لنكونن من الخاسرين.

أمّا على قراءة الجمهور: فالمعنىٰ: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ أي: يتداركنا برحمته ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ الغفران: هو محو الذنوب حتى لا يظهر لها أثر يتضرر به صاحبها بعد ذلك.

﴿وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ والله لنكونن من الخاسرين. وأصل الخسران: نقصان مال التاجر من ربح أو رأس مال، وهو قد يُطلق في الشرع وفي القرآن على غبن الإنسان في حظوظه من ربه، وأكبر الخسارة غبن الإنسان بحظوظه من خالقه جل وعلا.

وقد بيّنا في هذه الدروس مراراً وكررنا[٢] أن هذا الخسران أقسم الله في سورة عظيمة من كتابه أنه لا ينجو منه أحد إلا بشروط معينةٍ منصوصة في كتاب الله، كما أوضح الله ذلك في قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الألف واللام للاستغراق، فهو بمعنى: أن كل إنسان كائناً من كان ﴿لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: الآيات ١ ـ ٣].

وقد كررنا في هذه السور الماضية مراراً[٣] أن العلماء ضربوا لهذا الخسران مثلين، في كلٍ منهما موعظة يتعظ بها المؤمن في دار الدنيا وقت إمكان الفرصة، كررناها مراراً، ولا نزال نكررهما لعل الله أن يرسل موعظة لقلوب إخواننا تهديهم إلى ما يرضي الله، وتنهاهم عما يكرهه خالقهم، فمن ذلك:

أن العلماء قال بعضهم: إن الله (جل وعلا) أعطى كل إنسان رأس مال، وأمره بالتجارة فيه مع خالقه، ورأس هذا المال المعطى لكل إنسان هو الجواهر النفيسة، والأعلاق العظيمة التي لا مثيل لها في الدنيا، ألا وهي: ساعات العمر ودقائقه وثوانيه. فليعلم كلٌ منا أن رأس ماله الذي أعطاه

---

(١) انظر: حجة القراءات ص٢٩٦، القرطبي (٢٨٦/٧)، الدر المصون (٤٦٥/٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩) من سورة الأعراف.

(٣) السابق.

خالقه جواهر لا مثيل لها في الدنيا، ولا نظير لها، ولا يوجد شيءٌ أكبر منها فائدة إذا أُعملت على الوجه الأتم، ألا وهي: ساعات عمره ودقائق حياته وثوانيها.

هذا رأس مالك أيها الإنسان، وأنت مأمور بتحريكه والتجارة فيه مع خالق السماوات والأرض، فإن كنت رجلًا عاقلًا يقدر الأمور ويخاف العواقب السيئة حركت عمرك وتاجرت فيه مع خالق السماوات والأرض تجارة، وذلك أن تصرف ساعات العمر وأوقاته ودقائقه وثوانيه فيما يرضي ربك، وتحذر أن تصرف شيئاً منه فيما يسخط خالقك (جل وعلا) فتنظر في أوقات عمرك الوقت الذي يتوجه إليك فيه أمرٌ من السماء - كأوقات الصلوات وأوقات الصوم وأوقات الحج وما جرىٰ مجرىٰ ذلك - فتبادر إلى امتثال أمرك بنفس طيبة مُسارعة راغبة فيما عند الله، والأوقات الذي لم يتوجه عليك طلب مخصوص تستزيد من الخير بالنصوص العامة التي تحثك على طلب الخير ومرضاة من خلقك (جل وعلا) وتحذر كل الحذر من أن ترتكب شيئاً يغضب خالقك ويسخطه، فإذا اتجرت مع الله هذه التجارة في رأس هذا المال فحركته فيما يرضيه ربحت أيها الأخ ربحاً عظيماً، ربحت الحور العين والولدان، ومجاورة رب غير غضبان، وسكنى الجنة ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة: آية ١٧] وقد سمىٰ الله هذه المعاملة معه من عبده سماها: (تجارة) وسماها: (بيعا) وسماها: (شراءً) وسماها: (قرضاً) قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: آية ٢٤٥] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ﴾ وقال: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦۚ﴾ [التوبة: آية ١١١] وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [الصف: الآيتان ١٠، ١١].

أما إذا كان الإنسان المسكين أحمق أهوج لا يبالي بالعواقب السيئة، ولا يعرف حقيقة الأمر فإنه يزدري الجواهر التي أعطاه الله وهي أيام عمره، كصاحب المزبلة تكون عنده اليواقيت وهو يظنها حجارة عادية لا يعرف قيمتها، فيضيع رأس ماله وأيام عمره في قال وقيل، وفيما لا يجدي، حتى

تضيع، وربما أعملها فيما لا يرضي خالقه (جل وعلا) حتى ينتهي العمرُ المحددُ له، وينفد رأس ماله، فيُذهب به إلى القبر وهو مفلس لا رأس مالٍ عنده، فإذا عدم رأس المال فالربح معدوم!! والآخرة ـ أيها الإخوان ـ دارٌ لا تصلح للمفاليس؛ لأنها ليس فيها إرفاق وليس فيها بيعٌ ولا شراء ولا هبة، ليس فيها للإنسان إلا ما قدم أيام حياته.

لا دارَ للمرءِ بعدَ الموتِ يسكنُهَا إلا التي كانَ قبلَ الموتِ يبنِيْهَا
فإن بناها بخير طابَ مسكنُه وإن بنَاهَا بشرٍ خَابَ بانيهَا[1]

فعلى العاقل أن يتَّجر مع الله، ولا يضيع رأس ماله، والعمر كما جعله الله رأس مال فمن ضيعه فقد خسر الخسران الأعظم، كذلك جعله حجة على العبد؛ ولذا عده مع النذير في قوله في سورة فاطر: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: آية ٣٧] فجعل تعمير الإنسان عمراً يتذكر فيه وينيب إلى ربه حجةً عليه كالرسول، فعلينا جميعاً ألا نضيع أعمارنا، ونعرف قدر قيمتها، ونُعملها فيما نتمتع به بعد الموت مما يرضي خالقنا؛ لأن رأس المال إن ضاع خسر الإنسان كل شيء وندم حيث لا ينفع الندم.

المثل الثاني الذي ضربه العلماء لهذا الخسران: هو حديث جاء عن النبي ﷺ[2] أن الله تعالى جعل لكل إنسان منزلًا في الجنة ومنزلًا في النار، فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أطلع أهل الجنة على مساكنهم في النار لو أنهم كفروا وعصوا؛ لتزداد غبطتهم وسرورهم بما هم فيه، وعند ذلك يقول الواحد منهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: آية ٤٣] ثم يطلع أهل النار على منازلهم في الجنة لو أنهم آمنوا وأطاعوا؛ لتزداد ندامتهم وحسرتهم وعند ذلك يقول الواحد منهم: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: آية ٥٧] ثم إن الله

---

(١) هذان البيتان تقدم ذكرهما عند تفسير الآية (٩) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

يجعل منازل أهل الجنة في النار لأهل النار، ومنازل أهل النار في الجنة لأهل الجنة، ومن عُوِّض منزل غيره في النار بمنزله في الجنة فصفقته صفقة خاسرة، وهو من الخاسرين كما لا يخفى.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٥٠ ـ ١٥٥].

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف: آية ١٥٠].

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ لما رجع موسى إلى قومه من الميقات، عندما انتهى الميقات، وكلّم ربه وناجاه، وكتب له التوراة في الألواح، ورجع إلى قومه ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ رجع في حال كونه ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ (غضبان) حال من فاعل (رجع) رجع في حال كونه غضبان. وقوله: ﴿أَسِفًا﴾ حال أخرى. والأسف: شدّةُ الغضب، فمعنى: ﴿غَضْبَٰنَ﴾ شديد الغضب. والتحقيق: أن ﴿أَسِفًا﴾ هنا معناه: شديد الغضب، فهو كالتوكيد لغضبان. ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: فلما أغضبونا انتقمنا منهم وأغرقناهم.

قوله: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ هذان حالان من قوله: ﴿رَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ أي: في

حال كونه غضبان أَسِفاً[١]. وجمهور علماء العربية: أن الحال تتعدد وعاملها واحد وصاحبها واحد[٢]، خلافاً لجماعة من علماء العربية منهم أبو الحسن ابن عصفور ومن وافقه قالوا: لا يجوز تعدد الحال، وإنما تتداخل، فزعموا أن ﴿أَسِفًا﴾ حال من الضمير المستكن في ﴿غَضْبَٰنَ﴾ وأن العامل فيها هو ﴿غَضْبَٰنَ﴾ فقالوا: الأحوال متداخلة، والجمهور يقولون: إنها متعددة لا متداخلة، وأن الحال تتعدد من غير تداخل مع العطف وبدون العطف. ومن أمثلتها بدون العطف قوله هنا: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ وقول الشاعر[٣]:

عليَّ إذا ما زُرْتُ ليلىٰ بخُفْيَةٍ زيارةُ بيتِ الله رَجْلانَ حافِيا

أي: في حال كوني ماشياً على رجلي غير منتعل. وتأتي أيضاً مع العطف كقوله: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا﴾ [آل عمران: آية ٣٩] فهي أحوال متعددة متعاطفة.

والأَسِفُ: شديد الغضب، وشذ بعض العلماء هنا فقال: الأسِفُ: الحزين، أي: غضبان حزيناً. والأول هو الأظهر[٤]، وغضبه وشدة أسفه مما فعله قومه من عبادة العجل.

﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ قرأ هذا الحرف جمهور القراء: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى﴾ بتحقيق الهمزة، وقرأه ورش عن نافع، والسوسي عن أبي عمرو: ﴿بيسما خلفتموني﴾ بإبدال الهمزة ياءً.

ومعروف أن (بئس) في العربية فعل جامد لإنشاء الذم، وإذا جاءت بعدها (ما) فالخلاف فيها مشهور: هل فاعل (بئس) ضمير محذوف و «ما» نكرةٌ مميزةٌ لذلك الضمير؟ أو (ما) هو الفاعل؟ خلافٌ معروفٌ[٥]، وأقوال لأهل العلم فيها، أظهرها: أن الفاعل ضمير محذوف، وأن «ما» نكرة ميزت

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٤٦٥).
(٢) انظر: شرح الكافية (٢/٧٥٤)، التوضيح والتكميل (١/٤٨٤)، ضياء السالك (٢/٩٦).
(٣) البيت في ضياء السالك (٢/٩٦)، الدر المصون (٢/٥٠٠).
(٤) انظر: ابن جرير (١٣/١٢٠).
(٥) انظر: الدر المصون (١/٥٠٧ ـ ٥٠٩).

ذلك الفاعل المحذوف، بئس هو ما. أي: شيئاً خلفتموني به.

ومعنىٰ ﴿خَلَفۡتُمُونِي﴾ قمتم مقامي في غيبتي فيه، وكنتم خليفتي فيه، وهو عبادة العجل، على أن هذا راجعٌ للسامري ومن عبد معه العجل. وعلى أنه راجع للوجهاء من بني إسرائيل ـ هارون ومن معه ـ فتكون خلافتهم التي ذمها: أنهم لم يمنعوا مَنْ عَبَدَ العجل عن عبادة العجل، يعني: لم تخلفني يا هارون في قومي خلافةً حسنة حيث لم تكفف هؤلاء عن عبادة العجل. وهذا أظهر؛ لأنه قال لهارون: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٤٢] ولم يقل للسامري وعَبَدةِ العجل إنهم يخلفونه في قومه، وهذا معنىٰ قوله: ﴿بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾.

﴿خَلَفۡتُمُونِي﴾ تدل على أنه غير موجود، فهي قد تغني عن قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِيٓ﴾ قال بعض العلماء: وإنما زاد من بعدي مع أن ﴿خَلَفۡتُمُونِي﴾ تدل عليها ليشير إلى أنه ما دام موجوداً كان معروفاً بالتوحيد، والقمع عن الشرك، والحمل على ما يرضي الله جل وعلا.

ثم قال منكراً عليهم: ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ للعلماء في هذه الآية أقوالٌ متقاربة[1]، وخير ما يفسر به القرآن: القرآن؛ لأن آية طه كالتفسير لآية الأعراف هذه، وعلى ذلك فالمعنى: أنّ الله أمركم بأمر، ووعدكم وعداً، وقال لكم على لسان نبيه: إن موسىٰ يذهب إلى الموعد، وأن الله يناجيه وينزل عليه كتاباً وفيه كل خير، وكل هدى ونور، يصلح الله لكم به دنياكم ودينكم وآخرتكم، وهذا وعدٌ عظيمٌ من الله، كما أشار له في قوله: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ [طه: آية ٨٠] على أحد التفسيرين. فلما وعدكم الله هذا الوعد العظيم الذي فيه كل هذا من الخير عجلتم أمر ربكم بذلك الوعد، أي: عجلتم عنه، وسبقتموه، وعبدتم العجل، ولم تنتظروا الخير الذي وعدكم الله به، وجئتم قبله بكل شر وسوء وخبث. والدليل على أنّ هذا هو تفسير الآية الصحيح: أنّ الله قال في سورة طه: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ

(١) انظر: القرطبي (٧/٢٨٨).

وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ [طه: آية ٨٦] هذا هو الأظهر في معنىٰ الآية الكريمة: ﴿بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ أعجلتم عن أمر ربكم بانتظار موسىٰ، وانتهاء الوعد، وإتيانكم بكل خير تصلح به دنياكم وآخرتكم، عجلتم عن هذا كله، وعبدتم العجل، وكفرتم بالله والعياذ بالله.

﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ جاء في حديث رواه ابن أبي حاتم وغيره أن النبي ﷺ قال: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[1] واستدل لهذا بأن موسى لما قال له ربه: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ﴾ هذا خبرٌ يقينٌ من الله، لم ينفعل موسىٰ، ولم يلق الألواح، فلما جاء حاملًا ألواح التوراة، ونظر إليهم يعبدون العجل، ويعكفون حوله، لم يتمالك حتى ألقىٰ الألواح، وانفعل عند المعاينة انفعالًا لم ينفعله عند الخبر اليقين، ومن هنا عُرِفَ أن الخبر ليس كالمعاينة. وهذا معنى قوله: ﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ

---

(١) روى هذا الحديث جماعة من الصحابة منهم:

١ ـ ابن عباس عند أحمد (٢٧١/١)، والحاكم (٣٢١/٢، ٣٨٠)، وابن حبان (الإحسان (٣٢/٨)، والطبراني في الأوسط (١٢/١)، (١٠٤/٧)، وابن أبي حاتم (١٥٧٠/٥)، والخطيب في تاريخه (٥٦/٦)، (١٢/٨)، وابن عديّ (١٥٨٠/٤)، (٢٥٩٦/٧)، وذكره السيوطي في الدر (١٢٧/٢)، وعزاه لعبد بن حميد وأحمد البزار وابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه. وهو في المشكاة (٥٧٣٨)، وصححه الألباني، وهو في الكنز (٤٤١١١)، (٤٤١٢٦).

٢ ـ أنس عند الطبراني في الأوسط (٩٠/٧) والخطيب في تاريخه (٣٦٠/٣)، وابن عدي (٢٠٣/١)، وقال: «هذا حديث باطل بهذا الإسناد» ا.هـ. وفي (١٥٨٠/٤)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٥٣/١)، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات» ا.هـ. وهو في الكنز (٤٤١١٠)، (٤٤١٢٦).

٣ ـ ابن عمر عند ابن عدي (٢٤٩٣/٧)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٥٣/١)، وقال: «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح، وصححه ابن حبان» ا.هـ.

٤ ـ أبو هريرة عند الخطيب في تاريخه (٢٨/٨)، هو في الكنز (٤٤١١٠)، (٤٤١٢٦)، وانظر في الكلام على هذا الحديث: كشف الخفاء (٢١٨/٢)، تذكرة الموضوعات (٢٠٤)، إتحاف السادة المتقين (٣٦٣/٦).

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ يعني: طرح ألواح التوراة التي هي مكتوبة فيها من شدةِ غضبه لانتهاك حرمة الله، وعبادة العجل معه. وكثيرٌ من المفسرين يقولون: إنه ألقاها إلقاءً قوياً حتى تكسرت، وأنه رُفع شيءٌ منها مع المكسر منها. وكل هذا لا دليل عليه، ولم يقم عليه دليل صحيح لا من كتاب ولا من سنة[1]، وظاهر القرآن أنها لم تتكسر، ولم يَضِع منها شيء؛ لأنه قال: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: آية ١٥٤] و (أل) هنا عهدية، وهي الألواح المعهودة التي ألقاها.

١٩/ب / يقول الله جل وعلا: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٥٠] لما غضب موسى، وألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، استعطفه أخوه وقال له: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾، معناه: يا ابن أمي ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ يعني: أن القوم الذين عبدوا العجل لما نهاهم كما شهد الله له بذلك في سورة طه في قوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: الآيتان ٩٠، ٩١] فلما ناصبوه وقالوا له علناً: «لن نبرح عاكفين على عبادة هذا العجل حتى يرجع موسى». دل ذلك على أنهم استضعفوه، أي: تقوَّوا عليه واستذلوه، ورأوه ضعيفاً عاجزاً عن مقاومتهم.

﴿وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ قاربوا قتلي وما قصَّرت، ثم إنه بيّن عذره في طه؛ لأن موسى قال له: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ استعطفه واعتذر له أيضاً وقال: ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه: الآيتان ٩٣، ٩٤] وقال له هنا: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ يعني: لا تفعل بي فعلاً سيئاً يفرح به أعدائي. فالشماتة هي سرور العدو بما ينال عدوه الآخر من مكروه أو

---

(١) بل ثبت في بعض الروايات ما يدل على ذلك، وللوقوف على هذه الروايات انظر: تفسير ابن أبي حاتم (١٥٦٣/٥)، الإتقان للسيوطي (١٢٣/١)، التفسير الصحيح (٣٥٠/٢)، جامع التفسير من كتب الأحاديث (٧٤٦/٢، ١٠٩١).

سوء. فإذا أتى الله إنساناً بمكروه أو سوء ومصائب نزلت به وفرح عدوه بما أصابه فذلك الفرح يُسمىٰ: الشماتة، والذي تسبب فيه يقال: أشمته به يُشمته، ونفس العدو: شامت أي: فرح مسرور بما يصيب عدوه من الأذى. وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول الأعشى أو غيره[1]:

كَمْ شامتٍ بي إنْ هلكتُ وقائلٍ لله درُّه

وفي شعر الحماسة[2]:

إذا ما الدهرُ جرَّ على أُناسٍ كَلاكِلَه أناخَ بآخَرِيْنَا
فقُلْ للشامتين بنا أفيقُوا سيلقىٰ الشامتُون كما لقينا

يعني: لا تشمت بي الأعداء، لا تفعل لي فعلًا سيئاً يفرح به أعدائي، لا تفعل لي ذلك: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لا تجعلني مع عَبَدَة العجل كأني ممالىء لهم وموافقهم على ذلك، فأنا بريء من ذلك، وقد نصحتهم غاية طاقتي وجهدي. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فلما قال هارون هذا لموسىٰ رجع موسى ودعا لنفسه ولأخيه، قال موسىٰ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ واغفر ﴿وَلِأَخِي﴾ هارون ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ اجعلنا ممن شملته رحمتك الواسعة ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٥١] لأن الله (جل وعلا) أرحم الراحمين، أرحم بعباده من الأم بولدها كما هو معروف.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٥٢، ١٥٣].

---

(١) البيت يُنسب للبيد، وهو ملحق في ديوانه ص٢٣٥، ونسبه بعضهم للنابغة الذبياني، وهو ملحق في ديوانه ص١٢٢، ونسبه بعضهم للنابغة الجعدي.

(٢) البيتان في القرطبي (٢٩١/٧).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً فعبدوه من دون الله ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الغضب صفة وصف الله بها نفسه إذا انتُهكت حرماته، فنحن نصفه بها كما وصف بها نفسه، وننزه خالقنا أتمَّ التنزيه وأكمله عن مشابهة صفات المخلوقين؛ لأن جميع الصفات من بابٍ واحد، فكما أنه (جل وعلا) ذات لا تشبهها شيء من الذوات فكذلك لها صفات لا يشبهها شيء من صفات خلقه، أي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً فعبدوه من دون الله ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ﴾ هذا الغضب كائنٌ ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ معناه: يغضب الله عليهم، ومن غَضِبَ الله عليه فقد هلك.

﴿وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذلة: الصغار والهوان.

قال جماعة من العلماء[1]: هذه الآية من سورة الأعراف في طائفة من بني إسرائيل أُشربت قلوبهم حُبَّ العجل، ولم يتوبوا فيمن تاب، بل بقوا غير تائبين، وعدهم الله هذا الوعيد، وهددهم هذا التهديد، وهذا هو الأظهر؛ لأن المعروف أن أكثر الإسرائيليين تاب من عبادة العجل تلك التوبة العظيمة التي بيَّناها مفصَّلة في سورة البقرة، حيث قدموا أنفسهم للقتل تائبين إلى الله، الواحد منهم يجود بنفسه فيُقتل مرضاةً لله وإنابةً إليه، كما تقدم إيضاحه في قوله: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: آية ٥] فمن تاب هذه التوبة النصوح العظيمة لا يُعقل أن الله يهدده هذا التهديد، ويتوعده هذا الوعيد؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، فيظهر هنا ما ذكره جماعة أنها في طائفة أُشربت قلوبهم حب العجل ولم يتوبوا - والعياذ بالله - ووعدهم الله هذا الوعيد: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ﴾ الجزاء الذي جزينا به هؤلاء الذين عبدوا العجل: ﴿نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ كان العلماء

(١) انظر: القرطبي (٢٩٢/٧)، ولابن جرير (رحمه الله) تحقيق جيد في معنى الآية فراجعه في تفسيره (١٣٤/١٣).

يقولون: كل من افترىٰ في الدين وابتدع في الدين سلط الله عليه الذلة، وكان الحسن يقول في المبتدعين المفترين في دين الله: والله إن الذلة على أكتافهم ولو هملجت بهم البَغْلَاةُ، وطقطقت بهم البراذين[١]. وقال هذا غير واحدٍ من العلماء، أن كل مبتدع في الدين مفتر فيه آتٍ بِنِحْلَة ليست بحق لا بد أن يسلط الله عليه الذلة ولو بلغ ما بلغ، كما صرح بذلك في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ فعلىٰ المسلم أن يخاف من الذلة والغضب، ولا يفتري في دين الله، ولا ينتحل ولا يبتدع، بل يبقىٰ على المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ كالذين عبدوا العجل، ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد تلك السيئات، ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟﴾ يعني من بعد ذلك الذي ارتكبوه من السيئات ﴿وَءَامَنُوٓا۟﴾ داموا على إيمانهم، أو أخلصوا في إيمانهم، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: تلك السيئات والفعلات، وقال بعضهم: ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: التوبة المفهومة من قوله: ﴿تَابُوا۟﴾. ﴿لَغَفُورٌ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة لعباده.

وهذه الآية الكريمة تدل على أن من ارتكب السيئات العظام ثم تاب إلى الله تاب الله عليه، والله يقول: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [طه: آية ٨٢] ويقول للذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة ـ يستعطفهم ليتوب عليهم مع شناعة كفرهم حيث يقول لهم ـ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: آية ٧٤] والتوبة واجبة على كل مسلم ومسلمة من كل ذنب كائناً ما كان[٢]، ولا يجوز تأخيرها، فإذا اقترف ذنباً وأَخَّر التوبة منه كان تأخير التوبة ذنباً يستوجب توبة أخرىٰ.

وقد أجمع العلماء على أن التوبة تتركب من ثلاثة أركان[٣]:

أحدها: الإقلاع عن الذنب إن كان متلبساً به.

---

(١) أورده ابن كثير في التفسير (٢/٢٤٨).

(٢)(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

والثاني: الندم على ما صدر منه من الذنب (الندم الشديد).

والثالث: النية ألا يعود إلى الذنب أبداً.

هذه أركان التوبة التي أجمع عليها العلماء. وفي اثنين من أركانها في كلٍّ واحدٍ منهما إشكالٌ معروف[1]:

أحدهما: الندم، فالندم أجمع العلماء على أنه ركن التوبة، والتوبة واجبة بالإجماع، كما أوجبها الله بقوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: آية ٣١] وركن الواجب واجب إجماعاً، فلا خلاف بين العلماء أن الندم ركنٌ من أركان التوبة واجب. وفي هذا إشكالٌ معروف شديد، وهو أن الندم من الانفعالات والتأثرات النفسية لا من الأفعال الاختيارية كما هو معروف، فترىٰ البائع المغبون يندم وهو يحاول أن يطرد عنه الندم فلا يستطيع؛ لأن الندم انفعال وتوتر نفساني لا فعل اختياري، ومعروف أن الانفعالات والتأثرات النفسانية ليست تحت قدرة العبد، وقد أجمع العلماء أن الله لا يكلف عبده إلا بفعل اختياري هو في طاقة العبد، ولذلك كان في التكليف بالندم هنا الإشكال المعروف. هذا السؤال الأول في الندم، وأجاب بعض العلماء عن هذا، قالوا: نعم إن الندم انفعال وتأثر نفساني ليس تحت طاقة العبد، لأنّا نرىٰ الإنسان يحاول أن يندم فلا يندم، ويحاول أن يطرد الندم فلا يطرده، يُشاهَد البائع المغبون يحاول أن يطرد الندم عن نفسه، والندم يضعه على الأرض من شدته، وهو لا يقدر أن يدفعه عن نفسه، وكذلك بعض عوام المسلمين قد ينال الواحد منهم قُبْلةً ـ مثلاً ـ من امرأةٍ بارعةٍ في الجمال يعشقها غاية العشق، فإذا أراد أن يندم على ذلك دعاه خيال ذلك الجمال ولذة ذلك الشيء القبيح فلا يستطيع أن يندم كما هو مشاهد، وإذا كان انفعالاً لا قدرة للعبد عليه فما وجه التكليف به؟!

أجيب عن هذا: بأن المراد بالتكليف بالندم: التكليف بأسبابه الموصلة إليه، ومن تعاطىٰ أسبابه الموصلة إليه تعاطياً حقًّا لم يُحاب فيه نفسه لا بد

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

أن يندم، وضرب العلماء لذلك مثلًا، قالوا: كل العقلاء إذا قَدَّمت إلى واحدٍ منهم شراباً لذيذاً ولكنه فيه السم القَاتل الفتَّاك، فجميع العقلاء لا يستلذُّون ذلك الشراب ولا يعدّون لذته لذة؛ لأن السم القاتل الذي هو فيه يبطل لذته وينفِّر منها. ولا شك أن حلاوات المعاصي - قبّحها الله - ولذاتها تتضمن سماً قاتلًا فتّاكاً هو سخط رب العالمين، وغضبه والخوف من عقابه العاجل والآجل، فإذا أخذ الإنسان نفسه أخذاً حقاً، وعرف أن حلاوة المعاصي يضاف فيها السم القاتل الفتّاك من سخط رب العالمين فلا بد أن يندم، والذي لا يندم إنما جاءه ذلك من أنه يحابي نفسه، وينجرف معها بالمعاصي، فلا يأخذها بالأسباب أخذاً حقّاً، ولمّا كان الندم أسبابه متيسرة ومن تعاطاها حقّاً حصل عليه، صار كأنه فعلٌ في طاقة المخلوق فكُلِّف به.

وأما الإشكال الثاني: فهو في الإقلاع؛ لأن بعض الناس قد يتوب ويندم ولا يقدر على إكمال الإقلاع، كالذي بث بدعةً وعمل بها الناس في مشارق الأرض ومغاربها، والنبي يقول: «**من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً**»[1] إذا تاب هذا الإنسان وبدعته متمادية يُعمل بها في مشارق الأرض ومغاربها، هل نقول: هو مقلع؛ لأنه فعل طاقته وما يقدر عليه؟ أو نقول: ركن التوبة هنا معدوم؛ لأن الإقلاع معدوم؛ لأن ذنبه متمادٍ جار في أقطار الدنيا؟! وكذلك الإنسان إذا رمىٰ إنساناً من بعيد بسهم أو رصاصة ثم بعد أن زايل السهم تاب ذلك الإنسان قبل أن يصل السهم إلى المرمى، هل نقول: هو تائب؛ لأنه فعل قدر طاقته؟ أو نقول: لا تقبل توبته؛ لأن الإقلاع ركن في التوبة، ولم يتحصَّل؛ لأن فساده متمادي، وسهمه رائحٌ إلى المسلم ليقتله؟ وكذلك من غصب - مثلاً - أرضاً عشرين كيلاً، ثم إنه ندم وخرج منها، هل هو في أثناء الخروج قبل أن ينفصل عن الأرض لو أدركه الموت نقول: أدركه الموت تائباً؛ لأنه فعل قدر طاقته؟ أو نقول: لم تحصل توبته؛ لأن الإقلاع لم يكن؛ لأنه ما زال يشغل فراغاً مغصوباً بجسمه استولىٰ عليه بغير حق شرعي؟.

---

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأعراف.

والصحيح عن الأصوليين أن هذا الأخير تقبل توبته وإن كان الإقلاع لم يصح منه؛ لأنه عاجزٌ عنه، وقد جاء في توبته بما يستطيع، والله لا يكلف إلا بما يستطيعه عبده ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٦] وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا أمرتكم بشيءٍ فأتوا منه ما استطعتم**» الحديث[١]. وهذان السؤالان في التوبة. وهذا معنىٰ قوله: ﴿ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟﴾.

﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: السيئات، ﴿وَءَامَنُوٓا۟﴾ داموا على إيمانهم؛ أي: أخلصوا في إيمانهم وتوبتهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: التوبة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أو ﴿مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد السيئات التي تاب العبد منها ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كثير الغفران والرحمة لعباده.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: آية ١٥٤] سكت عن موسى الغضب معناه: سكن غضبه وطفىء. لما طفىء غضبه وسكن، وفي بعض القراءات الشاذة: ﴿**ولما سكن عن موسى الغضب**﴾[٢] يعني: لما سكن غضبه وطفىء، وذلك باعتذار أخيه حتىٰ عرف صدق عذره، وبتوبة الذين عبدوا العجل حتىٰ قدموا أنفسهم للموت طائعين مرضاةً لربهم.

﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ طرح الألواح من أجل الغضب، ولما سكن الغضب أخذها. و (أل) في الألواح عهدية، وظاهر هذه الآية أن الألواح لم تتكسر، وأن التوراة لم يُرفع منها شيء، ومعلوم كثرة أقوال المفسرين أنها تكسَّرت، وأنّ رضاضها لم يزل عند الملوك الإسرائيليين، وأنها رُفع منها كل التفاصيل، وبقي منها الهدىٰ والرحمة. ولكن هذا لم يقم عليه دليل يجب الرجوع إليه، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أي: أخذها ليعمل بما فيها؛ لأن ربه قال له: خذها بقوة.

﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ النسخة هنا (فُعْلَة) بمعنىٰ (مفعول)، أي: المنسوخ فيها، أي: المكتوب فيها من التوراة من كلام رب العالمين، وفيه ﴿هُدًى﴾ أي: دلالة وإرشاد إلى الخير، ورحمة تقي عذاب الله وسخطه لمن عمل به.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: البحر المحيط (٣٩٨/٤)، الدر المصون (٤٧١/٥).

﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ الذين هم يخافون الله، وخصَّهم لأنهم هم المنتفعون به، وجرت العادة في القرآن أن الله يخص المنتفعين[1]، كما قال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: آية ١١] وهو منذر للأسود والأحمر، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: آية ٤٥] وهو منذر للجميع، ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: آية ٤٥] وهو مذكر لمن يخاف ومن لا يخاف كما هو معلوم.

واللام في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ففيها أوجه[2]، وأظهرها أن المعمول إذا قُدِّم على عامله ضعفت تعديته إليه، فإذا جيء باللام تقوَّت التعدية، ونظيره قوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: آية ٤٣]. وقال بعض العلماء: هي اللام الأجلية التعليلية، يرهبون يخافون لأجل ربهم، لا للسمعة ولا الرياء، كما قاله بعضهم. ومعنى: ﴿يَرْهَبُونَ﴾: يخافون، والرَّهَب: الخوف، والمعنى: أن في المنسوخ المكتوب في تلك الألواح هدىً ورحمةً لمن يخاف الله؛ لأنه هو الذي يعمل به وينتفع به، وهذا معنى قوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي: يرهبون ربهم، أي: يخافونه، ولما قُدم المعمول ضعف تعدي الفعل إليه فأُكِّد باللام كقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾.

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: آية ١٥٥] جمهور العلماء على أن ﴿قَوْمَهُۥ﴾ منصوب بنزع الخافض؛ لأن أصل الفعل يتعدىٰ إليه بـ (من) فحذفت (مِن) فتعدىٰ الفعل إليه بنفسه فنُصب، والأصل: واختار موسى من قومه سبعين رجلًا، فحُذفت (مِن) ونُصب ﴿قَوْمَهُۥ﴾، وهذا الأسلوب معروف في كلام العرب، ومنه قول الفرزدق[3]:

مِنّا الذي اختيرَ الرجالَ سَماحةً ... وَجُوداً إذا هَبَّ الرياحُ الزعازعُ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.
(٢) انظر: الدر المصون (٥/٤٧٢).
(٣) البيت في القرطبي (٧/٢٩٤)، الدر المصون (٥/٤٧٤).

معناه: (اختير الرجال) أي: اختير من الرجال؛ لأجل سماحته وجوده. ومنه قول الراعي يمدح رجلًا[(١)]:

اخترتُكَ الناسَ إذا رثّت خلائقُهم   واختلَّ مَنْ كان يُرجىٰ عنده السُّولُ

يعني: اخترتك من الناس، هذا أسلوب معروف لا إشكال فيه. وزعم الأخفش الصغير ـ سليمان بن علي ـ أن النصب بنزع الخافض مطرد قياسي إذا أُمن اللبس، وجماهير علماء العربية يقولون إنه سماعي يُحفظ ما سُمع منه ولا يُقاس عليه، كما هو معلوم في محلّه[(٢)].

واختار موسى من قومه سبعين رجلًا. اعلم أن هذه السبعين لا شك أن الله أمر موسىٰ أن يختارها، ووقَّت لها وقتاً معيناً يأتيه بها في محل معين، إلا أنه مُخْتَلَف في ميقات هذه السبعين ما هو؟ وما سببه؟ اختلف العلماء في ذلك[(٣)]، فذهب بعض العلماء إلى أن ميقات السبعين هذه المذكور هنا في قوله: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ زعم بعضهم أنه الميقات الأول الذي قال فيه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: آية ١٤٣] وأن الله لما أمر موسىٰ بذلك الميقات أمره أن يأتيه في سبعين رجلاً من قومه يختارها، وتكون من خيارهم، وأنه جاءه بسبعين منهم، وسأل الله أن يُسمعهم كلام الله، فسمعوا كلام الله يكلم موسىٰ، يأمره وينهاه، افعل ولا تفعل، وأنه لما انقضت المناجاة، وارتفع عمود الغمام الذي كانوا فيه قالوا له: يا موسى ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: آية ٥٥] وأنهم أخذتهم الصاعقة، كما سيأتي تفصيله، وعلى هذا القول فالميقات ميقات السبعين هو ميقات موسىٰ للمناجاة وإنزال التوراة. وهذا القول ليس بظاهر؛ لأن ما وقع في الميقاتين والقصتين كله مختلف، فيظهر أنه ميقات آخر وقصة أخرىٰ، وللعلماء فيه أقوال:

---

(١) البيت في القرطبي (٢٩٤/٧)، البحر المحيط (٣٩٨/٤)، الدر المصون (٤٧٣/٥).
(٢) انظر: البحر المحيط (٣٩٨/٤)، الدر المصون (٤٧٤/٥).
(٣) انظر: ابن جرير (١٤٠/١٣)، ابن كثير (٢٤٩/٢).

قال بعض العلماء: لما عبدوا العجل أمره الله أن يأتي إلى الطور بسبعين يختارها من خيارهم ليعتذروا إلى ربهم من عبادة قومهم للعجل حتى يتوب عليهم، وأن هذا هو ميقات السبعين التي اختيرت من أجله.

وقال بعض العلماء: ذهب موسىٰ وهارون ومع هارون ابنه شبر وابنه شبير، جاؤوا إلى جبل فوجدوا عند ذلك الجبل كرسياً فاضطجع عليه هارون وقبض الله روحه، فلما رجع موسىٰ لبني إسرائيل قالوا: أين هارون؟ قال: مات. قالوا: بل قتلته وحسدتنا على لين خلقه، أنت الذي قتلته!! وأنه قال: كيف أقتله ومعي ابناه؟ وأن الله أعطاه وعداً يختار منهم سبعين حتى يُحيي لهم هارون ويسألوه، وأن السبعين ذهبت حتى جاء هارونَ وقال: من قتلك؟ قال: ما قتلني أحد ولكن الله توفاني. إلى أقوالٍ كثيرةٍ من هذا النمط لا دليل عليها.

هذه هي الأقوال في الميقات، وعلى كل حال فهم سبعون رجلًا من خيار الإسرائيليين اختارها موسى لميقاتٍ وقَّته الله له، ولما جاؤوا ذلك الميقات أخذتهم الرجفة، والرجفة: الزلزلة الشديدة، والهزَّة العظيمة.

واختلف العلماء في سبب هذه الرجفة وهذه الهزة اختلافاً مبنياً على الميقات الذي كنا نقول[1]، فقال بعضهم: إنه ذهب بهم ليعتذروا من عبادة العجل، وأن الله أسمعهم كلامه لنبيه، وأنهم قالوا له: لن نؤمن لك حتى نرىٰ الله جهرة، فامتنعوا من الإيمان والتصديق حتىٰ يروا الله، فأخذتهم الصاعقة، وتلك الصاعقة هي التي أرجفتهم، وقال هنا: ﴿أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: آية ١٥٥].

وقال بعض العلماء: هؤلاء الطائفة لم يفعلوا ذنباً لكنهم لما ذهبوا مع موسىٰ وسمعوا كلام الله داخلتهم هيبة شديدة وخوف عظيم حتى كادت مفاصلهم يبين بعضها من بعض. وهذا القول لا يتجه؛ لأنه يقول: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ وهذا يدل علىٰ أن هنالك بعض الشيء.

---

(١) انظر: المصدرين السابقين.

وقال بعض العلماء: إن الله لما أمر موسىٰ أن يأتي الميقات بسبعين، اختار السبعين وهم في نظره أفضل بني إسرائيل، وما كان يظن أنهم قد عبدوا العجل مع من عبده، وهم قد عبدوه، وموسى لا يدري عن ذلك، فلما جاؤوا الميقات جاءتهم الرجفة والهزة العنيفة بسبب عبادتهم للعجل.

وقال بعض العلماء: لم يعبدوا العجل ولكنهم داهنوا من عَبَدَه فلم يزجروه زجراً قوياً، فجاءتهم الرجفة لعدم زجرهم كما ينبغي.

هذه أقوال المفسرين، وفيها غير هذا، ولا شيء يقوم عليه الدليل القاطع منها، والله تعالى أعلم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ الهزة الشديدة، سواءً قلنا إنها بسبب قولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: آية ٥٥] أو بسبب أنهم عبدوا العجل، أو أنهم لم ينهوا من عَبَدَ العجل، أو غير ذلك من الأسباب، ضاق الأمر بموسىٰ، وعلم أنهم إن ماتوا وقعت بنو إسرائيل في بليةٍ لا مخرج منها؛ لأنه لو ماتت تلك السبعون من خيارهم وجاءهم فقالوا: أين السبعون؟ فقال: ماتوا. يقولون: أنت الذي قتلتهم!! ويقع فيهم الخلاف والشقاق والفساد الذي لا حد له، ومن هنا كان نبي الله موسىٰ حريصاً جداً على أن الله يحييهم - على القول بأنهم ماتوا - أو يرفع عنهم الرجفة - على القول بأنهم سقطوا مغشياً عليهم غير ميتين - كما هو معروف. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ قال موسىٰ متضرعاً لربه ألّا يقتلهم في ذلك الوقت الحَرِج، وذلك الظرف العصيب الذي له عواقب سيئة في قومه: ﴿قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ﴾ يا رب لو شئت إهلاكهم أهلكتهم من قبل هذا الوقت؛ لأنه مرت أوقات لو هلكوا فيها ما كان في إهلاكهم عاقبة سيئة، فلو قتلتهم بمحضر قومهم وهم ينظرون لما كانوا يتهمونني ولا نشأ عن ذلك فساد ولا بلايا ﴿لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ﴾ أي: وأهلكتني معهم في غير هذا الظرف كان ذلك أهون عليّ وأقل أذيةً لي.

ثم إنه قال مناجياً ربه، وهذا الاستفهام ـ على التحقيق ـ استفهام استعلام مع تذللٍ واستعطاف ﴿أَتُهۡلِكُنَا﴾ تهلكني أنا وإياهم. وقال بعض العلماء: تهلك جميع بني إسرائيل؛ لأنهم إن ماتوا في ذلك اتهموا نبيهم ووقع فيهم الخلاف والقيل والقال الذي لا يرتفع.

﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ السفهاء: جمع سفيه. والمراد بهم هنا: الذين فعلوا الموجب الذي أخذتهم الرجفة بسببه، سواء قلنا: إنه قولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة: آية ٥٥] ولا سفه أكبر من ذلك، أو عبادتهم العجل، أو عدم نهيهم من عَبَدَ العجل، إلى غير ذلك.

والسفهاء: جمع سفيه، والسفه في لغة العرب التي نزل بها القرآن معناه: الخِفَّة والطيش[١]، تقول العرب: «تَسَفَّهَت الريحُ الريشةَ» إذا استخفتها فطارت بها كل مطار.

وهو في الاصطلاح: خِفَّةُ العقل وعدم رجاحة الحلم، حتى يفعل الأشياء التي تضره وهو لا يدري أنها تضره[٢].

والسفه في اصطلاح الفقهاء الذي يحجر به على المال[٣] اختلف علماء الفقه في تحقيق مناطه[٤]، فذهب مالك بن أنس ومن وافقه من العلماء أن مناطه على حفظ المال وحسن النظر فيه، فلو كان الإنسان يحفظ ماله ويحسن النظر فيه لم يكن سفيهاً عند مالك، وأُعطي له ماله ولو كان فاسقاً شِرِّيباً سكِّيراً عاصياً لله.

وذهب الشافعي في طائفةٍ من العلماء إلى أنه إن كان يعصي الله فهو أسفه السفهاء، وأنه لا يستحق ماله إلا وهو مطيع لله؛ لأن من عصى الله سفيه خفيف العقل طائشه لا يعلم مصلحته.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٦) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

وشاربُ الخمرِ إذا ما ثَمَّرا   لما يلي من ماله لم يُحْجَرا[١]

أي: عند مالك، خلافاً للشافعي ومن وافقه ـ رحم الله الجميع ـ وهذا معنى ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾.

ثم قال موسى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ الذي جرأ موسى على أن يضيف الفتنة إلى الله هو أن الله قال له: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه: آية ٨٥] فأسند الله هذه الفتنة لنفسه بقوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ فجرأ ذلك موسى على أن يقول: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ سواء قلنا: إنَّ الرجفة أخذتهم بسبب قولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ فهذا امتحان وابتلاء من الله، أو بسبب أنهم عبدوا العجل فذلك ابتلاء وامتحان من الله، أو بسبب أنهم لم ينهوا من عَبَدَ العجل فذلك ابتلاء وامتحان من الله. وهذا معنى قوله: ﴿إِنْ هِىَ﴾ أي: الفتنة التي فتنوا بها، ما هي إِلَّا ﴿فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً أن (الفتنة) أُطلقت في القرآن إطلاقاتٍ معروفة مشهورة[٢]، فمن أشهر إطلاقاتها: الاختبار والامتحان، ومنه قوله: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: الآيتان ١٧] ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: آية ٣٥] فأشهر إطلاقاتها: الامتحان والابتلاء.

ومن إطلاقات الفتنة هو: الإحراق بالنار كقوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النازعات: آية ١٣] أي: يحرقون، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: آية ١٠] أحرقوهم بنار الأخدود على القول بذلك.

ومن إطلاقات الفتنة: نتيجة الاختبار إن كانت سيئة خاصةً، كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: لا يبقى شرك على وجه الأرض،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٦) من سورة الأعراف.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

بدليل قوله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**»[١] وتدل على ذلك الآيتان في سورة البقرة وسورة الأنفال، لأن الله قال في البقرة: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: آية ١٩٣] فقوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ معناه: أنه لا يبقىٰ شرك في الأرض؛ لأن الشرك ما دام في الأرض فالدين بعضه للشركاء، وآية الأنفال قوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: آية ٣٩] كما هو ظاهر.

وأُطلقت الفتنة في سورة الأنعام على الحُجة في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿فتنتَهم﴾[٢] أي: حجتهم ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: آية ٢٣].

﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ كما أضللت الذين عبدوا العجل والذين قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: آية ٥٥] ﴿وَتَهْدِي﴾ بها ﴿مَن تَشَآءُ﴾ فلا تفتنه.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ الولي في لغة العرب التي نزل بها القرآن: هو من انعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويواليك[٣]، والله ولي المؤمنين ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة: آية ٥٥] والمؤمنون أولياء الله ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: الآيتان ٦٢، ٦٣] فهم يوالونه بالطاعة وهو يواليهم بالثواب الجزيل والرحمة والغفران. وهذا معنى قوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾.

﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ الغفر في لغة العرب: معناه الستر، ومنه سُمي المغفر مغفراً لأنه يستر الرأس، والمراد به ستر الذنوب ومحوها حتى لا يظهر لها أثر يتضرر به صاحبها[٤].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٩٢.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٤) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الغين، باب الغين والفاء وما يثلثهما، (مادة: غفر) ص٨١١، المفردات (مادة: غفر) ص٦٠٩.

﴿وَارْحَمْنَا﴾ الرحمة صفة معروفة من صفات الله تظهر آثارها في خلقه، وهي على التحقيق صفة معنىً قائمة بالذات، غلط كثيرٌ من المتكلمين زعم أنها من صفات الأفعال ـ كما هو معلوم في محله ـ.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ الذين يغفرون الذنوب؛ لأن من غفر في الدنيا قد يغفر لتحسن سمعته (. . .)[1].

١/٢٠ / ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)﴾.

يقول الله عز وجل: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾ هذا من بقية دعاء موسى بن عمران (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام)، قال: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قوله: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا﴾ معناه قدر لنا واقض لنا، أي: اجعل ذلك قدراً مقدوراً وقضاءً مقضياً لنا ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ في هذه الحياة

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل.

(الدنيا) تأنيث الأدنىٰ لدنوِّها أو لدناءتها بالنسبة إلى الآخرة. ﴿حَسَنَةً﴾ قد قدمنا في سورة البقرة في الكلام على قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: آية ٢٠١] أن أظهر الأقوال أنّ الحسنة المطلوبة في الدنيا شاملة، فهي شاملة للتوفيق، والحياة الطيبة، والرزق الحسن، والعافية، وأن حسنة الآخرة المسؤولة هي الجنة ونعيمها والنظر إلى وجه الله الكريم، فطلب موسى حسنة الدنيا الشاملة لعافيتها وتوفيقها ورزقها، وحسنة الآخرة التي هي التنعم في الجنة، والنظر إلى وجهه الكريم، هذا معنى قوله: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: وفي الآخرة حسنة. فحُذفت لدلالة ما قبلها عليها.

وقوله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ العرب تقول: هاد يهود. إذا تاب ورجع، وهذا هو المعنى المشهور الصحيح في هذه الآية ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبنا ورجعنا إليك. وهذا كالتعليل لما قبله؛ لأن التوبة والإنابة والرجوع إليه من الأسباب التي يكتب الله بها حسنة الدنيا وحسنة الآخرة العرب تقول: هد أيها الرجل. تُبْ إلى الله من ذنوبك وارجع. وهاد: أي: تاب. والهُود: جمع هائد وهو التائب. وقد قال بعضهم[1]:

يا راكب الذنب هُدْ هُدْ واسجُد كأنك هدهد

معنى: ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبنا ورجعنا منيبين إليك.

قال الله جل وعلا: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ قرأ هذا الحرف جماهير القراء: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ بإسكان ياء المتكلم. وقرأه نافع: **﴿عذابيَ أصيب به من أشاء﴾** وهما لغتان فصيحتان وقراءتان صحيحتان[2].

﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ﴾ أعذب به وأهين به ﴿مَنْ أَشَآءُ﴾ أي: من أشاء إهانته به. والقراءة الصحيحة التي قرأ بها الجمهور: ﴿مَنْ أَشَآءُ﴾ بالشين المعجمة المثلثة وضم الهمزة.

---

(١) تقدم عند تفسير الآية (١٤٦) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٩.

أما القراءة التي تُذكر عن الحسن وغيره أنه قرأ: «قال عذابي أصيب به من أساء ورحمتي وسعت كل شيء»[١] فهي قراءة شاذة لا تجوز القراءة بها. ومعلوم أن أهل الأهواء والبدع من قدرية وغيرهم يستدلون بتلك القراءة: «أصيب به من أساء» يستدلون بها لشيء من مذاهبهم، ولما كانت قراءةً شاذةً لا تجوز القراءة بها فلا معول عليها ولا طائل لما أخذوه منها واستدلوا به لمذاهبهم الباطلة.

وقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الرحمة صفة من صفات الله اشتق منها لنفسه اسمه (الرحمن) واسمه (الرحيم)، وهي على التحقيق من صفات المعاني القائمة بذاته (جل وعلا)، وكثيرٌ من المتكلمين الذين يُؤَوِّلون صفات الله ويحملونها أولًا على محامل غير طيبة ثم يُلْجِؤُهم ذلك إلى تأويلها يزعمون أنها صفة فعل. وذلك ليس بحق، والحق أنها صفة ذات من صفات المعاني القائمة بذات الله، ولا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين، ليس فيها رقة مخلوقية، ولا انعطاف مخلوقي، لا وكلّا، بل هي صفة كمال وجلال لائقة برب العالمين، منزهةٌ كل التنزيه، مقدسةٌ كل التقديس، لم تشبه شيئاً من صفات الخلق.

وقوله: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ رحمة الله واسعةٌ لا تضيق عن شيء، فهي تسع كل شيء كائناً ما كان. و(الشيء) عند أهل السنة والجماعة يُطلق على الموجود، ولا يُطلق على المعدوم[٢]، فكل موجود يُطلق عليه اسم (الشيء) عند أهل السنة والجماعة، ولا يُطلق (الشيء) على [المعدوم][٣]. وجاز إطلاقه على الله كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: آية ٨٨] وقال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٩]، ولا يطلق على المعدوم بدليل أنَّ الله صرح بأن المعدوم ليس بشيء كقوله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: آية ٩] فصرح بأن المعدوم ليس بشيء.

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤٠٢/٤)، الدر المصون (٤٧٧/٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٣) في الأصل: «الموجود» وهو سبق لسان.

والمعتزلة يقولون: إنّ المعدوم يصدق عليه اسم (الشيء) ويتعسفون الاستدلال لذلك من آية من كتاب الله، قالوا: إن الله قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ فسماه (شيئاً) قبل أن يريده، وقبل أن يقول له: «كن» وهو في ذلك الحين معدوم. وهذا لا دليل فيه؛ لأنه لما تعلقت إرادة الله به صار كأنه موجود بالفعل؛ لأن المتوقع وجوده كالموجود بالفعل. هذا معنى قوله: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

يقول بعض المفسرين: إنه لما عمم سعة رحمته لكل شيء أن إبليس طمع ومد عنقه، وأنه لما قال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أنه يئس ورجع. هكذا يقولون، والله أعلم بصحته[1]. ويزعمون أن أهل الكتابين قالوا: نحن ممن يتقي. فلمّا جاء بعض الصفات علموا أنها لا تنطبقُ كل الانطباق إلا على هذه الأمة الكريمة المرحومة[2]؛ ولذا قال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أجعلها مكتوبة مقدرةً مقضيةً لهم، والعرب كل شيء لازم محتوم تسميه مكتوباً، وهو معروف في لغتهم، ومنه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: آية ١٨٣] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة: آية ١٧٨] لأن (كَتْب الشيء) معناه: جعله لازماً، وهذا معروفٌ في لغة العرب، ومنه قول الشاعر[3]:

يا بنت عمّي كتاب الله أخرجني عنكم فهل أمنعنَّ الله ما فعلا

قوله (كتاب الله) أي: ما كتبه وقضاه وحكمه. ومنه بهذا المعنى قول ابن أبي ربيعة[4]:

كُتبَ القَتْلُ والقتالُ علينا وعلى الغانياتِ جَرُّ الذُيولِ

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/١٥٧).
(٢) المصدر السابق (١٣/١٦٣).
(٣) البيت في ابن جرير (٣/٣٦٥)، المقاييس في اللغة (٥/١٥٩).
(٤) البيت في البيان والتبيين (٢/٢٣٦)، عيون الأخبار (٢/٤٩)، جمهرة خطب العرب (٣/٣٥٧)، الأغاني (٩/٢٦٤).

وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي: يجعلون بينهم وبين غضب خالقهم وعقابه وقاية تقيهم سخط ربهم وعذابه. وتلك الوقاية هي امتثال أمره واجتناب نهيه (جل وعلا) كما بيّناه مراراً[١]. أي: يتقون الشرك والمعاصي، ويمتثلون أوامر الله، هذا معنى قوله: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أكثر العلماء على أن معنى: ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يُعطون الحقوق الواجبة في المال المقررة المفصلة في السنة في المواشي والزروع والثمار والمعادن والذهب والفضة والتجارة وما جرى مجرىٰ ذلك مما تجب فيه الزكاة، وأن هذا هو المراد بالزكاة الحقوق الواجبة في المال.

وقال بعض العلماء: هي زكاة الأبدان وتطهيرها من أدران الذنوب والمعاصي والشرك بطاعة الله (جل وعلا)؛ لأن من أطاع الله زكىٰ، أي: طهر من أدناس الذنوب وأرجاسها كما قال: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: آية ٢١] هذا معنى قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الشرعية التي أنزلنا على رسلنا ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: يصدقون الرسل فيها، ويشمل ذلك عند بعضهم: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: الكونية القدرية، كما نصبنا من العلامات على قدرتنا، وأني أنا المستحق العبادة وحده، يؤمنون بذلك فيعلمون أنها دالة على ربوبية من نصبها، واستحقاقه للعبادة وحده.

ويفهم من هذه الآية من مفهوم مخالفتها: أن الذين لا يتقون الشرك ولا المعاصي، ولا يؤتون الزكاة لا تكتب لهم هذه الرحمة، وقد بيّن تعالى ذلك في قوله: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الآية [فصلت: الآيتان ٦، ٧] وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٥٦].

ثم ذكر من صفاتهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ﴾ [الأعراف: آية

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

١٥٧] للعلماء كلامٌ كثير في الفرق بين الرسول والنبي، وأشهر الفوارق المعروفة عندهم: أن الرسول من أُرسل إليه وحي وأُمر بتبليغه، وأن النبي من أُوحي إليه سواء أُمر بتبليغه أو لم يؤمر(١). وهذا الفرق مشهورٌ على ألسنة العلماء، تأباه آية من سورة الحج، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ الآية [الحج: آية **٥٢**] فإنه صرح فيها بأن هناك نبياً مرسلاً ورسولاً مرسلاً، ومع أنهما مرسلان فهما متغايران كما دل عليه العطف؛ ومن أجل هذه الآية قال بعض العلماء: الرسول: من أُنزل إليه كتاب مستقل كمحمد ﷺ وموسىٰ، والنبي: من أُمر بأن يتعبد بكتاب منزل على غيره كأنبياء بني إسرائيل الذين يؤمرون بالتعبد بما في التوراة، كما بينا ذلك سابقاً في المائدة في الكلام على قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ [المائدة: آية **٤٤**] أي: يحكمون بها بأمرٍ من الله أنهم يحكمون بما فيها، إلى غير ذلك من الفوراق(٢). وفي حديث البراء الثابت في الصحيح أنّ البراء لما قال: «آمنت برسولك الذي أرسلت» قال له النبي ﷺ: «**بنبيك الذي أرسلت**»(٣). وذلك يدل على أنه لو قال: «رسولك الذي أرسلت». يكون الكلام تكراراً محضاً، فلما قال: «**ونبيك الذي أرسلت**» صار الكلام ليس تكراراً محضاً. هذا معنى قوله: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: آية **١٥٧**].

الأمي: هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، وكان نبينا ﷺ لا يعرف الكتابة ولا يعرف قراءة الكتب. وقد عرفتم في السيرة والتاريخ في صلح الحديبية أنه لما كتب عليٌ (رضي الله عنه) وثيقة الصلح التي وقعت بين النبي ﷺ في صلح الحديبية مع سهيل بن عمرو العامري قال: هذا ما اتفق عليه

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص١٥٥، لوامع الأنوار البهية (٤٩/١).

(٢) من المفيد في هذا الموضوع مراجعة كتاب النبوات لشيخ الإسلام ص٥٥، وانظر: الرسل والرسالات للأشقر ص١٤، ١٥.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

محمد رسول الله ﷺ مع قريش. قال له: امحُ عنّا هذا، لو كنا نقرّ بأنك رسول الله لما صددناك عن البيت الحرام وأنت محرم. فقال لعلي: **امحها**. فامتنع علي أن يمحوها، فطلب منهم أن يرُوه محلها ـ لا يعرفها ـ حتى محاها[١]. هذا يُذكر في الأخبار والسيرة ولكن الله نص على ما يدل على هذا في سورة العنكبوت حيث قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: آية ٤٨] وهذا معنى (الأمي): الذي لا يقرأ ولا يكتب.

واختلف العلماء في منشأ النسبة إلى الأمي هذه[٢]، فقال بعض العلماء: منسوب إلى أمة العرب؛ لأنهم أمةٌ أميون لا يكتبون ولا يحسبون؛ ولذا كانوا يعدون بالحصىٰ؛ لأنهم لا يكتبون ولا يحسبون. (الأمي) أي: من أمة ـ منسوب إلى أمة ـ لا تحسب ولا تكتب ولا تقرأ.

قال بعض العلماء: منسوبٌ إلى أم القرىٰ وهي مكة المكرمة حرسها الله.

وجماعةٌ من العلماء يقولون: الأمي: الذي لا يقرأ ولا يكتب، منسوب إلى أمِّه؛ لأنه كأنه على الحالة التي ولدته بها أمُه لم يتعلم بعدها كتابة ولا قراءة. هكذا زعمه بعضهم والله تعالى أعلم.

﴿يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧].

قوله: ﴿يَجِدُونَهُۥ﴾ معناه يجدون صفته الكاشفة ونعوته الواضحة مكتوبةً عندهم في التوراة والإنجيل؛ لأن الله بَيَّن صفات هذا النبي الكريم ونعوته الكاشفة التي لا تترك في النبي لبساً، بَيَّنها في التوراة، وهو الكتاب الذي أنزل على موسىٰ، وبَيَّنها في الإنجيل، وهو الكتاب الذي أنزل على عيسىٰ (عليهم وعلى نبينا صلاة الله وسلامه)، فصفاته موجودةٌ عندهم، حتى إن الله قال عنهم: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ﴾ [البقرة: آية ١٤٦] لشدةِ إيضاحه

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب عمرة القضاء، حديث رقم (٤٢٥١)، (٧/٤٩٩).

(٢) انظر: القرطبي (٧/٢٩٨)، الدر المصون (٥/٤٧٨).

بالصفات الكاشفة التي لا لبس فيها بُينت لهم صفاته موضحة، وأُخذت عليهم المواثيق إن بعثه الله ليؤمنن به ولينصرنه، وأخذ الله ذلك الوعد على جميع الرسل، وعلى جميع أمم الرسل على ألسنة الرسل، كما أوضحه الله (تعالى) في سورة (آل عمران) وهو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ آتيناكم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿لما ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾[١] هو محمد ﷺ على أصح التفسيرين، وهو الحق الذي لا شك فيه ـ إن شاء الله ـ وجزم به غير واحد. ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ٨١، ٨٢] أخذ عليهم هذه العهود المؤكدة العظيمة بالإيمان به ﷺ وبيّن لهم صفاته الكاشفة ونعوته الواضحة، كما قال هنا: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا﴾ أي: صفته ونعته الذي يوضحه ولا يترك فيه لبساً.

﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧] قرأ هذا الحرف عامة القراء غير أبي عمرو: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وروي عن الدوري أنه اختلس الضمة، وقرأه أبو عمرو: ﴿**يأمرْهم بالمعروف**﴾ بسكون الراء[٢]. وجزْم الفعل المضارع بلا جازم للتخفيف لغةٌ موجودةٌ في كلام العرب، جاءت بها قراءات صحيحة في كتاب الله لا إشكال فيها[٣]، وأنشد بعض علماء العربية لجزم المضارع من غير جازم تخفيفاً قول امرىء القيس[٤]:

اليومَ أشْرَب غير مُسْتَحْقب إثماً من الله ولا وَاغِلِ

ومعروف أن بعضهم كَوَرْش يُبدل الهمزة ألفاً، تقول: ﴿**يامُرُهُم**

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٦٧.

(٢) للوقوف على القراءات في الراء من (يأمرهم) انظر: السبعة (١٥٦)، النشر (٢/٢١٢)، الإتحاف (٢/٦٥).

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.

(٤) السابق.

بالمعروف﴾ ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ ﴿يأمُرْهم بالمعروف﴾[١].

(المعروف): هو كل ما عرفه الشرع وكان منه، كعبادة الله وحده، وصلة الأرحام، ومكارم الأخلاق، وغير ذلك مما جاء به ﷺ.

﴿وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ المنكر: اسم مفعول (أنكره) وهو ما أنكره الشرع ولم يكن منه، ولم يأمر به، كعبادة الأوثان، وادعاء الأولاد لله، وكالخصال السيئة، وارتكاب المعاصي.

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ اختلف العلماء في معنى الطِّيْب والخُبث في هذه الآية الكريمة ونحوها من الآيات في كتاب الله[٢]، واختلافهم هذا من الاختلاف الذي ينبني عليه بعض الأحكام الشرعية، فذهب جماعة من العلماء إلى أن الطيبات هنا طِيْبُها على نوعين: طِيْب شرعي، وهو أن يكون الله أباحها وجعلها حِلّاً لخلقه، فالله لا يُحِلُّ إلا الطيب، ولا يبيح إلا الطيب. ومعنى هذا ـ أنها طيبات ـ أن الله أباحها لخلقه واستطابها لهم، أي: يحل لهم الأشياء التي لا تحريم فيها.

وقال بعض العلماء: الطيبات لأنها مستلذة يستطيبها من يستعملها.

وكذلك يُحرِّم عليهم الخبائث، قال بعض العلماء: هي التي دل الشرع على خبثها بنهيه عنها، كالميتة والدم ولحم الخنزير وما جرى مجرى ذلك.

وقال بعض العلماء: كل ما استخبثه الطبع العربي الذي صاحبه ليس ببالغ من الجوع غايةً تجعله يستطيب غير الطيب أنه يحرِّم ذلك.

فالذين قالوا: إن المراد بالطيبات هو الطِيْب الشرعي، وأن الله أباحها لخلقه مما يستلذه خلقه، وأنّ الخبائث هي ما خبث شرعاً مما منعه الله (جل وعلا) على خلقه كمالك بن أنس ـ وهو ممن قال هذا القول ـ فإنه لا

---

(١) للوقوف على القراءات في الهمزة وإبدالها ألفاً من (يأمرهم) انظر: النشر (١/٢٧٦، ٢٧٧، ٣٩٠ ـ ٣٩١)، الإتحاف (١/١٩٩ ـ ٢٠٠).

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/١٦٥)، القرطبي (٧/٣٠٠)، ابن كثير (٢/٢٥٤).

يجعل استخباث الطبع العربي علة للتحريم؛ ولذا جاز عند مالك أكل المستخبثات التي يستخبثها الطبع العربي السليم، فإنه يجيز أكل الحيات إذا أُمن سمها، والعقارب والحشرات، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك. ولا شك أن هذه الأشياء مما يستخبثه الطبع العربي السليم. وكانت جماعة من العلماء منهم الإمام الشافعي (رحمه الله) يقول: دلَّ قوله: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ أن كل ما استخبثه الطبع العربي السليم الذي لم يتضرر بالجوع ـ لأن من آذاه الجوع جداً قد يستطيب الخبيث لشدة جوعه كما قال بعض شعراء العرب[1]:

أكلنا الرُّبى يا أُمَّ عمروٍ ومن يكنْ لـديكـم غـريبـاً يـأكـل الـحشـراتِ

أي: لشدة جوعه، وسُئل أعرابي عن جماعته من البدو: ما تأكلون؟ قال: نأكل كل ما دب ودرج إلا أم حُبين. فقال: لِتَهْنِ أم حُبين العافية. وأم حبين دويبة معروفة، يفر الإنسان ويستقذرها إذا رآها. فعلى هذا القول فالاستخباث الطبعي من العرب الذين لم تلجئهم ضرورة الجوع ـ قد يكون عنواناً للتحريم عند بعض العلماء، وهو مذهب الشافعي (رحمه الله) ومن وافقه. قال:/ دلت هذه الآية وأمثالها في القرآن على أن كل ما يستخبثه ٢٠/ب الطبع العربي السليم الذي لم يشتد جوعه أنه لا يجوز؛ لأنه يصدق عليه اسم الخبيث في لغة العرب التي نزل بها القرآن. والخبائث حرمها الله في كتابه على لسان رسوله، وتحريم هذا النبي الكريم للخبائث من أعلام نبوته (صلوات الله وسلامه عليه) لأنه مكتوبٌ في الكتب السابقة أنه إذا بُعث: من صفاته أنه يحرم الخبائث، فإذا جاء محرماً لها كان ذلك من معجزاته ومصداقاً لنبوته ﷺ.

والحاصل أن الذي يستخبثه الطبع السليم العربي كأشياء كثيرة كالخنفساء والحشرات، وما جرى مجرى ذلك، والعقارب والحيات: بعض

(١) البيت في اللسان (مادة: ربا) (١١١٧/١)، وفي القرطبي (١٢٠/٧)، وشطره الثاني في اللسان هكذا: «غريباً بأرض يأكل الحشرات». وفي القرطبي: «غريباً لديكم...».

العلماء يقول: هو حرام لهذه الآية الكريمة، كالشافعي، وأن الذين أجازوا ذلك كمالكٍ وأصحابه قالوا: ليس المراد بالخبث استخباث الطبع، وإنما المراد به ما دل الشرع على خبثه كما هو مقرر في مذاهب الأئمة، وهذا معنى قوله: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن عامر: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ بكسر الهمزة وإسكان الصاد. وقرأه ابن عامر وحده: ﴿**ويضع عنهم آصَارهم والأغلال التي كانت عليهم**﴾[1] فالآصار جمع إصر (فِعْل) مجموع على (أَفْعَال) والإصر في اللغة العربية التي نزل بها القرآن: الثقل الذي كان من التكليف على من قبلهم؛ لأن من قبلنا كانت عليهم من التكليف آصارٌ وأغلال. الآصار: الأثقال التي تثقل صاحبها[2]، منها ما قدمنا أن توبة الذين عبدوا العجل لم يقبلها الله إلا بتقديمهم أنفسهم للموت، فهذا ثقلٌ عظيم؛ لأنه لا حادث في الدنيا أعظم من الموت.

والمَوتُ أعظَمُ حادثٍ فيما يمرُّ على الجِبِلَّة[3]

فرفع هذا الثقل عن هذه الأمة صلى الله على نبيّها فصار من ارتكب أعظم كفر وأشنع ذنب يكفيه أن يتوب إلى الله، وأن يُقلع عن الذنب، ويندم على ارتكابه، وينوي ألا يعود، فيتوب عليه ربه بذلك، فهذا من رفع الآصار. والإصر: هو الثقل المعروف، ومنه قول الشاعر[4]:

.... وحامل الإصر عنهم بعدما غرقوا

---

(١) انظر المبسوط لابن مهران ص٢١٥.

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/١٦٦)، القرطبي (٧/٣٠٠)، المفردات (مادة: أصر) ص٧٨.

(٣) البيت في المحرر الوجيز (١٢/٧٨)، القرطبي (١٣/١٣٦)، البحر المحيط (٧/٣٠)، الدر المصون (٨/٥٥٠).

(٤) هذا هو الشطر الثاني من بيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص١٦٢، وشطره الأول:
يا مانع الضيم أن يغشى سراتَهُمُ ....

وقوله: ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ﴾ الأغلال جمع غُل، والغُلّ هو القيد المعروف؛ لأن التكاليف القوية الشديدة كأنها أغلال يُغَلُّون بها، مثل أن الواحد منهم كان لا يصلي إلا بالماء، ولا يصلي إلا في الكنيسة، وإذا مست النجاسة شيئاً من ثوبه لزم أن يقرضه بمقراض، إلى غير ذلك من التشديدات[1]؛ بخلاف هذه الأمة فقد رُفع عنها ذلك، فجُعلت لها الأرض كلها مسجداً وطهوراً، وأُجيز لها إزالة النجاسة بالماء، وسهل لها كل شيء كان مُصَعَّباً على من قبلها. وهذا معنى قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

وهنا عَبَّر عن التكاليف الشاقة بالأغلال؛ لأن الأغلال كأنها تقيد صاحبها وتمنعه، وكذلك التكاليف الشاقة والأغلال التي كانت عليهم جاء النبي بوضعها كلها، وجاء بحنيفيةٍ سمحة، فالأرض فيها طهور، والأرض كلها مسجد، والماء يطهر كل شيء، وكل من استعصىٰ عليه شيء وشق عليه رخص له فيه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: آية ٧٨] أي: من ضيق ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: آية ١٨٥] والآيات في مثل ذلك كثيرة، وهذا معنى قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أثقال التكاليف التي كانت عليهم جاء ﷺ بإزالتها ووضعها؛ لأنه (صلوات الله وسلامه عليه) جاء بالحنيفية السمحة الذي لا حرج فيها. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: صدقوا به ﷺ وبما جاء به: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ قرأ الجمهور: ﴿عَزَّرُوه﴾ وفي بعض القراءات ـ غير السبعة ـ: بتخفيف الزاي[2].

قال بعض العلماء: ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: مدحوه وأثنوا عليه ثناءً عظيماً.

قال بعض العلماء: ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: منعوه من أن يناله أحدٌ بسوء، حتى لا يقوىٰ أحدٌ على أن يصل إليه، ولا يؤذيه بأذيةٍ ما. والمعاني في

---

(١) انظر: القرطبي (٣٠٠/٧).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤٠٤/٤)، الدر المصون (٤٨١/٥).

التعزير تدور حول هذا؛ لأن أصله يُشعر بالتعظيم، وهذا معنى قوله: ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾.

﴿وَنَصَرُوهُ﴾ النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم، أي: أعانوه على أعدائه الذين ظلموه وكذبوه، وكل من كذبه فهو ظالمٌ له، وهذا معنى قوله: ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾.

﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ النور الذي أُنزل معه ﷺ هو هذا القرآن العظيم؛ لأنه النور الذي أنزله الله من السماء يبصر الناس ببصائرهم في ضوئه الحق حقاً، والباطل باطلاً، والحسن حسناً، والقبيح قبيحاً، فهو أعظم نور يُكشفُ به ظلمات الباطل ويُرى في ضوئه الحق واقعاً كما ينبغي. وقد سماه الله نوراً في آياتٍ كثيرةٍ كقوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: آية ٨] وقوله: ﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ﴾ [الشورى: آية ٥٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء: آية ١٧٤] فهذا النور العظيم لمّا صرح الله في آياتٍ كثيرةٍ من كتابه أنه نوره الذي أنزله مع سيد الخلق (صلوات الله وسلامه عليه) ليكشف به ظلمات الجهل والباطل كان على المؤمن ألا يطلب الضوء إلا في نوره، ولا يطلب الهدى إلا منه، فالذين يتركون هذا النور ويطلبون الهدى في الظلام الذي جاءت به الكفرة الفجرة دليل على أنهم خفافيش البصائر يعميهم النور، والله قد صرح في سورة الرعد أن من لم يعلم أحقية هذا القرآن وأنه الحق الذي لا شك فيه أن ذلك إنما جاءه من قِبل عماه؛ لأن الأعمى إذا كان يعجز عن رؤية الشمس لا يؤثر ذلك في ظهور الشمس شيئاً!! فنحن نقول: لا شك في وضوح الشمس وإن كان الأعمى لا يراها!! كذلك القرآن معجزته ونوره أوضح وأعظم من نور الشمس، ولا ينافي ذلك أن هنالك عميان لا يرون الشمس في رابعة النهار!!

إِذَا لَمْ يكنْ للمرءِ عَيْنٌ صَحِيْحَةٌ فلا غَرْوَ أنْ يَرْتَابَ والصُّبحُ مُسْفِرُ[1]

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

والله صرح بهذا في سورة الرعد في قوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: آية ١٩] فصرح أن الذي منعه من أن يعلم أنه الحق إنما هو عماه.

.... ولا ترى الشمسَ عينٌ تشتكي العورا

كما هو معروف. فهؤلاء ـ والعياذ بالله ـ الذين يعدلون عن هذا النور الذي هو أعظم من نور الشمس في رابعة النهار، وأوضح وأشد كشفاً وإيضاحاً لحقائق الأشياء وإيضاح الحق من الباطل، والحسن من القبيح، والنافع من الضار، هم خفافيش البصائر قطعاً والخفاش إذا ارتفع شعاع الشمس، وانتشر ضوؤها على الدنيا، وصار جميع الناس يمشون في ذلك الضوء، يقضون جميع حوائجهم، أعمىٰ ذلك الضوء الخفافيش، فإذا جاء الظلام وزال النور قام الخفاش يفرح ويمرح، وذلك الظلام عنده كأنه ضوء.

خَفَافِيشُ أعمَاهَا النهارُ بِضَوئِهِ فَوَافَقَها قِطْعٌ من الليلِ مُظْلِمُ[1]

فإذا رأيت من لا يقبل كتاب الله ولا يطلب الهدىٰ فيه، ويذهب ويزعم أن الهدى في زبالات أذهان الكفرة الفجرة الخنازير الحمير فاعلم أنه خفاش البصيرة يقيناً لا شك في ذلك، وأنه إنما عمي عن نور القرآن الذي هو أعظم من نور الشمس كما أعمى نور الشمس الخفاش، كما هو مشاهد:

مثل النهارِ يزيدُ أبصارَ الوَرَى نوراً ويُعمي أَعْيُنَ الخُفَاشِ[2]

كما هو معروف، وهذا معنى قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧] المفلحون: جمع المفلح، وهو اسم فاعل (أفلح) والعرب تقول: «أفلح» إذا نال الفلاح، والفلاح يُطلق في اللغة العربية إطلاقين معروفين صحيحين[3]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.
(٢) السابق.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٨) من سورة الأعراف.

أحدهما: تُطلق العرب الفلاح على الفوز بالمطلوب الأكبر، فمن فاز في مطلوبه الأكبر تقول العرب: «أفلح»، ومنه قول لبيد بن ربيعة[1]:

فاعْقِلي إن كُنتِ لمَّا تَعْقِلي ولَقَد أَفلَح مَنْ كَانَ عقَل

يعني: فاز بأكبر المطلوب من كان عنده العقل؛ لأنه رأس الخيرات.

وتُطلق العرب الفلاح على البقاء والدوام في النعيم، وكل من بقي بقاء سرمدياً في النعيم تقول له العرب: «أفلح» وتقول لذلك البقاء: «فلاح» ومنه بهذا المعنى قول الأضبط بن قُريع. وقيل: كعب بن زهير[2]:

لكُلِ هَمٍ من الهُمومِ سعة والمُسْيُ والصُبحُ لا فَلاَحَ مَعَه

يعني: أن تعاقب الليل والنهار لا بقاء للحي معه، ومنه بهذا المعنى قول لبيد بن ربيعة أيضاً[3]:

لو أن حَياً مدركَ الفلاحِ لَنَالَهُ مُلاعِبُ الرمَاحِ

يعني: لو أن حياً ينال البقاء ولا يموت لناله ملاعب الرماح.

وفي هذين المعنيين بكل منهما فُسِّر حديث الأذان والإقامة في قوله: «حي على الفلاح» فقال بعضهم: (حي على الفلاح) أي: الفوز بالمطلوب الأكبر وهو الجنة. وقال بعضهم: (حي على الفلاح) هلمّ إلى البقاء السرمدي في النعيم الذي لا ينقطع في الجنة؛ لأنكم تنالون ذلك بالمواظبة على الصلوات. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ كان بعض أفاضل العلماء يقول: هذه الأخيرة وهي قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ هي التي جاءت منها البلية إلى عمه ﷺ أعني أبا طالب؛ لأن أبا طالب من الذين آمنوا برسول الله، فهو مؤمن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨) من سورة الأعراف.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.
(٣) مضى عند تفسير الآية (١١١) من سورة الأنعام.

برسول الله يقيناً، ولا يشك في نبوّته ورسالته، وقد صرح بذلك كثيراً في شعره كقوله في شعره[1]:

لقد عَلِموا أن ابننَا لا مُكذَّبٌ لَدَيْنا ولا يُعْنَى بقولِ الأبَاطِلِ

وقوله في شعره الآخر[2]:

ولقد علمتُ بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

فهو يعتقد أنه رسول الله حقاً ولا يشك في ذلك، فهو ممن آمن به قلبه وآمن به لسانه (...)[3].

١/٢١ / ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: آية ١٥٨].

معنى قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ قل يا نبي الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ (أيُّ) هنا نُودي ليُتوصل به إلى نداء الاسم المقترن بـ (أل)؛ لأن ياء النداء لا تجتمع مع (أل)، فجعلت (أي) متصلة بالياء مناداة ليكون ذلك اتصالاً إلى نداء ما فيه الألف واللام؛ لأن ياء النداء والألف واللام لا يجتمعان. و(الهاء) هاء تنبيه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: مرسلٌ من الله ﴿إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ولم يرسل قبله نبي لعامة الخلق، إنما كان يرسل النبي لقومه ونحو ذلك، وهو ﷺ أُرسل للأسود والأحمر، وهذه من الأشياء التي فضله الله بها على جميع الرسل. ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ مرسل من الله إليكم أُبيّن لكم ما يأمركم به ربكم من عقائد وحلالٍ وحرام وغير ذلك.

---

(١) هذا أحد أبيات قصيدته المشهورة التي يذب فيها عن رسول الله ﷺ. وقد ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية (٣/٥٣ ـ ٥٧).

(٢) البيت في الإصابة (٤/١١٦).

(٣) في هذا الموضع انقطع التسجيل.

وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ يُعرب حالًا، ويُفسر بأنه توكيد، أي: إني رسول الله إليكم في حال كونكم جميعاً مجتمعين لم يتخلف منكم أحداً ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال بعض العلماء: هو في محل خَفْضٍ نعتٌ لله، إني رسول الله الذي. وهذا على هذا القول لم يمنع من تبعيته له الفصل بينهما بقوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

وقال بعض العلماء: الفصل بينهما بقوله: ﴿إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ يمنع من الإتْبَاع و ﴿ٱلَّذِى﴾ في محل نصب منصوباً على المدح، أو محل رفع خبر مبتدأ محذوف، كما لا يخفىٰ، وهذا معنىٰ قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا الذي جئتكم مرسلًا منه ينبغي أن يُهاب، وأن يُخاف منه، وأن تُحترم رسله، وتطاع أوامره، وتجتنب نواهيه لشدةِ عظمته، وشدة الخوف من بأسه، وشدة الرغبة فيما عنده، فلا ينبغي أن يُعصى، فهذا الذي أرسلني؛ لأن هذه صفاته ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو ملك السماوات والأرض وهو المعبود وحده.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود يُعبدُ بحق لا في السماء ولا في الأرض ولا في غيرهما إلا هو وحده جل وعلا.

﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ هو الذي يحييكم ويميتكم. والكفار كانوا يقرون بإماتتين وإحياءة وينكرون إحياءة، ويوم القيامة أقروا بالإحياءتين والإماتتين فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ [غافر: آية ١١] فالإماتتان: الأولىٰ منهما: هي أطوارك أيها الإنسان قبل أن تحيا، فالذي تمكث وأنت نطفة كأنك ميت، والذي تمكثه في بطن أمك وأنت علقة كأنك ميت، والذي تمكثه وأنت مضغةٌ كذلك، فإذا نفخ الله فيك الروح فقد أحياك الإحياءة الأولى بعد الإماتة الأولى. ثم إذا أماتك المرة الثانية وصرت إلى القبر فقد مِتَّ الموتة الثانية، ثم يحييك حياة البعث، وهي الإحياءة الثانية التي كانوا ينكرون؛ ولذا قالوا لما أحياهم الإحياءة الثانية وعاينوها وبُعثوا: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ [غافر: آية ١١]

وقد أوضح الله هاتين الإحياءتين والإماتتين في سورة البقرة في قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ الآية [البقرة: آية ٢٨] هذا معنى قوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ ومن كان يحيي ويميت فهو الذي يُخاف منه غاية الخوف؛ لأنه لا يقع على الإنسان في هذه الدار الدنيا حادث أعظم من الموت الذي يقطعه عن كل شيء.

والموتُ أعظمُ حادثٍ فيما يمرُّ على الجِبِلَّة[1]

ولا شيء أعظم ـ من التصرفات ـ من إحياء الإنسان بعد موته والإتيان به حياً بعد أن صار عظاماً رميماً ـ سبحان ربنا وخالقنا ما أعظمه، وما أعظم قدرته، (جل وعلا) وما أظهر براهين توحيده ـ وهذا معنى قوله: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي: صدقوا به وبكل ما يجب له، وآمنوا برسوله محمد ﷺ.

﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ [الأعراف: آية ١٥٨] قرأ نافع هنا في الموضعين وفي جميع القرآن (النبيء) بالهمزة إلا في موضعين من سورة الأحزاب قرأ في رواية قالون بالإدغام موافقة للجمهور[2].

وعلى قراءة نافع فالنبيء من (النبأ)، والنبأ[3]: هو الخبر الذي له الشأن، فكل نبأ خبر، وليس كل خبر نبأ.

وعلى قراءة الجمهور: فقيل هي كقراءة نافع، أصلها من (النبأ) إلا أنَّ الهمزة أُبدلت ياءً، وأُدغمت فيها الياء التي بعد الباء. وقال بعض العلماء: (النبي) في قراءة الجمهور من النَّبْوَة وهي الارتفاع؛ لارتفاع شأن الأنبياء ومكانتهم بالوحي الذي فضلهم الله به. وهذا معنى قوله: ﴿وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ ويؤمن بكلمات الله، ومن كلمات الله: كتبه

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٧) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.

المنزلة؛ لأن النبي ﷺ يؤمن بكتب الله كما شهد الله له بذلك في قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: آية ٢٨٥] وقراءة الجمهور: ﴿وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وفي بعض القراءات الشاذة: **﴿يؤمن بالله وكلمته﴾**[1]، قال بعض العلماء: كلمته هي عيسى؛ لأن الله قال لمريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: آية ٤٥] كما قال عن زكريا: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: آية ٣٩] هذا معنى قوله: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾.

﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٥٨] أمر الله هذه الأمة أن تتبع سيد الخلق (صلوات الله وسلامه عليه) ومعنى اتباعه: هو الاقتداء به فيما جاء به من عقائد وأفعالٍ وأقوال، هذا هو معنى الاتباع. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: لأجل أن تهتدوا، أو على رجائكم الهداية باتباعه ﷺ، وهذا معنى قوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: آية ١٥٩] بيّن الله أن قوم موسى - وهم بنو إسرائيل - منهم قوم ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو كتاب الله الذي أنزله على نبيه، يهدون بما فيه من الحق، يأمرون الناس فيه بالخير الذي يرضي الله جل وعلا ﴿وَبِهِۦ﴾ أي: بذلك الحق الذي هو ضد الباطل ﴿يَعْدِلُونَ﴾ من العدل الذي هو ضد الجور. جرت عادة المفسرين بعضهم يذكر عند هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف قصةً غريبةً معروفة عن بعض بني إسرائيل الله أعلم بها[2]، يزعمون أن طائفةً من بني إسرائيل آمنوا وثبتوا وأطاعوا الله تماماً، ولم ينجرفوا مع الذين غيروا وبدلوا وكفروا وعصوا، وسألوا الله أن يثبتهم على ما هم فيه، وأن الله شق لهم نفقاً من الأرض، وأنهم مشوا في ذلك النفق أكثر من سنة، وأنهم خرجوا من وراء بلاد الصين، وأنهم كانوا هناك في بلاد شاسعة وراء بلاد الصين، وأنهم على

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤٠٦/٤)، الدر المصون (٤٨٣/٥).

(٢) وهي في ابن جرير (١٧٣/١٣).

إيمانهم. يزعمون كثيراً هذا، ويذكره جماعة منهم عند هذه الآية من سورة الأعراف، والله أعلم بذلك.

وظاهر القرآن: أن الله أثنى على قوم موسى أن منهم أمة يهدون الناس بالحق الذي علموه من كتاب الله، وأنهم يعدلون به العدل الذي هو ضد الجور، هذا هو الظاهر(١).

يقول الله جل وعلا: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: آية ١٥٨].

أمر الله (جل وعلا) نبينا ﷺ في هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف أن يقول لجميع الناس أسودهم وأحمرهم: إنه رسولٌ إليهم من رب السماوات والأرض، وهذه من المسائل التي فضله الله بها (صلوات الله وسلامه عليه) على جميع الرسل؛ لأنه فُضل بخصال لم يُعْطَها أحد قبله من الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم)، كما جاء مبيناً في الأحاديث عنه ﷺ، فقد أُحلت له الغنائم ولم تُحل لأحد قبله، كانوا يحرقونها بالنار، وقد جُعلت له الأرض مسجداً وطهوراً، وقد نصره الله بالرعب مسيرة شهر، وأرسله إلى كافة الناس (صلوات الله وسلامه عليه) فهو (صلوات الله وسلامه عليه) أفضل الرسل، وخير العالمين ﷺ، ومنذ بعثه الله لم تبلغ دعوته أحداً من الخلق ولم يؤمن به إلا دخل النار، فالذين يقولون: إن محمداً ﷺ

---

(١) تنبيه: هذا الموضع هو آخر درس للشيخ (رحمه الله) في رمضان سنة (١٣٩٠هـ) كما هو مُثبت على إحدى النسخ. وقد قال (رحمه الله) في خاتمة هذا المجلس: «ونستودعكم الله ـ أيها الإخوان ـ ونرجو أن تكون مجالسنا هذه من مجالس الخير، وأن نكون من الذين يتعاونون على البر والتقوى؛ لأنّا نريد العمرة إلى مكة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ا.هـ ولعل هذا الدرس كان في (١٣٩٠/٩/٢٤هـ) لأن الدرس الذي قبله كان في (١٣٩٠/٩/٢٣هـ). ثم لما بدأ (رحمه الله) في درس التفسير في اليوم الأول من رمضان المبارك عام (١٣٩١هـ) [كما هو مثبت على إحدى النسخ] أعاد تفسير الآيتين (١٥٨، ١٥٩). وهذا سبب التكرار الذي قد يتساءل عنه القارىء الكريم.

أُرسل إلى العرب ولم يُرسل إلى غيرهم كفرة ملاحدة، كفرة بالله، مكذبون كتاب الله، مخالفون الضروري من دين الإسلام، فهو ﷺ مرسل إلى جميع الخلائق كما صرحت به هذه الآية الكريمة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وجاء في آيات أخر من كتاب الله وأحاديث صحيحة معروفة، فمن الآيات الدالة على ذلك[١]: قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ①﴾ [الفرقان: آية ١] فصرح بأنه نذير للعالمين، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: آية ١٩] فكل من بلغه هذا القرآن فهو مُنذَر برسالة محمد ﷺ، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: آية ٢٨] أي: إلا للناس كافة على التحقيق، خلافاً لمن زعم من علماء العربية أن صاحب الحال إذا كان مجروراً باللام أنه لا تتقدم عليه الحال[٢]. والمتأخرون من علماء العربية قالوا: إن ذلك جائز وتدل عليه الآية التي ذكرنا، وهي قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: آية ٢٨]. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: آية ١٧] وكل من سمع برسالة محمد ﷺ وبلغته ولم يؤمن به دخل النار؛ لأنه رسول الله إلى الأسود والأحمر، وإلى الخلق كافة (صلوات الله وسلامه عليه)، مرسل إلى الجن والإنس، عام الرسالة، باقيها إلى يوم القيامة؛ لأن الله لما أرسله رسالة عامة وجعلها باقية على مر العصور جعل معجزتها - وهي هذا القرآن العظيم - قائمة باقية تتردد في آذان الخلق إلى يوم القيامة، محفوظة من رب العالمين، لو أراد إنسان أن يزيد حرفاً أو ينقصه، أو نقطاً أو ينقصه لرد عليه الآلاف من صبيان المسلمين في أقطار الدنيا؛ لأن الله تولى حفظ هذا المُنزَّلَ المحكم الذي هو أساس هذه الرسالة العامة الخالدة (صلوات الله وسلامه على من جاء بها). وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

---

(١) انظر: الأضواء (٣٣٤/٢).

(٢) انظر: الدر المصون (١٨٦/٩).

الرسول هنا (فَعُول) بمعنى (مُفْعَل) إني مرسل من الله إليكم جميعاً.

وقد قدمنا مراراً[١] أن علماء العربية يقولون: إن أصل الرسول أصلُه مصدر وُصف به فجيء به بمعنى اسم المفعول، وإتيان المصادر على وزن (فَعُول) مسموع في أوزان قليلة كالقبول والولوع والرسول، في أوزان قليلة. وفائدة ذكرنا أن أصل الرسول مصدر وُصف به وجيء به بمعنى اسم المفعول: لنزيل بذلك إشكالًا في كتاب الله، وإيضاح ذلك: أن المعروف عند علماء العربية أن المصادر إذا نُعِت بها ـ أعني أُجريت مجاري الأوصاف ـ أنها تُلْزَمُ الإفراد والتذكير باللغة الفصحىٰ[٢]، فتقول: هذا رجل عدل، وهذه نساءٌ عدل، وهذه امرأة عدل، وهؤلاء رجال عدل. هذا في اللغة الفصحىٰ، وربما تُنُوسي أصل المصدر وعُومل معاملة الأوصاف نظراً إلى وصفيته الطارئة، فالرسول على هذا تارة في القرآن يلاحظ فيه أصله الذي هو المصدر، وتارة يُلاحظ فيه الوصفية العارضة التي جُعل بمعناها. وإيضاح هذا: أن الرسول على أن أصله مصدر يُفرد عند حالة التثنية والجمع، تقول: هذان رسول، وهؤلاء رسول. وربما جُمع الرسول نظراً إلى الوصفية وتناسياً لأصل المصدرية، فَمِن جَمْع الرسول اعتباراً بالوصفية: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ [البقرة: آية ٢٥٣] ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ﴾ [النساء: آية ١٦٥] ومن تثنيته: قوله في سورة طه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: آية ٤٧] فقد ثَنَّىٰ الرسول اعتباراً بوصفيته، وفي سورة الشعراء أفرد الرسول مع أن المراد به اثنان نظراً إلى أصله الذي هو المصدر، وذلك في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: آية ١٦] ولم يقل: إنا رسولا. فنطقت العرب بلفظ الرسول مفرداً مراداً به الجمع، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي[٣]:

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وخَيرُ الرسُولِ ... أعلَمُهُم بِنَواحي الخَبَرِ

فجمع الضمير في قوله: «أعلمهم» وهو عائد إلى الرسول المفرد نظراً

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

إلى أصل مصدريته. والرسول مسموع في كلام العرب بمعنىٰ المصدر، ومنه قول الشاعر[(١)]:

لَقَدْ كَذَبَ الواشُونَ ما فُهْتُ عندهم بِقَولٍ ولا أَرْسَلْتُهم برسولِ

أي: برسالة. وقول الآخر[(٢)]:

ألا مَنْ مبلغ عَمْراً رسُولاً بأنّي عن فُتَاحتِكُم غني

أي: رسالة. وهذا معنى قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: مرسل من الله إليكم أيها الناس جميعاً. فقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ يُعرب حالًا ويُفسَّر توكيداً. ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ في حال كونكم مجتمعين لم يشذ أحد منكم، بل رسالتي عامة لجميعكم في حال كونها شاملة لكم مجتمعين فيها. هذا معنى قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

ولما بيّن أنه مرسل من الله ذكر الله (جل وعلا) من صفات هذا الرب المُرسِل ما يدعو خلقه إلى القبول والامتثال، فبين أن هذه الرسالة جاءتكم من عند عظيم العظمة الكاملة، فهو جدير بأن يُطاع فلا يُعصىٰ، وأن يُذكر فلا يُنسىٰ، وألَّا تكذَّب رسله ولا يُعصىٰ؛ ولذا قال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

اختلف علماء العربية والتفسير في موضع قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الإعراب[(٣)]: فقال قوم: إنه في محل خفض نعتٌ للجلالة في قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إني رسول الله الذي له ملك السماوات والأرض. قالوا: ولا يضر الفصل بين الصفة والموصوف بقوله: ﴿إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ لأنه معمول المضاف الذي هو ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ قالوا: وربما حيل بين النعت والمنعوت حتى ولو بأجنبي، كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: آية ٧٦].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٨) من سورة البقرة.

(٣) انظر: الدر المصون (٤٨٢/٥).

وقال قوم: هذه الحيلولة بين الصفة والموصوف لا تُغتفر، وأعربوا: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بأنه في محل نصب ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أعني ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهذا القطع هو الذي يسميه علماء العربية: النصب على المدح ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الله (جل وعلا) الذي يرسل الرسل ويشرع الأحكام هو الذي له ملك السماوات والأرض.

وهذه الآية الكريمة دالة على أنه لا يشرع للخلق ويأمرهم وينهاهم ويحرم عليهم إلا الملك الذي هو نافذ التصرف نفوذاً مطلقاً، وله الكلمة العليا، وهو فوق كل شيء. هذه الآية تدل على هذا، وبذلك يُعلم أن الضعيف المسكين العاجز لا تشريع له، ولا يصح منه أن يحلل ولا أن يحرم، فالذي يحلل ويُحرم ويُشرع هو خالق هذا الكون (جل وعلا)، لأنه لا يشرع إلا الملك الأعظم الكبير الأكبر، كما قال هنا فيمن يرسل ويشرع على ألسنة الرسل: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: آية ١٥٨] فالذي يشرع قانوناً وضعياً إن كان له ملك السماوات والأرض، وهو الذي يحيي ويميت، وهو المعبود وحده فليتقدم وليشرع، وإن كان عاجزاً مسكيناً مربوباً فليعلم قدره، وليقف عند حده، وليعلم أن من يحلل ويحرم هو الكبير الأكبر، والملك العظيم، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: آية ١٢] فالعلي الكبير الذي هو أعلى وأكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وهو الملك الأعظم، هذا هو الذي له حق التشريع، والتحليل والتحريم. وبهذا تعلمون أن الأمر ما أمر الله به، والنهي ما نهىٰ الله عنه، والحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، وأن القوانين الوضعية خزي ووبال وكفر على أصحابها، يعطون مُستَحَق خالق السماوات والأرض لأجهل خلق الله، وأخسهم وأكفرهم سبحانه (جل وعلا) أن يكون له في حكمه شريك، كما تقدس (تعالى) أن يكون له في عبادته شريك، فحكم الله (جل وعلا) كعبادته، فكما أن من أشرك به في عبادته كافر به فكذلك من أشرك به في

حكمه فهو كافر به. والقرآن بين استواءهما، قال في الإشراك في العبادة: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: آية ١١٠] وقال في حكمه: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف: آية ٢٧] ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ٢٦] وقرأه ابن عامر من السبعة: ﴿ولا تُشْرِك في حكمه أحداً﴾[1] / فالحكم لخالق السماوات والأرض، لا تشريع لغيره، لا تحليل إلا لله، ولا تحريم إلا لله، ولا تشريع إلا لخالق السماوات والأرض ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩﴾ [يونس: آية ٥٩] فما جعل (جل وعلا) بين إذنه والافتراء عليه واسطة.

٢١/ب

وقد ذكرنا مراراً[2] أن هذه الآيات القرآنية تدل على أن الذين يتحاكمون إلى نظم وضعية وقوانين لم يشرعها خالق السماوات والأرض زاعمين أنها هي الكفيلة بتنظيم الحياة، ومسايرة ركب الحضارة، والكفالة للناس بحقوقهم، زاعمين ـ لطمس بصائرهم وقلة عقولهم ـ أن نور السماء الذي أنزله خالق السماوات والأرض على سيد الخلق من تشريع رب العالمين لا يمكن أن يكون كفيلاً بذلك!! فهؤلاء كفرهم لا يخفىٰ، ولا يشك في كفرهم وبعدهم من الإيمان إلا من طمس الله بصيرته. وهذا كثير في القرآن لا تكاد تحصيه في المصحف الكريم.

وقد بيّنا لكم مراراً في هذه الدروس والمناسبات[3] أن ذلك الأمر وقعت فيه مناظرة بين حزب الشيطان وحزب الرحمن، وكل يتمسك بمستنده، فحزب الشيطان يتمسك بوحي الشيطان وفلسفة إبليس، وحزب الرحمن يتمسك بهذا الوحي المنزل الذي لا يضل من اتبعه في الدنيا ولا يشقىٰ في الآخرة. ولما تناظرت الفئتان تولىٰ الحكم بينهما خالق السماوات

---

(١) مضت عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

والأرض بفتوىٰ سماوية تتلى في كتاب الله على آذان الخلق. وهذا أوضحناه في هذه الدروس مراراً، وأكثرنا من ذكره في المناسبات لشدة الحاجة إليه، ذلك أن إبليس أوحىٰ من وحيه الشيطاني إلى إخوانه من كفار قريش: أن سلوا محمداً ﷺ عن الشاة تصبح ميتة من هو الذي قتلها؟ فأجابهم: «بأن الله قتلها» فاستدلوا على إباحة الميتة بفلسفة إبليس ووحي الشيطان فقالوا: ما ذبحتموه بأيديكم ـ يعنون المُذَكَّى ـ تقولون: هو حلال. وما ذبحه الله بيده الكريمة ـ يعنون الميتة ـ تقولون: حرام. فأنتم إذاً أحسن من الله؟! فهذه طائفة تتمسك بوحي إبليس، وفلسفة الشيطان، وتقول: إنه أحسن، وأن ذبيحة الله أحل من ذبيحة الناس!! وهذه طائفة أُخرى تتمسك بهذا المحكم المنزل في تحريم الميتة ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [البقرة: آية ١٧٣] هؤلاء يستدلون بالقرآن وهؤلاء بوحي الشيطان، فتناظرا هذه المناظرة، فتولىٰ الله الفتيا فيها قُرآناً يُتلىٰ في سورة الأنعام، فأنزل في هذا: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يعني: الميتة. أي: وإن زعموا أنها ذبيحة الله، ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ أي: خروج عن طاعة الله، ثم قال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ يعني وحي الشيطان وفلسفة إبليس ﴿لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ بوحي الشيطان: ما ذبحتموه حلال، وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذن أحسن من الله!! ثم أفتىٰ بين الفريقين، وحكم بين الخصمين قال: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] فحكم على هؤلاء المسلمين أنهم إن أطاعوا حزب الشيطان واتبعوا نظام إبليس وتشريعه وقانونه بالفلسفة الإبليسية أن ما ذبح الله أحل مما ذبح الناس أنهم مشركون.

وهذه الآية الكريمة من سورة الأنعام هي عند علماء العربية مثال لحذف اللام الموطئة للقسم[1]. قالوا: هنا قسم، واللام الموطئة محذوفة، والأصل: ولئن أطعتموهم إنكم لمشركون. قالوا: والقرينة الدالة على لام القسم الموطئة المحذوفة: أنه لو لم يكن هناك قسم وكانت (إن) الشرطية

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

في قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ خالية من قسم لوجب اقتران الجملة بالفاء في قوله: فإنكم لمشركون. فلما عريت من الفاء دل خلوها من الفاء على حذف القسم. وهذا وجيه. فما زعمه قوم من أن الفاء في جملة الجزاء التي لا تصلح أن تكون فعلًا للشرط أنه يجوز سقوط [الفاء][1] منها اختياراً؛ فهو غير صحيح، والتحقيق في لغة العرب: أنها لا بد من اقترانها بالفاء، وأن سقوط الفاء من آية الأنعام هذه نظراً للقسم المحذوف، وما احتجوا به من قراءة نافع وابن عامر[2] في سورة الشورى في قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ بما كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورى: آية ٣٠] قالوا: لم تكن في قراءة نافع وابن عامر الفاء، بل قرأا: ﴿**وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم**﴾ وكذلك هو في مصحف عثمان بن عفان الذي بقي عنده بالمدينة ليس فيه فاء ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ﴾ وكذلك في المصاحف التي أُرسلت إلى الشام. والتحقيق أن قراءة نافع وابن عامر هذه من السبعة: ﴿**وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير**﴾ لا تدل على خلو جملة الجزاء من الفاء إن كانت لا تصلح أن تكون فعلاً للشرط، بل (ما) من قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ﴾ على قراءة نافع وابن عامر موصولة لا شرطية. والمعنى: والذي أصابكم من المصائب كائن وواقع بسبب ما كسبت أيديكم. أما على قراءة بقية السبعة: فـ(ما) شرطية؛ ولذلك اقترنت الجملة بالفاء في قراءتهم وفي المصاحف التي أُرسلت إلى أقطارهم.

وهذا الشرك في قوله: ﴿إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] أجمع العلماء على أنه شرك أكبر مخرج عن ملة الإسلام؛ لأن من حكَّم تشريع غير الله فقد كفر بالله. وهذا الشرك هو الذي وبخ الله صاحبه ويوبخه على رؤوس الأشهاد في سورة (يس) ويبين مصيره وقراره النهائي ـ والعياذ بالله ـ وذلك في قوله: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ معنى عبادتهم للشيطان: هي اتباع نظامه وتشريعه وقانونه فيما أحل لهم من الكفر والمعاصي لله، المخالفة لما جاء به الرسل: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠ وَأَنِ

---

(١) في الأصل: «الجزاء».

(٢) مضت عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف. وانظر: الأضواء (٧/ ١٧٠).

اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: الآيات ٦٠ ـ ٦٢] أضل الشيطان منكم خلائق كثيرة لا تحصى، ويدخل فيها الدخول الأولي: الذين اتبعوا نظامه وقانونه وتشريعه، وفضلوه على نور السماء الذي أنزله خالق الخلق على خيرته من خلقه وهم الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم). ثم قال: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: آية ٦٢] لم تكن هنالك عقول ترشدكم إلى أن الذي يتبع تشريعه ويطاع في تحليله وتحريمه هو خالق هذا الكون الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت، وأن ذلك ليس للشيطان ولا لأتباع الشيطان. ثم بيّن المصير والقرار النهائي لمن كان يتبع تشاريع إبليس ونظمه وقوانينه: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٦٣ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٦٤ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٦٥﴾ [يس: الآيات ٦٣ ـ ٦٥].

وهنالك قوم قد أرادوا التحاكم لغير ما أنزل الله، وزعموا أنهم مؤمنون، فعجَّب الله نبيه من دعواهم الكاذبة الخائنة الفاجرة؛ لأنها حقيقة بأن يعجب منها، وما ذلك إلا لشدة كذبها وبعدها عن الحق، وذلك بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝٦٠﴾ [النساء: آية ٦٠] فالله قال مستبعداً لحجة هؤلاء مستبعداً لصدقها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ﴾ إرادتهم للتحاكم للطاغوت أبعدت دعواهم عن أن يُقبل منهم أنهم مؤمنون. والآيات القرآنية الدالة على هذا كثيرة؛ ولذا ثبت أن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) سأل النبي ﷺ عن قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣١] كيف اتخذوهم أرباباً من دون الله؟ قال: «**ألم يحلوا لهم ما حرم الله، ويحرموا عليهم ما أحل الله؟**» قال: بلى. قال: «**بذلك اتخذوهم أرباباً**»[1] والعياذ بالله. ولذلك

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

بين هنا صفات من يُتبع تشريعه ويُعمل به ليبين للخلق أن التشريع لا يُقبل ولا يُتبع إلا ممن هو أهل لأن يشرع؛ ولذا لما ذكر أنه أرسل هذا النبي الكريم لجميع الناس كافة بيَّن أن الذي أرسله بهذا التشريع وهذه الأوامر والنواهي والحلال والحرام أنه الذي له ملك السماوات والأرض، لا إله إلا هو يحيي ويميت. هذه صفات المشرع الذي يحلل ويحرم، وأما غير مَنْ هذه صفاته فليس له حق في ذلك، فاتباع تشريعه كفر برب العالمين كما أوضحناه مراراً. وهذا معنى قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنه (جل وعلا) هو ملك السماوات والأرض النافذ تصرفه فيها، لا يُسأل فيها عما يفعل، لا معقب لحكمه؛ ولذا كان أمره ونهيه هو اللازم أن يُتبع. وهذا معنى قوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وقوله: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال بعض العلماء: هو في معنىٰ البدل والبيان من: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأن المعبود الذي يستحق أن يُفرد بالعبادة وحده هو الذي له ملك السماوات والأرض، الذي يحيي ويميت؛ ولذا قال: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود يعبد بالحق إلا هو وحده (جل وعلا) وقد ذكرنا مراراً أن الإله في[1] لغة العرب: بمعنىٰ المعبود، والإلهة: العبادة. وتألّه إذا تعبَّد، فالإله (فِعَال) بمعنى: (مَفْعُول) بمعنى: مألوه. أي: معبود على سبيل المحبة والخوف والتعظيم. وإتيان (الفِعَال) بمعنى (المفعول) مسموع في أوزان من لغة العرب، وليس قياسياً فيها، فمنه: الكتاب بمعنى المكتوب، واللباس بمعنىٰ الملبوس، والإله بمعنى المألوه. أي: المعبود. والإمام بمعنىٰ المُؤتم به، في أوزان قليلة. والعرب تُسمي التأله تعبداً، والإلاهة عبادة. وفي قراءة ابن عباس[2] - وإن كانت شاذة -: ﴿ويذرك وإلَـٰهتك﴾ وفي رجز رؤبة[3]:

لله دَرُّ الـغَـانِـيَـاتِ الـمُـدَّهِ ... سبَّحْنَ واسْتَرْجَعْنَ من تَأَلُّهِي

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة المائدة.

(٢) مضت عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٥) من هذه السورة.

أي: لا معبود يُعبد بالحق إلا ملك السماوات والأرض (جل وعلا)، الذي يحيي ويميت، الذي أرسلني إليكم فأنا مرسل ممن هو جدير بأن يُطاع ولا يُستهزأ بأوامره ونواهيه. وهذا معنى قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ يحيي من شاء أن يحييه، ويميت من شاء أن يميته، فحذف المفعول للتعميم.

وهذا الإحياء والإماتة تدخل فيه الإماتتان والإحياءتان دخولًا أولياً المذكورتان في سورة المؤمن ـ سورة غافر ـ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ [غافر: آية ١١] وهاتان الإماتتان والإحياءتان اختلف فيهما العلماء[1]، والتحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه: أن الإماتة الأولىٰ هو كونهم في بطون أمهاتهم علقاً ومُضَغاً لا حياة فيهم قبل أن تُنفخ فيهم الروح، وأن الإحياءة الأولى هي إحياءتهم في بطون أمهاتهم التي خرجوا بها إلى الدنيا. والإماتة الثانية: الإماتة إلى القبور، والإحياءة الثانية: الإحياءة من القبور بالبعث إلى الحساب والجزاء. وهذا المعنى أوضح الله أنه المراد في سورة البقرة في قوله: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ...﴾ الآية [البقرة: آية ٢٨] والله (جل وعلا) قد يحيي غير هذا الإحياء ويميت غير هذه الإماتة، فهو يميت الأرض ويحييها كما قال جل وعلا: ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [الروم: آية ٥٠] وكذلك يحيي الإنسان لسؤال الملكين في قبره كما جاء في الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، ولذا قال: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ الفاء سببية، وهذه الرسالة لما أُرسل بها هذا الأمين الكريم من قِبَل هذا الملك العظيم الأعظم ملك السماوات والأرض، المعبود وحده، الذي بيده الحياة والموت، هذا يتسبب للإيمان بها، وعدم الكفر بها؛ ولذا جاء بالفاء المؤذنة بالسبب في قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾.

قال بعض علماء العربية: العرب تطلق الإيمان لغة على التصديق، وهذا موجود في لغتها وإن أنكره بعض أهل العلم، كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ

---

(١) انظر: القرطبي (٢٩٧/١٥)، ابن كثير (٧٣/٤).

﴿بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: آية ١٧] أي: بمصدقنا في أن يوسف أكله الذئب ﴿وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: آية ١٧].

والإيمان في الشرع: هو التصديق الكامل من جهاته الثلاث، أعني: تصديق القلب بالاعتقاد والنية الصالحة، وتصديق اللسان بالإقرار، وتصديق الجوارح بالعمل[1].

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ محمد ﷺ. قرأ هذا الحرف عامة القراء غير نافع: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ بالإدغام. وقرأه نافع وحده: **﴿ورسوله النبيء الأمي﴾** ونافع في جميع القرآن قرأ (النبيء) و (النبيئين) و(الأنبئاء) بالهمزة المحققة إلا حرفين في سورة الأحزاب وافق الجمهور فيهما بالتشديد في رواية قالون عنه خاصة دون ورش، كما هو معروف في قراءته[2].

أما على قراءة نافع: **﴿ورسوله النبيء الأمي﴾** فالنبيء: فاعل من النبأ، والنبأ في لغة العرب: هو الخبر الذي له خطب وشأن، فالنبأ أخص من مطلق الخبر، فكل خبرٍ نبأ وليس كل نبأ خبراً؛ لأن العرب لا تكاد تُطلق النبأ إلا على خبر له شأن وخطب[3]؛ فلو قال قائل: «جاءنا اليوم نبأ عن حمار الحجام» لما كان هذا من كلام العرب؛ لأن خبر حمار الحجام لا أهمية له ولا خطب له، فلا يُسمىٰ نبأ وإنما يقول له: خبر. هكذا حققه بعض علماء العربية.

أما على قراءة الجمهور: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: أن معناه كمعنى قراءة نافع، وأن الهمزة أُبدلت ياء، وأُدغمت الياء في الياء، كقراءة ورش عن نافع[4]: **﴿إنما النَّسِيُّ زيادة في**

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٢) تقدمت هذا القراءات وتوجيهها عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

الكفر﴾ [التوبة: آية ٣٧] بإدغام الياء في الياء، والأصل: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ كقراءة الجمهور. وعلى هذا فمعنى القراءتين واحد.

وقال قوم: النبي على قراءة الجمهور مشتق من النَّبْوَة وهي الارتفاع، والعرب تسمي المرتفع من الأرض نبياً، ومنه قوله[1]:

لأَصْبَحَ رتْماً دُقاقُ الحَصَى مكان النبي من الكاثِبِ

النبي: يعني به رملًا مرتفعاً. هكذا قاله العلماء[2]. وهذا معنى قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ هذه صفاته ﷺ. وقد أجرىٰ الله العادة أنه يصف المرسلين والملائكة بما يصف به مطلق عوام المؤمنين؛ لأن قوله: ﴿ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ كل عامي من المسلمين يؤمن بالله، وقد وصف نبيه ﷺ بصفة يتصف بها جميع المسلمين، وذلك للإيذان بشرف الإيمان بالله وكلماته وعِظَمِه كما قال جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ وصفهم بالإيمان ووصف المسلمين بالإيمان ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ﴾ [غافر: آية ٧] وبين أن ذلك الإيمان الذي اتصف به حملة العرش وأهل الأرض من بني آدم صار الرابطة العظمى بينهم التي عطفت قلوبهم عليهم من فوق سبع سماوات فدعوا لهم ذلك الدعاء القرآني العظيم المذكور في قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ إلى آخر دعائهم الكريم [غافر: الآيتان ٧، ٨]. وهذا معنى قوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾.

الأمي: هو الذي لا يقرأ ولا يكتب؛ لأن نبينا ﷺ كان لا يقرأ ولا يكتب ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ

---

(١) البيت لأوس بن حجر، وهو في ديوانه ص١٠ ـ ١١، اللسان (مادة: كثب) (٢٢٣/٣)، الدر المصون (٤٠٢/١).

(٢) قال في اللسان (مادة: كثب ٢٢٣/٣)، معقباً على هذا البيت: «يريد بالنبي: ما نبا من الحصى إذا دُق فندر. والكاثب: الجامع لما ندر منه. ويقال: هما موضعان» ا.هـ.

ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: آية ٤٨] وكونه لا يقرأ ولا يكتب مع هذه العلوم التي لا يُطلَع عليها إلا بالوحي يدل على أن هذا إنما عَلِمَه بوحي من الله (جل وعلا).

وقوله: ﴿وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ قال بعض العلماء: معنى كلماته: كتبه التي أنزلها على خلقه[1]، كما قال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ﴾ [البقرة: آية ٢٨٥] والتحقيق: أن كلمات الله أعم من كتبه[2]، وأنها لا يحصيها إلا هو (جل وعلا) كما نوّه عنها في أُخريات الكهف وأُخريات لقمان في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف: آية ١٠٩] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ﴾ [لقمان: آية ٢٧] وكلمات الله لا يعلمها إلا الله (جل وعلا)، ولو كانت البحور مداداً لكلماته لنفدت البحور وتلاشت قبل أن تنفذ كلماته (جل وعلا). والكلام صفته الأزلية التي لم يتجرد عنها يوماً ما، فهو (جل وعلا) متصف بكلامه الأزلي الذي لم يتجرد عنه يوماً ما، وفي كل يوم يتكلم بما شاء كيف شاء على الوجه اللائق بكماله وجلاله سبحانه (جل وعلا) ما أعظم شأنه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ الضمير المنصوب في قوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ لهذا النبي الأمي (صلوات الله وسلامه عليه). أمر الله باتباعه؛ لأن اتباعه هو عين طاعة الله جل وعلا ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ﴾ [النساء: آية ٨٠] ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: آية ٣١].

وقوله: ﴿لعلكم تهتدون﴾ أشهر معاني (لعل) في القرآن عند المفسرين معنيان[3]:

---

(١) انظر: القرطبي (٣٠٢/٧).

(٢) انظر: ابن جرير (١٧١/١٣)، الأضواء (٣٣٤/٢).

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

أحدهما: أنها بمعنىٰ التعليل، وهو الأنسب هنا. قال بعض علماء العربية: كل (لعل) في القرآن فهي للتعليل إلا التي في سورة الشعراء: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: آية ١٢٩] قالوا: هي بمعنىٰ: كأنكم تخلدون. وإتيان (لعل) بمعنىٰ التعليل صحيح معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[1]:

فقلتُم لنا كُفُّوا الحُروبَ لعلَّنَا نكُفُّ ووثَّقْتُم لنا كُل موثقِ

«كفوا الحروب لعلنا نكف» أي: كفوا لأجل أن نكف.

وقال بعض العلماء[2]: (لعل) هي للرجاء، يعني: على رجائكم أيها الخلق الذين لا تعلمون العواقب وما تؤول إليه الأمور، أما الله (جل وعلا) فهو عالم بما تؤول إليه الأمور فلا تجري له (لعل)؛ ولذا قال لموسىٰ وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ﴾ يعني فرعون ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: آية ٤٤] على رجائكما أن يتذكر أو يخشى ومبلغ علمكما، أما الله فهو عالم بأنه لا يتذكر ولا يخشىٰ، ولا يجري عليه (لعل). هذان الوجهان معروفان، والتعليل هنا أنسب.

وقوله: ﴿تَهْتَدُونَ﴾ تكونون على طريق الهدىٰ التي هي موصلة إلى القصد والصواب من رضا الله (جل وعلا) ونيل ما عنده من الخلود في الجنة.

٢٢/أ [3] / ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٥٩، ١٦٠].

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) جاء في أول الشريط المسجل لهذا الدرس (كما في إحدى النسخ) ما نصه: «اليوم: يوم الخميس، الموافق ٢/ رمضان المبارك سنة (١٣٩١هـ)....» ا.هـ، وهو التاريخ المثبت كتابياً على إحدى النسخ.

يقول الله (جل وعلا): ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٥٩] موسى هو نبي الله موسى بن عمران (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام). وقومه: هم بنو إسرائيل.

وأصل (القوم) في لغة العرب: اسم جمع لا واحد له من لفظه، وُضع للذكور دون الإناث، وربما دخلت الإناث فيه بحكم التبع[١]. والدليل على أن لفظ القوم يختص بالوضع بالذكور دون الإناث قوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ فلو دخل النساء في اسم القوم لما كان لقوله: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: آية ١١] فائدة، وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول زهير بن أبي سلمى[٢]:

وما أدري وسوفَ إخَالُ أَدْري ... أقومٌ آلُ حصنٍ أم نساءُ

فدل على أن العرب تخص به الذكور، والدليل من القرآن على أن النساء ربما دخلن في اسم القوم بحكم التبع: قوله تعالى في ملكة اليمن: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: آية ٤٣].

وقوله: ﴿أُمَّةٌ﴾ مبتدأ سوّغ الابتداء به وهو نكرة اعتماده على المجرور قبله. والأمة: الطائفة الكثيرة المتفقة في دين ونحوه، وقد جاء في القرآن العظيم إطلاق الأمة على أربعة معان كلها صحيح موجود في كتاب الله[٣]، ومنه إطلاق الأمة على الطائفة المتفقة في دين ونحوه، وهذا أكثر إطلاقات الأمة، كقوله هنا: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ﴾ ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: آية ٢١٣] ونحو ذلك من الآيات.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.
(٢) السابق.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأنعام.

الإطلاق الثاني: إطلاق الأمة على الرجل المقتدى به، كقوله في إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: آية ١٢٠].

الإطلاق الثالث: إطلاق الأمة على القطعة والبرهة من الزمان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: آية ٤٥] أي: تذكر بعد برهة من الزمان وقطعة من الدهر. ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [هود: آية ٨] أي: إلى مدة معينة في علمنا.

الإطلاق الرابع: إطلاق الأمة على الشريعة والدين، وهذا الإطلاق مشهور في القرآن، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: آية ٢٣] أي: على شريعة وملة ودين، ومنه بهذا المعنى قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: آية ٩٢] أي: دينكم وشريعتكم شريعة واحدة. وهذا الإطلاق معروف مشهور في كلام العرب، ومنه قول نابغة ذبيان[1]:

حلفتُ فلم أترُكْ لِنَفسِكَ رِيبَةً ... وهلْ يَأثَمَنْ ذُو أُمةٍ وهو طائعُ

يعني: أن من كان صاحب دين وشريعة لا يرتكب الإثم قاصداً أبداً، وهذا يقوله جاهلي، فكيف بالمسلم، فما ينبغي له أن يقول؟! وهذا معنى قوله: ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يهدون الناس بالحق، والمراد بالحق الذي يهدون به الناس: هو شرع الله ودينه الذي أنزله على رسله. ﴿وَبِهِۦ﴾ أي: بالحق المذكور ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يصيبون العدالة المتجافية عن طرفي الإفراط والتفريط. فالعدالة: المشي على الصواب وطريق القصد المتجافي عن طرف الإفراط والتفريط.

وهذه الآية الكريمة دلت على أن من قوم موسى أمة طيبة على الحق،

---

(١) السابق.

وهذا المعنى جاء مُصرحاً به في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ١١٣، ١١٤] وكقوله جل وعلا: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران: آية ١٩٩] وكقوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا...﴾ الآية [الإسراء: الآيتان ١٠٧، ١٠٨] وكقوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ [الرعد: آية ٣٦] في أهل الكتاب الذين يفرحون بما أُنزل إليه ﷺ، وقد بيّن القرآن أن هذه الطائفة من أهل الكتاب ـ التي كانت متمسكة بشريعة موسى وبما في التوراة إذا كانت على ذلك حتى آمنت بنبينا محمد ﷺ ـ أنها تُؤتى أجرها مرتين، أجر إيمانها الأول بموسى وكتابه، وإيمانها بمحمد وكتابه، نص الله على هذا في سورة القصص في قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ الآية [القصص: الآيات ٥١ ـ ٥٤]. وهذا معنى قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: آية ١٥٩].

وقد قدمنا في سورة المائدة أن ظاهر القرآن أن هذه الأمة هي الأمة المقتصدة المذكورة في قوله: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: آية ٦٦] وهذه الأمة غاية ما نوّه الله به عنها أنها مقتصدة، وهذه الأمة الكريمة التي هي أمة محمد ﷺ لمّا نوّه عنها وعن كتابها جعل فيها مرتبة أعظم من المقتصدة، وذلك في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: آية ٣٢] فجعل فيهم سابقاً بالخيرات فوق المقتصد، ووعد الجميع ممن أورثوا هذا الكتاب بقوله:

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ الآية [فاطر: آية ٣٣]. فآية فاطر هذه تدل دلالة عظيمة واضحة على عظيم هذه الأمة المحمدية، وعلى عظيم نعمة هذا الكتاب والرحمة والنور الذي أنزل الله إليها من السماء على لسان سيد الخلق ﷺ؛ لأن الله لما قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ بيّن أن إيراث هذا الكتاب علامة الاصطفاء ـ وهو الاختيار من الله ـ ثم قسم هذه الأمة التي اصطفاها الله بإيراث هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام[1]: قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ثم نوّه عن أن إيراث هذا الكتاب فضلٌ عظيم من الله قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إيراثه إياكم ذلك الكتاب ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ من الله عليكم. ثم وعد الجميع والأول منهم الظالم لنفسه بوعده الصادق إن الله لا يخلف الميعاد ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: الآيات ٣٣ ـ ٣٥] ولم يبق عن الطوائف الثلاثة الموعودة بالجنة ـ ممن لا يخلف الميعاد ـ إلا الكفار؛ لأن الله ذكر في مقابلتهم الكفار في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾ [فاطر: آية ٣٦].

وكان بعض العلماء يقول[2]: «حُق لهذه الواو ـ في سورة فاطر ـ أن تُكتب بماء العينين» يعني واو ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ لأنها واو شاملة بالوعد الصادق من الله بجنات عدن لجميع هذه الأمة التي أُورثت هذا الكتاب، وعلى رأسهم الظالم لنفسه.

وأصح التفسيرات في (الظالم، والمقتصد، والسابق بالخيرات) في آية فاطر هذه: أن الظالم: هو الذي يطيع الله تارة ويعصيه أُخرىٰ، وهو من الذين قال الله فيهم: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

[التوبة: آية ١٠٢] والمقتصد: هو الذي ينتهي عن المحرمات، ويأتي بالواجبات، ولا يتقرب بالنوافل التي هي غير ترك الحرام أو أداء الواجب. والسابق بالخيرات: هو الذي يمتثل الأوامر، ويجتنب النواهي، ويتقرب إلى الله بالنوافل[1].

وقد ذكرنا مراراً أن العلماء اختلفوا في السبب الذي قُدم من أجله الظالم لنفسه في هذا الوعد العظيم من الله[2] ـ الذي لا يخلف الميعاد ـ بجنات عدن وما فيها من النعيم، فمن أين للظالم لنفسه أن يُقَدَّم على السابق بالخيرات والمقتصد؟.

فقال بعض العلماء: هذه الآية من سورة فاطر مقام إظهار كرم رب العالمين، وشدة رحمته ولطفه بعباده، فقدم الظالم لئلا يقنط، وأَخَّر السابق بالخيرات لئلا يعجب بعمله فيحبط.

وقال بعض العلماء: قدم الظالم لنفسه لأن أكثر أهل الجنة الظالمون لأنفسهم الذين خلطوا عملًا صالحاً وآخر سيئاً؛ لأن السابقين قليل، والمقتصدون أقل من الظالمين، وهذا معنى قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: آية ١٥٩] وسيأتي حديث عند قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأعراف: آية ١٨١] فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: «**هذه لكم وقد أعطي القوم مثلها**»[3] يعني قوم موسى في قوله هنا: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ ولكن آية فاطر هذه التي ذكرناها زادت بالسابق بالخيرات، وبالوعد بالجنات للجميع، ففيها من إظهار فضل هذه الأمة ما لم تتناوله إحدى الآيتين هنا في سورة الأعراف.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٨٦/١٣)، عن قتادة مرسلاً. وأورده السيوطي في الدر المنثور (١٤٩/٣)، كذلك عن قتادة، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير. وعزاه الزيلعي للثعلبي كما في تخريج أحاديث الكشاف (٤٧٤/١).

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)﴾ [الأعراف: آية ١٦٠].

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾، الضمير في ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ عائد إلى قوم موسى، فقوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ فيه وجهان معروفان من التفسير، وبحسبهما يكون القولان في إعراب قوله: ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾[1] قال بعض العلماء: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ أي: صيرناهم قطعاً. وعلى هذا فقطعنا تطلب مفعولين لتضمينها معنى (صيرنا)، ومفعولها الأول: هو الضمير ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾، ومفعولها الثاني: ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ أي: صيرناهم اثنتي عشرة فرقة.

وقال بعض العلماء: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ معناه: فرقناهم وميزنا بعضهم عن بعض؛ لأنهم أبناء اثني عشر رجلًا، وكل رجل صار من نسله قبيلة، والسبط في أولاد إسحاق بمعنى القبائل في أولاد إسماعيل، ويعقوب (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) كان له اثنا عشر ابناً كل ابن منهم وُلد له نسل، فصار كل ابن منهم قبيلة، والقبائل عندهم تسمى (أسباطاً)[2]. والمفسرون يذكرون أسماء هؤلاء الأسباط الذين تفرعت منهم القبائل[3]، وذِكْرُها إنما هو عن طريق الإسرائيليات؛ ولذا اختلفوا فيها، فمنهم من يقول: هم روبيل، وشمعون، ويهوذا، وربالون، ويشجر، ودان، ونفتالي، وجاد، وآشر، ويوسف، وشقيقه بنيامين. ومنهم من يذكر غير ذلك[4]، ولا طريق صحيحة تثبت ذلك، إلا أن الأظهر أن هؤلاء الاثنتي عشرة أن كل واحدة

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٤٨٤).

(٢) انظر: القرطبي (٢/١٤١).

(٣) انظر: ابن جرير (٢/١٢١).

(٤) انظر: تاريخ الطبري (١/١٦٣)، التفسير له (٣/١١١ - ١١٣)، القرطبي (٩/١٣٠)، البداية والنهاية (١/١٩٥). والذين ذكرهم الشيخ (رحمه الله) أحد عشر. والثاني عشر هو: (لاوي) على اختلاف في ضبط أسمائهم.

منهم من سبط من أولاد يعقوب كما تقدم في قوله: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: آية ١٢] لأن كل سبط من هذه الأسباط بعث الله موسىٰ فيه نقيباً سيداً يتفقد شؤونه وأحواله؛ لتكون تلك الرجال الإثنى عشر يُطلعون موسىٰ على سرائر قومهم فيهون عليه الإصلاح من شؤونهم؛ ولذا قال هنا: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ [الأعراف: آية ١٦٠] فعلىٰ أن (قطعنا) بمعنى (صيرنا) فـ(اثنتى عشرة) هو المفعول الثاني، وعلى أن (قطعنا) بمعنى (ميزنا) بعضهم عن بعض، وفرقنا بعضهم عن بعض؛ لنجعل على كل فرقة منهم نقيباً، فقوله هنا: ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ هي حال جامدة مؤولة، أي: ميزناهم وفرقناهم في حال كونهم بالغين هذا العدد الذي هو اثنتي عشرة، واختلف العلماء في مميز ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾[1] وظاهر القرآن أن مميزه ﴿أَسْبَاطًا﴾ ولكن المعروف في لغة العرب أن العدد كله من الثلاثة إلى العشرة يميز بالجمع مضافاً إليه العدد، أما غيره من الأعداد فإنه يميز بالمفرد التمييز المطابق للعربية المعروفة لو قيل: قطعناهم اثنتي عشرة سبطاً. وذهب بعض العلماء في الجواب عن هذا إلى أن الأسباط هنا جمع سبط مضمّن معنى القبيلة، وأن الأسباط: القبيلة تكون فيها أسباط كثيرة، وعليه فالمعنى: قطعناهم اثنتي عشرة قبيلة. فالأسباط بمعنى القبيلة. وهذا مردود لما ذكرنا من أن الأسباط في ذرية إسحاق بمعنى القبائل في ذرية إسماعيل. والذي اختاره غير واحد من المحققين: أن المُميَّز محذوف دل المقام عليه: وقطعناهم اثنتي عشرة فرقة. وقوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل من ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ و﴿أُمَمًا﴾ بدل بعد بدل على الصواب، ولا مانع من إتيان البدل بعد البدل كما هو معروف في علم العربية، فقد وُجد في كلام العرب. وهذا معنى قوله: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ كل سبط منهم أمة، أي: خلق وقبيلة كثيرة كثيفة العدد.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ ذكر (جل وعلا) هنا بعض ما أنعم الله به على الإسرائيليين في التيه يُذكّر الموجودين منهم زمن نبينا نعمه عليهم، ويُذكِّرهم

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٤٨٤).

أيضاً كثرة ما هم فيه من الخلاف وعدم طاعة الله ورسله؛ لأن سبب هذا التيه: أن الله لما أنجا موسىٰ وقومه من فرعون، وفلق لهم البحر، وأمرهم بقتال الجبارين، أصابهم الجبن الذي قدمنا شرحه في سورة المائدة، وقالوا لنبيهم موسىٰ: ﴿لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ فأصابهم الجبن والخوف، فقال موسىٰ: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فضرب الله عليهم التيه أربعين سنة ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [المائدة: الآيات ٢٤ ـ ٢٦] يصبحون حيث أمسوا، فإذا مشوا النهار كله أصبحوا من حيث كانوا أمس!! الله ضرب عليهم هذا التيه. وأصحاب الأخبار والتاريخ يطبقون على أن موسى وهارون (عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام) توفيا في التيه[1]، ثم صار الخليفة بعد موسى يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف (عليهم السلام) وهو الذي فتح الله على يديه كما سيأتي هنا وتقدم في سورة البقرة. ولما كان بنو إسرائيل في التيه هذه الأربعين سنة أصابهم العطش وشكوا إلى موسى فأوحىٰ الله إليه أن اضرب بعصاك الحجر، فضربه فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً. وشكوا له من حر الشمس فظلل الله عليهم الغمام يقيهم حر الشمس، وشكوا له من الجوع فأنزل الله عليهم المن والسلوىٰ كما تقدم في سورة البقرة[2] وكما هو مذكور هنا في سورة الأعراف.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾ [الأعراف: آية ١٦٠] أوحىٰ الله إلى نبيه موسىٰ حين استسقاه قومه. الإيحاء في لغة العرب: هو كل إلقاء بشيء في سرعة وخفاء فهو إيحاء. فهذا معناه اللغوي، والوحي له معنى لغوي ومعنى شرعي كغيره من المعاني[3]. فالوحي الشرعي معروف، وهو: ما يوحي الله لنبيه بواسطة الملك مثلاً، وربما أوحى إلى النبي بغير واسطة كما أعطى نبينا ﷺ ليلة الإسراء الصلوات الخمس وخواتيم سورة

---

(١) انظر: تاريخ الطبري (٢٢٣/١)، البداية والنهاية (٣١٦/١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

البقرة، فظاهر حديث ابن مسعود عند مسلم أنه من غير واسطة الملك[١]. وقد يكون الوحي بواسطة الملك وهو على أنحاء كثيرة معروفة. وأصل الإيحاء في لغة العرب: هو كل إلقاء جامع بين الخفاء والسرعة تسمية العرب (وحياً)، فكل من ألقى شيئاً بخفاء وسرعة فهو وحي في كلام العرب؛ ولأجل ذلك كانت العرب تطلق اسم الوحي على الكتابة، وعلى الإشارة، وعلى الإلهام؛ لأن كلاً من هذه إلقاء في سرعة وخفاء. ويطلقون الوحي على الإلهام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ [النحل: آية ٦٨] أي: ألهمها. ويطلق الوحي على الإشارة، وهو أصح القولين في قوله عن زكريا: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: آية ١١] أي: أشار إليهم. وتطلق العرب الوحي على الكتابة؛ لأنها معان تلقى بأفعال سريعة خفية، وإطلاق الوحي على الكتابة إطلاق كثير مشهور في كلام العرب، وكان بعض المفسرين يقول: منه قوله في زكريا: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: كتب لهم، والأظهر: الإشارة، كما يدل عليه قوله: ﴿إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ [آل عمران: آية ٤١] وإطلاق العرب الوحي على الكتابة مشهور جداً في كلامها، كثير جداً في أشعارها، ومنه قول لبيد بن ربيعة في معلقته[٢]:

فَمَدافِعُ الرَّيَانِ عُرِّيَ رَسْمُها خَلَقاً كما ضَمِنَ الوُحيَّ سِلامُها

الوُحيُّ: جمع وحي، وهو الكتابة، وهو (فَعْلٌ) مجموع على (فُعُول)، كَفَلْس وفلوس، ومنه قول عنترة[٣]:

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى. حديث رقم: (١٧٣)، (١/١٥٧). ولفظه: «لما أُسري برسول الله ﷺ انتهي به إلى سدرة المنتهى - إلى قوله - قال: فأُعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: أُعطي الصلوات الخمس، وأُعطي خواتيم سورة البقرة، وغُفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المُقْحِمَات».

(٢) شرح القصائد المشهورات (١/١٣٠)، والمدافع هنا: الأودية التي يتصل بعضها ببعض، كأن بعضها يدفع السيل إلى بعض. و «الريان»: واد. و «عُري»: خلا. و «الرسم»: الأثر. و«خلقاً»: متجرداً بعد جدته.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

كوحي الصَّحائفِ منْ عهدِ كسرى فـأهْـدَاهَـا لأعْـجَـمَ طِـمْـطِـمـي

وقول نابغة ذبيان[١]:

دارٌ لأسْمَاءَ بالغَمْرينِ ماثلةٌ كالوَحْيِ ليسَ بها من أهلها أَرِمُ

وقول نابغة ذبيان أيضاً[٢]:

لمن الديارُ غَشِيْتُها بالفَدْفَدِ كالوَحْي في حَجَرِ المَسِيلِ المُخْلِدِ

ومنه قول ذي الرمة[٣]:

سوى الأربعِ الدُّهم اللواتي كأنها بقيَّة وحي في بطونِ الصحَائفِ

وقول جرير[٤]:

كأنَّ أَخَا الكتابِ يَخُطُّ وحْياً بكافٍ في منازلها ولامُ

وهو كثير مشهور، وهذا معنى قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ نبي الله موسى بن عمران ﴿إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ حين استسقاه قومه. والمقرر في فن التصريف أن (استفعل) من أبنية الطلب؛ لأن السين والتاء تدلان على الطلب، فاستسقىٰ معناه طلب السقيا، واستطعم طلب الطعام، واستنزل طلب النزول، إلى غير ذلك.

﴿إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ طلبوا منه السقيا، أن يسأل الله لهم فيسقيهم.

وقوله: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ﴾ (أن) هذه هي التي يسميها علماء العربية: (أن المُفسِّرة) وضابطها: أن يتقدمها معنى القول ولا يكون فيه حروف القول[٥]؛ لأن ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ يتضمن معنى (قلنا لموسىٰ)

---

(١) البيت في اللسان (مادة: أرم) (٣/٨٩٣)، ونسبه لزهير. وليس في ديوان النابغة.

(٢) البيت في ابن جرير (١٣/٢٧٠)، القرطبي (٧/٣٢٢).

(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٤) السابق.

(٥) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

وليس فيه [حروف][(١)] القول، ومعنى كونها تفسيرية: أن ذلك الذي أُوحي إلى موسىٰ يفسره ما بعد (أن) وهو الأمر بضرب الحجر لتنبجس منه اثنتا عشرة عيناً. وبعض علماء العربية يقولون: لا مانع من دخول أن المصدرية على الأفعال الطلبية، وعليه فتكون مصدرية على هذا القول.

قوله: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٠] العصا معروفة، يعرفها كل أحد، وألفها مبدلة من واو، فلو ثنيت لقيل فيها: (عَصَوَان) ومنه قول ذي الرمة ـ غيلان بن عقبة[(٢)] ـ:

فجاءَتْ بنَسْجِ العنكَبُوتِ كأنَّه على عَصَوَيْهَا سابِرِيٌّ مُشَبْرَقُ

وقوله: ﴿ٱلْحَجَرَ﴾ قال بعض العلماء: هذه الألف واللام تدل على عهد، وأنه حجر كان معهوداً عند موسى. وبعض العلماء يقول: هي لمطلق الجنس. وفيه هنا مقالات إسرائيلية لا يثبت شيء منها[(٣)]. قوم زعموا أنه حجر مربع كان يحمله في التيه معه في مخلاته ويضربه [بالعصا][(٤)] فكل جهة من جهاته الأربع تنفجر فيها ثلاث عيون، ويكون المجموع اثنتا عشرة عيناً. وقال بعض العلماء: هو كلما نزل في محل أخذ حجراً منه وضربه فانفجرت منه تلك العيون. وقال بعض العلماء: هو الحجر الذي هرب بثوبه وقصته مشهورة، وسيأتي الكلام عليها في تفسير سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ [الأحزاب: آية ٦٩] لأن نبي الله موسىٰ كان بنو إسرائيل في زمنه يذهبون إلى البحر فيغتسلون بعضهم ينظر إلى بعض وهم عراة، وكان نبي الله موسى لا يغتسل حيث يراه أحد، بل يُبعد ويغتسل من حيث لا يراه أحد، وكانوا يقولون: ما منعه أن يغتسل بمرأى منا إلا أنه آدر، والآدر: المصاب بالأُدرة، والأُدرة انتفاخ إحدى الخصيتين حتى تعظم وتكبر من مرض. فيوماً وضع ثوبه على حجر

---

(١) في الأصل: «معنى» وهو سبق لسان.

(٢) البيت في اللسان (مادة: عصا) (٢/٨٠٢).

(٣) انظر: ابن جرير (١٢٠/٢).

(٤) في الأصل: «بالحجر» وهو سبق لسان.

فأجرىٰ الله الحجر بالثوب إلى جماعة بني إسرائيل، فاشتد موسى يعدو في أثر الحجر يقول: ثوبي يا حجر، ثوبي يا حجر، حتى رآه بنو إسرائيل كأحسن ما يكون من الرجال، سالماً من الأُدرة كل السلامة، فقالوا: والله ما بموسىٰ من بأس[١]. ويذكر بعضهم أنه قيل له: احتفظ بهذا الحجر فإن له لشأناً، وأنه هو الذي كان يضربه بعصاه. وكل هذه مقالات إسرائيلية لا ثبوت لشيء منها، هذا معنى قوله: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾.

قال في سورة البقرة: ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: آية ٦٠] وقال في سورة الأعراف هنا: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وأكثر علماء العربية على أن معنى (الانبجاس) و (الانفجار) أن معناهما واحد واللفظ مختلف، فكل من الانبجاس والانفجار انشقاق واسع ينحدر منه الماء بقوة[٢]. وزعم قوم أن الانبجاس أنه يكون أولًا قليلًا ثم لم يزل يكثر حتى يكون انفجاراً. وعلى هذا فقد ذكر في سورة الأعراف بدء انفجار الماء، وفي سورة البقرة منتهاه، والأظهر أنهما سواء، وهو معروف في كلام العرب، وقد قال العجاج[٣]:

وانحَلَبتْ عيناهُ من فَرْطِ الأَسَى ... وَكِيفَ غَرْبَيْ دالجٍ تبجَّسا

يعني بقوله: «تَبَجَّسَا» أي: أفرغ ماء كثيراً في الحوض، وهذا معروف في كلام العرب.

---

(١) أخرجه البخاري في الغسل، باب من اغتسل عرياناً وحده. حديث رقم: (٢٧٨)، (٣٨٥/٢) وأطرافه: في (٣٤٠٤، ٤٧٩٩). ومسلم في الفضائل، باب من فضائل موسى. حديث رقم: (٣٣٩)، (١٨٤١/٤) وفي الحيض، باب جواز الاغتسال عرياناً في الخلوة. حديث رقم: (٣٣٩) (٢٦٧/١).

(٢) انظر: القرطبي (٤١٩/١)، الدر المصون (٣٨٥/١)، (٤٨٧/٥).

(٣) البيت في شواهد الكشاف ص٦٣، وشطره الثاني في اللسان (مادة: بجس)، (١٦١/١)، والوكيف: مصدر، أي: وكفت. والغرب: الدلو العظيم. والدالج: من يأخذ الدلو من البئر فيفرغه في الحوض. والمعنى: انصبت دموع عينيه من شدة الحزن كانصباب دَلْوَي رجل مفرغ لهما في الحوض.

وقوله: ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ العين معروفة، وهو كل ماء كثير تسميه العرب عيناً.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ (الأناس) اسم جمع لا واحد له من لفظه، والمعنى: أن كل أمة من أمم بني إسرائيل علموا مشربهم، أي: عينهم التي يشربون منها؛ لأنهم اثنتا عشرة أسباطاً أمماً، والحجر فيه اثنتا عشرة عيناً، وكل أمة لها عين، وكل أمة عرفت عينها تشرب منها؛ وهذا معنى قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ﴾ الغمام: هو السحاب، وهو وعاء الماء. قالوا: وهو سحاب أبيض رقيق يظللهم الله به ويقيهم حر الشمس.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ أكثر المفسرين على أن (المن) هو الترنجبين، والترنجبين شيء يشبه العسل الأبيض ينزل كنزول الندى والثلج ثم يجتمع كثيراً، لونه أبيض، وطعمه طعم العسل، فهو عسل أبيض، أو شيء يشبه العسل الأبيض، بالغ في الحلاوة واللذاذة.

وقال بعض العلماء: المن أعم من هذا، واستدلوا بحديث الصحيحين الثابت عن النبي ﷺ من حديث سعيد بن زيد (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال: «**الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين**»[(١)] وفي بعض رواياته: «**من المن الذي أُنزل على موسى**» جاءت في بعض روايات الحديث. فبعض العلماء يقول: الظاهر أن المن كان أعم من الترنجبين. وأكثر علماء التفسير يقولون: هو الترنجبين، والحديث على نوع التشبيه. وظاهر حديث النبي ﷺ أن الكمأة من ذلك المن الذي أُنزل إليهم[(٢)].

وقوله: ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ التحقيق أن المراد بالسلوى طائر، وعليه جماعة المفسرين[(٣)]، قال بعض العلماء: هو طائر يشبه السُّمَانَى، وقال بعض

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة البقرة.

العلماء: هو السُّمَانَى بعينه، وهو طائر. فالترنجبين شِبْه الشراب والفاكهة، والسُّمَانَى لحم طير لذيذ. فهو أكل وغذاء عظيم لذيذ.

أما تفسير السلوىٰ بالعسل فقوم زعموا أن العرب لا تطلق السلوى على العسل. والتحقيق خلاف هذا، وأن إطلاق السلوى على العسل إطلاق صحيح معروف في كلام العرب، إلا أنه صحيح في العربية وليس صحيحاً في التفسير؛ لأن المراد بالسلوىٰ في الآية ليس العسل، وإن كانت السلوىٰ تطلق على العسل إطلاقاً صحيحاً معروفاً. ومنه قول الهُذلي[(١)]:

فقاسَمْتُها بالله جَهْداً لأَنْتُمُ ألذ   من السَّلْوَى إذا ما نشورها

السلوى: العسل. ونشورها: نستخرجها. والشَّوْر استخراج العسل خاصة. هذا معنى قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾.

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: وقلنا لهم. و﴿كُلُوا۟﴾ هذا أمر إباحة.

فيه ثلاثة أفعال في اللغة العربية مبدوءة بالهمزة يجوز حذف همزتها في الأمر ولا نظير لها، وهي: أخذ، وأمر، وأكل[(٢)]. تقول: في الأمر منها: (خُذ، مر، كل) بقياس مُطَّرد، إلا أن (أَمَرَ) إذا كان قبل الهمزة واو أو فاء كان إثبات الهمزة في الأمر أفصح. ومنه قوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: آية ١٣٢] فإن لم يكن قبلها واو ولا فاء فإسقاط الهمزة في الأمر أفصح، كقوله ﷺ: **«مروهم بالصلاة لسبع»**[(٣)] **«مره فليراجعها»**[(٤)] ونحو ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ كهذا الطائر اللذيذ الذي هو السُّمانَىٰ وهذه الفاكهة العظيمة التي هي المن، أو غير ذلك على أنه أعم من الترنجبين. والطِّيب هنا شامل طِيبَ الإباحة وطِيبَ اللذاذة؛ لأن

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

الطِّيِّبَ يطلق إطلاقين: يطلق طَيِّباً من جهة الإباحة وعدم الشُّبْهة، ويُطلق طَيِّباً من جهة اللذاذة وحسن المأكل، وهو جامع لهما هنا في قوله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٠] فهؤلاء اليهود لما أنعم الله عليهم هذه النعم وخالفوا ادخروا من المن والسلوىٰ وهم منهيون عن الادخار، وسيأتي ما بدلوا من القول والفعل ما سلط الله عليهم بسببه من العذاب، قال الله: إن مخالفاتهم عند الإنعام عليهم، ومقابلاتهم إنعام الله بمعاصيه أنهم ما ظلموا الله في ذلك، وما ظلموا إلا أنفسهم، أي: وما ظلمونا بمقابلتهم إنعامنا بالمعاصي ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ هو نص صريح على أن نفي الفعل لا يدل على إمكانه؛ لأن الله نفى ظلمهم له، ونفيه (جل وعلا) ظلمهم له لا يدل على إمكان ذلك سبحانه عن ذلك علواً كبيراً[(١)].

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ قدم المفعول لأجل الاختصاص. أي: لا يظلمون بذلك إلا أنفسهم.

٢٢/ب / يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأعراف: آية ١٦١].

واذكر يا نبي الله خسائس هؤلاء اليهود العريقة في أسلافهم؛ ليُعلم بذلك أن تكذيبهم لك وإنكارهم لما عندهم من صفاتك أنه أمر أصله فيهم وفي أسلافهم. واذكر ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ حين قال لهم الله على ألسنة أنبيائه ﴿ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ قوله: ﴿ٱسْكُنُوا۟﴾ أمر من السكنىٰ لا من السكون الذي هو ضد الحركة؛ لأن الأمر بالسكون الذي هو ضد الحركة سجن وحبس، فهو أمر بالسُكنىٰ، وأن يتخذ ذلك البلد مسكناً، وكون البلد مسكناً له لا ينافي أن يتجول في أنحائه ويتنعم فيها، كما قال هنا بعد الأمر بقوله:

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

﴿ٱسْكُنُوا۟﴾ ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ هذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾.

وأكثر المفسرين على أن هذه القرية هي بيت المقدس. وبعض المفسرين يقول: هي أريحا. وبعضهم يقول غير ذلك. فهي قرية في فلسطين من قرىٰ الشام[1]؛ لأن الشام كان يطلق أولًا على ما يضم دمشق وفلسطين والأردن وغير ذلك من نواحيه، وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾. القرية: هي المحل الذي يجتمع فيه السكان، من: قريتَ الماء في الحوض، إذا جمعته.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أي: كلوا من ثمارها وحبوبها وزروعها حيث شئتم؛ لأنهم كانوا في التيه يتمنون الأكل من ذلك كما قدمنا في سورة البقرة في الكلام على قوله: ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ وقد قال لهم: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: آية ٦١] ولما أُمروا بدخول هذه القرية وبسُكْناها أُمروا بالأكل من ذلك أمر إباحة وتكريم ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أي: من ثمارها وحبوبها وزروعها وغير ذلك.

وقوله: ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أصل (حيث) في لغة العرب كلمة تدل على المكان كما تدل (حين) على الزمان، وربما ضُمِّنت معنى الشرط، ويجوز في العربية لا في القراءة تثليث فائها وإبدال يائها واواً كما هو معروف في علم العربية[2].

قوله: ﴿شِئْتُمْ﴾ أي: من أي مكان من هذه القرية أردتم أن تأكلوا من ثمارها وحبوبها، وهذا معنى قوله: ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ وهذا الأكل رغداً بدليل ما تقدم في سورة البقرة: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: آية ٥٨].

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

وقوله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ لما كان في التيه مات نبي الله هارون أولًا، ثم مات موسىٰ في التيه كما أطبق عليه المؤرخون[١]. ثم إن خليفة موسىٰ كان يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف، وهو الذي فتح الله عليه هذه القرية قرية الجبارين بيت المقدس أو أريحا، وقيل غير ذلك. لما فتح الله عليهم أَمَرَهم أن يشكروا لله نعمته التي أنعمها عليهم فأمرهم بقول، وأمرهم بفعل، أما الفعل: فقد أمرهم بأن يدخلوا الباب سُجَّداً، أي: يدخلوا من باب القرية التي فتحها الله لهم سُجَّداً. قال بعض العلماء: المُراد بالسجود هنا: الركوع تواضعاً وانحناءً وتعظيماً لله، وشكراً له على نعمة الفتح. وقال بعض العلماء: هو السجود على الجبهة، يسجدون[٢]. ثم إنهم أُمروا أيضاً بقول، وهو أن يدخلوا الباب وهم يقولون: (حطة) وأكثر المفسرين ـ وهو ظاهر القرآن والأحاديث الصحيحة ـ أنهم تُعبدوا بهذه اللفظة (حطة). وقراءة الجمهور التي لا يجوز العدول عنها: ﴿حِطَّةٌ﴾ بالرفع، وهي خبر مبتدأ محذوف، أي: مسألتنا حطة، والحطة فِعْلة من الحط الذي هو الوضع. والمعنى: مسألتنا لربنا هي حِطَّةٌ لذنوبنا وأوزارنا. معناه: مسألتنا لك أن تحط عنا ذنوبنا وأوزارنا. فهي كلمة استغفار تؤذن بحط الذنوب ووضع الأوزار، وهي خبر مبتدأ محذوف، (فِعْلَة) من الحط، بمعنى الوضع، هذا معناه. وقال بعض العلماء: الحطة: الكلمة التي تحط الذنوب، وهي لا إله إلا الله، والقول الأول أظهر. وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) أنهم أُمروا بقول وأمروا بفعل، وأَمْرهم بالقول والفعل كلاهما مذكور في القرآن؛ لأن الله أمرهم بأن يدخلوا الباب سجداً، وهو الفعل الذي أُمروا به، وأمرهم أن يقولوا: حطة، وهو القول الذي أُمروا به، وفي حديث أبي هريرة عند البخاري وغيره أنهم بدلوا القول الذي قيل لهم بقول غيره، وبدلوا الفعل الذي قيل لهم بفعل غيره؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [الأعراف: آية

---

(١) السابق.
(٢) السابق.

١٦٢] قال بعض العلماء: في الكلام حذفان، أي: فبدل الذين ظلموا بالقول الذي قيل لهم قولاً غير الذي قيل لهم، وبالفعل الذي قيل لهم فعلاً غير الذي قيل لهم، فالفعل الذي قيل لهم ـ وهو دخولهم الباب سجداً ـ بدلوه فدخلوا يزحفون على أستاههم، كما ثبت في حديث البخاري المذكور[1]، وبدلوا القول الذي قيل لهم فقالوا مكان حطة: حبة في شعرة. وفي بعض روايات الحديث في غير البخاري: حنطة في شعرة. فبدلوا القول وبدلوا الفعل، وقابلوا نعم الله بالكفران والمعصية في الأقوال والأفعال ـ عياذاً بالله ـ وهذا معنى قوله: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ [الأعراف: آية ١٦١].

في هاتين الكلمتين بضميمة إحداهما إلى الأخرى أربع قراءات سبعيات كلها صحيحة متواترة عن النبي ﷺ[2]، فقرأه نافع وحده من السبعة **﴿وادخلوا الباب سجداً تُغفَر لكم خطيئاتُكم﴾** بضم تاء (تُغفَر) وفتح الفاء مبنياً للمفعول. و (خطيئاتُكم) هو جمع مؤنث سالم، هو نائب فاعل (تُغْفَر) فهذه قراءة نافع وحده.

وقرأه الشامي ـ أعني ابن عامر ـ وحده من السبعة: **﴿وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً تُغْفَر لكم خطيئَتُكم﴾** فقراءة ابن عامر كقراءة نافع إلا أن نافعاً قال: **﴿خطيئاتُكم﴾** بالجمع، وابن عامر قرأ **﴿خطيئتُكم﴾** بالإفراد، واكتسبت العموم من إضافتها إلى الضمير.

وقرأ أبو عمرو وحده: **﴿وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نَغْفِر لكم خطَاياكم﴾** بـ (نغفر) بنون العظمة، و (خطاياكم) جمع تكسير.

وقرأ الباقون من السبعة وهم: ابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾ بكسر التاء جمعاً مؤنثاً سالماً، والكسرة علامة النصب. هذه القراءة ـ في الآية ـ الصحيحة، ومعناها شيء واحد كما ترون.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٥، وراجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

الغفران في لغة العرب: هو الستر والتغطية.

والخطايا والخطيئات: جمع خطيئة وهي الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه النكال يُقال لها: (خَطِيئَة) و (خِطْء) ومنه قوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٣١] ويقال لمرتكبها عمداً: (خاطىء) ومنه قوله: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [العلق: آية ١٦] وقوله: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة: الآيتان ٣٦، ٣٧] فالخاطىء بصورة الفاعل إنما هو على مرتكب الخطيئة عمداً، أما مرتكب الذنب غير عامد فهو المُسمى بالمخطىء، فلا يقال له: خاطىء كما هو معلوم.

وعلى قراءة (نغفر) فصيغة الجمع للتعظيم، عظم الله (جل وعلا) نفسه. هذا معنى قوله: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾.

﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٦١] هذا استئناف، فكأن قائلاً قال: وماذا بعد غفران الخطايا؟ قال: سنزيد المحسنين. السين للتنفيس، وهو وعد صادق من الله.

واختلفت عبارات المفسرين في المراد بالمحسنين، ولا ينبغي أن يُختلف فيه؛ لأن خير ما يُفسر به كتاب الله بعد كتاب الله سنة نبينا محمد ﷺ، وقد فسر المحسنين تفسيراً ثابتاً في الصحيح فلا ينبغي العدول عنه لغيره وذلك ما هو مشهور في حديث جبريل لما جاء في صورة الأعرابي وقال للنبي ﷺ: «يا محمد أخبرني عن الإحسان». فقال ﷺ: **«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[١]. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[٢] أن سؤال جبريل هذا ليُعَلِّم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان أنه سؤال عظيم مُحتاج إليه غاية الحاجة، وذلك أن الله (جل وعلا) بيّن في آيات من كتابه أن الحكمة التي خلق من أجلها خلقه وسماواته وأرضه هي أن يبتلي الخلق، أي: يختبرهم في شيء واحد هو إحسانهم العمل ليظهر من يحسن منهم عمله ومن لا يُحسنه، كما قال تعالى

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

في أول سورة هود: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ ثم بيّن الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: آية ٧] ولم يقل: أيكم أكثر عملاً. وقال في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ثم بيّن الحكمة بقوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: آية ٧] وقال في أول سورة الملك ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ ثم بيّن الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: آية ٢] فاتضح في هذه الآيات أن الإحسان[1] هو الذي خُلقتم من أجل الابتلاء فيه ـ ولا ينافي هذا قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: آية ٥٦] أي: إلا لآمرهم بالعبادة على ألسنة رسلي فأبتلي محسنهم من غير محسنهم، كما لا يخفى ـ صار الإحسان محتاجاً إلى معرفته؛ ولذا سأل جبريل عنه وأجابه النبي ﷺ بأنه: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**». والإحسان مصدر أحسن العمل يحسنه إحساناً إذا جاء به حسناً متقناً لا نقص فيه ولا وصم. وإحسان العمل لا يمكن إلا بمراقبة خالق هذا الكون (جل وعلا).

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[2] أن العلماء أجمعوا على أنه لم ينزل الله واعظاً من السماء إلى الأرض ولا زاجراً أكبر من واعظ المراقبة المعبر عنه هنا بالإحسان، وقد ضرب العلماء لهذا مثلًا قالوا: لو فرضنا أن في هذا البراح من الأرض ملكاً عظيم البطش، شديد النكال، وسيّافه قائم على رأسه، والنطع مبسوط، والسيف يقطر منه الدم ـ ولله المثل الأعلى ـ وهذا الملك الذي هذا بطشه وشدته ينظر، أترى أن أحداً من الحاضرين يهتم بريبة مع بناته أو زوجاته أو نسائه؟! لا، كلهم خاشع الطرف، ساكن الجوارح، أمنيته السلامة ـ ولله المثل الأعلى ـ فرب العالمين أعظم اطلاعاً وأشد بطشاً، وحِمَاه في أرضه محارمه، فمن لاحظ أن رب السماوات والأرض مطلع عليه، وأنه يرى كل ما يفعل إن كان عاقلًا لا بد أن يُحاسِب.

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

ولو علم أهل بلد أن أمير ذلك البلد بات مطلعاً على كل ما يفعلون من القبائح والخسائس لكفوا عن كل ما لا ينبغي، ولم يرتكبوا إلا ما يجمل - ولله المثل الأعلى - فكيف بخالق السماوات والأرض الذي يعلم خطرات القلوب، وكيف يجهل خطرات القلوب خالق خطرات القلوب؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: آية ١٤] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: آية ١٦] معناه: أن المحسنين الذين يراقبون الله ويعبدونه كأنهم يرونه أن الله يزيدهم على هذه المراقبة وهذه النية وهذا الإحسان للعمل يزيدهم أجراً على أجرهم. وقد جاءت آية في سورة يونس تدل على أن إحسان العمل يزيد الله صاحبه النظر إلى وجهه الكريم كما يأتي في تفسير قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [يونس: آية ٢٦] فقد جاء في الصحيح أن المراد بالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم[1]. وبذلك فسر بعض العلماء قوله تعالى في (ق): ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ۖ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾ [ق: آية ٣٥] ومعنى الآية: أن المحسنين الذين يراقبون الله عند الأعمال ويعبدونه كأنهم يرونه يزيدهم أجراً، ولا مانع من أن يكون مما يزيدهم: النظر إلى وجهه الكريم كما فُسرت به آية يونس المذكورة آنفاً. وهذا معنى قوله: ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٦١].

وقوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأعراف: آية ١٦٢] لم يقل: فبدلوا. وعدل عن الضمير إلى الظاهر ليسجل عليهم ظلمهم وينيط ما نزل عليهم باسم الظلم الذي ارتكبوا. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[2] أن الظلم في لغة العرب التي نزل بها هذا القرآن العظيم هو وضع الشيء في غير محله، فكل من وضع شيئاً في غير موضعه فقد ظلم في لغة العرب، وهذا معروف في كلامهم، ومنه قالوا للذي يضرب لبنه قبل أن يروب قالوا: هو ظالم؛ لأنه وضع ضرب اللبن في غير موضعه؛ لأن ضَرْبَه قبل أن يروب يفسد

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٣) من سورة الأنعام.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

زبده فهو ظلم؛ لأنه وضع للضرب في غير موضعه، وفي لُغَز الحريري في مقاماته: «هل يجوز أن يكون الحاكم ظالماً؟ قال: نعم إذا كان عالماً»[(١)] يجوز أن الحاكم إذا كان يضرب لبنه قبل أن يروب لا مانع من توليته إذا كان من أهل العلم. وهذا معنى مطروق في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[(٢)]:

وقـائـلـةٍ ظـلـمـتُ لـكـم سـقـائـي   وهل يـخـفـى علـى العَكَدِ الظَّلِيم

(ظلمت لكم سقائي) أي: ضربته لكم قبل أن يروب. والعَكَد: عصب اللسان، لا يخفى عليه اللبن المضروب قبل أن يروب من غيره. ونظيره قول الآخر[(٣)]:

وصَاحبِ صدقٍ لم تردني شَكَاتُه   ظَلمتُ وفي ظَلْمِي له عامداً أجرُ

يعني سقاءه ضربه قبل أن يروب. ومن هذا المعنى قيل للأرض التي حُفر فيها وليست محلًا للحفر مظلومة، ومنه قول نابغة ذبيان[(٤)]:

إلا الأَوَارِيَّ لأْيـاً مـا أُبَـيِّـنُـهـا   والنُؤيُ كالحوضِ في المظلومةِ الجَلَدِ

وقالوا لتراب القبر: ظليم. فعيل بمعنى مفعول؛ لأنه مظلوم؛ لأن القبر يُحفر غالباً في محل ليس محتاجاً للحفر سابقاً، ومنه قول الشاعر يصف رجلًا مقبوراً[(٥)]:

فـأَصْـبَـحَ فـي غَـبْـراءَ بـعـد إِشَـاحَـةٍ   من العَيشِ مردودٍ عليها ظَلِيْمُها

هذا معروف في كلام العرب، وإذا عرفتم أن الظلم في لغة العرب معناه: وضع الشيء في غير موضعه فاعلموا أن أعظم أنواع وضع الشيء في غير

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

موضعه: وضع العبادة في غير من خلق، فمن أكل رزق الله الذي خلقه ورزقه وعبد غيره فقد وضع العبادة في غير موضعها فهو ظالم ولذا كثر في القرآن إطلاق الظلم على الشرك بالله، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: آية ١٠٦] وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه فسر قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: آية ٨٢] قال: بشرك. ثم تلا قوله تعالى عن لقمان الحكيم: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] [لقمان: آية ١٣] فوضع العبادة في غير من خلق هو أكبر أنواع الظلم. وكذلك وضع الطاعة في غير موضعها، كالذين يعصون الله ويطيعون الشيطان وذريته فقد وضعوا الطاعة في غير موضعها حيث أطاعوا عدوهم إبليس ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: آية ٥٠]. وقد عصوا الله فوضعوا المعصية في غير موضعها، والطاعة في غير موضعها. ومن هنا كان الظلم ظلمان: ظلم بالكفر المخرج عن الإسلام، وظلم دون ظلم، وهو ظلم النفس بارتكاب المعاصي؛ لأن كلاً منهما وضع الشيء في غير موضعه، وقد جاء في موضع واحد من القرآن في سورة الكهف وضع الظلم بمعنى النقصان، وهو قوله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: آية ٣٣] يعني: ولم تنقص منه شيئاً كما سيأتي. وهذا معنى قوله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأعراف: آية ١٦٢] يعني وضعوا الأمر في غير موضعه حيث قابلوا نعم الله بالعصيان، وعصوا الله، وأطاعوا إبليس. بدَّل الذين ظلموا بالقول الذي قيل لهم وهو (حطة) بدلوه قولاً غير الذي قيل لهم فقالوا: حبة في شعرة، أو حنطة في شعيرة، أو غير ذلك من الألفاظ. وقد قدمنا أن كون الذي قالوه (حبة في شعرة) ثابت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة[2].

---

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ هو معنى: ﴿فَأَنزَلْنَا﴾ [البقرة: آية ٥٩] عليهم في سورة البقرة.

﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الرجز بكسر الراء: العذاب. قال المفسرون: هو طاعون أنزله الله بهم فأهلك منهم سبعين ألفاً في مدة قليلة.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٢] الباء سببية و(ما) مصدرية. أي: بسبب كونهم ظالمين واضعين الأمر في غير موضعه حيث يعصون الله ويطيعون الشيطان، ويقابلون النعم بالمعاصي. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٢].

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: آية ١٦٣].

قصة هذه القرية كان يخفيها اليهود لأنها سُبة عليهم، وإخبار النبي ﷺ لهم بها وسؤالهم عنها مع أنه نبي أمي من معجزاته وأدلة نبوته؛ لأنه ما علمها إلا عن طريق الوحي.

وسنذكرها ملخصة موجزة ثم نذكرها مفصلة في الآيات التي شَرَحَتْها. وقد ألممنا بهذه القصة في هذه الدروس في سورة البقرة[1] في الكلام على قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة: آية ٦٥] فآيات سورة الأعراف هنا بسط وشرح لقوله في البقرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾.

هذه القرية يزعم المفسرون ـ أغلبهم وأكثرهم ـ أنها قرية تُسمىٰ (أيلة) قريب من العقبة، على ذلك الشاطىء، بين الطور ومدين، وأنها في زمن داود (عليه السلام) كان محرم عليهم الاصطياد في السبت كما تقدم في قوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: آية ٧٨] وكان يشتد قرمهم إلى لحم السمك ـ والقَرَمُ بفتحتين: شهوة

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

اللحم ـ وكان الله افتتنهم فتنة، كان إذا كان يوم السبت جاءهم السمك على وجه البحر أفواجاً أفواجاً كالكباش البيض حتى يتمكن كل إنسان من أخذ ما شاء منه في أحسن حال وأسمنها، فإذا غربت شمس يوم السبت تمنَّع في البحر فلا يقدرون على شيء منه!! وهذا ابتلاء وامتحان لهم، فمكثوا من الزمن بهذا ما شاء الله، ثم بعد ذلك اشتدت شهوتهم إلى اللحم فصاروا يحتالون على السمك يوم الجمعة ـ مثلاً ـ فيحفرون فَيُجْرُون في الماء أخاديد يسيل فيها الماء، فإذا انتهت حفروا حُفراً عميقة، فإذا جاء الحوت مع تلك الأخاديد المائية نزل في الحفر فلا يقدر على الرجوع فأخذوه يوم [الأحد]!![1] وكان بعضهم ـ فيما يقولون ـ يجعل في ذنب الحوت خيطاً ويدق وتداً على الشاطىء، ويمسك رأس الخيط فيه، فيبقى الحوت في الماء ممسكاً بالخيط، فإذا غربت شمس يوم السبت جاء وأخذه، فلمّا فعلوا هذه الحيل ولم يعاجلهم العذاب كأنهم تجرؤوا وتشجعوا وقالوا: لعل حرمة صيد السمك رفعها الله؛ لأنه لم يفعل بنا بأساً، فلم يزالوا يتدرجون في الحيل حتى صار بعضهم يصطاده علناً ويملحونه ويبيعونه في الأسواق، وكانوا ثلاث طوائف:

طائفة باشرت العدوان يوم السبت واصطياد السمك، وطائفة نهتهم عنه وقالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٤] وطائفة قالوا للذين نهتهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، والله بيّن أن الذين اعتدوا في السبت عذبهم عذاباً بئيساً وهو مسخهم قردة، وقيل: بعضهم خنازير، كما يأتي تفصيله، كما ذكره في قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦﴾ [الأعراف: آية ١٦٦] وفي قوله: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٥].

والطائفة الذين نهت أنجاهم الله كما ذكره بقوله: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ [الأعراف: آية ١٦٥] وبقيت الطائفة التي قالت: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ فبعض العلماء يقول: هم مع الهالكين، والمحققون يقولون:

---

(١) في الأصل: «السبت». وهو سبق لسان.

هم ناجون؛ لأنهم كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا لقومهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: آية ١٦٤] وذكروا عن عكرمة أنه كان يقول: إن ابن عباس ما كان يدري هل نجوا أو هلكوا حتى أقنعه عكرمة بأنهم نجوا فكساه حُلَّة[1]. ومن أظهر الأدلة في أنهم نجوا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ [البقرة: آية ٦٥] فرتب بالفاء قوله: ﴿قِرَدَةً﴾ لخصوص الذين اعتدوا، وهؤلاء لم يعتدوا بل إنما لم يُذكر عنهم أنهم نهوا. ولما كانوا يفعلون هذا، وصاروا يصطادون السمك علناً، ونهاهم قومهم قال لهم قومهم: والله لا نساكنكم؛ لأنا نخاف أن ينالنا العذاب الذي سينزل عليكم. فيذكر المفسرون في قصتهم أنهم قسموا القرية، ويزعمون أن الذين اصطادوا قُرباً من سبعين ألفاً، وأن الذين نهوا قُرباً من اثني عشر ألفاً، والله أعلم. فهي إسرائيليات لم يثبت فيها شيء. قالوا: فجعلوا بينهم حائطاً، وقسموا القرية بينهم نصفين، لكل منهم مدخل ومخرج غير مدخل الثاني ومخرجه، فمكثوا على ذلك ما شاء الله، ثم لما كان ذات يوم فإذا قرية المعتدين لم يفتح بابها، ولم يخرج منها أحد، فتسوروا عليهم الحائط فوجدوهم ـ والعياذ بالله ـ مُسخوا قردة. يذكر المفسرون أن الواحد من القردة يعرف نسيبه من الآدميين الذين لم يُمسخوا فيجيئه ويتمسح به ويبكي، وأن الآدميين يقولون: ألم ننهكم عن انتهاك حرمات الله؟ وأنهم يشيرون برؤوسهم أن نعم ـ هكذا ـ وسيأتي هذا مفصلًا بحسب الآيات التي ذكره الله فيها من سورة الأعراف هذه. وهذا معنى قوله: ﴿وَسْئَلْهُمْ﴾ يا نبي الله.

قرأه أكثر السبعة: ﴿وَسْئَلْهُمْ﴾ وخفف بعضهم بنقل الحركة[2] **﴿وسَلْهُم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾**.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٨٧/١٣، ١٨٨، ١٩٣)، وأورده السيوطي في الدر (١٣٨/٣) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر. وقد جاء في هذا المعنى رواية أخرى أخرجها عبدالرزاق (٢٤٢/١٢)، وابن جرير (١٨٩/١٣ ـ ١٩٠)، وذكره السيوطي في الدر (١٣٧/٣) وعزاها لعبدالرزاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والبيهقي في السنن.

(٢) انظر: الإتحاف (٦٦/٢).

﴿حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ معناها: مبنية على شاطئه بحضرته قريباً منه، وهو على ما يقوله أكثر المفسرين قرية تسمى (أيلة) خلافاً لمن زعم أنها (مدين)، ومن زعم أنها (طبرية)، ومن زعم أنها تُسمى مَعَنَّى[١]، ومن زعم أنها تُسمى (مقنات) فكل هذا إسرائيليات، ولكن أكثر الأخبار والروايات أنها (أيلة) كما ذكرنا[٢]. وهذا معنى قوله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [الأعراف: آية ١٦٣] اسألهم عنهم حين ﴿يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾.

﴿يَعْدُونَ﴾ معناه: يجاوزون حدود الله، وينتهكون أوامره باصطياد السمك يوم السبت ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ﴾ حين تأتيهم ﴿حِيتَانُهُمْ﴾ الحيتان: جمع حوت، وياؤه مبدلة من واو؛ لأن أصل الحوت ثلاثي واوي العين، زيدت في جمعه الألف والنون وأُبدلت الواو ياء لسكونها بعد كسرة، كما في (الميزان) من الوزن، و(الميعاد) من الوعد، و(الميقات) من الوقت، و (الحيتان) ياؤه مبدلة من واو جمع حوت[٣].

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ السبت مصدر سَبَتَ اليهود سَبْتاً إذا عظموا يوم السبت بالانقطاع للعبادة فيه وترك صيد السمك. وهذا معنى قوله: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ [الأعراف: آية ١٦٣] ﴿شُرَّعًا﴾ جمع شارع. قال بعض العلماء: تأتيهم مقبلة، تأتيهم الحيتان مقبلة ظاهرة على وجه الماء كأنها صفوف كثيرة حتى تستر وجه الماء من

---

(١) جاء في تفسير مبهمات القرآن (٤٩٥/١) ما نصه: «... وقيل: (مقْنا) بالقاف ساكنة، ويُقال: (مقْنات)، و(مغَنّى) بالغين المفتوحة ونون مشددة، وهي ساحل مدين» ا.هـ. وقد أفاد محقق الكتاب أن (مَعَنّى) كُتبت في جميع نُسخ الكتاب بالعين المهملة المفتوحة، وقد اعتمد في كتابتها بالغين على المحرر الوجيز لابن عطية؛ لأن المؤلف صرح بنقلها عنه. والمقصود أن (معَنّى) سواء كانت بالغين أم بالعين هي و(مقْنات) مكان واحد.

(٢) انظر: ابن جرير (١٨٠/١٣ ـ ١٨٢)، القرطبي (٣٠٤/٧)، الدر المنثور (١٣٦/٣)، تفسير مبهمات القرآن للبلنسي (٤٩٤/١ ـ ٤٩٥).

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٨٧.

كثرتها، فالشُرّع على هذا بمعنىٰ الظاهرة المقبلة على وجه الماء، والعرب تقول: شرعت على فلان فوجدته يفعل كذا. معناه: أقبلت عليه حتى قربت منه فوجدته يفعل كذا.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي يوم لا يعظمون السبت؛ لأنه يوم آخر من أيام الأسبوع ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ فتنة لهم وامتحاناً ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ البلاء العظيم ﴿نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. ﴿نَبْلُوهُم﴾ معناه: نختبرهم بسبب كونهم فاسقين، فقد ابتُلوا بالطمع ولم ينجحوا، وقد ابتُلوا بالخوف ولم ينجحوا، لأن الابتلاء الذي يميز ذهب الرجال من زائفهم هو الطمع والخوف، فإن المحن الذي يظهر بها ذهب الرجال وإبرِيزهم إنما هي محن الخوف والطمع، وقد ابتلىٰ الله أمة موسىٰ بالخوف والطمع، وابتلى أمة محمد بالخوف والطمع، فنجح أمة محمد ولم تنجح أمة موسىٰ؛ لأن الطمع الذي ابتلى الله به بني إسرائيل هو هذه القرية التي ذكرنا، وسيأتي أنهم اصطادوا السمك في السبت فمُسخوا قردة كما يأتي في قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ [الأعراف: آية ١٦٦] والعياذ بالله؛ لأنهم لم يصمدوا أمام الطمع، ولم تَقْوَ شكائمهم أمام الطمع، بل ذابوا وانْمَاعُوا أمام طمع شهوة اللحم. وكذلك لما ابتلاهم بالخوف في جهاد الجبارين وقال لهم: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: آية ٢١] فجبنوا ولم يشجعوا. وقال تعالى عنهم إنهم قالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [المائدة: آية ٢٢] وقد قالوا لنبيهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: آية ٢٤] فلم يثبتوا أمام عواصف الطمع، ولم يثبتوا أمام عواصف الخوف، بخلاف هذه الأمة الكريمة أمة محمد ﷺ، فقد ابتلاهم بالطمع بنفس الصيد، وذلك في غزوة الحديبية في ذي القعدة من عام ست، ابتلاهم الله وهم في سفر وشدة قَرَم ـ أعني شدة شهوة إلى اللحم ـ ابتلاهم بأن يسر لهم جميع أنواع الصيد وهم محرمون، كبير الصيد وصغيره من أنواع الوحوش والطير وغير ذلك فلم يمد رجل منهم يده إلى شيء من ذلك، فنجحوا ولم تُزعزعهم عواصف الطمع، بل ثبتوا أمامه ثبوت

الرجال، وهذا قد تقدم[١] في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٤﴾ [المائدة: آية ٩٤] فثبتوا ولم تزعزعهم عواصف الطمع، وكذلك ابتلاهم بالخوف لما سافر النبي ﷺ سفره في غزوة بدر الكبرى كما سيأتي تفاصيله في سورة الأنفال ـ إن شاء الله تعالى ـ وقد خرج لأجل عير في ثلاثمائة رجل وثلاثة عشر رجلاً يريدون عيراً ليأخذوها، فجاءهم جيش عرمرم، نفير مسلح، فلما علم النبي ﷺ بالجيش وذكر أمرهم لقومه ـ وهو أمر مخيف؛ لأنه جيش عظيم في عَدَدِه وعُدَدِه وهم قليلون كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ﴾ [آل عمران: آية ١٢٣] هم قليل عَددهم وعُددهم بالنسبة إلى عدوهم فلما عرض ذلك عليهم ـ قال له المقداد بن عمرو المعروف بالمقداد بن الأسود من بني بهراء من قبائل اليمن، حليف قريش، قال له: والله لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا من دونه معك، ولو خضت بنا البحر لخضناه، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسىٰ. فلما أعاد الكلام قال له سعد بن معاذ (رضي الله عنه وأرضاه): كأنك تعنينا معشر الأنصار؟ قال: **نعم**. لأن الأنصار اشترطوا عليه ليلة العقبة أنهم يحمونه مما يحمون منه أبناءهم ونساءهم في نفس المدينة، ولم يشترطوا له الخارج عن بلادهم، فكان ﷺ يتخوف ألا يكونوا معه في الخارج عن ديارهم، فلما قال له سعد بن معاذ (رضي الله عنه): كأنك تعنينا معشر الأنصار؟ قال له: **نعم**. قال كلامه المعروف المشهور في المغازي والتاريخ ـ العظيم الدال على عظيم الثبات ـ الذي يقول فيه: والله إنا لقوم صُبُرٌ في الحرب، صدقٌ عند اللقاء، ووالله ما نكره أن تلقى بنا عدوك حتى ترى منا ما يقر عينك، والله لقد تخلف عنك بالمدينة أقوام لو علموا أنك تلقى كيداً ما تخلف عنك منهم أحد[٢]. ونحو هذا من الكلام؛ فثبتوا وصمدوا عند هذا الخوف العظيم، وثبتوا أمام هذا الطمع العظيم، بخلاف الإسرائيليين

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

ـ كما بيّنا وكما جاء هنا في الأعراف ـ من سقوطهم أمام الطمع، وكما قدمنا في سورة المائدة من سقوطهم أمام الخوف. وهذا معنى قوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٣] البلاء معناه الاختبار، وهو يقع بالخير والشر، كما قال: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٨] ولم ينجحوا في هذا البلاء إلا الذين عصمهم الله جل وعلا.

١/٢٣ / ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)﴾ [الأعراف: الآيات ١٦٤ ـ ١٧٠].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤)﴾ [الأعراف: آية ١٦٤].

قرأ هذا الحرف عامة القراء منهم السبعة غير عاصم في رواية حفص خاصة: ﴿معذرةٌ إلى ربكم﴾ بضم التاء، وقرأهُ عاصمٌ وحده في رواية حفص: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ بنصب التاء[1].

أما على قراءة الجمهور فـ﴿مَعْذِرَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: موعظتنا لهؤلاء معذرة عند الله. أو هذه الموعظة معذرة.

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٦.

أما على رواية حفص عن عاصم: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ففي إعرابه وجهان:

أحدهما[١]: أنه مفعول من أجله، أي: وعظناهم لأجل المعذرة. أي: لنقيم عذرنا عند الله.

الثاني: أنه مفعول مطلق، أي: نعتذر بذلك معذرة عند الله جل وعلا[٢].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ واذكر يا نبي الله ﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ حين قالت أمة منهم ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ الميم في قوله: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ هي ما الاستفهامية. والمقرر في علم العربية أنّ ما الاستفهامية إذا جُرَّت حُذف ألفها كما هو معروف، والمعنى: لأي موجب تعظون؟ (تعظون) مصدر وعظه يعظه إذا كلّمه كلاماً يلين له قلبه لينتهي عما لا يرضي الله. ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ لأي موجب وأي حكمة تعظون قوماً متمردين متمادين على العصيان وعدم الانكفاف ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ إهلاك استئصال ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ لجراءتهم عليه وانتهاكهم حرماته.

وهذه الطائفة قال بعض العلماء: هي أشد الذين نَهوا، وإنما قالت: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ لأنها جرّبت وعظهم وعلمت أنهم لا فائدة فيهم ولا ينزعون ولا يُقْلعون. وقال بعض العلماء: هذه الطائفة الثالثة التي لم تباشر الاعتداء في السبت ولم تنهَ الذين اعتدوا في السبت. وقد ذكرنا بالأمس أنّ العلماء اختلفوا فيها، وأنّ أظهر القولين: أنها نجت كما أقنع به عكرمة ابن عباس (رضي الله عنه)، وكما يدل عليه ترتيبه بالفاء في قوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ [البقرة: آية ٦٥] في سورة البقرة على خصوص الاعتداء في السبت خاصة في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ فرتب قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ على خصوص الاعتداء في السبت. وهذا

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٦.
(٢) انظر: حجة القراءات ص٣٠٠، القرطبي (٧/٣٠٧)، الدر المصون (٥/٤٩٥).

معني قوله: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ إهلاكاً مستئصلاً ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ نعتذر بموعظتنا إياهم معذرة إلى ربكم. أو وَعظناهم لأجل المعذرة عند ربكم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ولرجائنا أيضاً أن تؤثر فيهم الموعظة فيتقوا الله ويكفوا عن ما هم مصرون عليه من ارتكاب هذا الذنب العظيم الذي هو صيد السمك يوم السبت.

وهذا الآية الكريمة جاء فيها بيان حكمتين من حِكَم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن استقراء القرآن دل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له حِكَمٌ ثلاث تضمنت هذه الآية من سورة الأعراف من تلك الحكم الثلاث اثنتين، أمّا الحِكَم الثلاث[(١)]:

فالأولىٰ منها: أن يقيم الإنسان عذره أمام ربه، ويخرج بذلك الأمر من عهدة التقصير في الأمر بالمعروف؛ لئلا يدخل في قوله: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: آية ٧٩] وهذه الحكمة أشاروا لها بقوله: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

الحكمة الثانية: هي رجاء انتفاع المذكر، كما قال هنا عنهم: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وذكر الله هذه الحكمة في قوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: آية ٥٥].

الحكمة الثالثة: من حِكَم الأمر بالمعروف التي لم تذكر في هذه الآية الكريمة: هي إقامة الحجة لله على خلقه في أرضه نيابةً عن رسله؛ لأن الله يقول: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: آية ١٦٥] فأهل العلم يقيمون حجة الله على خلقه بإقامة الحجة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نيابةً عن الرسل في ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٤].

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ [الأعراف: آية ١٦٥] يعني فترك المأمورون الموعوظون تركوا أمر الله ولم يلتفتوا إلى ذلك التذكير؛ ولذا قال تعالى:

---

(١) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (أصوله، وضوابطه، وآدابه) ص٦٨، ٣٤٨.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟﴾ اعلموا أن النسيان يطلق في القرآن العظيم إطلاقين[١]:

أحدهما: نسيان الشيء بأن ينساهُ الناسي ويزول علمه منه فيكون ناسياً له غير ذاكر.

والثاني: يطلق النسيان على ترك العمل عمداً وهو المقصود هنا، منه قوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٦٧] أي: تركوه فتركهم؛ لأن الله لا ينسى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: آية ٦٤] ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: آية ٥٢] فالنسيان هنا معناه الترك عمداً، وهو أسلوبٌ عربي معروف، تقول العرب: نسي الأمر وتناساه. إذا صدّ عنه وأعرض وتركه عمداً. ومنه على أصح التفسيرين قوله عن آدم: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ [طه: آية ١١٥] أي: ترك ذلك الأمر لما قاسمه الشيطان، كما تقدّم إيضاحه، وهذا معنى قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ المراد بالسوء هنا هو معصية الله (جل وعلا) وانتهاك حرمته باصطياد السمك في السبت، وكل معصية من معاصي الله فهي من السوء؛ لأنها تسوء صاحبها إذا نظرها في صحيفته يوم القيامة.

﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: ارتكبوا الجريمة وعصوا الله واصطادوا السمك في السبت.

﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ في هذا الحرف أربع قراءات سبعيات[٢]: قرأ هذا الحرف ابن كثير والكوفيون ـ أعني عاصماً وحمزة والكسائي ـ: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ على وزن (فعِيْل). والعذاب البئيس: هو العذاب الشديد العظيم الذي وقْعُه شديد على صاحبه.

وقرأه نافع في روايتي ورش وقالون: ﴿**وأخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بِيْسٍ بما كانوا يفسقون**﴾ بباء مكسورة بعدها ياء ولا همزة فيه. وأصل هذه

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٦، حجة القراءات ص٣٠٠، الدر المصون (٤٩٦/٥).

القراءة كما قاله بعض العلماء: (بَئِس) على وزن (فَعِلْ) فخففت، كما تقول في (كَبِدٍ): (كِبْد) فقيل: (بِئْس) وخففت الهمزة أيضاً فقيل: (بِيْس) ومعناه عائد إلى الأول.

وقرأه ابن عامر: ﴿بعذاب بِئْسٍ بما كانوا يفسقون﴾ كقراءة نافع إلا أن ابن عامر همز الياء فقال: ﴿بعذابٍ بِئْسٍ بما كانوا يفسقون﴾.

أما أبو بكر ـ أعني شعبة عن عاصم ـ فله روايتان: أحدهما توافق قراءة الجمهور، وهي قوله: ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ﴾ وروى أبو بكر شعبةُ روايةً أخرى عن عاصم: ﴿بعذابٍ بَيْئَس بما كانوا يفسقون﴾ (بيْئس) على وزن (ضَيْغَم) والعذاب البيئَس: هو الشديد أيضاً، ورجل بَيْئَس: شديد البأس، ومنه قول امرىء القيس بن عابس الكندي[١]:

كلاهما كان رئيساً بَيْئَساً يَضْرِبُ في يومِ الهياجِ القَوْنَسَا

وهذا معنى قوله: ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٥] الباء سببية، و ﴿مَا﴾ مصدرية. والفسق في لغة العرب معناه: الخروج عن طاعة الله. كل من خرج عن شيء فقد فسق[٢]. والعرب تقول: «فسقت هذه الرواحل عن قصدها». أي: جارت عن طريقها، ومنه قول رؤبة بن العجّاج[٣]:

يَهْوَيْنَ في نَجْدٍ وغَوْراً غائِراً فَواسِقاً عن قَصْدِهَا جَوَائِراً

والفسق في الشرع: الخروج عن طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: آية ٥٠] أي: خرج عن طاعة ربه. هذا هو معنىٰ الفسق. والخروج عن طاعة الله قد يكون خروجاً أعظم وهو الخروج المخرج عن دين الإسلام، وقد يكون خروجاً دون خروجٍ وهو الفسق بارتكاب كبيرة. ولأجل هذا المعنى كان الفسق

---

(١) البيت في ابن جرير (١٣/٢٠٠)، البحر المحيط (٤/٤١٣)، الدر المصون (٥/٤٩٦).

(٢)(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

يطلق في القرآن على الخروج عن طاعة الله بمعناه الأعظم وهو الكفر بالله كقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: آية ٢٦] وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: آية ٢٠] وقد يطلق الفسق على خروج دون خروج بارتكاب بعض الكبائر كقوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: آية ٤] وقوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات: آية ٦] وهذا معنى قوله: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: آية ١٦٦] (لمّا) هذه هي التي تربط جملة بجملة رَبْط الشرط بالجزاء. و (لما) تأتي في اللغة العربية على ثلاثة أنواع[1]: فتأتي نافية نحو ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ [البقرة: آية ٢١٤] وتأتي مُثْبَتَة على لغة هذيل بن مدركة كقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ [الطارق: آية ٤] أي: ما كل نفسٍ إلا عليها حافظ. وهاتان حرفان بلا خلاف بين علماء العربية. الثالثة: (لمّا) هاته - التي تربط جملةً بأخرى ربط الشرط بالجزاء - يختلف فيها علماء العربية، فبعضهم يقول: هي حرف؛ لأنها لم يعد إليها عائد ولم يرجع إليها ضمير فهي حرف. وبعض علماء العربية يقول: هي اسم، وهي ظرفٌ مُضَمَّنٌ معنى الشرط، واختار هذا غير واحد. وما زعمه بعضهم مستدلاً بآية من كتاب الله: أنّ (لمّا) أنها حرف لا يستقيم كل الاستقامة.

والحاصل أن فيها خلافاً معروفاً بين علماء العربية: هل هي حرفٌ أو ظرف؟ وهذا معنى قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ والعرب تقول: «عتا يعتو» إذا تمرد وتكبر. أي: فلما تمردوا وتكبروا.

وقوله: ﴿عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ في الكلام حذفُ مضافٍ دل المقام عليه،

---

(١) انظر: الدر المصون (١/١٥٩ - ١٦٠)، الحروف العاملة في القرآن الكريم ص٥٩٦، ٦٣٨، ٧٠٣.

وحذف المضاف إذا دل المقام عليه وإقامة المضاف إليه مقامه أسلوبٌ عربيّ معروفٌ مشهورٌ، وتقدير المضاف المذكور: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا﴾ أي: فلما تمردوا وتكبروا عن ترك ما نُهوا عنه وهو صيد السمك يوم السبت ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ صيغة الجمع للتعظيم، والقائل هو الله (جل وعلا). وصيغة الأمر في قوله: ﴿كُونُوا﴾ هي المعروفة بأنها للتكوين.

والقردة: جمع قرد، والقرد هو الحيوان المعروف الذي يعرفه كل الناس.

وقوله: ﴿خَاسِئِينَ﴾ جمع تصحيح للخاسىء، والخاسىء في لغة العرب معناه: الحقير الذليل الخسيس؛ ولذا كانت (اخْسَأ) خطاباً للكلاب، كما قال تعالى لأهل النار مخاطباً لهم بالخطاب الذي يؤذن بالخسة والصغار: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: آية ١٠٨].

ومعلوم أن الله إذا قال لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ لا بد أن يكونوا قردة؛ لأنه يقول: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: آية ٤٠] ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: آية ٨٢] يذكرون في قصتهم(١) أنّ المعتدين في السبت لمّا تمادوا في عتوهم وظلمهم ولم يسمعوا نصيحة قومهم خاف قومهم من البلاء والهلاك الذي سينزل بهم فقسموا القرية بينهم، وجعلوا بينهم حائطاً، وصار لهؤلاء باب ولهؤلاء باب، فبينما هم ذات يوم إذ أصبحوا والمعتدون لم يخرج منهم أحد، وبابهم مقفول، فتسوروا الحائط عليهم فوجدوهم ـ والعياذ بالله ـ قردة، فلما فتحوا الباب ودخلوا عليهم يذكرون في القصة أن القردة تعرف أنسابها من الإنس، والإنس لا يعرفون أنسابهم من القردة، وأن القردة تأتي إلى أنسابها فتشمها وتبكي، وأنهم يقولون لهم: ألم ننهكم عن انتهاك حرمات الله؟ فيشيرون برؤوسهم أن نعم، والعياذ بالله تعالى.

واعلموا أنّ العلماء اختلفوا في الممسوخين هل يمكن أن يكون لهم

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/١٨٨ ـ ١٩٨)، ابن كثير (١/١٠٦)، (٢/٢٥٨).

نسل وعقب[1]؟ اختلف العلماء في هذا، فذهب جماعة من أهل العلم إلى أنه لا مانع من أن يكون الممسوخون لهم نسلٌ وأعقاب، وأن يكون بعض الحيوانات من نسلهم. وممّن انتصر لهذا القول: ابن العربي المالكي.

واستدل أهل هذا القول ببعض الأحاديث الثابتة في الصحيح، منها حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما (رحمهما الله) أن النبي ﷺ قال: «**فُقدتْ أمة من بني إسرائيل لا يُدرى ما فعلت**». وفي رواية: «**ولا أُرى إلا أنها الفأر، ألا ترون أنها إذا وُضعت لها ألبان الإبل لم تشرب، وإذا وُضعت لها ألبان الشاء شربت**»[2] هذا حديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) ذكر فيه النبي ﷺ أن أمة من بني إسرائيل فُقدت، وأنه يظن أنها الفأر. والفأر هو الحيوان المعروف. واستدل على ذلك بأن أصل الإسرائيليين لا يشربون ألبان الإبل، ولا يأكلون لحومها، كما قدّمنا إيضاحه في سورة آل عمران في تفسير قوله: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ [آل عمران: آية ٩٣] فقد ذكرنا سابقاً في تفسير هذه الآية أن المفسرين يقولون: إن نبي الله يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ أصابه مرض عرق النَّسَا فنذر لله إن شفاه الله ليتركن لله أحب الطعام والشراب إليه، فكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل، وأحبُ الشراب إليه ألبانها، فحرمهما على نفسه. ويقولون: إن هذا النوع من النذر كان جائزاً في شرعه، وأن اليهود صارت لا تشرب ألبان الإبل ولا تأكل لحومها. وأن الفأر لا يشرب لبن الإبل ولكنه يشرب لبن الشاء، أي: الغنم!! فكأن النبي ﷺ ظن أنه مُسخ. وعلى أن الفأر مَسْخٌ فالفأر يتناسل. ومما استدل به أهل هذا القول: ما ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ أُتي بضب فأبى

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١/٤٤٠ ـ ٤٤٣).

(٢) البخاري في بدء الخلق، باب: خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، حديث رقم (٣٣٠٥)، (٦/٣٥٠)، ومسلم في الزهد، باب: في الفأر وأنه مسخ، حديث رقم (٢٩٩٧)، (٤/٢٢٩٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أن يأكله وقال: «**لعله من القرون الأولى التي مُسخت**»[(١)] وهذا الحديث الذي رواه مسلم عن جابر روى مسلم أيضاً نحوه عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنهم)[(٢)]. فهذا الحديث المتفق عليه، وحديث مسلم هذا كأن النبي ﷺ جوّز فيه أن يتناسل الممسوخ.

وذهب آخرون من العلماء إلى أن الممسوخ لا يعيش فوق ثلاثة أيام، ولا يشرب ولا يأكل، ولا يكون له نسل ولا عقب. واستدل أهل هذا القول بما أخرجه مسلم في صحيحه من رواية عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله لم يجعل لمسخ نسلاً ولا عقباً**»[(٣)] هذا لفظ النبي ﷺ في صحيح مسلم من حديث ابن مسعود، نفىٰ عنه النسل والعقب، وكان أبو عبدالله القرطبي (رحمه الله) في تفسير سورة البقرة[(٤)] في الكلام على قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ [البقرة: آية ٦٥] يقول: إن الصحيح أن التحقيق أن الممسوخ لا يولد له، ولا يكون له نسل ولا عقب، ولا يعيش، وأن هذا الحديث الثابت في صحيح مسلم من حديث عبدالله بن مسعود، الذي أخرجه مسلم في كتاب القدر يدل على أنّ النبي ﷺ كان في أول الأمر يظن بعض الشيء، وأن الله علّمه فجزم بأنه لا يكون له نسل ولا عقب. وهذا أظهر وأقرب، وقد بيّن النبي ﷺ في حديث مسلم هذا الأخير المذكور من حديث ابن مسعود أن القردة والخنازير كانوا موجودين قبل مسخ بني إسرائيل، وهذا هو الأقرب، والله تعالى أعلم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف: آية ١٦٦].

القردة: جمع القرد، وهو الحيوان المعروف، وهو من أخس

---

(١) مسلم في الصيد والذبائح، باب إباحة الضب، حديث رقم (١٩٤٩)، (٣/١٥٤٥)، من حديث جابر (رضي الله عنه).

(٢) مسلم في الصيد والذبائح، باب إباحة الضب، حديث رقم (١٩٥١)، (٣/١٥٤٦)، من حديث أبي سعيد (رضي الله عنه).

(٣) مسلم في القدر، باب: بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر، حديث رقم (٢٦٦٣)، (٤/٢٠٥٠).

(٤) القرطبي (١/٤٤١ ـ ٤٤٢).

الحيوانات، والدليل على أنه من أخس الحيوانات أن الله مسخ في صورته من أراد إذلالهم وإهانتهم وصَغَارَهم، وهذا معروف أن القرد من أخس الحيوانات. وقد قال الشاعر[١]:

قد يُكْرمُ القردُ إعجاباً بخسته وقد يُهانُ لِفَرطِ النخْوةِ الأَسَدُ

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: آية ١٦٧].

(تأذن) تفعَّل من الأذان، والأذان في لغة العرب: الإعلام، ومنه أذان الصلاة؛ لأنه الإعلام بدخول وقتها مع الدعاء لها، وقد قال تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: آية ٣] والعرب تقول: آذنني: أعلمني. ومنه قول الحارث بن حِلِّزَة اليشكري[٢]:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أسماءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثواءُ

فتأذن معناه تَفَعَّل من الأذان بمعنى الإعلام، أي: أعلم الله الخلق. وقال بعض العلماء[٣]: (تأذن) بناء هذا الفعل على (تفعّل) يجعله كأفعال القسم؛ ولذا جاء اللام في قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ معناه أعلم الله جل وعلا. وهذا الإعلام في معنى القسم، أو كأنه مؤكد بالقسم بدليل اللام في قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾.

﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ليسلطن عليهم، أي: اليهود ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ يسومهم معناه: يُذيقهم سوء العذاب. العرب تقول: «سامه العذاب» إذا أذاقه إياه وعذّبه به، وهو معنىً معروف في كلام العرب، ومنه قول عمرو بن كلثوم في معلقته[٤]:

إذا ما المَلْكُ سَامَ الناسَ خَسْفاً أبَيْنا أن نُقِرَّ الذلَ فينا

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: الدر المصون (٥/٥٠٠ ـ ٥٠١).

(٤) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.

﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ يوم القيامة إنما سُمي يوم القيامة لأن الناس يقومون فيه لخالق السماوات والأرض، كما قال جل وعلا: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: آية ٦] وقيل له (القيامة) كما قيل الحِيَازَة والصِيَانَة وغير ذلك من الحَوز والصَّون، وهذا معنىٰ قوله: ﴿لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ [الأعراف: آية ١٦٧].

وهذه الآية الكريمة من سورة الأعراف فيها التنصيص الصريح من رب العالمين أنه يُسلّط على اليهود في دار الدنيا حتى تقوم الساعة من يذيقهم سوء العذاب، ويعذبهم أشد التعذيب وأتمّه، وهذا قد بيّنا بعضه مراراً؛ لأن الله سلّط عليهم سابقاً بختنصر وأهانهم تلك الإهانة الشديدة، وملك الرومان، وسلّط عليهم نبيه محمداً ﷺ بعد ذلك لما كفروا وتمردوا، فأجلى بني النضير وبني قينقاع، وذبح مقاتلة بني قريظة، وأجلى خيبر، وربنا يقول: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾ [الإسراء: آية ٨] وقد بيّنا في سورة بني إسرائيل[1] طرفاً من هذا؛ لأن الله يقول: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ [الإسراء: الآيتان ٤، ٥] يعني: أنهم يجوسون ـ يمشون ـ في الأزقة خلال ديارهم محتليها يهينونهم ويعذبونهم، ثم قال في الثانية: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـٔۥُاْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٧] المفسرون والمؤرخون يقولون[2]: إن إحدى المرتين تسليط بختنصر عليهم، والثانية: تسليط ملك الرومان، وأن كلاً منهما قتلهم وسبى نساءهم وذراريهم. والله بعد ذلك قال: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ﴾ [الإسراء: آية ٨] فعادوا لأكبر الفساد والمنكر زمان النبي ﷺ فعاد الله لقهرهم وإذلالهم بأن سلّط عليهم رسوله ومَنَعَ إقامتهم في جزيرة العرب، فكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إذا

---

(١) ولا يرد عليه أن سورة بني إسرائيل تأتي بعد سورة الأعراف وبينهما سور متعددة؛ لأن الشيخ (رحمه الله) فسر القرآن كاملاً في المسجد النبوي قبل ذلك. وهذه الدروس التي وقفنا عليها هي من تفسيره في المرة الثانية.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢٥/٣)، البداية والنهاية (٣٤/٢).

جاء منهم تاجر أجَّل له ثلاثة أيام يبيع ويشتري ثم يخرج، ولا يرضى بجلوسهم في جزيرة العرب.

وفي هذه الآية من سورة الأعراف تأذن الله وأعلم أنه سلّط عليهم من يسومهم سوء العذاب، إلا أنهم يرد الله لهم الكرة حتى يجتمعوا ويكونوا أمة؛ لأنهم لو بقوا مقطعين في الأرض لن تقوم لهم قائمة ـ كما قال: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: آية ١٦٨] ـ ولم يكن العذاب والهلاك، ولم يجد موقعاً يقع عليه، فصار من عادة الله أن يَردّ لهم الكرة ويجعلهم أمة حتى يكونوا أمة فيسلّط عليهم من يعذبهم ليكون العذاب واقعاً موقعه، والله (جلّ وعلا) أصدق من يقول، وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ السرعة ضد البطء؛ لأنه سريع العقاب؛ لأنه يقول للشيء: (كن) فيكون، وما أمره إلا واحدة كلمح بالبصر. والعقاب: هو التنكيل بسبب الذنب؛ لأنه يأتي عقب الذنب، والعرب تقول: «عَاقَبَه معاقبةً وعقاباً» إذا نكَّلَه بسبب ذنب ارتكبه، وهو معنىً مشهور في كلامهم، ومنه قول نابغة ذبيان[1]:

وَمَنْ عصاكَ فَعَاقِبْهُ مُعَاقَبَةً   تنهى الظَّلُومَ ولا تَقْعُد على ضمد

﴿وَإِنَّهُ﴾ جل وعلا ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: كثير المغفرة لعباده المؤمنين التائبين؛ الرحيم بهم.

وقد جرت العادة في القرآن أن الله (تعالى) يجمع فيه بين الوعد والوعيد؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين: هما جلب المصلحة، ودفع المضرة، والله (جل وعلا) يأتي بالوعد والوعيد ليستحث الناس بذلك إلى طاعته كما قال هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن أطاعه. فهذا الوعد يطمعنا فيما عنده، وهذا الوعيد يخوّفنا مما عنده، كما قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾

(١) ديوان النابغة ص١٣.

وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: الآيتان ٤٩، ٥٠] وكما قال تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر: الآيات ١ - ٣] والآيات في مثل هذا كثيرة، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: آية ١٦٧].

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: آية ١٦٨].

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ معناه: جعلناهم قطعاً متفرقين في أرض الله لا تكاد تجد أرضاً إلا وفيها شِرذِمَةٌ منهم. أجرى الله العادة بتفريقه اليهود في أقطار الدنيا لحكمة يعلمها هو (جلّ وعلا)؛ ولذا قال: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ أي: طوائف متفرقة في أنحاء الدنيا. ثم قال: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ منهم قوم صالحون مطيعون لله، وهم الذين كانوا على شرع موسى بن عمران، لم يغيروا ولم يبدلوا حتى ماتوا على ذلك، أو أدركوا محمداً ﷺ فآمنوا به، كعبدالله بن سلام. وبعض العلماء يقول: من هؤلاء الأمم الصالحين: السبط الذين خرجوا من بين أظهر بني إسرائيل. وجرت عادة المفسرين أن يذكروا قصة غريبة عنهم في آية ذكرناها قبل هذا من سورة الأعراف[1] وهي قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: آية ١٥٩] لأن هذه الآية من سورة الأعراف يذكر المفسرون عندها قصة غريبة: يزعمون أن واحداً من أسباط بني إسرائيل لما عصى الإسرائيليون، وقتلوا الأنبياء، وارتكبوا المناكر تبرؤوا منهم، وطلبوا من الله أن يُفرِّق بينهم وبينهم، ويزعمون أن الله فتح لهم نفقاً في الأرض فدخلوا فيه وساروا فيه سنة ونصف السنة، حتى خرجوا من وراء الصين، وأنهم كانوا وراء الصين على دينٍ صحيح يعبدون الله. هكذا يقولون. وتكثر هذه القصة - يكثر ذكرها - في كلام المفسرين عند هذه الآية الكريمة، وقد ألممنا بالآية ولم نذكرها، لأنها لم يثبت عندنا فيها شيء.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٩) من سورة الأعراف.

وبعضهم يقول: من هؤلاء الأمم الصالحة ذلك السبط الذين ساروا في النفق في الأرض سنة ونصف السنة حتى خرجوا من وراء الصين. وعلى كل حال فقد كان في اليهود قوم هم على دين موسىٰ حتى ماتوا على ذلك، وقوم كانوا على دين موسى وآمنوا بمحمدٍ ﷺ. وهؤلاء الذين كانوا على دين موسى وأدركوا محمداً ﷺ فآمنوا به هم الذين ذكر الله في سورة القصص أنّ لهم أجرهم مرتين: أجر إيمانهم الأول، وأجر إيمانهم الثاني، كما نص الله على ذلك في قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ الآية [القصص: الآيات ٥١ ـ ٥٤]. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ومنهم أمة وناسٌ آخرون دون ذلك الصلاح. أي: منحطون عن مرتبة الصلاح، قاصرون عنها؛ لارتطامهم في المعاصي أو الكفر بالله جلّ وعلا.

وهذا الحرف قرأه عامة القراء: ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ بفتح النون ظرفاً غير متصرف، ولم يقرأه أحدٌ اسماً. وكونه اسماً يجوز لغةً لا قراءة؛ لأن العرب تطلق (دون) إطلاقين[1]: تطلقها ظرفاً جامداً غير متصرف، وتطلقها اسماً بمعنىٰ الشيء الردي، ومن إطلاقها اسماً: قول الشاعر[2]:

إذا ما علا المرءُ رامَ العَلاَءَ ويقْنَعُ بالدونِ من كان دُونَا

فالرواية في قوله: «من كان دونا» أصله: «من كان دوناً» بالتنوين، أي: حقيراً. وهذه الآية لم يُقرأ فيها بجعله اسماً متصرفاً. هذا معنى قوله: ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ومنهم أمة، كقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصافات: آية ١٦٤] أي: وما منا أحد إلا له مقام معلوم. أي: ومنهم طائفة ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: منحطون عن رتبة الصلاح لكفرهم أو معاصيهم.

---

(١) انظر: اللسان (مادة: دون) (١/١٠٣٨).

(٢) البيت في اللسان (مادة: دون) (١/١٠٣٨)، فتح التقدير (١/٥٢).

وقوله: ﴿وَبَلَوْنَاهُم﴾ البلاء: الاختبار. والحسنات جمع الحسنة، والحسنة المراد بها هنا الخصلة الطيبة كالخصب والعافية؛ لأن الله يبتلي بالطيبات ويبتلي بالبلايا. يبتلي الناس بأن يُغدق عليهم نعمه ويرزقهم العافية والأموال والأمطار ليبتليهم أيشكروا نعمة الله؟ وكذلك يبتلي بالسيئات كالجدب والمرض وغير ذلك من البلايا هل ينيبوا إلى الله؟ فالله (جل وعلا) ذكر هنا أنه ابتلى اليهود بالحسنات كسعة الرزق والخصب والصحة والعافية، والسيئات كالأمراض والجدب والزلازل والبلايا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لأجل أن يرجعوا فينيبوا عند أحد الابتلاءين. ودلت الآية على أنّ منهم طائفة كانوا صالحين كما بيّناه مراراً./ ٢٣/ب كقوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [آل عمران: آية ١١٣] وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية[آل عمران: آية ١٩٩]. وهذا معنى قوله: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

السيئات: جمع سيئة، وعلماء العربية يقولون: إن أصل السيئة: (سَيْوِئَة)، فهي على وزن: (فَيْعِلَة)، ووزنها بالميزان الصرفي: (فَيْعِلَة)، والزائد فيها: ياء (الفَيْعِلَة)، وحروفها الأصلية هي: السين في مكان الفاء، والواو في مكان العين، والهمزة في مكان اللام. أصل حروفها الصحيحة: (سَوَء) بسين، وواو، وهمزة. وياء (الفَيْعِلَة) زائدة، أصلها: (سَيْوِئَة) فاجتمعت الياء والواو، وسكنت أولاهما غير عارضة ولا عارضة السكون، فوجب قلب الواو ياء، وإدغام الياء في الياء، على القاعدة التصريفية المشهورة[1]. فقوله: (السيئة) هذه الياء المشددة فيها حرفان: أولاهما: ياء (الفَيْعِلَة) الزائدة، والثانية: الواو الواقعة عين الكلمة المبدلة ياء. وإنما سُميت السيئة (سيئة) لأنها تسوء صاحبها يوم القيامة إذا نظر إليها في صحيفته. وهذا معنى قوله: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٨] أي: يرجعون إلى ما يرضي ربهم من طاعته جلّ وعلا.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٦٠) من سورة الأنعام.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُوا۟ ٱلۡكِتَـٰبَ﴾ كان بعض العلماء يقول[1]: (الخَلَف) بفتح اللام هم من يخلفون من قبلهم خلافة حسنة. و (الخَلْف) بسكون اللام هم الذين يخلفون من كان قبلهم بسوء. وهذا اصطلاح أغلبي؛ لأن (الخَلَف) ربما أُطلق في خَلَف سيء. و (الخَلْف) بالسكون ربما أُطلق في خَلَفٍ صالحٍ، ومنه قول حسّان[2]:

لنَا القَدَمُ الأولى إليك وخَلْفُنَا لأوَّلِنَا في طاعةِ الله تابعُ

وقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: من بعد هؤلاء الذين قطّعناهم وجعلنا منهم الصالحين خلف ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ من ذرياتهم من اليهود ﴿وَرِثُوا۟ ٱلۡكِتَـٰبَ﴾ معنى وراثتهم للكتاب: أن التوراة بقيت عندهم ورثوها عن أسلافهم فصارت التوراة لديهم، وصاروا عياذاً بالله يغيرون أحكامها. ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُوا۟ ٱلۡكِتَـٰبَ﴾ يعني: خلف من بعد أولئك خلف من ذرياتهم من اليهود ورثوا الكتاب، معناها: بقي كتاب الله التوراة في أيديهم وراثة عن أسلافهم. وكان هذا الخَلْف خلفاً خبيثاً يأكلون الرُّشَا ويبيعون حكم الله بأعراض الدنيا ـ والعياذ بالله ـ فعابهم الله هنا بذلك؛ ولذا قال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُوا۟ ٱلۡكِتَـٰبَ﴾ معنى: ﴿وَرِثُوا۟ ٱلۡكِتَـٰبَ﴾ ورثوا التوراة عن أسلافهم فبقي عندهم، وهو كتاب الله الذي كتب فيه العقائد والحلال والحرام وتفصيل كل شيء يُحتاج إليه.

﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ والعياذ بالله إذا عرض لهم عرض من حطام الدنيا. العَرَض: المراد به الشيء الزائل؛ لأنه عارض زائل مُضْمَحِل.

وقوله: ﴿هَـٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ إشارة إلى متاع الدنيا وحطامها الزائل القليل الذي لا جدوى فيه ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ يستعيضونه عما في كتاب الله؛ لأنهم يأكلون الرُّشَا ويغيرون الأحكام.

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٠٩/١٣)، القرطبي (٣١٠/٧)، الدر المصون (٥٠٢/٥).

(٢) ديوان حسان ص١٥٥.

وبعض العلماء يقول: الخَلْف المذكورون هم اليهود الذين كانوا موجودين في زمن مبعث النبي ﷺ، عندهم التوراة فيها صفات رسول الله ﷺ، وأخذ العهود والمواثيق عليهم باتباعه فكتموه وغيّروا صفاته وبدّلوها، حتى إنهم يجدون في التوراة عندهم أنه (رَبْعَة) يعني: متوسط القامة، فيكتبون: طويلًا مُشذّباً. وكل وصف يحرّفونه ويغيرونه، يأخذون قراطيس يكتبونها عندهم محرفة كما تقدّم في الأنعام في قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: آية ٩١] يقولون: إنهم كان إذا تخاصم إليهم اثنان وأعطاهم صاحب الحق رشوة حكموا له بكتاب الله التوارة، فإذا أعطاهم المُبْطِل الرشوة تركوا التوراة وجاؤوا بالكتب التي كتبوها بأيديهم، التي قال الله عنها: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: آية ٧٩] يأتون بالكتاب الذي كتبوه ويحكمون له به بدل الرشوة. ومما ذكر العلماء أنهم كتموا صفة النبي ﷺ لعرض زائل من أعراض الدنيا؛ لأنهم كانوا يأكلون بالرئاسة الدينية، فلما بُعث محمد ﷺ لو أخبروا بأنه نبي الله لزالت عنهم الرئاسة الدينية فضاع المأكل الذي كانوا يأكلون بها، فكتموا وغيّروا صفاته حرصاً على ما كانوا يتعاطونه برئاستهم الدينية ـ قبّحهم الله ـ هذا معنى قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾.

العرض: حطام الدنيا الزائل، سُمّي عرضاً لأنه شيء عارض لا بقاء له. والإشارة في قوله: ﴿هَٰذَا﴾ إلى متاع الدنيا وحطامها الزائل. و ﴿ٱلْأَدْنَىٰ﴾ لدنوه أو لدناءته ورذالته وعدم أهميته. يعني: يأخذون هذا العرض مُعْتَاضين منه العمل بكتاب الله وتحقيق ما أنزل الله، فهم يأكلون الرُّشَا ليغيروا أحكام الله ولا يقيموا حكمه في كتابه والعياذ بالله.

وهذه الآية وإن كانت في اليهود فكل من فعل فعلهم فهو أخوهم يناله من وعيدها وعذابها ما نالهم. فيجب على المسلم إذا كان في منصبٍ يوصل فيه الحق لصاحبه بإنابة من بسط الله يده ألّا يغير أحكام الله ويأخذ الرُّشَا

بدلًا منها[١]، فإنه إن أخذ الرشوة وغيّر وبدّل فهو أخو اليهود، وهو من هذا الخلْف السيء القبيح. وأقبح شيء يأكله الإنسان هو الرُّشَا وما جرى مجراها من أنواع السحت؛ لأن السارق خيرٌ من المرتشي، لا شك أن السارق أخف شراً من المرتشي؛ لأن السارق يأخذ مال الناس بغير حق مع أنه عالم أنّ فعله خسيس وأنّه خبيث، ولا يدعي أبداً أنّ فعله طيّب، بخلاف المرتشي ـ قبّحه الله ـ فإنه يأكل مال الناس بالباطل وهو يزعم أنّ هذا دين الله وشرعه الذي أنزل به رسله ـ والعياذ بالله ـ فمن أقبح المآكل وأخسها الرُّشَا.

وأعظم أنواع الرُّشَا خطراً ارتشاء القاضي الذي هو منصوبٌ ليحكم بين الناس بما أنزل الله، فإذا ترك ما أنزل الله وتعوّض عنه عرض هذا الأدنى ـ والعياذ بالله ـ فهو أخس خلق الله، والسارق قد يكون أخف شراً منه؛ لأن السارق هو سارق، ولا يدعي سرقته، ولا يجعلها على الله، ولا على رسوله، ولا يقول: الله أمرني أن أسرق. بخلاف القاضي المرتشي فإنه يزعم أن الله أمره بهذا القضاء، وأن هذا حكم الله، وهو سارق شر سرقة.

وكذلك كل من كان في مصلحة ـ ولو غير قضاء ـ جعله فيها ولي أمر المسلمين، وأعطاه ماهية شهرية يتقاضاها، فإنه لا يجوز له أن يعطل حقوق الناس ويقول لهم: بُكْرة، وبعد بُكْرة، إلى ألف بُكْرة!! ليرتشي منهم. فإن هذا أمر خسيس قبيح، وفاعله أخو اليهود، لا خير فيه ألبتة، فلا دين له ولا مروءة.

فيجب على المسلمين أن ينزهوا ضمائرهم، وأن يكونوا أمة ـ ناساً ـ كالرجال، ولا ينحطوا أمام هذه المطامع الخسيسة المدنسة المخزية، لأنه رُبَّ أكلة قبيحة أعقبت صاحبها شراً عظيماً. ألا ترون إلى هؤلاء القوم من اليهود أكلوا سمكاً فانظروا ما أعقبتهم هذه الأكلة من الوبال، صاروا قردة ـ والعياذ بالله ـ فهذه الآية وإن كانت في اليهود فكل من أخذ بشيء منها فهو أخو اليهود بقدر ما أخذ منها، وسيناله من الوعيد بقدر ما أخذ منه. وهذا معنى قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: هذا المتاع والحطام الزائل

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

الأدنى القريب العاجل. أو (الأدنى) لدناءته ورذالته، ومع هذا هم يأكلون الرُّشَا ويغيرون أحكام الله، ويدَّعون على الله أنه يغفر لهم هذه الذنوب!! فهذا من الجراءة والجهل وطمس البصائر لا يعلمه إلا الله.

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ سيغفر الله لنا أكلنا لهذه الرُّشَا وتبديلنا لهذه الأحكام. وهذا هو الذي جاء فيه: «والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني»[1] أتبع نفسه هواها فأكل الرُّشَا، وتمنّى على الله أن يغفر له، والله لا يغفر للمُصِرِّين؛ ولهذا بيّن تعالى أنه يدعي أن الله يغفر له وهو مصر على أكله الرُّشَا وتَعَوُّضِه حطام هذه الدنيا وعَرَضها الزائل من أحكام الله؛ ولذا قال: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف: آية ١٦٩] وإن أصابوا عرضاً آخر زائلاً من الدنيا أخذوه وأكلوه، ومع هذا يزعمون أن الله يغفر لهم!! فهم مُصِرُّون على أكل الحرام وتغيير أحكام الله بالرُّشَا، ومع هذا هم جازمون بأن الله يغفر لهم!! وهذا هو الغرور، فإذا رأيت المسلم أو من يدعي أنه مسلم ينتهك حرمات الله ويصر ويثق بالمغفرة فاعلم أنه مغرور، وأنه أخو اليهود، ولا يغفر الله له[2]. هذا معنى قوله: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الميثاق[3]: معناه العهد المؤكد، فكل ميثاق عهد، وليس كل عهد ميثاقاً؛ لأن العهد لا يُسمى ميثاقاً إلا إذا كان مؤكداً خاصة. وقد قدّمنا في هذه الدروس مراراً[4] أنّ كل فعل

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٤/٤)، والترمذي في صفة القيامة، حديث رقم (٢٤٥٩)، (٦٣٨/٤)، وقال: «هذا حديث حسن» ا.هـ. وابن ماجه في الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له. حديث رقم (٤٢٦٠)، (١٤٢٣/٢)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٦٦/١ - ٢٦٧)، (٣٥٤/٢)، وفي الصغير (الروض الداني) (١٠٧/٢)، وابن عدي (٣٩/٢)، والحاكم (٥٧/١)، (٢٥١/٤)، والبغوي في شرح السنة (٣٠٨/١٤)، وهو في ضعيف ابن ماجه حديث رقم (٩٣٠)، المشكاة حديث رقم: (٥٢٨٩).

(٢) لو قال: «وقد لا يغفر الله له» لكان هو اللائق.

(٣) انظر: المفردات (مادة: وثق) ص٨٥٣.

(٤) مضى عند تفسير الآية (١٤٨) من سورة الأعراف.

مضارع مجزوم بـ (لم) إذا تقدمته همزة الاستفهام قبلها (لم) كقوله هنا: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أنّ فيه وجهين معروفين من التفسير في جميع القرآن:

أحدهما: أنه تنقلب مُضَارَعَتُه مَاضَوِيَّة، وينقلب نفيه إثباتاً. فيكون معنى هذا المضارع المنفي بـ (لم) ماضياً مثبتاً، فيكون معنى ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أخذ عليهم ميثاق الكتاب. ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ [البلد: آية ٨]: جعلنا له عينين ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: آية ١]: شرحنا لك صدرك. وهكذا. ووجه هذا:

أما وجه قلب مُضَارَعَته مَاضَوِيَّة فلا إشكال فيه؛ لأن (لم) حرف قلب يقلب المضارع من معنى الاستقبال إلى معنى الماضي، وهذا لا إشكال فيه.

أما قلب نفيه إثباتاً فهو الذي يحتاج إلى نظر. وقال بعض العلماء: وجه صيرورة نفيه إثباتاً: أنّ (لم) حرف نفي صريح، وأنّ الهمزة التي قبلها همزة استفهام إنكار، والإنكار مُضَمَّنٌ معنى النفي، فيتسلط النفي الكامن في الهمزة على النفي الصريح في (لم) فينفيه، ونفي النفي إثبات، فيؤول إلى معنى الإثبات. هذا وجه في التفسير في جميع القرآن في كلّ ما جاء فيه «ألم».

الوجه الثاني: أن الاستفهام لا يُراد به أصل الاستفهام وإنّما يُراد به حمل المخاطب على أن يقر فيقول: بلى. وهو المعروف في فنّ المعاني باستفهام التقرير[1]. والمعنى: أن المراد ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أن يقولوا: بلى أُخذ علينا ميثاق الكتاب.

وقوله: ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أُخذ عليهم العهد المؤكد أن لا يقولوا على الله شيئاً إلا الشيء الحق، فلا يقولوا: إن الحكم هكذا. وهو باطل ليتعوضوا الرُّشَا ويأخذوا عرض هذا الأدنى.

---

(١) السابق.

﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾ أي: في الكتاب الذي هو التوراة، درسوه: معناه تعلّموه وفهموا معانيه وعلموا أنه لا يجوز تغيير أحكام الله واستعاضة الرُّشَا منها.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ هي دار القيامة خير من حطام الدنيا وعرض هذا الأدنى الذي أخذوه ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ يتقون الله جلّ وعلا: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ وقُرِىء: ﴿أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٦٩][1].

ثم قال جلّ وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ ولا يأكلون الرُّشَا ولا يتعوضون منه عرض هذا الأدنى ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هي داخلة في التمسك بالكتاب إلا أنه خصّها، لِعِظَم شأنها؛ ولأنها أعظم دعائم الإسلام بعد الشهادتين ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٠] الأصل: إنا لا نضيع أجرهم [وقرأ العامَّة: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ بالتشديد مِنْ مَسَّك بمعنى تمسَّك، حكاه أهلُ التصريف، أي: إنَّ (فعَّل) بمعنى (تفعَّل)، وعلى هذا فالباء للآلة كهي في: تمسَّكْتُ بالحبل. وقرأ أبو بكر عن عاصم ـ ورُوِيت عن أبي عمرو وأبي العالية ـ: ﴿يُمْسِكون﴾ بسكون الميم وتخفيف السين مِنْ أَمْسَك، وهما لغتان، يقال: مَسَكْت وأَمْسكت، وقد جمع كعب بن زهير بينهما في قوله:][2].

وما تَمَسَّكُ بالعَهْدِ الذي زَعَمَتْ   إلاَّ كما يُمْسِكُ الماءَ الغَرَابيلُ[3]

وفي رواية شعبة عن عاصم[4]: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمۡسِكُون بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٧٠﴾ [الأعراف: آية ١٧٠] أظهر في محل الإضمار، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ

---

(١) انظر: الإتحاف (٢/٦٨).

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة نقلتها بحروفها من الدر المصون (٥/٥٠٨) وبها يتم الكلام.

(٣) شرح قصيدة كعب بن زهير لابن هشام ص١٣٨.

(٤) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٦.

أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: آية ٣٠] والمصلحون: هم الذين يصلحون أعمالهم بامتثال أمر الله واجتناب نواهيه.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٧١ ـ ١٧٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: آية ١٧١].

الظرف في قوله: ﴿وَإِذْ﴾ يقول المفسرون: هو منصوب بـ (اذكر) مقدرا[١]. والدليل على أن العامل في هذا الظرف المحذوف هو (اذكر) كثرة ورود لفظة (اذكر) عاملة في (إذ) في القرآن، نحو قوله: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ﴾ [الأحقاف: آية ٢١] ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ [الأنفال: آية ٢٦] ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ [الأعراف: آية ٨٦] ونحو ذلك من الآيات. واذكر يا نبي الله عناد اليهود ولجاجهم القديم في أسلافهم، ومن جملة ذلك العناد واللجاج والكذب العريق في أسلافهم تكذيبهم برسالتك وإنكارهم لصفاتك الموجودة في كتبهم عندهم.

وقوله: ﴿نَتَقْنَا﴾ العرب تقول: «نتق الشيء» إذا رفعه. وبعض العلماء يقول: النتق أخص من مطلق الرفع؛ لأن النتق رفع مع حركة قوية، تقول العرب: «نتقت السِّقاء» إذا رفعته وهزته هزاً قوياً ليخرج زُبْده[٢].

والجبل هنا هو الطور. وقد ذكرنا رفع الطور عليهم في سورة البقرة

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٢١٧، ٢١٩)، الدر المصون (٥/٥٠٩).

وفي سورة النساء. وبعض العلماء يقول[١]: كل جبلٍ طور. وبعض العلماء يقول: الطور أخص من مطلق الجبل، فالطور هو خصوص الجبل الذي تحف به أشجار مثمرة. وعلى هذا القول فكل طور جبل، وليس كل جبل طوراً.

والنتق في هذه الآية من سورة الأعراف هو الرفع المصرّح به في البقرة والنساء.

والجبل المذكور في الأعراف هو الطور المصرّح به في سورة البقرة وفي سورة النساء؛ لأن الله ذكر رفع هذا الجبل عليهم في سورة البقرة فقال جلّ وعلا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: آية ٦٣] وقال في سورة النساء: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ الآية [النساء: آية ١٥٤]. ورفع الطور عليهم لأن نبي الله موسى (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) لما كتب الله له كتابه التوراة بيَّن فيه الحلال والحرام والعقائد وتفصيل كل شيء يُحتَاج إليه من أمور الدنيا والآخرة، كانت فيه أوامر ونواهي زعم اليهود أنها شاقةٌ عليهم فامتنعوا من قبولها، فلما عرض عليهم نبي الله موسى التوراة قالوا: لا نقبل هذا الكتاب، ولا نتحمل هذه الأوامر والنواهي التي هي فيه؛ لأن فيها مشقة علينا. فأمر الله المَلَك فهزّ الطور فاقتلعه ورفعه فوقهم قدر معسكرهم. والمؤرخون يقولون: هم قدر فرسخ في فرسخ، فصار الجبل فوقهم بقدرة الله كأنه ظُلّة، كأنه غمامة تظلهم فوق رؤوسهم، وقيل لهم: إنما هي واحدة من اثنتين: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: آية ٦٣] التزموا ما في التوراة من الأحكام بقوة، أي: بجدٍ واجتهادٍ بالعمل بما فيه والمحافظة عليه، وإلاّ سقط عليكم هذا الجبل. فلما نظروا الجبل فوقهم كأنه ظلّة خروا ساجدين، كل واحدٍ منهم خرّ ساجداً على شِقّ جبهته الأيسر، فسجود الواحد منهم بحاجبه الأيسر وعينه اليمنىٰ ناظرة إلى الجبل خوفاً من سقوطه إليه، والتزموا العمل بما في التوراة، فرفع الله عنهم الجبل. وكان سجود

---

(١) انظر: المفردات (مادة: طور) ص٥٢٨، القرطبي (٤٣٦/١).

اليهود على شِقِّ الجبهة الأيسر يقولون: هذا السجود هو الذي رفع الله عنا بسببه العقوبة، وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي: رفعنا فوقهم الطور لما امتنعوا أن يقبلوا ما في التوراة ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ أي: الجبل الذي هو الطور ﴿ظُلَّةٌ﴾ كأنه غمامة أو مُزنة تظلهم من فوق رؤوسهم، فخافوا أن يسقط عليهم فالتزموا ما في التوراة.

وقوله: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ مَحْكِيُّ قَوْلٍ محذوف، والمقرر في علم العربية: أنّ حذف القول وبقاء مقوله قياسي مُطَّرد معروف لا تكاد تحصيه في لغة العرب وفي القرآن العظيم، أمّا عكسه ـ وهو ثبوت القول وحذف المقول ـ فهو نادر يُحفَظ ولا يُقَاس عليه. قال بعض علماء العربية: ومنه قول الشاعر[1]:

لَنَحْنُ الأُلَى قُلتُم فأَنَّى مُلِئْتُم بِرُؤْيَتِنَا قبلَ اهتمامٍ بكم رعبا

قال: «قلتم» هنا حذف مقوله، أي: قلتم: نقاتلهم فأنى ملئتم رعباً منا قبل أن نقاتلكم. وهذا معنى قوله: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾.

﴿مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ معناه: أعطيناكم في هذا الكتاب المشتمل على خير الدنيا والآخرة، وصيغة الجمع في قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰكُم﴾ للتعظيم ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزمٍ وجدٍ واجتهادٍ.

ويُفْهَم من هذه الآية أنه يجب على من خوطب بأوامر الله في كتبه المنزلة أن يلتزمها بقوةٍ ونشاطٍ واجتهادٍ، فلا يضعف فيها، ولا يُفرط فيها؛ لأنها لا تُمْتَثَل على الوجه الأكمل إلا بالقوة والجد والاجتهاد ـ أعاننا الله على امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والقيام بما في كتابه ـ وهذا معنى قوله: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ وهو هذا الذي آتيناكم، يعني: التوراة اذكروا ما فيه من العقائد والأوامر والنواهي، اذكروه ذِكْرَ مدارسة وعمل، فتعلموا ما فيه، واعملوا بما فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لأجل أن تتقوا بذلك سخط الله وعذابه؛ لأن ما يُتقى به سخط الله وعذابه هو معرفة

---

(١) البيت في البحر المحيط (١٨١/٥)، الدر المصون (٢٤٧/٦).

أوامره ونواهيه، واجتناب النواهي وامتثال الأوامر كما هو معروف. وهذا معنى قوله: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ [الأعراف: الآيتان ١٧٢، ١٧٣].

واذكر يا نبي الله ﴿وَإِذْ أَخَذَ﴾ حين أخذ ﴿رَبُّكَ﴾ جلّ وعلا. ﴿رَبُّكَ﴾ معناه: خالقك وسيدك ومدبر شؤونك؛ والرب يطلق في لغة العرب على عشرة معانٍ، منها[1]: السيد الذي يدبّر الشؤون ويسوس الأمور، تقول العرب: «فلان رب هذه البلدة» أي: سيدها الذي يدبر شؤونها ويسوس أمورها، ومنه قول علقمة بن عَبَدة التميمي[2]:

وكنتُ امرأً أفضتْ إليكَ رَبَابَتي وقبلكَ رَبَّتْني فَضِعْتُ ربوبُ

أي: سادتني سادة وساسوني.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ من أولاد أبينا آدم. وقوله: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ بدل من ﴿بَنِي آدَمَ﴾ بدل بعضٍ من كل.

وقوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قرأ هذا الحرف ابن كثير والكوفيون ـ أعني عاصماً، وحمزة، والكسائي ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بصيغة الإفراد، والذرية بالإفراد تعم، وقرأه نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذُرِّيَّاتِهِم﴾ بجمع السلامة. وكلتاهما قراءة صحيحة متواترة ومعناها صحيح[3].

﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ اختلف العلماء في معنى هذا الأخذ

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٦.

ـ أخذ الذرية ـ من ظهور بني آدم على قولين[1]: فذهبت جماعة من المفسرين إلى أنّ معنى أخذهم من ظهور بني آدم هو وجودهم قرناً بعد قرنٍ، وجيلًا بعد جيلٍ، على طريق التناسل، والمعنى: أنّ الله خلق بني آدم وخلق من هؤلاء ذرية، فينقضي هذا القرن ويخلق من هذا القرن ذرية كما قال: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: آية ١٣٣] وعلى هذا القول فالأخذ من ظهورهم: هو استخراج النطف من أصلابهم على طريق التناسل قرناً بعد قرن. وعلى هذا القول فقوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الذين قالوا هذا القول قالوا: أشهدهم على أنفسهم بلسان الحال لا بلسان المقال؛ لأن الله نصب لهم من الأدلة الواضحة الظاهرة على كمال قدرته وأنه المعبود وحده ما لا يُحتاج معه إلى شيء ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ يعني: أَثْبَتَ لهم ربوبيته واستحقاقه للعبادة بما ركز فيهم من الفطرة والعقول، وما نصب لهم من الأدلة، وعلى هذا القول فقوله: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ قالوا ذلك أيضاً بلسان حالهم، والعرب قد تطلق المقال على مقال لسان الحال، قال بعض العلماء: منه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: آية ١٧] أي: بلسان حالهم ـ على القول بذلك ـ ومنه قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ [العاديات: آية ٧] أي: بلسان حاله عند من يقول ذلك. والذين قالوا هذا القول ـ واختاره غير واحد من المحققين المتأخرين ـ قالوا: الدليل على أنّ هذا هو المراد أن الله لم يخلق أحداً من بني آدم ذاكراً الميثاق ليلة الميثاق وهم كالذر، وما لا يذكره الإنسان لا يكون حجة عليه، وهذا كأنه جُعل حجة مستقلة عليه، كما يدل عليه قوله: ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝١٧٢ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: الآيتان ١٧٢، ١٧٣] فعلى هذا القول فأخذ الذريات من ظهور بني آدم هو إيجادهم منهم قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيلٍ عن طريق التناسل المعروف. وعلى هذا القول فالإشهاد

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٢٢٢)، ابن كثير (٢/٢٦١ ـ ٢٦٤)، القرطبي (٧/٣١٤)، أحكام أهل الذمة (٢/٥٢٣)، فما بعدها، شرح الطحاوية (٣٠٢ ـ ٣١٦)، الروح لابن القيم (٢٤٤ ـ ٢٦٥)، الأضواء (٢/٣٣٥).

عليهم بلسان الحال بما نصب لهم من الأدلة، وما ركز فيهم من الفطرة. واختار هذا ابن كثير[١]، والزمخشري[٢]، وغير واحدٍ من المتأخرين.

القول الثاني: وعليه أكثر المتقدمين من السلف، وهو الذي يدل له بعض الأحاديث الصحيحة، والقرآن قد يُرْشِدُ إليه: أنه هو الأخذ يوم الميثاق المعروف، أن الله تبارك وتعالى أخذ من ظهر آدم ومن ظهور ذرياته كل نسمةٍ سبق في علمه أنها مخلوقة إلى يوم القيامة، فأخذهم بيده (جلّ وعلا) بعضهم للجنة وبعضهم للنار، وجعل فيهم إدراكاً وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فقالوا: بلى. إلّا أن هذا العهد لا يولد أحد إلا وهو ناسٍ له، والله (جلّ وعلا) أرسل الرسل يُذَكرون بهذا العهد، وما ثبت عن الرسل هو وما حضره الإنسان في التحقيق واحد؛ لأن ما قاله رسول الله ﷺ نحن نجزم بوقوعه أشد مما نجزم بما شاهدناه ولاحظناه وتذكرناه.

وهذا القول قال به كثير من السلف، ودلت عليه أحاديث كثيرة من أصحها وأدلها عليه ما ثبت في الصحيحين ـ صحيح البخاري وصحيح مسلم ـ من حديث أنس بن مالك (رضي الله عنه) أنّ النبي ﷺ قال: «**يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: أرأيت لو كان عندك كل شيء أكنت مفتدياً به؟ فيقول: نعم. فيقول الله: أردتُ منك أهون من ذلك، أخذتُ عليك في ظهر آدم ألاّ تُشرك بي فأبيتَ إلا أن تشرك بي**»[٣] فهذا الحديث ثابتٌ في الصحيحين من حديث أنس، وقد ذكر فيه النبي ﷺ أن عدم الإشراك أُخِذ عليهم وهم في ظهر آدم، فدل ذلك على أن قوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أنه استخراج الله لهم، وإشهاده عليهم، ثم ردهم في ظهر أبيهم آدم. ومما يدل على هذا: أن الذين قالوا: إن معنى

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٦٤).

(٢) الكشاف (٢/١٠٣).

(٣) البخاري في أحاديث الأنبياء، باب: خلق آدم وذريته، حديث رقم (٣٣٣٤)، (٦/٣٦٣)، وأخرجه في مواضع أُخرى، انظر الأحاديث رقم: (٦٥٣٨)، (٦٥٥٧).
ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب في الكفار، حديث رقم (٢٨٠٥)، (٤/٢١٦٠).

أخذهم من ظهورهم: هو تناسلهم قرناً بعد قرنٍ، وجيلًا بعد جيلٍ، أنهم جعلوا ما ركب فيهم من الفطرة السليمة والعقول، وما نصب لهم من الأدلة القطعية كافياً في قيام الحجة عليهم. والقرآن يدل على عدم صحة هذا القول؛ لأن القرآن العظيم ـ وهو كلام ربّ العالمين ـ دل على أنه لا يُقطع عذر أحد بنصب الأدلة، وتركيز الفطرة، وخلق العقول؛ بل لا ينقطع عذر بني آدم إلا بإرسال الرسل في دار الدنيا، وإنذارهم مؤيّدين بالمعجزات؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: آية ١٥] ولم يقل: حتى نخلق عقولاً ونركز أدلة وننصب فطرة. لم يقل شيئاً من هذا، وقال جلّ وعلا: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: آية ١٦٥] فبيّن أن حجة الناس لا يقطعها إلا إعذار الرسل وإنذارهم له.

وهذه الحجة التي بَيَّن في سورة النساء أنه أرسل الرسل لقطعها بقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ أوضحها في أُخريات سورة طه وأشار لها في القصص، قال في سورة طه: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤)﴾ [طه: آية ١٣٤] ولم يقل: لولا خلقت لنا عقولاً، ونصبت لنا أدلة، وركّبت فينا فطراً. لم يقل شيئاً من هذا. وأشار لها في القصص بقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [القصص: آية ٤٧] لأنه قال: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ ولم يقل: لولا خلقت لنا عقولًا، وركزت فينا فطرة، ورتبت لنا أدلة. لم يقل شيئاً من هذا. وقد صرّح (جلّ وعلا) بأن جميع أفواج النّار الذين يدخلونها يوم القيامة أنهم جميعهم أنذرتهم الرسل في دار الدنيا، وقطعت أعذارهم قبل الموت، وذلك في قوله: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩)﴾ [الملك: الآيتان ٨، ٩] فقوله: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ يدل على أن جميع الأفواج التي دخلت النار أنذرتهم الرسل في دار الدنيا. وقد صرّح الله بذلك في سورة الزمر ـ التي ذكر فيها

القيامة كأنك تنظر إليها - قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: آية ٧١] وكذلك لما قسم الله (جل وعلا) الخلائق قسمين في سورة فاطر جعل المسلمين ثلاث طوائف في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: آية ٣٢] ثم ذكر الكفار فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ﴾ [فاطر: الآيتان ٣٦، ٣٧] فقوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ﴾ هو محل الشاهد و ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عام لما تقرر في الأصول أنّ صيغ الموصولات أنها من صيغ العموم؛ لأن الموصول من المعلوم أنه يعم كل ما تشمله صلته كما هو معروف في محله[1].

وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ على القول الأول: بلسان [الحال][2]، وعلى الثاني: بلسان [الحال][3] ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ﴾ أنت ربنا.

واعلموا أن لفظة (بلى) تأتي في القرآن وفي اللغة العربية لمعنيين لا ثالث لهما[4]: أحد معنيي (بلى) المشهورين في كلام العرب وفي القرآن العظيم: أنّ (بلىٰ) يُجاءُ بها لنفي نفي قبلها، فهي نقيضة (لا)؛ لأن (لا) لنفي الإثبات، و (بلى) لنفي النفي، فيتقدم قبلها نفي فيُؤتى بـ (بلى) لتنفي ذلك النفي فيصير ما بعدها إثباتاً؛ لأنّ نفي النفي إثبات، وهذا الوجه كثيرٌ في القرآن ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ﴾ [سبأ: آية ٣] نفوا إتيان الساعة

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣١) من سورة الأنعام.

(٢)(٣) وقع للشيخ (رحمه الله) في هذا الموضع سبق لسان، فالعبارة في الأصل: «على القول الأول: بلسان المقال، وعلى الثاني: خلق فيهم عقولًا أدركوا بها ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بلسان المقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ﴾ أنت ربنا». وقد جرى تصويبه بين المعقوفين [ ].

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٤) من سورة الأعراف.

فنفىٰ الله نفيهم إياها وأثبته، قال: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: آية ٣] ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: آية ٧] وهذا الوجه كثير في القرآن ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: آية ٢٨].

الوجه الثاني: أن يُؤتىٰ بلفظة (بلى) جواباً لاستفهام مقترن بالنفي خاصة، ولا يُجاب بـ (بلى) استفهامٌ إلا الاستفهام المقترن بالنفي خاصة، وإذا جاءت (بلى) أحالت ذلك الاستفهام المقترن بالنفي إلى طريق الإثبات أيضاً، كقوله هنا: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: آية ١٧٢] وإذا أجابت العرب استفهاماً مقترناً بالنفي بغير (بلىٰ) فإنه ليس على القواعد العربية، فهو يُحفظ ولا يُقاس عليه. قال بعض علماء العربية: ربما أجابت العرب بـ (نعم) سؤالاً مقترناً بنفي، وهو شاذ يُحفظ ولا يُقاس عليه. قالوا: ومنه قول الشاعر[(١)]:

أَلَيْسَ اللَّيلُ يَجْمَعُ أم عَمْرو ... وإيانا فذاكَ لنا تَدَاني
نعم، وترى الهلالَ كما أَراهُ ... ويعلوهَا النهارُ كما علاني

فالقياس أن يقول هذا الشاعر: «بلى» ولا يقول: «نعم» ولما قال: «نعم» صار يُحفظ ولا يُقاس عليه. وربما أجابت العرب استفهاماً غير مقترنٍ بالنفي بـ (بلى) إذا كان ذلك الاستفهام يُقْصَدُ به الاستبعاد والنفي، وهذا معروف في كلامهم؛ ولذا لما قال الأخطل يُعَيِّر الجَحّاف[(٢)]:

ألاَ فاسأل الجَحَّافَ هل أنت ثَائرٌ ... بقَتْلَى أُصيبَتْ من نُمير بن عامرِ

قال: «هل أنت ثائرٌ» ولكن هذا الاستفهام بـ (هل) يُضَمِّنه معنى: أنه لا يثأر بهم، ولا يقتل قَتَلَتَهم، ففهم ذلك وأجاب بـ (بلىٰ) لأن الأخطل لما قال:

ألاَ فاسأل الجَحَّافَ هل أنت ثَائرٌ ... بِقَتْلَى أصيبتْ من نُمير بن عامرِ

(١) السابق.

(٢) ديوان الأخطل ص١٣٠.

أجابه الجَحّاف بـ (بلى) لينفي النفي الذي ضَمَّنَه في (هل) بقوله[١]:

بلى سَوفَ نبكيهم بكل مُهَنَّدٍ ونبكي نُميراً بالرماحِ الخَواطِرِ

وهذا معنى قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾.

وقوله: ﴿شَهِدْنَا﴾ اختلف العلماء هو من كلام من[٢]؟!.

فقال بعض العلماء: هو من كلام الملائكة.

وقال بعض العلماء: من كلام الله والملائكة. وعلى هذا القول يحسن الوقف على قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ لما استخرجهم في صورة الذر ليلة الميثاق، وأخذ عليهم الميثاق، وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ أنت ربنا، قال الله والملائكة: ﴿شَهِدْنَا﴾ عليكم بهذا الإيمان وهذا الميثاق الذي التزمتم.

﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ وقرأ هذا الحرف عامة القُراء غير أبي عمرو: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ وقرأه أبو عمرو وحده من السبعة: **﴿أن يقولوا يوم القيامة إنَّا كنا عن هذا غافلين (١٧٢) أو يقولوا إنما أشرك أباؤنا من قبل﴾** [الأعراف: الآيتان ١٧٢، ١٧٣] بالياء التحتية الدالة على الغيبة[٣].

والمعنىٰ: أن الله شهد عليهم والملائكة لئلا يقولوا بعد هذا: كنا غافلين عن هذا، أو آباؤنا هم الذين سَنّوا الكفر وجعلوه طريقةً لنا.

فإن قيل: هذا لا يُولد أحدٌ إلا وهو ناسٍ له. قلنا: بأن الرسل تُذكرهم به، وتذكير الرسل إياهم به يجعله قطعياً كأنهم متذكرون سماعه من الله كما ذكرنا.

وقال بعض العلماء: يشهدُ بعضهم على بعض فيقول هؤلاء: شهدنا عليكم أيها القوم لئلا تقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين. ويقول

---

(١) البيت في الكامل للمبرد ص٦٢٤.

(٢) انظر: ابن جرير (٢٥٠/١٣)، القرطبي (٣١٨/٧)، شرح الطحاوية ص٣٠٨.

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٦.

البعض الآخر لمن شَهِدَ عليهم من الآدميين: شهدنا أن تقولوا يوم القيامة.

وعلى هذا القول فالشهادة من شهادة بني آدم لما استخرجوا من ظهور آبائهم ليلة الميثاق في صورة الذر يشهد بعضهم على بعض، وهذا معنى قوله: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ لم نعلم.

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ أولاداً سرنا على ما كان عليه آباؤنا، ولم نخترع الكفر، ولم نتخذه طريقاً ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٣] قد قدّمنا مراراً[١] أنه إذا جاءت همزة استفهام بعدها أداة عطف كالفاء، والواو، وثم أنها فيها وجهان من التفسير للعلماء:

أحدهما: أن همزة الاستفهام تتعلق بمحذوف، والفاء عاطفة عليه. وهذا الذي مال إليه ابن مالك في الخلاصة حيث قال[٢]:

وحذف مَتْبُوعٍ بَدَا هُنَا اسْتَبِحْ ....

وعلى هذا القول: أتعاملنا بغير ما فعلنا فتهلكنا بما فعل المبطلون؟.

وقال بعض العلماء: همزة الاستفهام أصلها بعد الفاء، إلا أن للاستفهام صدر الكلام، فتزحلقت الهمزة قبل الفاء، والفاء قبل الهمزة في الرتبة، فتكون الفاء عاطفة للجملة المصدرة بالاستفهام على ما قبلها. والأول أظهر. وهذا معنى قوله: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

المبطلون: هم الذين يأتون بالباطل وهو ضد الحق، الذين عبدوا غير الله (جلّ وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٣].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ وكذلك التفصيل الواضح. الكاف في محل وصفٍ لمصدر، أي: نُفَصِّل الآيات تفصيلاً كذلك التفصيل

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

الواضح، كما بيّنا أخبار هذه الأمم، وما جرى عليها، وسبب إهلاك من هلك منها، ونجاة من نجىٰ منها. والتفصيل ضد الإجمال ﴿نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ ونوضحها كذلك التفصيل ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولأجل أن يرجعوا إلى طريق الهدى فَصَّلنَاهَا ذلك التفصيل. فالظاهر أنّ متعلق الجملة محذوف، أي: ولأجل أن يرجعوا فصلناها ذلك التفصيل ليعتبروا به ويهتدوا به فينيبوا. وهذا معنى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف: آية ١٧٤].

١/٢٤ / قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٧٥ ـ ١٧٧].

اتل معناه: اقرأ عليهم يا نبيّ الله. نبأ: أي خبر هذا الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها. وهذا الذي آتاه الله آياته أكثر المفسرين يقولون[1]: إنه رجل من بني إسرائيل. وبعض العلماء يقول: هو رجل من الكنعانيين الجبارين الذين أمر الإسرائيليون بقتالهم.

واعلموا أن قول من قال من العلماء إن معنى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾: آتيناه النبوة. أنه قول باطل لا يُشك في بطلانه، كما أوضحه الماورديّ وغيره[2]؛ لأنّ الأنبياء لا يفعلون هذه الأفعال ولا ينسلخون من آيات الله؛ لأنَّ الله لم يجعل نبوّته إلا في من يعلم أنه أهل لها، كما قدمنا إيضاحه في الأنعام في الكلام على قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رسالاته﴾ [الأنعام: آية ١٢٤] على إحدى القراءتين[3]، وهي أخبار إسرائيلية لم يدل شيء على صحة

---

(١) انظر: ابن جرير (٢٥٢/١٣)، القرطبي (٣١٩/٧)، ابن كثير (٢٦٤/٢).

(٢) النكت والعيون (٢٧٩/٢).

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص١٨٦، الكشف عن وجوه القراءات السبع (٤٤٩/١) وراجع منه ص٤١٥.

تعيين هذا ﴿ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ وأكثر المفسرين والمؤرخين يقولون: إنه رجل من بني إسرائيل يُقال له: بلعام بن باعوراء. وبعضهم يقول: بلعم بن باعر، وفيه غير ذلك.

ومعنى ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ لا يقتضي النبوة، فكل من أُعطي شيئاً من كتاب الله بواسطة نبي من الأنبياء فقد أوتي الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البينة: آية ٤] وهم ليسوا أنبياء، وقال في هذه الأمّة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: آية ٣٢] ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: آية ٦٣] فإنّ إيتاء الآيات قد يكون بالأخذ عن الرسل. والمفسرون يقولون: إن هذا الرجل الذي هو بلعام بن باعوراء - قبّحه الله - ويقال: بلعم بن باعوراء، أو ابن باعر، أو غير ذلك أنه أعطاه الله الاسم الأعظم، وبعضهم يقول: علمه الله شيئاً من كتبه المنزّلة، فكان يعلم بعض كتب الله التي أنزلها. وهذا معنى ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ سواء قلنا: إن الله علّمه بعض الكتب المنزلة، أو أنه علّمه الاسم الأعظم.

﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ - والعياذ بالله - انسلخ منها: خرج منها - والعياذ بالله - ولم يعلق به شيء منها.

والمفسرون يقولون: إنه بلعام بن باعوراء، وأنه أغراه الكنعانيون الجبارون بالمال فقالوا له: ادع على نبيّ الله موسىٰ وقومه - مع أنّ نبيّ الله موسىٰ الذي يذكر المفسرون أنه مات في التيه، وأنّ الذي دخل القرية وفتح الله على يديه يوشع بن نون، وهم يزعمون في قصته أنهم أمروه أنْ يدعو على موسىٰ - فقال: كيف أدعوا على من معه الملائكة؟ ولم يزالوا به يغرونه بالمال حتى دعا على موسى.

وبعض العلماء يقول: إنه دعا على موسىٰ فكان ذلك سبب التيه. وهذا بعيد جداً.

فعلى كل حال يقولون: إنه دعا على نبيّ الله موسىٰ فلما أراد أنْ يدعوا عليه حوّل الله دعاءه على القوم الذين يريدونه أنْ يدعو على موسى، فقالوا: دعوت علينا. فقال: ما أقدر على غير هذا.

وقال بعض العلماء: إنه كان له ثلاث دعوات مجابة أعطاه الله إياها، وأنه كان يعلم الاسم الأعظم فأعطاه الله ثلاث دعوات ـ وكل هذه إسرائيليات ـ يزعمون أن هذه الدعوات الثلاث المجابة أنه ضيّعها في امرأته كانت من أقبح نساء بني إسرائيل فلم تزل به حتى دعا الله أنْ يجعلها أجمل امرأة، فدعا الله فصارت أجمل امرأة، فلما بلغت هذا الجمال تكبرت عنه وطلبت غيره، فدعا الله عليها فصارت كلبة نبّاحة، فآذىٰ ذلك أولادها، ولم يزالوا به حتى دعا الله عليها أنْ يرجعها إلى حالتها الأولى، فذهبت الدعوات كلها. وهذه إسرائيليات لا معوّل عليها، يذكرها المفسرون.

وقال بعض العلماء: أغروا امرأته بالمال فلم تزل به حتى دعا على نبيّ الله موسىٰ، وأنه لما دعا عليه اندلع لسانه فصار على صدره، وصار يلهث كما يلهث الكلب، وأنه قال لهم: إنه ـ والعياذ بالله خسر الدنيا والآخرة قال لهم ـ: لم يبق إلا المكر والحيلة؛ إن الله يبغض الزنا، فأرسلوا النساء متزينات إلى بني إسرائيل فإنْ زنوا أهلكهم الله. فأرسلوا لهم النساء فيما يزعمون فوقع منهم الزنا، فأرسل الله عليهم الطاعون. وغير هذا من روايات كثيرة إسرائيلية يحكيها المفسرون في تفسير هذه الآية من سورة الأعراف لا طائل تحتها ولا دليل على شيء منها[١].

وكان بعض العلماء يقول[٢]: هذه الآية الكريمة تدل على أنّه لا ينبغي للإنسان أن يقلّد غير معصوم ويثق به كل الثقة؛ لأنّ هذا الإنسان ذكر الله أنه آتاه آياته وبعد ذلك صار مآله إلى أخس مآل وأقبحه ـ والعياذ بالله ـ حيث قال: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾.

وقال بعض العلماء: هذه الآية نزلت في أميّة بن أبي الصلت الثقفي، وكان يقرأ الكتاب الأوّل، ويتعلم من الكتب الأولىٰ، وكان يعلم عن الله بعض كتبه، وكان يعلم بأن جزيرة العرب سيُبعث فيها نبيّ، وكان يرجو

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٩) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: القرطبي (٧/٣٢٣).

أن يكون هو ذلك النبيّ، فلما بعث الله نبينا ﷺ حسده وكفر. وقصة استنشاد النبيّ أخته الفارعة لشعره مشهورة في التاريخ معروفة، ويذكر المؤرخون أنّ النبيّ لما حكت عليه شعره قال: آمن شعره وكفر قلبه[١]. والله تعالى أعلم.

وبعض العلماء يقول: نزلت هذه الآية في أبي عامر الراهب ابن صيفيّ (قبّحه الله). وأبو عامر هذا رجل من الأنصار هو: والد حنظلة الغسيل (رضي الله عنه وأرضاه)، الذي يذكر الأخباريّون وأصحاب المغازي أنّ الملائكة غسلته يوم أُحد؛ لأنه كان قريب عرس بتزوج جميلة بنت عبدالله بن أبيّ بن سلول، وأنه كان يغتسل فاستخفّه القتال فلم يكمل غسله، فمات شهيداً يوم أُحد، وأن الملائكة غسلته[٢]. هكذا يقول أصحاب المغازي والأخباريون. فوالده هو أبو عامر هذا الخبيث الذي يُقال له: أبو عامر

---

(١) الرواية التي فيها استنشاد النبي ﷺ شعره، وأنه قال فيه: «**فلقد كاد يُسلم في شعره**» أخرجها مسلم في الشعر، حديث رقم (٢٢٥٥)، (١٧٦٧/٤)، من حديث الشريد رضي الله عنه.
وأما رواية: «**آمن شعره وكفر قلبه**» فقد أخرجها الخطابي في غريب الحديث (٤٤٤/١)، في قصة وفود الفارعة بنت أبي الصلت ـ أخت أمية ـ على رسول الله ﷺ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
وذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق (مختصر تاريخ دمشق) (٤٨/٥)، عن عكرمة قال: قلت لابن عباس: أرأيت ما جاء عن النبي ﷺ في أمية بن أبي الصلت: «**آمن شعره وكفر قلبه**»؟ إلخ.
وذكره السيوطي في الجامع الصغير (فيض القدير) (٥٧/١)، وعزاه لأبي بكر الأنباري في المصاحف، والخطيب وابن عساكر ورمز له بالضعف.
وقال المناوي في الفيض (٥٩/١): «ورواه عنه أيضاً الفاكهي وابن مندة» ا.هـ.
وقال في أسنى المطالب ص٣١: «رواه الخطيب وهو ضعيف» ا.هـ.

(٢) أخرجه الإمام قوام السنة الأصبهاني في دلائل النبوة (٩١٦/١ ـ ٩١٧)، وأبو نعيم في الحلية (٣٥٧/١)، من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.
كما أخرجه البيهقي (١٥/٤)، والحاكم (٢٠٤/٣)، وقال: «صحيح على شرط مسلم» ا.هـ. وأخرجه ابن حبان (الإحسان) (٨٤/٩)، من حديث يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن جده.
وأخرجه البيهقي (١٥/٤)، عن عاصم بن عمر بن قتادة، وعامر الشعبي مرسلاً.

الراهب، وهو الذي حفر الحفر في الميدان يوم أُحد التى جاء النبيّ في واحدة منها وانتشله منها علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيدالله، كما هو مذكور في المغازي في غزوة أحد[١]. كان هذا الخبيث أبو عامر يقول للنبي ﷺ: إنّه على دين إبراهيم. فبيّن له النبي ـ فيما يذكرون ـ أنّه على الحنيفية بعد التغيير. وأنّه قال للنبي ﷺ: أمات الكاذب منا وحيداً طريداً[٢]. وسافر إلى الشام، وراح إلى بعض الملوك يريد جيشاً يُخرج به النبي ﷺ من المدينة، وهو الذي أوعز للمنافقين أنْ يبنوا له مسجد الضرار بقباء ليدبروا الشؤون فيه. وهو المذكور في قوله: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: آية ١٥٧] هو أبو عامر هذا[٣].

وقول من قال: إنّ آية الأعراف هذه في أمية بن أبي الصلت أو أبي عامر الراهب كله لا دليل عليه، وأكثر المفسرين يقولون: إنها في رجل علّمه الله علم الكتاب من بني إسرائيل. وشذ قوم فقالوا: من الكنعانيين. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا﴾.

﴿ءَايَـٰتِنَا﴾ هنا: آيات كتابه الشرعية.

﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾: خرج منها والعياذ بالله كما تنسلخ الحيّة من ثوبها، ولم يعلق به منها شيء.

﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ العرب تقول: «أتبعه وتبعه واتّبعه» بمعنى واحد ومعنى: (أتبعه الشيطان): اتّبعه الشيطان حتى لحق به وأدركه وجعله قريناً له يذهب معه حيث يذهب. هذا معنى قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾.

والشيطان في لغة العرب[٤]: هو كل عات متمرّد، فكل من كان عاتياً متمرداً فهو شيطان في لسان العرب. سواء كان من الجن أو من الإنس، أو

(١) المغازي (٢٤٤/١)، ابن هشام ص٦٢٠ ـ ٦٢١.
(٢) ذكره ابن هشام في السيرة ص٦٢٠ ـ ٦٢١، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٩٣/١ ـ ٩٤).
(٣) أخرجه ابن جرير (٤٧٠/١٤)، عن ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة.
(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٣) من سورة الأنعام.

من غيرهما. وجاء في القرآن العظيم: إطلاق الشياطين على العتاة المتمردين من الإنس والجنّ، كما قال جل وعلا: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: آية ١١٢] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ [البقرة: آية ١٤] أي: رؤسائهم وعتاتهم المتمردين، وفي الحديث: «**الكلب الأسود شيطان**»[1] وقد قال جرير وهو عربي قحّ[2]:

أَيامَ يَدعُونَني الشيطانَ من غَزَلِ ... وكنَّ يَهْوَيْنَني إذْ كُنتُ شيطانَا

يعني: عاتياً متمرداً. واختلف العلماء في وزن الشيطان بالميزان الصرفي على قولين[3] أشار إلى كل واحد منهما سيبويه في كتابه، فقال المحققون: وزن الشيطان: (فَيْعَال) بالميزان الصرفي، فالزائد فيه: الياء والألف. وحروفه الصحيحة: الشين في مكان الفاء، والطاء في مكان العين، والنون في مكان اللام (شَطَن) وأنّ هذا أصله، وأن اشتقاق المادة من البُعد؛ لأنّه بعيد من رحمة الله تعالى غاية البُعد، والعرب تقول: نوىً شطون. أي: بعيد، وبئر شطون: بعيدة القعر، ومن هذا المعنى قول الشاعر[4]:

نَأَتْ بِسُعَادَ عنكَ نَوىً شَطُونُ ... فبانتْ والفؤادُ بها حَزِينُ

ويؤيد هذا القول ـ أن وزن الشيطان بالميزان الصرفي (فَيْعَال) وأنه من (شَطَنَ) ـ قول أمية بن أبي الصلت، وهو عربي قح فصيح[5]:

أيُّما شَاطِنٍ عصاهُ عكَاهُ ... ثم يُلقَى في السِّجْنِ والأَكْبالِ

فصرح عن الشيطان بالشاطن، وهو اسم فاعل (شَطَنَ) من غير نزاع.

وقال قوم آخرون ـ وأشار له الشيخ عمرو أعني سيبويه في موضع من

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٣) من سورة الأنعام.
(٢) السابق.
(٣) السابق.
(٤) السابق.
(٥) السابق.

كتابه[١] ـ: بأن وزن الشيطان (فعْلَان) وأن الألف والنون زائدتان، وعلى هذا فأصله من (شَاطَ) فعلى هذا القول ففاء المادة شين، وعينها ياء، ولامها طاء. من (شاط) وأصله: (شَيَط) والعرب تقول: «شاط يشيط». إذا هلك؛ لأن الشيطان هالك لبعده عن رحمة الله. ومِن شاط بمعنى هلك قول الأعشى في شعره[٢]:

قَدْ نُخْضِبُ العِيْرَ من مَكْنُونِ فَائِلِهِ وقد يَشِيْطُ على أَرْمَاحِنَا البَطَلُ

أي: يهلك. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٥].

الظاهر أن (كان) هنا بمعنى (صار) وقد تقرر في علم العربية: أن (كان) تطلق ويراد بها صار. ومعنى قوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ صار من الكافرين. وإطلاق (كان) بمعنى (صار) إطلاق معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[٣]:

بتَيْهَاءَ قَفْرٍ والمُطي كأنَّها قَطَا الحَزْنِ قد كانت فِرَاخاً بيُوضها

يعني: قد صارت فراخاً بيوضها. و ﴿ٱلْغَاوِينَ﴾ جمع الغاوي، والغاوي: صاحب الغي، والغي: الضلال (والعياذ بالله) فكان من الضالين أشد الضلال.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٧٦] القاعدة المقررة في علم العربية: أن فعل المشيئة إذا قُرن بالشرط حذف مفعوله؛ لأن جزاء الشرط يغني عن المفعول، فالمفعول محذوف، والأصل: ولو شئنا رفعه بها لرفعناه بها. ولا تكاد العرب تنطق بالمفعول ـ مفعول فعل الإرادة مع ربطه بالجزاء ـ وقد يذكر نادراً، وجاء ذكر المفعول في مواضع

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٣) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) البيت لعمرو بن أحمر الباهلي. وهو في المقتصد في شرح الإيضاح (٤٠٢/١)، اللسان (مادة: عرض) (٧٤٥/٢).

من القرآن مع أنه مصدر منسبك من (أن) وصلتها في آيات غير كثيرة، كقوله جل وعلا: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ﴾ [الزمر: آية ٤] فجملة ﴿أَن يَتَّخِذَ﴾ في محل مفعول (أراد) ولم يكتف هنا بجزاء الشرط، ونحو ذلك من الآيات. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ رفعه بها ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾ لو شئنا رفع هذا الذي آتيناه آياتنا بتلك الآيات لوفقناه للعمل بها فعمل بها حتى مات عليها فكان مرفوع الدرجة رفيع الذكر في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: ركن ومال إلى لذات الدنيا وحطامها وشهواتها فآثرها على آيات الله فسلخه الله من آياته (والعياذ بالله). والعرب تقول: «أخلد إلى الشيء» إذا ركن ومال إليه، وأصل الإخلاد: هو ملازمة الشيء والدوام فيه. فالعرب تقول: أخلد بهذا المكان. إذا لازمه ودام فيه، وهو معنى معروف في كلامها[1]، ومنه قول زهير بن أبي سُلمىٰ[2]:

لـمـن الـديـارُ غَشِـيـتُـهـا بـالـفَـدْفَـدِ كالوَحْي في حَجَر المَسيْلِ المُخْلِدِ

أي: اللازم محله. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ الهوى بفتحتين: مَيْلُ النفس، ولا يكاد يطلق إلا على ميلها لما لا ينبغي، وقد يُطلق في غير ذلك[3]. واتباع الهوى (والعياذ بالله) هو أعظم الآفات.

ثم إن الله ضربه مثلًا قال: ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أي: فصفته (والعياذ بالله) في خساسته وقبحه وملازمته الخساسة في جميع الأحوال ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ وهو الحيوان المعروف. وجملة: ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ جملة شرطية، وهي في محل نصب في موضع الحال على ما حققه بعض علماء العربية من أنه لا مانع من أن تأتي الجمل الشرطية

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٢٧٠).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٦٠) من سورة الأعراف.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٦) من سورة الأنعام.

أحوالًا[١]. المعنى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ في حال كون الكلب متصفاً بأخس حالاته وهو مداومته اللهث في جميع حالاته.

﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ معنى ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ إن تشد عليه وتطرده وتُجْهِدَه يلهث وإن ﴿تَتْرُكْهُ﴾ في رخاء ودعة ﴿يَلْهَث﴾ والعرب تقول: لَهَثَ الكلب ـ بفتح الهاء ـ يَلْهَث. بفتحها؛ لأنه حلقي العين، لَهْثاً ولُهاثاً: إذا فتح فاه ومدَّ لسانه وصار يلهث، يطلع النَّفَسَ ويردها بقوة كفعل الذي أصابه إعياء وتعب شديد. وجميع الحيوانات لا يلهث شيء منها إلا إذا أصابه إعياء شديد، أو تعب شديد، أو عطش شديد، إلا الكلب وحده فإنه يلهث دائماً، في حالة الري يلهث، وفي حالة العطش يلهث، وفي حالة الشد عليه والطرد والتعب يلهث، وفي حالة الرخاء يلهث، فهو يلازم اللهْث في جميع حالاته[٢]. واللهث من أخس حالاته لأنه فاتح فاه، مادُّ لسانه، يُطْلِع النفس وينزلها بقوة، وهذه من أخس الحالات وأقبحها، فضربه الله مثلًا لهذا الكافر، إن وعظته وذكرته بآيات الله فهو كافر لا محالة، لا يسمع ولا يتعظ، كلهث ذلك الكلب في حالة الرخاء وعدم العطش. وإن ﴿تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ إن وعظته لم يتعظ، وإن تركته لم يتعظ، فهو ملازم ـ والعياذ بالله ـ كفرانه وعصيانه على جميع الحالات. وهو في أخس تلك الحالات كالكلب الذي يلازم لهثه في جميع الأحوال، وهي حالة من أخس حالاته والعرب تسمي الذي أصابه شيء حتى بَهَظَه تقول: هذا لاهث، وتقول: فلان ملجأ للاهث. معناه: ملجأ للمحزوب المحزون الذي فدحه الأمر، وهو معنى معروف في كلامها، ومنه قول الشاعر وهو بعض الأزديين[٣]:

فنِعْمَ فتى الجُلَّى ومُسْتَنْبَط النَّدىٰ ... ومَلْجَأ محزوب ومَفْزَع لاهِث

عياذ بن عمرو بن الحُليس بن جابر ... ابن زيد بن منظور بن زيد بن وارث

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٥١٦).

(٢) انظر: القرطبي (٧/٣٢٢)، الدر المصون (٥/٥١٧).

(٣) البيتان لابن دريد، وهما في ديوانه ص١٠٤.

وهذا من تتابع الأعلام، ويسميه البلاغيون في البديع: اطراداً. وشاهده المشهور عندهم قول الشاعر[1]:

إنْ يقتلوكَ فقد ثَلَلْتُ عروشَهُم بعتيبةَ بن الحارثِ بن شهابِ

والمعنى: أن هذا الخبيث الكافر ضُرب له المثل بالكلب في أخس حالاته، فكما أن الكلب لا يفارق هذه الحالة الخسيسة من فتح فيه ومدّ لسانه وإخراج النفس بقوة فكذلك هذا الكافر لا يفارق هذه الحالة الخسيسة من الكفر وعدم الاتعاظ في جميع أحواله، إن وعظته لا يتعظ، وإن تركته فكذلك، كما أن الكلب إذا شددت عليه وطردته وأتعبته ـ وهو معنى: ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ﴾ ـ لهث، وإن تركته في رخاء ودعة لهث، فهو متصف بهذه الحالة القبيحة على كل حال. وكذلك هذا الخبيث متصف بتلك الحال القبيحة على كل حال. هذا معنى قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾.

وأما قول من قال: إن بلعام بن باعوراء لما دعا على نبي الله موسى اندلع لسانه فصار على صدره، فصار لسانه متدلياً ـ كلسان الكلب ـ يلهث كلهاث الكلب، وأن هذا معنى قوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ﴾ الآية. هذا التفسير غير صحيح، بل الصحيح أنه مثل مضروب كما بيّنا، ويدل عليه قوله: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾ ﴿مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ وصفتهم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾ في ملازمتهم حالة الكفر والتكذيب القبيحة كمثل هذا الكلب في ملازمته حالة اللهث القبيحة في جميع أحواله.

﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ﴾ ﴿فَٱقۡصُصِ﴾ معناه: اقصص عليهم يا نبي الله ﴿ٱلۡقَصَصَ﴾ أي: هذا الخبر كخبر بلعام بن باعوراء وغيره ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لأجل أن يتفكروا ويُعملوا أفكارهم فيتعظوا بمثلات الله وما أوقعه بالذين عصوه في الزمن الماضي لينزجروا وينكفوا. وهذا معنى قوله: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٦].

وقوله: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ﴾ (ساء) بمعنى: بئس. و (مثلًا) مُمَيِّز.

---

(١) البيت في البحر المحيط (٢/٢٨٥)، الدر المصون (٢/٥٦٠)، فتح القدير (٢/٢١١).

و (القوم) فاعل بئس[1] ﴿مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ساء مثلهم والعياذ بالله؛ لأنه مثل السوء ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ[2] كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٧].

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٧٨ ـ ١٨٦].

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: آية ١٧٨] لما ذكر (جل وعلا) قصة الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ـ والعياذ بالله ـ وبيّن أنه لو شاء رفعه بتلك الآيات وهداه إلى العمل بها في قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ صرّح بأن المهتدي هو من هداه الله، والضال هو من أضله الله ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ الأصل: من يهده الله. فحذف المفعول لدلالة المقام عليه.

﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ والمهتدي هو السالك طريق الهدى التي تستلزم رضا الله ونيل ما عنده من الرضوان والجنات.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ حذف المفعول أيضاً و «من» شرطية في الموضعين، أي: ومن يضلله الله. مضارع أَضَلَّه يَضِلُّه إضلالاً. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

وهذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن بكثرة حجة على القدرية الزاعمين

---

(١) هذا الإعراب لا يخلو من إشكال، وللوقوف على كلام المعربين انظر: القرطبي (٣٢٤/٧)، البحر المحيط (٤٢٥/٤)، الدر المصون (٥١٨/٥).

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وبقية الآية معروفة.

أن الله لا يضل أحداً، فقد تكلمنا في هذه الدروس مراراً على مسألة القدر[١]، وأن التحقيق أنه لا تقع في الكون تسكينة ولا تحريكة إلا بمشيئة خالق السماوات والأرض ـ جل وعلا ـ والعباد لا يخلقون أعمالهم بل ما يشاؤون إلا أن يشاء الله، كما صرح الله به، والقدرية على كثرتهم وكثرة حججهم وجدالهم يأتون بشبه فلسفية يزعمون أنهم ينزهون الله بها، وهم يقعون في أعظم مما فروا منه بأضعاف، يقولون: إن الله أعظم وأنزه وأَجَلّ وأكرم من أن يريد الإضلال والقبائح والمعاصي. قالوا: فهو أَجَلُّ وأعظم وأكرم وأنزه من أن يكون الزنى بمشيئته، وأن تكون السرقة بمشيئته ونحو ذلك. فأرادوا أن ينزهوه عن أن يشاء السرقة والزنى والإضلال والقبائح، ووقعوا في الداهية الكبرىٰ والطامة العظمىٰ، هو أنهم جعلوا بعض خلق الله إلى غيره من خلقه، وجعلوا أن المكلف يخلق أعمال نفسه، فصارت عندهم أعمال المكلفين ليست بمشيئة الله، فسلبوه ملكه وقَدَره ومشيئته وكل شيء ـ قبّحهم الله ـ.

والتحقيق في هذه المسألة: أن الله (جل وعلا) سبق في علمه وسابق أزله أن بعض من يخلقهم مجبولون على الخبث، وأنه سيشاء منهم أن يشاؤوا أعمال أهل النار حتى يدخلوها، وأن قوماً آخرين قوم طيبون، وأنه يشاء منهم أن يعملوا أعمال أهل الجنة فيدخلوها، ثم إن الله (جل وعلا) يصرف بقدرته ومشيئته مشيئة العبد وقدرته حتى يأتي العبد ما سبق له في كتابه من شقاوة أو سعادة يأتيه طائعاً مختاراً ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: آية ٣٠] فلو فرضنا أن قدرياً قال لسني: هذه الأعمال كتبها الله في سابق الأزل وجفت الأقلام وطُويت الصحف، أو هو شيء مُستأنف؟ فمذهب أهل السنة والجماعة ـ وهو الحق ـ هو إثبات القدر، وأن كل شيء قضاه الله وقدّره، وأن الكائنات صائرة إلى ما شاءه الله وقدّره (جل وعلا)، وأنه خلق خلقاً وقال: هؤلاء للنار ولا أُبالي، وخلق للجنة خلقاً، فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: **«إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف**

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

سـنـة»[١] والله يـقـول: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: آية ٤٧] مثلا لو قال القدري: هذه المعاصي والذنوب التي كانت سبب كونه في النار، قال البعيد: قدرها الله عليه، وسبق في علمه أنه مرتكبها، وأنه هو لو شاء لقلب العِلْم الأول السابق في ذلك جهلاً لا يمكنه ذلك فما شاءه الله وعلمه وقدره في الأزل واقع لا محالة. فيقول البعيد: هو إذن مجبور. فإن السني يقول له: جميع الأسباب التي أعطاها الله للمهتدين أعطاك مثلها، فالعيون التي أبصروا بها آياته حتى آمنوا أعطاك عينين مثلها، والقلوب التي فهموا بها عن الله آياته حتى اهتدوا أعطاك مثلها، والآذان التي سمعوا بها آيات الله واتعظوا بها حتى اهتدوا أعطاك مثلها، ولكن وقع التفاوت في شيء واحد: وهو أن الله (جل وعلا) وفق هؤلاء لما يرضيه، وصرف قدرتهم ومشيئتهم بقدرته وإرادته إلى عمل أهل الجنة، وأنت لم يوفقك لما يرضيه، وهذا التوفيق ليس واجباً لك عليه حتى تدعي عليه أنه ظلمك!! وقد ذكرنا مراراً[٢] أن هذا أَوْضَحَتْهُ مناظرة أبي إسحاق الإسفراييني مع عبدالجبار ـ من كبار المعتزلة القدريين القائلين بهذا المذهب ـ وأن عبدالجبار جاء يتقرب بهذا المذهب فقال عند أبي إسحاق: سبحان من تنزه عن الفحشاء. يعني أنه تنزه عن أن تكون السرقة والزنى ونحوها بمشيئته.

فقال أبو إسحاق: كلمة حق أُريد بها باطل. ثم قال أبو إسحاق: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء.

فقال عبدالجبار: أتراه يشاؤه ويعاقبني عليه؟.

فقال أبو إسحاق: أتراك تفعله جبراً عليه أأنت الرب وهو العبد؟.

فقال عبدالجبار: أرأيت إن دعاني للهدىٰ وقضى علي بالردى، دعاني وسد الباب دوني أتراه أحسن إلي أم أساء؟.

---

(١) أخرجه مسلم في القدر، باب حجاج آدم وموسى (عليهما السلام). حديث رقم: (٢٦٥٣)، (٤/٢٠٤٤). ولفظه عند مسلم: «كتب الله مقادير الخلائق...».
وفي لفظ عند البيهقي في الأسماء والصفات: «قدر الله المقادير...» وفي لفظ: «فرغ الله (عز وجل) من المقادير وأمور الدنيا...».

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

قال أبو إسحاق: أرىٰ هذا الذي منعكه إن كان حقاً واجباً لك عليه فقد ظلمك وقد أساء، وإن كان ملكه المحض فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل. فبُهت عبدالجبار، وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب!! ولذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: آية ١٤٩] مَنُّهُ بالتوفيق على قوم وعدم مَنِّهِ بالتوفيق على آخرين حجته البالغة.

وذكروا أن عَمْرَ بن عبيد ـ كبير المعتزلة، المشهور بالعبادة والنسك، وهو من كبار أهل هذا المذهب الخبيث ـ جاءه بدوي أعرابي يقول له: إن دابته سُرقت. يريد أن يدعو الله ليردها عليه، فأراد عمرو بن عبيد التقرب بهذا المذهب الخبيث فقال: اللهم إنها سُرقت ولم تُرد سرقتها فارددها عليه. فقال له الأعرابي البدوي الجاهل: ناشدتك الله يا هذا إلا ما كففت عني من دعائك الخبيث، إن كانت قد سُرقت ولم يُرد سرقتها فقد يريد ردها ولا تُرد[1]، فالذي يُفعل الشيء دونه ولا بمشيئته فأنا لست على ثقة منه أن بيده شيئاً.

فالحاصل أنهم وقعوا في شر مما فروا منه. والدليل القاطع الذي لا يترك لهم شبهة هو دليل العلم، وإيضاح ذلك أنك تقول للمعتزلي القدري إذا ناظرته: هل أنت مقر بأن الله (جل وعلا) يعلم ما يكون قبل أن يكون؟ فلا بد أن يقول: نعم؛ لأن كل من يقر بالإسلام يقر بهذا. فتقول له: إذن هذا العمل الذي زعمت أن العبد يخلقه بقدرته وإرادته من غير مشيئة لله آلله عالم أنه يقع من هذا العبد؟ فيقول: نعم. فقل له: لو شاء العبد أن يعمل ذلك العمل ويستقل به مخالفاً لما سبق به علم الله الأزلي [فهل يمكنه ذلك؟][2] فقولك إنه مستقل به يقتضي أنه يمكنه أن يعمل عملًا مستقلًا غير ما سبق به العلم، فينقلب علم الله جهلًا ـ سبحانه وتعالىٰ عما يقول الظالمون الفجرة علواً كبيراً ـ فإذن لا بد أن يكون العمل مطابقاً لما سبق به علم خالق السماوات والأرض في أزله.

فالحاصل أن الله (تبارك وتعالى) خلق للنار خلقاً علم أنهم من أهل

---

(١) السابق.

(٢) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

النار وأنها أولى بهم، وخلق للجنة خلقاً علم في أزله بأنهم أهل لها، ثم إن الله (تبارك وتعالى) يُيَسِّر كُلًا من الفريقين لما خلقه له، فيعمل هؤلاء بعمل أهل الجنة حتى يدخلوها، وهؤلاء بعمل أهل النار حتى يدخلوها، وقد جاءت أحاديث صحيحة ثابتة عن النبي ﷺ بمثل هذا، منها حديث عمران بن حصين المتفق عليه المشهور أنهم لما سألوا النبي ﷺ وأخبرهم أن الأمر قُضي وفُرغ منه قالوا له: ففيم العمل؟ أفلا نتكل على كتابنا؟ فقال لهم ﷺ: **«اعملوا فكل مُيسر لما خُلق له»**[١] فالله (جل وعلا) لا يقع في ملكه شيء إلا بمشيئته، يَصْرف قُدر قوم وإراداتهم إلى ما هو أليق بهم، ويَصْرف قُدر قوم وإراداتهم إلى ما هو أليق بهم فيعمل هؤلاء بعمل أهل الجنة، وهؤلاء بعمل أهل النار، وإنما كان ذلك من حكمته (جل وعلا) لتظهر بذلك أسرار أسمائه وصفاته في خلقه؛ لأنه لو لم يصرف قدرة قوم ومشيئتهم إلى ما لا يرضيه حتى يعذبهم لم يظهر بطشه وقوته وشدة نكاله التي تستوجب الخوف منه، فخلق قوماً فصرف قُدرهم وإراداتهم لما يستوجبون به النار ليظهر بذلك سر أسمائه وصفاته، من جبروته وقوته وبطشه وشدة عذابه ليخافه خلقه، وصرف قُدر قوم وإراداتهم إلى ما يستوجبون به جنته ليظهر بذلك أسرار بعض أسمائه وصفاته من رحمته ولطفه وعدله (جل وعلا) وغير ذلك؛ ولذا قال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: آية ١٧٨] من أضله الله فقد ضل (والعياذ بالله)، وكل الناس ضال إلا من هداه الله، ولا مهتدي إلا من هداه الله.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[٢] أن لفظ الضلال يطلق في القرآن العظيم وفي اللغة العربية إطلاقات مشهورة معروفة، من أشهرها ثلاثة إطلاقات معروفة في القرآن وفي كلام العرب:

منها: إطلاق الضلال على الضلال عن طريق الهدىٰ إلى طريق الزيغ،

---

(١)(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

وعن طريق الجنة إلى طريق النار، كما في هذه الآية ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: آية ٧] وقوله: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: آية ٧٧] وهذا أغلب استعمال الضلال والعياذ بالله منه.

الاستعمال الثاني: هو إطلاق الضلال على الغَيْبَةِ والاضمحلال، تقول العرب: «ضل هذا الشيء». إذا غاب واضمحل ولم يبق له وجود. تقول العرب: «ضل السمن في الطعام» إذا غاب فيه واضمحل ولم يبق له أثر. وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الأخطل[(١)]:

كُنْتَ القَذَى في مَوْجِ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ ... قَذفَ الأَتِيُّ به فَضَلَّ ضَلالاَ

أي: غاب غيبوبة واضمحل اضمحلالًا. ومنه بهذا المعنى قول الآخر[(٢)]:

أَلَمْ تسألْ فتخبركَ الديارُ ... عن الحي المُضَلَّلِ أينَ سَارُوا

ومعنى (المُضَلَّل): الذي ذهب على مرّ العصور ولم يبق لهم أثر. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: آية ٣٠] أي: غاب واضمحل ولم يبق له أثر. ولأجل إطلاق العرب اسم الضلال على الغيبة والاضمحلال أطلقوه على الدفن في القبر، تقول العرب: أضلوا الميت في قبره. إذا دفنوه فيه؛ لأنه إذا دُفن فيه يؤول إلى أن تختلط أجزاؤه وعظامه في الأرض فيغيب فيها ويضمحل كما يغيب السمن في الطعام، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ [السجدة: آية ١٠] يعنون بقولهم: ﴿ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنه اضمحلت عظامهم ولحومهم وجلودهم فيها فأكلتها واختلطت بها. وإطلاق العرب

(١) السابق.

(٢) السابق.

الإضلال على الدفن مشهور في كلامهم وأشعارهم، ومنه قول المُخَبَّل السعدي يرثي قيس بن عاصم التميمي المنقري المشهور[١]:

أَضَلَّتْ بنُو قيسِ بن سعدٍ عَمِيْدَهَا   وفَارِسَهَا في الدهْرِ قيسَ بن عَاصِمِ

وقوله: «أضلت» يعني: دفنته في قبره. ومنه بهذا المعنى قول نابغة ذبيان يرثي بعض ملوك الغسانيين الذين كانوا بالشام، وقد مات ودُفن بالجولان، وسمع أولًا أنه مات، وجاء تكذيب موته، حتى جاء الذين دفنوه وأخبروه بموته وقال شعره المشهور فيه، الذي منه[٢]:

فإنْ تَحْيا لا أملكْ حياتي وإنْ تَمُتْ   فما في حياتي بعدَ موتِكَ طائِلُ
فـآبَ مُـضِـلُّـوهُ بـعـيـنٍ جَـلِـيَّـة   وغُـودِرَ بـالـجَـولانِ حَـزمٌ ونَـائِـلُ

/ فقوله: «مضلوه» يعني دافنيه. وقوله: «بعين جلية» أي: بخبر يقين أنه مات حقاً؛ لأنهم هم الذين أضلوه ودفنوه في قبره. وهذا معنى معروف في كلام العرب، يكثر في كلامها. ٢٤/ب

وأما الإطلاق الثالث من إطلاقات الضلال: فإنه جاء في القرآن وفي لغة العرب إطلاق الضلال على الذهاب عن علم الشيء، فكل ما لم يهتدِ إلى علم شيء تقول العرب: ضل. أي: لم يهتد إلى علم هذا الشيء بعينه. وهو بهذا المعنى يكثر في القرآن وفي كلام العرب، فمنه في القرآن قول أولاد يعقوب: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: آية ٨] أي: ذهاب عن علم الحقيقة حيث يُفَضِّل يوسف على هذا[٣] من الرجال. وقوله: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف: آية ٩٥] أي: ذهابك عن حقيقة العلم بالشيء؛ لأنك تظن يوسف حياً. ولا يريدون الضلال في الدين؛ لأنهم لو أرادوا الضلال في الدين لكانوا كفرة لتضليلهم نبياً من الأنبياء. ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه: آية

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.
(٢) هذان البيتان مضى ذكرهما مضى عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.
(٣) أي: الجمع.

٥٢] أي: لا يذهب عنه علم شيء ولا ينسى شيئاً. ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: آية ٢٨٢] ﴿أَن تَضِلَّ﴾ يعني: تذهب عن علم حقيقة المشهود به فتذكرها الأخرى. قال بعض العلماء: ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: آية ٧] على القول بذلك، ووجهه أن المعنى: ووجدك يا نبي الله ضالاً. أي: ذاهباً عن هذه العلوم التي لا تُعلم إلا بالوحي فهداك إليها وعلمك إياها بالوحي كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: آية ٣] فالغافلون ضالون ذاهبون عن علم حقيقة هذه العلوم، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ﴾ الآية [الشورى: آية ٥٢]. ومن إطلاق الضلال على الذهاب عن حقيقة علم الشيء قول الشاعر[1]:

وتَظُنُّ سَلْمَىٰ أَنَّنِيْ أَبْغِيْ بِهَا ... بَدَلاً أُراها في الضَّلالِ تَهِيْمُ

معناه: أراها في عدم معرفة حقيقة الشيء وهذه المعاني للضلال، وبعضهم يذكر أنه يُطلق على (الحُب) وليس إطلاقاً معروفاً مشهوراً كمعرفة هذه الإطلاقات. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

والخاسرون جمع الخاسر. وبعض العلماء يقول: ﴿الْخَاسِرُونَ﴾: الهالكون. وأصل الخسران[2]: هو ذهاب مال التاجر، سواءً كان ربحاً أو رأس مال، وكل من خسر شيئاً من ماله فقد خسر. وخسران الناس: المراد به غبنهم حظوظهم من ربهم (جل وعلا)[3]، وقد أقسم الله (جلّ وعلا) على أن هذا الخسران لا ينجو منه أحد إلّا بتلك الصفات المقررة المعروفة في تلك السورة الكريمة، أعني قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي

---

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٣٩) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩) من سورة الأعراف.

(٣) السابق.

خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الألف واللام للاستغراق، فهو بمعنى: إن كل إنسان كائناً من كان لفي خسر، أي: في غبن من حظوظ ربه (جل وعلا) ونقص ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: الآيات ١ ـ ٣].

وخسران الناس: أي: غبنهم في حظوظهم من ربهم (جل وعلا).

ذكرنا في هذه الدروس مراراً أنه جرت عادة بعض العلماء في أن يضربوا له مثلين يبين بهما حقيقته[(١)]:

المثل الأول: قالوا: إن كل إنسان معمر أعطاه الله (جل وعلا) رأس مال، ورأس هذا المال هو الجواهر الذي لا يزنها في الدنيا شيء، ولا يقوم مقامها شيء، وهي رأس مال كل إنسان. ونعني بهذه الجواهر: ساعات العمر وأيامه؛ لأن رأس مال الإنسان هو ساعات عمره وأيامه، وهذا هو أنفس شيء وأعظم شيء يُعطى للإنسان، وهو رأس ماله، وكما أن الله لما جعله رأس ماله جعله أخا الرسول أيضاً في إقامة الحجة عليه به حيث قال: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: آية ٣٧] فإذا كان الإنسان المُعمر ـ سواء عُمِّر تعميراً طويلاً أو غيره كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: آية ١١] فإن كان هذا المُعمر ـ حاذقاً لَبقاً يعرف كيف يحرك رؤوس الأموال، وكيف يستفيد منها، حرك رأس هذا المال ـ أعني ساعات عمره وأيامه حركها ـ فيما يرضي الله، فراقب اللحظات والأيام والليالي والدقائق والثواني لئلا يضيع شيء منها في غير طاعة الله، فنظر الأوقات التي تتوجه فيها أوامر من ربه ـ كأوقات الصلاة، وأوقات الحج، وغير ذلك من المطلوبات التي لها أوقات تتوجه عند وجودها ـ فقام لله بذلك أحسن قيام، ثم إنه في الأوقات التي لا تتوجه بها وظائف من رب العالمين، وأوامر معينة يكفُّ شرَّه ويخاف الله (جل وعلا) ويستكثر من الخير ما استطاع، فإذا حرك هذا رأس هذا المال هذا التحريك العظيم وتَجِر مع رب العالمين هذه التجارة الرابحة ربح منها مُلكاً لا ينفذ، ربح منها الحور العين، والجنات، والولدان، ومجاورة رب

(١) السابق.

غير غضبان، والنظر إلى وجه الله الكريم. وقد سمى الله تحريك رأس هذا المال معه (جل وعلا) على الوجه الذي ذكرنا سمَّاه (بيعاً) وسماه (شراء)، وسماه (تجارة)، وسماه (قرضاً)؛ لأنَّ صاحبه حرَّك رأس ماله ـ وهو أيام عمره ـ تحريكاً حسناً لائقاً؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [الصف: الآيتان ١٠، ١١]. فصرح بأن ذلك تجارة مع الله، وقال جل وعلا: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: آية ٢٩] وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: آية ١١١].

وقال جل وعلا: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: آية ٢٤٥] فإذا كان صاحب رأس هذا المال المسكين رجلاً أحمق لا يعرف حقائق الأشياء، ولمْ يتنور باطنه بنور الوحي، لمْ يعرف قيمة رأس هذا المال، ولا قدر هذه الجواهر التي أعطاه الله فضيعها في قال وقيل، ولمْ يكتسب منها شيئاً حتى ينتهي الأجل المحدد له فيُجر إلى القبر وهو صفر الكفين، والآخرة أيها الإخوان دار لا تصلح للمفاليس، لا تصلح للفقراء؛ لأنَّ ليس فيها إرفاق، ولا عارية، ولا صدقة، ولا خلة، ليس فيها للإنسان إلا ما قدَّمه من عمله، فلا ينبغي للإنسان أن يقدم عليها مفلساً، فيجب على المسلمين كُلاً أن يحترموا رأس هذا المال.

إذا كان رأسُ المالِ عمركَ فاحتَرِزْ عليه من الإنفاقِ في غيرِ واجبِ[(١)]

فلا ينبغي للمسلم أن يضيع أوقات عمره في لعب الأوراق، وفي قيل وقال، فإن هذا فعل السفهاء، ولا يدري في أيِّ وقت يموت. وأنا أؤكد لكم كل التوكيد أنه إن مات ندم غاية الندم بعد فوات الفرصة على ضياع هذه الأعلاق النفيسة، والجواهر الثمينة ـ التي هي أيام عمره ـ في قال وقيل، ولعب أوراق، وربما كان ضيعه في أشياء لا ترضي من خلقه (جل وعلا). فهذا لا ينبغي، فعلينا معاشر المؤمنين أن نعرف قدر رأس مالنا،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩) من هذه السورة.

وأن نُقدِّر أعمارنا، ونعرف قصرها، ولا ندري في أيِّ وقت تنخرم كما سيأتي قوله في هذه [السورة][1]: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: آية ١٨٥] فلا نضيعه فيما لا يعني كألعاب الأوراق، والمجون والعبث، وغير ذلك مما لا يفيد، فهذا فعل السفهاء، وسيعلم صاحبه إذا انتهى إلى ربه أنه فعل السفهاء الذي لا يُجدي، فعليه أنْ يكفَّ عنه، ويكون رجلاً جديًّا، ويصدق المعاملة فيما بينه وبين ربه (جل وعلا)، ولا يترك أوقاته تضيع هدراً؛ لأن هذا تضييع لجواهر عظيمة، وأعلاق نفيسة، لا يعرف قدرها إلاّ من علمه الله ذلك.

المثل الثاني المضروب لهذا: هو ما ذكره بعض العلماء، وقد جاء به حديث عن النبي ﷺ، والظاهر أن سنده لا يقل عن درجة القبول[2] أن الله (جل وعلا) جعل لكل إنسان مسكناً في الجنة ومسكناً في النار، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار أطلع أهل الجنة على مساكنهم في النار لو أنهم كفروا بالله وعصوه لتزداد غبطتهم وسرورهم بما هم فيه، وعند ذلك يقول الواحد منهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: آية ٤٣] ثم إنه يُري أهل النار منازلهم في الجنة لو أنهم آمنوا بالله وأطاعوه لتزداد ندامتهم وحسرتهم والعياذ بالله. وعند ذلك يقول الواحد منهم: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: آية ٥٧] ثم إن الله يجعل مساكن أهل النار في الجنة لأهل الجنة، ومساكن أهل الجنة في النار لأهل النار، ومن استبدل مسكنه في الجنة بمسكن غيره في النار فصفقته خاسرة، فهو خاسر لا محالة، وذلك طرف من هذا الخسران الذي دلت عليه آيات القرآن العظيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٨].

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: آية ١٧٩] اللام موطئة لقسم محذوف، و (قد) حرف تحقيق تضمنت معنى التوكيد.

---

(١) في الأصل: (الآية) وهو سبق لسان.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩) من هذه السورة.

و﴿ذَرَأْنَا﴾ معناه: خلقنا. العرب تقول: ذرأ الله الخلق. أي: خلقه. فصيغة الجمع في قوله: ﴿ذَرَأْنَا﴾ صيغة تعظيم؛ لأن الله خلق خلقاً للنار فقال: هؤلاء في النار ولا أُبالي.

وقوله: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ بعض العلماء يقول: هي طبقة من طبقات جهنم، ولكنها تطلق على جميع طبقات النار، كما قال تعالى في جهنم: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: آية ٤٤] فجهنم تطلق على جميع طبقات النار، وإن كان بعض العلماء يزعم أنها طبقة من طبقاتها السبع.

واختلف العلماء في لفظة (جهنم) هل أصلها عربية أو مُعَرَّبة[(١)]؟ بناء على قول من يقول: إن في القرآن كلمات مُعَرَّبة[(٢)]. والتحقيق الذي هو الأشبة أن القرآن كله عربي إلا الأعلام. وما دمنا نقول: أخذ العرب هذه الكلمة من الجيل العجمي الفلاني فلِمَ لا نقول: إن ذلك الجيل الأعجمي أخذها عن العرب؟ الكل محتمل ولا دليل على أنه أخذها خصوص هؤلاء عن هؤلاء، فعلينا أن نتمسك بالعموم في قوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: آية ١٩٥] ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: آية ٢] ولا خلاف في الأعلام أن فيه أعلاماً عجمية. هذا لا نزاع فيه؛ لأن العَلَم يُحكىٰ بلفظه في أي لغة كان كما هو معروف.

وقال بعض العلماء الذين يقولون إن في القرآن مُعَرَّباً: إن (جهنم) أصلها فارسية. والذين قالوا هذا القول يزعمون أن في الفارسية القديمة إطلاق (كَهَنَّام) على النار، وأنها عَرَّبتها العرب وأبدلت الكاف جيماً، والله أعلم بصحة هذا.

وقال جماعة من علماء العربية[(٣)]: أصل الكلمة عربية، ووزنها بالميزان الصرفي (فَعَنَّل) فالنون المشددة زائدة، وأصل الحروف الأصلية: الجيم في

---

(١) انظر: اللسان (مادة: جهنم) (٥٢٥/١)، الدر المصون (٣٥٥/٢).

(٢) في هذه المسألة انظر: الرسالة (٤١ ـ ٥٣)، ابن جرير (١٣/١)، ابن عطية (٣٦/١)، القرطبي (٦٨/١)، ابن كثير (٨/١)، البحر المحيط للزركشي (٤٤٩/١)، (١٧٠/٢)، شرح الكوكب (١٩٢/١).

(٣) انظر: الدر المصون (٣٥٥/٢).

مكان الفاء، والهاء في مكان العين، والميم في مكان اللام، من: جَهَمَه يَجْهَمُه وتَجَهَّمَهُ إذا عبس في وجهه وقَطَّبَ وجهه وعقده فيه. قالوا: سُميت (جهنم) لأنها تلقى من يدخلها بوجه عابس مقطب متجهم، وأنهم تعبس وجوههم، وتَجَهَّم فيها من شدة ما يلاقون من عذابها والعياذ بالله. وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول عمرو بن الفضفاض الجهني[١]:

لا تَجْهَمينَا أُمَّ عمرو فإنَّما بنا داء ظَبْيٍ لم تخُنْهُ عوامِلُه

ومن هذا المعنى قول مسلم بن الوليد الأنصاري، وإن كان شعره يصلح مثالًا لا شاهداً لتأخر وقته[٢]:

شكوتُ إليها حُبَّهَا فتبَسَّمَتْ ولَمْ أَرَ شَمْساً قَبْلَهَا تَتَبَسَّمُ
فقلتُ لها جُودي فأَبدتْ تَجَهُّماً لتقتلني يا حُسْنها إذ تَجَهَّمُ

وهذا معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي: خلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ أي: لصيرورتهم إلى النار يوم القيامة ﴿كَثِيرًا﴾ خلقاً كثيراً ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ لأن الجن يدخلون النار بلا خلاف إذا عصوا الله كما قالوا: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: آية ٣١] ولا خلاف بين العلماء أن النبي ﷺ مرسل للإنس والجن، وأن كفار الجن يدخلون النَّار، وإنما اختلفوا في المؤمنين من الجن هل يدخلون الجنة أو لا يدخلونها[٣]؟ فشذ قوم وقالوا: إن المؤمنين من الجن لا يدخلون الجنة وإنما جزاؤهم الإجارة من النار، واستدلوا لهذا بدليل لا ينهض، وهو ظاهر قوله تعالى: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قالوا: دلت الآية على أن إجابتهم داعي الله والإيمان به إنما ينالون منها غفران الذنوب والإجارة من العذاب دون دخول الجنة. والظاهر أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنَّة كالمؤمنين من الإنس، وقد دلت على هذا آيات من كتاب الله قال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ

---

(١) البيت في اللسان (مادة: جهم) (٥٢٤/١)، الأضواء (٤٧٣/٢).
(٢) البيتان في ديوانه ص١٤٣، وهما في الأضواء (٤٧٣/٢).
(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأعراف.

قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: آية ٥٦] فَفُهِم منه أن في الجنة جاناً يطمثون النساء. ومن أصرح الأدلة ـ أن الجن يدخلون الجَنَّة ـ قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: آية ٤٦] فهذا شامل للإنس والجن يقيناً بدليل قوله بعده مخاطباً للجن والإنس: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: آية ١٣] وهذا نصٌّ قرآني لم يقم ما يعارضه فلا ينبغي العدول عنه. وهذا معنى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: آية ١٧٩].

ثم إنه تعالى ذكر صفات الكفار الأشقياء الذين سبق في علم الله أنه خلقهم للنار، وأنهم يعملون بعمل أهل النار، ذكر صفاتهم الكاشفة قال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ بين أنه خلق لهم قلوباً، وخلق لهم أعيناً، وخلق لهم آذاناً، إلا أنهم لا يفقهون بقلوبهم الحق، ولا يبصرون بأعينهم الحق، ولا يسمعون بآذانهم الحق والعياذ بالله كما قال تعالى عنهم: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الأحقاف: آية ٢٦]، ولذا قال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٧٩] القلوب: جمع قلب، وهو عضو من الإنسان معروف يزعمون أنه على هيئة حَبِّ الصنوبر.

وقوله: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الفقه في لغة العرب معناه: الفهم والإدراك، أي: لا يفهمون بهذه القلوب عن الله؛ لأن الله لم ينفعهم بها (والعياذ بالله)، كما قال: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأحقاف: آية ٢٦] ونفيه الفقه عن القلوب يدل كما ذكرنا مراراً[1] على أن مركز العقل هو القلب لا الدماغ كما يقوله الإفرنج، ومما يؤسفنا أن عامة المسلمين لا يكاد في الوقت الحاضر ـ لجهلهم ـ لا يكاد يختلف من عامتهم اثنان في أن العقل في الدماغ. ويقولون: هذا ليس له مخ. يعنون: ليس له دماغ، قاطعين بأن العقل في الدماغ، والله يصرح بأن العقل في القلب. ولا شك أن الذي خلق نور العقل وجعله في العبد ونوّره به هو أعلم بالموضع الذي وضعه فيه من كفرة الإفرنج ـ قبّحهم الله ـ ومن

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

فلسفتهم الكاذبة. فالذي يقول: ليس الفقه في القلوب كالذي يقول: ليس الإبصار بالعيون، وليس السماع بالآذان؛ لأن الله قال: ﴿قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ ﴿أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ﴿ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ فدل على أن الإبصار بالعين، والسماع بالأذن، والفقه بالقلب.

وهذا أمر معروف لا تكاد تحصي الآيات الدالة عليه في القرآن؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الله (جل وعلا) نفىٰ عنهم الفقه بتاتاً. أي: الفهم، ونفىٰ عنهم الإبصار، ونفىٰ عنهم السماع، والمراد بهذا كما دلت عليه آيات كثيرة من كتاب الله: أن الفقه المنفي هو الفقه عن الله النافع الذي يوصل لطاعة الله والإيمان به، والإبصار المنفي: هو إبصار الآيات النافع الذي يرشد صاحبه إلى الإيمان، والسماع المنفي: هو السماع النافع الذي يسمع صاحبه به ما ينفعه. وهذا أسلوب من أساليب اللغة العربية؛ لأنَّ القرآن العظيم نزل بلسان عربي مبين، ومن أساليب اللغة العربية: أنهم يطلقون الصمم على السماع الذي لا جدوىٰ فيه، فإذا كان الإنسان لا ينتفع بسمعه انتفاعاً صحيحاً يقولون: «هذا أصم» وهو يسمع. وهذا أسلوب معروف في كلامهم، ومنه قول قَعنب بن أم صاحب[(١)]:

صُمٌّ إذا سَمِعُوْا خَيْراً ذُكِرْتُ به وإنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدهُم أَذِنوا

فقال: «صُمٌّ إذا سمعوا» فصرح بأنهمْ صمٌّ، وأنهمْ يسمعون؛ لأنَّ ذلك السماع الذي لمْ تترتب عليه فائدة حكمه حكم الصمم، ومنه قول الآخر[(٢)]:

أَصَمُّ عنْ الأَمْرِ الذي لا أُرِيدُهُ وأَسْمَعُ خَلْقِ الله حينَ أُريدُ

وقول الآخر[(٣)]:

قُلْ ما بَدىٰ لك من زُورٍ ومن كَذِبٍ حِلْمِيْ أَصَمّ وأُذني غير صَمَّاء

---

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام.

(٢) البيت في شواهد الكشاف ص٢٦، وأوله: «أصم عن الشيء...».

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام.

وقول الآخر[1]:

فـأَصْـمَـمْـتُ عَـمْـراً وأَعْـمَـيْـتُـه عـن الـجُـودِ والـفَـخْـرِ يـومَ الـفَـخَـارِ

وهذا أسلوب معروف مطروق في كلام العرب، نزل به القرآن لأنه بلسان عربي مبين. وهذا معنى قوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ الآذان: جمع أذن. والأعين: جمع عين، وجمعهما على (أَفْعُلٌ) و (أفعال) ليس للقلة. والمقرر[2] في علم العربية: أن جموع القلة لا تكون إلا في النكرات؛ لأنها بالمعرفات تكتسي العموم من أداة التعريف فتكون جمع تكثير. وهنا هي مُنكَّرات وهي جموع قلة، إلا أن محل كونها جموع قلّة ما لم يقم دليل على أنها تُراد بها الكثرة كما هنا، وكما هو معروف في محله.

وقوله: ﴿ءَاذَانٌ﴾ أصله (أَأْذَان) جمع (أُذن) مجموعة على (أَفْعال) أُبدلت الهمزة الثانية مداً للأُولى على القاعدة التصريفية المجمع عليها[3]. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون الذين ذرأهم الله للنار، ولم ينفعهم بقلوبهم، ولا بأسماعهم، ولا بأعينهم ﴿كَالْأَنْعَٰمِ﴾ الأنعام: تقدم في سورة الأنعام أنها أصناف الإبل والبقر والغنم؛ لأن الأنعام إذا صاح بها راعيها تسمع ما يقول ولكنها لا تنتفع به؛ فلو صاح بإبله أو غنمه وقال: اذهبي إلى عُدْوَةِ الوادي الفلانية فإن فيها خصباً، واحذري من عُدْوَتِه الفلانية فإن فيها جدباً وسباعاً. فإنها تسمع صوته ولكن لا تفهم هذا ولا تنتفع به، كما تقدم إيضاحه في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: آية ١٧١] ولذا قال هنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَالْأَنْعَٰمِ﴾ تسمع الأصوات ولا تفهم ما فيها فهماً ينفع، كما أن هؤلاء يسمعون الأصوات ولا يفهمون عن الله فهماً يجرهم إلى الإيمان. ثم أضرب، قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام؛ لأن الأنعام ربما تهتدي لبعض

---

(١) البيت في الخصائص (٢٥٤/٣)، شواهد الكشاف ص٤٠. وشطره الثاني هكذا: «عن الفخر والجود...».

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٢٠.

مصالحها، تذهب إلى المحل الذي فيه المرعىٰ فترعىٰ فيه، وتروح عن محل الجدب، وإذا رأت صاحبها الذي يسقيها ويطعمها فرحت به وتبعته، وهؤلاء يعادون ربهم ولا يفعلون شيئاً ينفعهم ـ والعياذ بالله ـ فهم أضل من الأنعام.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الذين استولت على قلوبهم الغفلة لا يفهمون عن الله شيئاً ـ والعياذ بالله ـ. وهذا معنى قوله: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٩].

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: آية ١٨٠] لله (جل وعلا) الأسماء الحسنى، والحسنى: تأنيث الأحسن، وهو صيغة تفضيل الأحسن الذي هو أحسن من غيره، والحسنى التي هي أحسن من غيرها. وأفرد نعت الأسماء في قوله: ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ لما تقرر في علم العربية من أن ثلاثة من الجموع أعني جمع المكسر بنوعيه، وجمع التأنيث، كلٌّ منها يجري مجرىٰ الواحدة المؤنثة المجازية التأنيث[1]، ومثله كثير، كقوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: آية ١٨] ﴿لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً﴾ [الأنعام: آية ١٩].

قال بعض العلماء: سبب نزول هذه الآية: أن رجلًا من المسلمين قال: يا الله، يا رحمن. فقال واحد من كفار مكة: كيف يقول محمد: إن الإله واحد، ثم إنه يدعو إلهين: أحدهما: الله، والثاني: الرحمن؟! فأنزل الله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ وأنزل قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: آية ١١٠][2].

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أسماء الله حسنىٰ، أي: هي أحسن شيء؛ لأن الحسنى صيغة تفضيل، هي أفضل من كل شيء في الحُسن والجمال لمَّا تدل عليه من صفات الكمال والجلال الموصوف بها خالقنا (جل وعلا) تقدس وتعاظم وتنزه؛ لأن أسماءه تدل على صفات كماله وجلاله جل وعلا.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٤) من سورة الأنعام.

(٢) الأثر بهذا السياق ـ من دون الآية الثانية ـ أورده القرطبي عن مقاتل من غير ذكر من خرّجه. وقد وردت بعض الآثار في سبب نزول الآية الثانية ذكرها السيوطي في الدر (٢٠٦/٤)، وكلها مرفوعة إلى النبي ﷺ وليس هذا الأثر منها.

﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ فادعوه بتلك الأسماء كأن تقول: يا رحمن ارحمنا، يا رحيم ارحمني. قال بعض العلماء: تقول: يا رحيم ارحمني، يا رازق ارزقني، يا حكيم احكم لي. ولا تقول: يا حكيم اغفر لي، أو: يا رزاق ارحمني. والتحقيق أن هذا كله جائز؛ لأن أسماء الله متلازمة، كل صفة في واحد منها تستلزم جميع الصفات الأخرىٰ لعظمة صفاته (جل وعلا)، واستلزام كل واحدة منها غاية الكمال والجلال، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»**[1] هذا حديث صحيح معروف، وقد جاء عَدُّ أسمائه عن بعض الناس، ذكره الترمذي، وذكر غيره روايات فيها بعض الأسماء، والرواية التي ذكرها الترمذي تقريباً مائة وواحد تزيد باثنين[2]، وهي معروفة[3]، وجاءت روايات في السنن وأخرج

---

(١) البخاري في الشروط، باب: ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار والشروط التي يتعارفها الناس. حديث رقم (٢٧٣٦)، (٣٥٤/٥)، وأخرجه في مواضع أخرى كما في الأحاديث (٦٤١٠)، (٧٣٩٢)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها. حديث رقم (٢٦٧٧)، (٢٠٦٢/٤)، من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) دون سرد الأسماء.

(٢) أي: على التسعة والتسعين.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات، حديث رقم (٣٥٠٧)، (٥٣٠/٥)، وعقبه بقوله: «هذا حديث غريب، حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث. وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، ولا نعلم في كَثِيرِ شيءٍ من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. وقد روى آدم بن أبي إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وذكر فيه الأسماء وليس له إسناد صحيح» ا.هـ. (٥٣١/٥، ٥٣٢)، وأخرجه ابن ماجه في الدعاء، باب أسماء الله عز وجل. حديث رقم (٣٨٦١)، (١٢٦٩/٢ ـ ١٢٧٠)، والحاكم (١٦/١، ١٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات ص١٥، وفي الاعتقاد ص١٣، وفي شعب الإيمان (٢٧٧/١)، وفي سننه (٢٧/١٠ ـ ١٨)، والبغوي في شرح السنة (٣٢/٥)، كلهم من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه). وهذه الرواية لا تصح والله أعلم. وقد أطال الحافظ (رحمه الله) في الكلام على هذا الحديث سنداً ومتناً. انظر الفتح (٢١٤/١١ ـ ٢١٩). وانظر: الفتاوى (٣٧٩/٦ ـ ٣٨٢)، (٤٨١/٢٢ ـ ٤٨٦)، درء التعارض (٣٣٢/٣)، وقد صرح جمع من أهل العلم بأن سرد الأسماء في الرواية أنه مدرج. انظر: سبل السلام (٢٤/٤)، موقف ابن تيمية من الأشاعرة (١٠٤٠/٣).

الحاكم بعضها وصححه تذكر بعض أسماء الله جل وعلا.

والمحققون من العلماء يقولون: إن أسماء الله لا تُحصر في ذلك، كما دل عليه الحديث المشهور حديث ابن مسعود الذي بيّن فيه النبي ﷺ أن كل من أصابه حزن - مثلًا - أو غم إذا دعا به أذهب الله حزنه وأبدله له سروراً، وهو حديث معروف مشهور: **«اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسَك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور بصري، وشفاء صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي»**[1]. ومحل الشاهد منه: قوله ﷺ فيه: **«أو استأثرت به في علم الغيب عندك»** فدل أن له أسماء استأثر بها في علم الغيب عنده. وهذا هو الأصح؛ لأن صفاته (جل وعلا) الحسنى لا تحصىٰ، وأسماءه لا يحصيها غيره (جلّ وعلا). وقد جاء في رواية الترمذي[2] أنه لمَّا ذكر الحديث الذي أصله في الصحيحين: **«إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائةً إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو جلَّ وعلا وتر يحب الوتر** - أنه سردها كما يلي - **هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن، الرحيم، الملك، القُدُّوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارىء، المُصَوِّر، الغفار[3]، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المُعِزُّ، المُذِل، السميع، البصير، الحَكَم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المُقِيت، الحسيب، الجليل، الكريم،**

---

(١) أحمد (٣٩١/١، ٤٥٢)، والحاكم (٥٠٩/١ - ٥١٠)، وقال: «صحيح على شرط مسلم إن سلم من إرسال عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه؛ فإنه مختلف في سماعه من أبيه» ا.هـ. والبيهقي في الأسماء والصفات ص١٨، وابن حبان (الإحسان) (١٦٠/٢)، وأبو يعلى (١٩٨/٩ - ١٩٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة ص١٣٣، وقال أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٢٦٦/٥): «إسناده صحيح» ا.هـ. ويشهد له أيضاً حديث أبي موسى (رضي الله عنه) عند الطبراني وابن السني.

(٢) تقدم تخريجه قريباً.

(٣) يأتي بعده في رواية الترمذي: (القهار) وقد سقط هنا.

الرقيب، المُجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المُحصي، المُبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد[١]، الفرد[٢]، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البَرُّ، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المُقْسِط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور». هكذا ذكره، وذكر بعضهم في السنن وغيره زيادات على هذا ونقصاً[٣]. وبعض المحققين يقولون: إن هذا مدرج في الحديث الصحيح جمعه العلماء من القرآن[٤]. وكان ابن العربي يقول: إنه جمع حوالي ألف اسم من القرآن العظيم والأحاديث الصحيحة[٥].

---

(١)(٢) هذان الاسمان غير موجودين في رواية الترمذي التي أشار لها الشيخ رحمه الله. و(الأحد) ضمن الأسماء المذكورة في أحد روايتي الحاكم (١٧/١)، وهو عند ابن ماجه في السنن، كتاب الدعاء، باب أسماء الله عز وجل. حديث رقم: (٣٨٦١)، (١٢٧٠/٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات ص١٩، وعقبه بقوله: «تفرد بهذه الرواية عبدالعزيز بن الحصين بن الترجمان وهو ضعيف الحديث عند أهل النقل، ضعفه يحيى بن معين ومحمد بن إسماعيل البخاري» ا.هـ. وأخرجه أيضاً في كتاب الاعتقاد ص١٤. وأبو نعيم في جزئه في الأسماء الحسنى ص٢٠ (١٨)، وابن خزيمة في صحيحه كما في الفتح (٢١٦/١١).

وأما الفرد فقد ساق فيه البيهقي حديثين في كتابه الأسماء والصفات ص١٧، الأول منهما: عن جابر بن عبدالله (رضي الله عنهما) مرفوعاً. والثاني: عن محمد بن طلحة عن رجل مرفوعاً إلى النبي ﷺ. وعقبهما بقوله: «ليس هذا بالقوي وكذلك ما قبله» ا.هـ. كما ورد هذا الاسم من طريق الوليد بن مسلم عند أبي نعيم في تعداد الأسماء في جزئه في الأسماء الحسنى، وانظر الفتح (٢١٦/١١).

(٣) تقدم ضمن تخريج الحديث المتقدم قريباً.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٤٨٢/٢٢)، فتح الباري (٢١٤/١١ ـ ٢١٩).

(٥) قال في أحكام القرآن (٨٠٨/٢): «وعددناها على ما ورد في الكتاب والسنة وذكره الأئمة فانتهت إلى ستة وأربعين ومائة» ا.هـ. ثم سردها وعقب ذلك بقوله ص٨١٥: «هذا منتهى ما حضر من ذكر الأسماء للتضرع والابتهال، وقد بقي نحوٌ من ثلاثين اسماً ضمنّاها كتاب الأمد، هذه أصولها» ا.هـ. قال الحافظ في الفتح (٢٢٠/١١): «وحكى =

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: آية ١٨٠] (ذروا) معناه اتركوا: وصيغة الأمر هنا للتهديد على التحقيق، وقد تقرر في فن الأصول في مباحث الأمر، وفي فن المعاني: أنَّ من الصيغ التي تأتي لها (افْعَل) أنها تأتي للتهديد[1]. والتحقيق أن الصورة هنا للتهديد، وهو قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ بدليل قوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

والعرب تقول: أَلْحَد يُلحِدُ، ولَحَدَ يَلْحَدُ. إذا مال عن الحق، أصل (اللَّحد) في لغة العرب والإلحاد: الميل عن القصد والجور عنه، ومنه اللحد في القبر؛ لأنه حفر أُميل به عن وضعه الأول إلى جهة القبلة ولم يكن على سمت الحفر الأول.

وقرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حمزة: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ وقرأه حمزة من السبعة: **﴿وذروا الذين يَلْحَدُون في أسمائه﴾** بفتح الياء والحاء. وهما قراءتان صحيحتان[3]، ولغتان عربيتان فصيحتان.

ومعنى إلحادهم بالأسماء[4]: قال بعض العلماء: يلحدون فيها: يميلون فيها عن الحق، كاشتقاقهم اللات من اسم الله، واشتقاقهم العُزى من اسم العزيز، واشتقاقهم مناة من اسم المنان. وقال بعض العلماء: إلحادهم في أسماء الله: إنكارها، ومن أمثلة ذلك أن الله يقول: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤﴾ [الصافات: آية ٤] وهم يلحدون في اسمه الواحد، ويقولون: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ

= القاضي أبو بكر بن العربي عن بعضهم أن لله ألف اسم. قال ابن العربي: وهذا قليل فيها» ا.هـ ونقله أيضاً الأبي في شرحه لمسلم (١١٦/٧). وقال ابن القيم في زاد المعاد (٨٨/١): «وأما إن جُعل له ـ أي: النبي ﷺ ـ من كل وصف من أوصافه اسم تجاوزت أسماؤه المائتين... وفي هذا قال من قال من الناس: إن لله ألف اسم وللنبي ﷺ ألف اسم. قاله أبو الخطاب بن دحية، ومقصوده الأوصاف» ا.هـ.

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: الأضواء (٣٣٩/٢).

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٦.

(٤) في هذه المسألة انظر: بدائع الفوائد (١٦١/١ ـ ١٧٠)، القواعد المثلى ص١٦، المنهاج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (٥٥/١)، النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى (٣٦/١).

إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: آية ٥] وهذا من أعظم الإلحاد وأكبره. وقوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سيجزيهم الله يوم القيامة جزاء ما كانوا يعملونه في الدنيا، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً إلحادهم في أسمائه (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ جاء في بعض الآثار عن النبي ﷺ أنه قرأها وقال: «**هذه لكم وقد أُوتي القوم بين أيديكم مثلها**»[1] يعني قوم موسى. ثم قال: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: آية ١٥٩] وهذه الأمة لا شك أنها أمة ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾، وأنها تهدي بالحق وبه تعدل، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ من حديث معاوية بن أبي سفيان أنه (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم أو من خالفهم حتى يأتي أمر الله**»[2] أو كما قال ﷺ، وهذا معنى قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٩) من هذه السورة.

(٢) روى هذا الحديث جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، منهم:

١ ـ المغيرة بن شعبة عند البخاري في المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر. حديث رقم (٣٦٤٠)، (٦/٦٣٢)، وأطرافه في: (٧٣١١، ٧٤٥٩)، ومسلم في الإمارة، باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق. حديث رقم (١٩٢١)، (٣/١٥٢٣).

٢ ـ معاوية بن أبي سفيان عند البخاري في المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر. حديث رقم (٣٦٤١)، (٦/٦٣٢)، وأخرجه في موضع آخر برقم (٧٤٦٠)، ومسلم في الإمارة، باب: قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة...**» إلخ. حديث رقم (١٠٣٧)، (٣/١٥٢٤).

٣ ـ ثوبان عند مسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ: «**ولا تزال طائفة...**» إلخ. حديث رقم (١٩٢٠)، (٣/١٥٢٣).

٤ ـ جابر بن عبدالله. عند مسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ: «**ولا تزال طائفة...**» إلخ. حديث رقم (١٩٢٣)، (٣/١٥٢٤).

٥ ـ عقبة بن عامر. عند مسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة...**» إلخ. حديث رقم (١٩٢٤)، (٣/١٥٢٤ ـ ١٥٢٥).

=

﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ معناها: يهدون الناس بالحق، وهو اتباعه ﷺ والعمل بهذا القرآن ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ يعملون هم في أنفسهم؛ لأن من عمل به عدل وأصاب العدالة وتنحىٰ عن طرف الإفراط والتفريط؛ لأن العدالة هي التوسط بين الأمرين، والتجافي عن طرف الإفراط وطرف التفريط. وهذا معنى قوله: ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

٢٥/أ / ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾ [الأعراف: الآيات ١٨٢ ـ ١٨٧].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾ [الأعراف: الآيتان ١٨٢، ١٨٣].

بيّن الله (جل وعلا) في هذه الآية أنه سيستدرج الكافرين فيغدق عليهم نعمه وهم يصرون على الكفر به، حتى تبطرهم النعم وتتزايد غفلتهم، فيستمروا على ذلك حتى تنتهي آجالهم فيأخذهم الله (جل وعلا) في غفلتهم بعذابه وإهلاكه ثم يصيرون إلى النار.

= ٦ ـ معاوية بن قرة عن أبيه. عند أحمد (٤٣٦/٣)، (٣٤/٥)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء في الشام. حديث رقم: (٢١٩٢)، (٤٨٥/٤). وقال الترمذي: «وفي الباب عن عبدالله بن حوالة، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عمرو. وهذا حديث حسن صحيح» ا.هـ. وأخرجه ابن ماجه في المقدمة. باب اتباع سنة رسول الله ﷺ. حديث رقم (٦)، (٤/١ ـ ٥)، والروياني (١٢٩/٢ ـ ١٣٠).

٧ ـ عمر بن الخطاب عند الدارمي (١٣٣/٢)، والطيالسي ص٩، والحاكم (٤٤٩/٤).

٨ ـ أبو هريرة عند ابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ. حديث رقم: (٧)، (٥/١)، وابن عدي في الكامل (٢٥٤٥/٧). وانظر في تخريجه: السلسلة الصحيحة (٢٧٠).

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾: في محل مبتدأ والخبر جملة ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والتكذيب: الجحود والإنكار.

والآيات: جمع آية وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[1]: أنّ للآية في لغة العرب إطلاقين عربيّين مشهورين، وأنّ لها في القرآن إطلاقين أيضاً.

قال علماء التصريف[2]: التحقيق في الآية أنّ أصلها: (أَيَيَة)، ووزنها: (فَعَلَة) فهمزها: فاء، وعينها: ياء، ولامها: ياء، والياءان المفتوحتان بعد الهمزة قد اجتمع فيهما موجبا إعلالٍ، والمقرر في فنِّ التصريف: أنه إنْ اجتمع موجبا إعلال كان الإعلال في الأخير، إلا أنّه ربما وقع الإعلال في الأول كما هنا، فأعلوا الياء الأولى وأبدلوها ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها؛ ولو جرىٰ على الأغلب في اللغة، لكان الإعلال في الياء الأخيرة وقيل فيها: (أَيَاه)؛ وهنا أُعلّت الياء الأولى فأُبدلت ألفاً فقيل: آية.

والآية تطلق في اللغة العربية إطلاقين، أشهر إطلاقيها: أنْ تُطلق الآية على العلامة، تقول العرب: آية كذا، أي: علامته، ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ﴾ أي: علامة ملكه ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ [البقرة: آية ٢٤٨] فالآية: العلامة؛ وقد جاء في شعر نابغة ذبيان ـ وهو جاهلي ـ تفسير الآية بالعلامة حيث قال[3]:

تـوهـمـتُ آيـاتٍ لـهـا فـعـرفْـتُـهـا لـسـتـةِ أعـوامٍ وذا الـعـامُ سـابـعُ

ثم بيّن أن مقصوده بالآيات: علامات الدار وآثارها حيث قال[4]:

رَمَـادٌ كـكُـحْـلِ الـعَـيْـنِ لأياً أُبِـيـنُـه ونُؤيٌ كـجِذمِ الـحوضِ أَثْلَمُ خاشعُ

هذا الإطلاق في الآية المشهور.

الإطلاق الثاني: وهو أنّ العرب تطلق الآية وتريد بها الجماعة،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة البقرة.

(٤) السابق.

يقولون: «جاء بنو فلان بآيتهم» أي: بجماعتهم جميعاً وهو إطلاق معروف في كلام العرب، ومنه قول برج بن مسهر[١]:

خَرَجْنَا من النَّقْبَيْن لاَ حَيَّ مِثْلنا ... بآيَتِنَا نُزْجِيْ اللقَاحَ المَطَافِلاَ

أي: بجماعتنا. فهذان إطلاقا الآية في اللغة.

والآية في القرآن تطلق إطلاقين: تطلق الآية على الآية الكونية القدرية، وهي من الآية بمعنى: العلامة، وهي ما نصبه الله (جل وعلا) من آياته جاعلًا لها علامات على كمال قدرته، وأنّه الربُّ وحده، المعبود وحده، كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ...﴾ [آل عمران: آية ١٩٠] أي: لعلامات ودلالات واضحات على أنه الرب المستحق أنْ يُعبد وحده.

الإطلاق الثاني: تطلق الآية في القرآن على الآية الشرعية الدينيّة، كآيات هذا القرآن العظيم، وهو المراد هنا.

والآية الشرعية الدينية قال بعض العلماء: هي من العلامة أيضاً؛ لأنها علامة على صدق من جاء بها، لما تضمّنته من الإعجاز، أو لأن فيها علامات تعرف بها مبادئها ومقاطعها.

وقال بعض أهل العلم: الآية الشرعية من الآية بمعنى الجماعة؛ لأنها جماعة من كلمات القرآن مشتملة على بعض ما اشتمل عليه القرآن من الإعجاز والحلال والحرام والعقائد، وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ككفّار مكة وكل من كذب بآيات الله ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا وعيد الله. والسين حرف تنفيس، وقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أصله: (نَسْتَفْعِلُهم) ومنه: الاستدراج، والاستدراج: استفعال من الدَّرَجَة، والدرجة: واحدة طبقات السلَّم على أصح الأقوال. والمعنى: أنه يستنزلهم درجة درجة ومرتبة مرتبة، حتى يدنيهم إلى ما يشاء من إهلاكهم. فالعرب تقول: «استدرجه» إذا

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

أنزله درجة درجة إلى أنْ وصل إلى ما يقصده منه، أو استعلاه درجة درجة؛ وهذا معروف في كلام العرب أنّ الاستدراج هو الاستنزال درجة بعد درجة حتى يصل الإنسان إلى السوء الذي يراد منه؛ لأن الكفار أراد الله (جل وعلا) أنْ يهلكهم بعذابه المُسْتَأصل ويدخلهم النار لما كذبوا بآياته. فمعنى استدراجه لهم: أنّه يرسل عليهم هذه النعمة فيكثر خصب بلادهم وأرزاقهم وعافيتهم، وتلد نساؤهم ذكوراً، وتتزايد عليهم النعم وتتواتر، فعند ذلك يزدادون بطراً وكفراً فيقربون من الهلاك درجة، ثم إن الله (جل وعلا) يغدق عليهم نعماً أخرىٰ فتزيدهم بطراً إلى بطرهم، وكفراً إلى كفرهم، وغفلة إلى غفلتهم، فيقربون درجة أخرىٰ إلى هلاكهم، حتى إذا انتهت تلك الدرجات التي يستدنيهم الله فيها لما يريد منهم: جاءهم عذاب الله فأهلكهم وصاروا منه إلى الخلود في النار، كما قال (جل وعلا): ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: آية ٤٤] والعرب تعرف الاستدراج في لغتها وأنه تقريب الشيء درجة درجة إلى ما يراد منه، وهو معنى معروف في كلامها، ومنه قول الأعشى ميمون بن قيس[(١)]:

لئنْ كُنتَ في جُبٍّ ثمانينَ قَامةً ... ورُقِّيتَ أسبابَ السماءِ بسُلَّمِ
ليسْتَدْرِجَنْكَ القولُ حتى تَهرَّهُ ... وتَعْلمَ أني عنكُم غيرُ مُفْحَمِ
وتَشْرق بالأمرِ الذي قد أَذَعْتَه ... كما شَرِقَتْ صدرُ القناةِ من الدمِ

ومحل الشاهد منه قوله: «ليستدرجنك القول» أي: لينزلنك درجة درجة حتى ترىٰ ما تكرهه، وهذا معنى قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ أي: سنستدنيهم إلى إهلاكهم بتوافر النعم وتزايدها عليهم ليزدادوا بطراً وغفلة حتى يهلكهم الله وهم في أشدّ الغفلة.

﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقد قدمنا[(٢)] أنّ (حيث) كلمة تدل على

---

(١) ديوان الأعشى ص١٨٣.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

المكان كما تدل (حين) على الزمان، وربما ضُمِّنت معنى الشرط، يجوز في اللغة لا في القراءة تثليث فائها وإبدال (يائها) واواً كما هو معروف في محلِّه.

﴿مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: من المكان الذي لا يعلمون أنّا سنستدرجهم، بل هم يظنون أن تلك النعم مسابقة لهم في الخيرات، وأنهم ينالون بعد ذلك أحسن منه، كما قال جل وعلا: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون: الآيتان ٥٥، ٥٦].

ثم قال جل وعلا: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف: آية ١٨٣] عبّر في الفعل الأول بصيغة الجمع للتعظيم قال: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾ وعبّر في الثاني بهمزة المتكلم ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾ ومعنى قوله جل وعلا: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾ أي: سأملي لهم، وأصل مادة (أملى): وأملى يملي أصلها من (المَلاَوَة) بالواو، فلام المادة: واو. والمَلاَوَة: الزمن. ومعنى ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾: أؤَخِّرهم وأمهلهم مَلاَوَة، أي: زمناً غير قليل كما هو معروف، فالعرب تقول: «أمليت له» و «أملى له» إذا أخَّره مَلاَوَة من الزمن، فأصل الياء مبدلة من واو، والمَلاَوَة: هي الزمن، ومنه قوله تعالى عن أبي إبراهيم: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ [مريم: آية ٤٦] أصل إحدى الياءين واو. أي: زمناً غير قصير. وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول المهلهل يرثي أخاه كليباً[1]:

فتصدعتْ صُمُّ الجبالِ لفقده وبكتْ عليه المُرمِلاتُ مليّا

أي: مَلاَوَة من الزمن غير قليلة.

ومن هنا كانت العرب تقول لليل والنهار: المَلَوَانِ، ومنه قول تميم بن مقبل[2]:

ألاَ يا دِيَارَ الحيِّ بالسَّبُعَان أملَّ عليها بالبِلَى المَلَوَان

---

(١) البيت في القرطبي (١١١/١١)، البحر المحيط (١٩٥/٦)، الدر المصون (٦٠٦/٧). وشطره الأول: «فتصدعت صم الجبال لموته».

(٢) البيت في الطبري (٤٢١/٧)، اللسان (مادة: ملا) (٥٣٢/٣).

وتقول العرب: «مَلْوُ الليل والنهار» معناه: زمن الليل والنهار، ومنه قوله[١]:

نَـهـارٌ ولَـيْـلٌ دائِـمٌ مَـلَـواهُـمـا على كِـلِّ حـالِ الـمَـرءِ يَـخْـتَـلِـفَـانِ

وتقول العرب: «تمليت العيش» و «تملى فلان العيش» أي: عاش في حياته مَلَاوَة من الزمن، وهو معنى معروف في كلامها، ومنه قول الأعلم بن جرادة السعدي ـ أو شاعر آخر من شعراء تيم، أعني تيم الرباب ـ قوله[٢]:

ألَـمْ تَـرَ مـا لاقيتُ والدهر أعـصرٌ ومـن يـتـمـلَّ الـعـيش يَـرْأَى ويـسـمـعُ

فقوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ﴾ أي: أُمهلهم وأؤخرهم ملاوة من الزمن ـ والملاوة مثلثة الميم ـ أي: زمناً غير قصير، وأُنعم عليهم حتى يغتروا بتلك النعم فأُهلكهم وهم في أشد غفلة، هذا معنى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ﴾، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) أنّ النبي ﷺ قال: «**إن الله ليملي للظالم**» يعني: يمهله ويؤخره ملاوة من الزمن «**حتى إذا أخذه لم يفلته**» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[٣] [هود: آية ١٠٢].

قوله: ﴿إِنَّ كَيْدِى﴾ الكيد: في لغة العرب معناه: المكر، وهو أن يكون الفاعل يبطن غير ما يظهر، وسمى الله هذا الاستدراج كيداً لأن ظاهره إنعام وإغداق نعم وباطنه استدراج يستدنيهم به ويستدرجهم إلى الموت والعذاب الدائم الذي يخلدون فيه؛ ولذا قال: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي: استدراجي لهم بالنعم التي تبطرهم وتزيدهم غفلة وبطراً وتكبّراً عن قبول آيات الله، حتى يهلكوا وهم في أشد حالة من الحالات كفراً؛ هذا الكيد كيد الله (جل وعلا) ووصفه بأنه متين، والمتين من كل شيء: القوي الشديد القوة، وكيد الله (جل وعلا): متين، وكيد الله (جل وعلا) من أحسن ما

(١) البيت في اللسان (الموضع السابق).
(٢) البيت في المحتسب (١/١٢٩).
(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأنعام.

يكون، واقع موقعه، تصرف حكيم خبير، حيث أغدق النعم على هذا الكافر فغفل فأخذه في غرّة وغفلة، وعامله بما يستحقه من كفره، وهذا معنى قوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ [الأعراف: آية ١٨٤] قد تكلمنا مراراً على الواو والفاء وثم إذا جاءت بعد همزة الاستفهام[1] ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ يعني: يُعملوا أفكارهم، التفكر: هو أنْ يُعمل الإنسان فكره حتى يدرك حقيقة الشيء.

﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ المراد بـ (صاحبهم) نبينا محمد ﷺ و (الجِنّة) معناه: إصابة الجنون، معناه: أن محمداً ﷺ ليس بمجنون، فإنهم لو تفكروا وأعملوا أفكارهم وعقولهم علموا أنّه (صلوات الله وسلامه عليه) بعيد غاية البعد من الجنون، وأنه تام العقل، رصين العقل، يدعو إلى أحسن الطرق وأعظمها وأبينها، فليس به جنة، وهذا معنى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ أولم يتفكر هؤلاء الكفار المكذبون الزاعمون أنّ رسول الله ﷺ مجنون. ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ ويُعملوا أفكارهم ويرجعوا إلى عقولهم فيتحققوا أن صاحبهم ما به من جنة، ليس به جنون، بل هو (صلوات الله وسلامه عليه) بعيد من الجنون تام العقل، رؤوف رحيم بهم، يدعوهم إلى السعادة الأبدية، وصلاح الدنيا والآخرة.

قال بعض العلماء: صعد ﷺ على الصفا ودعا قبائل قريش، فدعاهم فخذاً فخذاً، وحذرهم عذاب الله ونقم الله، وقال واحد منهم: إن هذا لمجنون. فأنزل الله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾[2]. وهذا الجنون الذي رموه به نفاه الله عنه في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم: آية ٢] ﴿فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٨٩/١٣)، وابن أبي حاتم (١٦٢٤/٥) عن قتادة مرسلاً. وأورده السيوطي في الدر (١٤٩/٣)، وعزاه لعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: آية ٢٩] ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: آية ٤٦] فهذا معنى قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ [الأعراف: آية ١٨٤] ليس بمجنون صلوات الله وسلامه عليه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ما هو ﷺ إلا نذير مبين. النذير: فعيل بمعنى (مُفعِل) من الإنذار، والإنذار هو: الإعلام المقترن بتهديد خاصة، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً، والنذير بمعنى المُنْذِر، اسم فاعل: أنذره ينذره إذا أعلمه إعلاماً مقترناً بتهديد وتخويف من الله[١] إذا لم يطع أوامره (جل وعلا). والتحقيق: أن (الفعيل) في لغة العرب يأتي بمعنى (المُفْعِل) وهو موجود في القرآن وفي كلام العرب، فما يحكيه بعض علماء العربية عن الأصمعي من أن (الفعيل) لا يأتي في اللغة بمعنى (المُفْعِل) إن كان ثابتاً عنه فهو غير صحيح[٢]. و (الفَعِيْل) في اللغة والقرآن يأتي بمعنى (المُفْعِل) منه: النذير بمعنى المنذر، والأليم بمعنى المؤلم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم يؤلم وقعه صاحبه - والعياذ بالله - ومنه قول ذي الرمَّة[٣]:

وَيَرْفَعُ مِن صُدورٍ شَمَرْدَلاَتٍ يَصُكُّ وجُوهَهَا وَهَجٌ أَلِيْمٌ

أي: وهج مؤلم.

وهذا معروف في كلام العرب، ومنه قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي في مطلع عينيته المشهورة[٤]:

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعي السَّميع يُؤرقني وأَصْحَابِي هُجُوعُ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

وقوله: «السميع» معناه: المُسمع، ومنه قوله أيضاً فيها[١]:

وخيلٍ قَدْ دَلَفْتُ لها بخيلٍ تحيَّةُ بينهم ضربٌ وَجِيْع

أي: ضرب موجع. وهو معروف.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ المبين: اسم فاعل أبان يُبين، قال بعض العلماء: هو من (أبان) المتعدية. وعليه فالمفعول محذوف لعمومه، والمعنى: مُبِيْن نذارته، مصرح لكم في غاية البيان بما ينذركم الله به ويحذركم منه. وأكثر العلماء على أنّ قوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ صفة مشبهة هي الوصف من: (أبان) اللازمة، والعرب تقول: أبان الأمر يبين فهو مبين. لازمة بمعنى: وضح واتضح، وقد قدمنا هذا مراراً أنّ (أبان) بصيغة (أَفْعَل)، و(بيَّن) بصيغة (فعَّل) كلتاهما تأتي متعدية للمفعول وتأتي لازمة[٢]، فإتيان (أبان) متعدية معروف مشهور كقوله: «أبان له هذا الأمر، وأبان له حقيقة أمره» كما هو معروف، والعرب تقول: «أبان الشيء يبين». إذا ظهر واتضح، غير متعد للمفعول، وهو معنى معروف في كلامها، والصفة المشبهة منه (مبين)، وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي[٣]:

لو دَبَّ ذَرٌّ فوقَ ظاهرِ جِلْدِهَا لأَبَانَ من آثارهن حُدورُ

يعني: لظهر واتضح وبان من آثار النمل ورم. ومنه قول جرير[٤]:

إذا آباؤنَا وأبوكَ عُدُّوا أَبَانَ المُقْرِفَات من العِرَابِ

أي: ظهرت واتضحت، والمُبِيْنُ من هذا بمعنى: البين الواضح، ومنه قول كعب بن زهير في (بانت سعاد)[٥]:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من هذه السورة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

قَنْواءُ في حُرَّتَيْها للبصيرِ بها عِتْقٌ مُبينٌ وفي الخَدَّيْنِ تَسْهيلُ

فقوله: «عتقٌ مبينٌ» أي: كرم بيّن ظاهر.

وقد قدّمنا هذا مراراً. فعلى القول الأول (مبين): أي: مُبَيِّنٌ ما ينذركم ويحذركم به، موضح له بالتفصيل.

وعلى الثاني أنّه الصفة المشبهة من: (أبان) اللازمة، فمعنى: (مبين): نذير بيّن الإنذار واضحه، لا إشكال في إنذاره، وهذا معنى قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: آية ١٨٤].

ثم قال جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ [الأعراف: آية ١٨٥] النظر هنا هو النظر بالقلوب والتفكر والتدبر بها؛ لأن الله يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: آية ٤٦].

والملكوت: مصدر مَلَكَ يَمْلِك مُلْكاً ومَلَكُوتاً. والواو والتاء زيدتا للمبالغة، فالملكوت: الملك العظيم الهائل، كما دل على عظمه: زيادة الواو والتاء. ومعروف أن (الفَعَلُوت) بزيادة الواو والتاء في المصادر معروف في كلام العرب، كالرَّحَمُوت، والرَّغَبُوت، والرَّهَبُوت، والمَلَكُوت. فالملكوت معناه: المُلْك العظيم ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: في ملك الله العظيم في السماوات والأرض حيث رفع السماء بغير عمد ترونها وجعلها لا تتشقق ولا تتفطر ولا تحتاج إلى ترميم. والكفرة الفجرة أبناء الكلاب والخنازير الذين يدَّعون أنه ليس فوقنا سماء، وإنما هو فضاء ولا سماء فيه يُكذبون خالق السماوات والأرض لجهلهم وظلام قلوبهم بالكفر، فهي سبع سماوات مبنية وصفها الله بالشدة في قوله: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾ [النبأ: آية ١٢] وبيّن أنه بناها بقوّة هائلة ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: آية ٤٧] وأبعد سمكها ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: آية ٢٨]، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا

فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: الآيات ٦ ـ ٨] وهذا معنى قوله: ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ لفظة (ما) في محل خفض معطوف على المجرور ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وينظروا في ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ في السماوات من النجوم والشمس والقمر، وفي الأرض من البحار والجبال والثمار والمعادن والدواب ونحو ذلك مما يدل على كمال قدرة خالقه (جل وعلا). وأنه الرب المعبود وحده.

ثم قال: وينظروا أيضاً في ﴿أَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ (أنْ) هذه هي المخففة من الثقيلة، وإذا كان الفعل بعدها غير متصرف لا تحتاج إلى فصل بينها وبينه. إلى أنه ـ أي: الأمر والشأن ـ ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ وربما استُغني بالمصدر في (أن) وصلتها وصار فاعل (عسىٰ) واستغني به عن غيره.

قوله: ﴿قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: قد دنا وقت موتهم فيبادروا إلى تدارك ما يرضي الله لئلا يهلكوا.

وهذه الآية قد استدل بها علماء الأصول على أن صيغة الأمر تدل على الفور لا على التراخي[1]، كما رُوي عن الشافعي (رحمه الله)؛ لأن الله أمرهم بالنظر في ملكوته ليستدلوا على أن صانع هذا الكون واحد (جل وعلا)، وأنه المعبود وحده، وأنه يجب أن يُطاع وتُصدق رسله وتُمتثل أوامره. قال: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: آية ١٠١] ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: آية ١٨٥] وهددهم باحتمال اقتراب آجالهم خوف أن يفاجئهم الموت قبل أن ينظروا فيصيروا إلى النار. ولا شك أن هذه الآية تدل على أن أوامر الله ينبغي أن تكون على الفور وتُمتثل بسرعة؛

---

(١) انظر: مذكرة أصول الفقه ص١٩٦.

لأن الإنسان عسىٰ أن يكون قد اقترب أجله فيخترمه الموت قبل أن يمتثل. فاستدلال علماء الأصول بهذه الآية الكريمة على اقتضاء الأمر الفور استدلال صحيح وواقع موقعه، وقد دلت على ذلك اللغة أيضاً قال علماء العربية: لو قال السيد لعبده: «اسقني ماء». ثم إن العبد توانىٰ وأبطأ فأدبه سيده فليس للعبد أن يقول: صيغة الأمر في قولك: «اسقني ماء» لا تقتضي الفور، وإنما هي على التراخي، وكنت متراخياً في الامتثال؛ لأن الصيغة كذلك أفادت!! بل اللغة العربية تقتضي الفور كما دلت عليه هذه الآية. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾.

ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن العظيم مع وضوح أدلته، واتضاح معجزته، وكرامة ما يدعوا إليه من توحيد الله ومكارم الأخلاق والأفعال الحسنة، إذا كانوا لَمْ يؤمنوا بهذا ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ﴾ أي: بأي حديث غيره ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا بأحق الأحاديث بأن يُؤْمَنَ به، وأن يُصدق، وأن يُعظم، وأن يُعمل به، إذا لم يؤمنوا به فبأي حديث آخر يؤمنون؟! والمعنىٰ: أن من ترك الإيمان بما هو أحق شيء بأن يُؤمَن به لا يؤمن بشيء أبداً، إذ لو كانوا يؤمنون بشيء لآمنوا بهذا القرآن. فهو أسلوب عربي معروف، إذا كان الشيء أولىٰ من غيره بالمسألة يُقال: فبأي شيء بعد هذا تفعل؟ إذا لَمْ تفعله بأحق شيء فبأي شيء غيره تفعل؟! كما هو معروف في كلام العرب، ومن هذا المعنى قول الأعشى[1]:

صَدَّتْ هُريرةُ عنَّا ما تُكلمُنا جَهْلاً بأُمِّ خُليدٍ حَبْلَ مَنْ تَصِلُ

يعني: إذا لَمْ تصل حبالنا ونحن أكرم الناس وأحقها بوصل الحبال فمن تصل حبله بعدنا؟! وهذا أسلوب عربي معروف.

والله (جل وعلا) قد سمىٰ كتابه حديثاً؛ لأنه كلام رب العالمين ﴿اللَّهُ

---

(١) ديوان الأعشى ص١٣١.

نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: آية ٢٣] ولذا قال هنا: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٨٥].

ثم قال: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ (مَنْ) شرطية، ويضلله الله: يصرف إرادته وقدرته بإرادته وقدرته إلى طريق النار عن طريق الجنة والعياذ بالله.

﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: آية ١٨٦] ليس أحد يهديه بعد الله ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: آية ٤١] ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: آية ٣٧] ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: آية ٥٦] فمن هداه الله لا مضل له، ومن أضله الله لا هادي له. وهذا معنى قوله: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٨٦﴾.

في هذا الحرف ثلاث قراءات سبعية متواترة عن النبي ﷺ كلها صحيح لا نزاع فيها[١]: قرأه نافع وابن كثير وابن عامر: **﴿ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾** (بالنون) وصيغة الجمع يُراد بها التعظيم، عظَّم الله نفسه. وقرأه من السبعة: أبو عمرو، وعاصم في رواية حفص وشعبة: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ بياء الغيبة وضمّ الراء. وقرأه حمزة، والكسائي من الكوفيين: **﴿ويَذَرْهم في طغيانهم يعمهون﴾**.

وهذ الفعل المضارع معطوف على جزاء الشرط الذي هو قوله: ﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾؛ والمقرّر في علم العربيّة ـ كما هو مشهور في العربية ـ أنّ كل فعل عُطف على جزاء الشرط بفاء أو واو ففيه ثلاث لغات[٢]: يجوز فيه: الرفع، ويجوز فيه: الجزم، ويجوز فيه: النصب. فكلّه جائز، ولغات عربيّة

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٧.

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (٣١٨/٢).

معروفة، وقراءات صحيحة معروفة؛ لأنّ ﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ جزاء الشرط، وجزاء الشرط في محل جزم، فقراءة حمزة والكسائي جزموا ﴿ويذرْهم﴾ لأنه معطوف على جزاء الشرط وأصله مجزوم؛ والذين رفعوه لغة فصيحة وقراءة صحيحة[١]. وأما النصب: فهو لغة فصيحة، ولكنّه لم يقرأ به أحد من السبعة مع أنه لغة.

و (الطغيان) في لغة العرب[٢]: مجاوزة الحدّ؛ وهو مصدر: طغى يطغىٰ إذا جاوز حدّه، زيدت في مصدره الألف والنون كما زيدتا في: (الكفران) و (الرجحان) وطغى الشيء إذا جاوز حدَّه، ومنه قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: آية ١١] أي: جاوز الحدود التي يبلغها الماء عادة.

وقوله: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ قال بعض علماء العربية: (العَمَىٰ) بالألف يُطلق على عمىٰ العين وعمىٰ القلب، أما (العَمَه) بالهاء فلا يُطلق إلّا على عمىٰ القلب خاصة[٣]. فمعنى ﴿يَعْمَهُونَ﴾: يترددون حائرين لا يعرفون حقاً من باطل، ولا حسناً من قبيح، ولا ضلالاً من هدى لعمىٰ قلوبهم ـ والعياذ بالله ـ ومن تركه الله يتردد في ضلالته ولم يهده فهو الضال ـ والعياذ بالله ـ وهذا معنى قوله: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٨٦].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: آية ١٨٧].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ الساعة: القيامة، غلب عليها ذكر هذا اللفظ مع أن الساعة أصلها تطلق على كل وقت من الزمن. والتغليب ـ بأن يغلب الشيء العام على بعض ما يُراد به ـ أسلوب عربي معروف، كإطلاق العرب النجم على الثريا، مع أنه لكل نجم ونحو ذلك.

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٥٢٧).

(٢)(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٠) من سورة الأنعام.

والذين سألوه: قال بعض العلماء[١]: هم كفار مكة. وقال بعض العلماء: نفر من اليهود. ولا مانع من أن يكون كلٌّ منهم سألوه عنها. ولا شك أن كفار مكة كانوا يسألونه عن الساعة وينكرون مجيئها ويزعمون أنها لا تأتي، كما في قوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: آية ٦٣] وبيّن أن كفار مكة يستعجلون بها إنكاراً منهم لها، كما في قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى: آية ١٨] سواءٌ قلنا: إن السائلين عنها كفار مكة أو اليهود.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ (أيان): ظرف زمان بمعنى (متىٰ)[٢]. قال ابن جني: وزنه (فَعلان) أصله من «أيِّ» أي وقت يكون فيه هذا؟ فزيد فيه الألف والنون وبُني على الفتح لشبهه بالحرف الشبه المعنوي، كما هو معروف في محلِّه.

وعلى كل حال فـ (أيان) سؤال عن زمن، فهي من ظروف الزمان بمعنىٰ (متىٰ) وربما ضُمِّنت معنىٰ الشرط فجزمت فعلين.

وقوله: ﴿مُرْسَىٰهَا﴾ المُرسَى: اسم زمان، والمعنىٰ: في أي وقت يكون زمان رُسُوِّها، أي: وجودها وثبوتها. وقد تقرر في علم التصريف: أن كل فعل زاد ماضيه على ثلاثة حروف من الرباعي فصاعداً أنه يستوي وزن مصدره الميمي، واسم مكانه، واسم زمانه، وكلها بصيغة اسم المفعول، كما هو مقرر في محله مشهور[٣].

فالمُرْسىٰ هنا وزنه: (مُفْعَل) بصيغة المفعول، والألف في آخره أصلها مبدلة من واو، والمقرر في علم التصريف: أن كل ألف مبدلة من واو إذا كانت متطرفة رابعة فصاعداً أنها تُقلب ياءً بقياس مطرد في جميع اللغة

(١) انظر: ابن جرير (٢٩١/١٣).
(٢) انظر: الدر المصون (٥٢٩/٥)، اللسان (مادة: أين) (١٤٨/١).
(٣) انظر: التوضيح والتكميل (٨٣/٢).

العربية[١]. فالمُرْسىٰ وزنه: (مُفْعَل)[٢] بصيغة اسم المفعول، وهو اسم زمان، والفعل إذا زاد ماضيه على ثلاثة كان اسم زمانه واسم مكانه ومصدره الميمي كلها بوزن اسم المفعول كما هو معروف مقرر في محلّه[٣].

ومعنى: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ في أي وقت يكون رُسوها؟ أي: ثبوتها ووجودها بالفعل قائمة. وهذا سؤال منهم عن الوقت الذي يتحقق فيه وجود الساعة. ﴿قُلْ﴾ لهم يا نبي الله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ قد تقرر في فن الأصول في مباحث دليل الخطاب[٤] ـ أعني مفهوم المخالفة ـ وفي فن المعاني ـ في مبحث القصر ـ أن (إنّما) من صيغ [الحصر، فهي كالنفي][٥] والإثبات. وهو الصحيح ـ إن شاء الله ـ من كلام العلماء، والدليل عليه: أن (إنّما) توضع مكان النفي والإثبات، فدل ذلك على أنها صيغة حصر؛ لأن أعظم صيغ الحصر: النفي والإثبات، كقوله: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩﴾ [الصافات: آية ٣٩] ووضع موضعه في محل آخر: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: آية ١٦] ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: آية ٧٣] ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء: آية ١٧١] وهذا يدل على أن (إنما) أداة حصر، وهو التحقيق إن شاء الله.

﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ يُحصر علمها في خالق السماوات والأرض، لا يعلم وقت مجيئها لا رسول مرسل ولا ملك مقرب، ولا يعلمه إلّا الله. وهذا معنىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي: خالقي ومدبر شؤوني استأثر به عن خلقه. وقد قدمنا أنه ثبت في صحيح البخاري وغيره تفسير النبي ﷺ قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: آية ٥٩] بأنها الخمس المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ الآية[٦] [لقمان: آية ٣٤].

---

(١) انظر: المصدر السابق (٢/٤٩٤).
(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص١٢٥.
(٣) مضى عند تفسير الآية (٩٨) من سورة الأنعام.
(٤) مضى عند تفسير الآية (٦٥) من سورة الأعراف.
(٥) في الأصل: «العموم، فهي كالحصر» وهو سبق لسان.
(٦) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ أي: علم وقت رسوها ومجيئها وثبوتها عند ربي وحده لا يعلمه أحد من خلقه؛ لأنه لم يطلع عليه أحداً من خلقه.

﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ يجليها مضارع جلَّاها. والعرب تقول: جلى الأمر يُجَلِّيه إذا أظهره وأبرزه وبيّنه. ﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾ أي: لا يظهرها ويبرزها ويوجدها بالفعل في وقتها إلَّا هو[1]. قال بعض العلماء: اللام للتوقيت، فهي بمعنىٰ الفاء. أي: لا يظهرها في وقتها المقدر لها إلا هو وحده، فلا يعلم غيره وقتها. والعرب ربما جاءت باللام بمعنى في. يقولون: «وقع هذا الأمر لثلاث من الشهر الفلاني». أي: في تاريخ ثلاث.

وقال بعض العلماء: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا﴾ أي: لا يُظهر حقيقة خبرها ويكشف عن مكان وقتها بالتحقيق إلا هو وحده جل وعلا.

ثم قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اختلف العلماء في معنىٰ ثقلها في السماوات والأرض على قولين[2]: قال بعض العلماء: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خفيت عليهم فثقل عليهم خفاؤها؛ لأن كل شيء خفي على الإنسان ولمْ يعلمه ثقُل عليه. وهذا الوجه وإن كان ليس قريباً من الظاهر هو الذي اختاره كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبري (رحمه الله)، واستدل على اختياره له بأن ما بعده من الكلام وما قبله كله في معرض علم الساعة؛ لأن قبله: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ وبعده: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ فاختار أن المراد بقوله: ﴿ثَقُلَتْ﴾ أي: خفي علمها وثقل علىٰ الناس جهلها.

وقال بعض العلماء: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: كبرت الساعة وعظمت على أهل السماوات والأرض؛ لأنَّ ما فيها من الأهوال والأوجال يصعب على جميع الخلائق. وهذا أقرب.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٢٩٤).

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٢٩٥)، القرطبي (٧/٣٣٥).

وقال بعض العلماء: لا تطيقها السماوات والأرض؛ لأن السماوات تعجز عن حملها فتتشقق، وتتناثر النجوم، وتُلَفُّ الشمس، ويُخسف القمر، وأن الأرض تُرفع جبالها، وتُبدل الأرض غير الأرض فلا تطيقها السماوات والأرض وأنها تعظم وتثقل وتكبر على أهلها لشدة ما فيها من عظم الأهوال والأوجال. ولا شك أن الشيء الذي يدك الجبال؛ تُنزع الجبال من أماكنها، وتُسير بين السماء والأرض، ثم تُفتت وتطحن؛ لأن الله (جل وعلا) ذكر تغيير نظام هذا العالم، فبين في ذلك اليوم إن الجبال تُنزع من الأرض وتُطيَّر بين السماء والأرض، وهو قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النبأ: آية ٢٠] وقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: آية ٤٧] وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي: في ذلك اليوم بعد أن تُنزع من الأرض وتُسير بين السماء والأرض.

وما يزعمه بعض من لا علم له بأن ذلك في دار الدنيا، وأن الجبال سائرة في دورة الأرض، فهو تحريف لكتاب الله وتفسير له بغير معناه، وصاحبه سلخ آخر الآية من أولها؛ لأن أول الآية: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثم قال: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ [النمل: الآيتان ٨٧، ٨٨] أي: ويوم ينفخ في الصور فيفزع من في السماوات والأرض ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ في ذلك اليوم ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ﴾ [النمل: آية ٨٨] ومرورها ذلك اليوم هو سيرها المعبَّر عنه بقوله: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: آية ٢٠] وقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: آية ٤٧] ثم إنّ رب السماوات والأرض يطحن تلك الجبال بقوته، فقساوة الجبال وشدتها عنده لا شيء لعظمته وكمال قدرته فيطحنها (جل وعلا) ويفتتها؛ وبعد تفتيتها: مرّة شُبهت بالبسيسة - والبسيسة: دقيق ملتوت بسمن - وهو قوله: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ [الواقعة: آية ٥] أي: فُتت حتى صارت كالبسيسة. وتارة شبهها في لينها وانتزاع القسوة منها بالعهن المنفوش، كقوله: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ [القارعة: آية ٩]. وتارة شبّهها بالرمل الليّن المتهايل في قوله: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: آية ١٤]. ثم إن الله (جل وعلا) يصيرها في آخر أمرها سراباً كما

قال: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ والسراب يقرب معناه من الهباء المنبث، فهذا معنى قوله: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما كان هكذا: يفتت الجبال، ويزعزع الأرض لا ترىٰ فيها عوجاً ولا أمتاً، وتتشقق فيه السماء، وتتناثر النجوم، ويسقط الشمس والقمر، وتفجّر البحار بعضها مع بعض فلا يخفىٰ ثقل هذا اليوم على أهل السماوات والأرض لشدّة أهواله وأوجاله.

وقوله: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ حكم الله (جل وعلا) أنّ القيامة لا تقوم على الناس إلا بغتة، أي: في حال كونها باغتة لهم، أي: مفاجئة لهم، وقد ثبتت الأحاديث عن النبي ﷺ: أن الساعة تقوم على الناس وهمْ في أشغالهم، الرجل منصرف بلبن لقحته فتقوم الساعة قبل أن يشربه، والرجلان يتبايعان ثوبهما فتقوم الساعة قبل أن يتبايعا، والرجل يصلح حوضه ليسقي فيه فتقوم الساعة قبل أن يصلحه، وهكذا. وقد يذهب الرجل ليأتي أهله بحاجة من السوق فتقوم الساعة ولا يقدر على أن يوادعهم ولا أن يوادعوه، كما قال جل وعلا: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝٥٠﴾ [يس: آية ٥٠] فهي تفاجيء الناس وهم في أشدّ غفلة، فتأتيهم فتهلكهم جميعاً، وهذا معنى قوله: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ في قوله: ﴿كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ وجهان من التفسير[(١)]:

أحدهما: أن الحفيّ هو من الحفاوة، والحفاوة: الكرامة، تقول: فلان حفيٌّ بي. أي: أنا كريم عليه، ولقيت منه حفاوة. أي: كرامة ولطفاً. ومنه قول إبراهيم: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: آية ٤٧] والذين ذكروا هذا القول زعموا أن كفار مكة قالوا للنبي ﷺ: ليس منا فخذ إلا بينك وبينها قرابة؛ فلأجل القرابة التي بيننا وبينك أَسِرّ لنا الوقت الذي تقوم فيه القيامة، أَسِرَّهُ إلينا عن الناس. فأنزل الله الآية[(٢)]. وعلى هذا القول

(١) انظر: ابن جرير (٢٩٧/١٣)، القرطبي (٣٣٦/٧).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٩٨/١٣)، عن قتادة مرسلاً.

ففي الآية تقديم وتأخير ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ عنها، عن وقت رُسُوِّها ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ﴾ كأنك صديق لهم وقريب لهم لتخبرهم بما لم تخبر به الناس. هذا القول قاله جماعة من العلماء. وأظهر القولين: أن المراد بالحفيّ هنا: الذي يستحفي السؤال ويتقصيه[1]، العرب تقول: «فلان يستحفي السؤال». معناها: يبالغ في السؤال عن الأمر ويتقصاه حتى يعلم حقيقته. يعني: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي: مبالِغ في تقصّي أخبارها ممن عنده خبرها حتىٰ تحققت جميع أخبارها والأمر بخلاف ذلك. والعرب تقول: «فلان حفيّ» أي: كثير السؤال عن هذا الشيء، يتقصّىٰ السؤال عنه حتىٰ يعرفه، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الأعشى[2]:

فإنْ تَسْألي عَنّي فيا رُبَّ سَائِلٍ حَفيٌّ عن الأعشىٰ به حيثُ أَصْعَدَا

والوجهان متقاربان، والأخير أقرب. وهذا معنى قوله: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم يا نبي الله ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ كَرَّرَ ردَّ علمها إلى الله ليُعْلِم الخلق أنها لا يعلمها إلا الله.

وقال بعض العلماء: العِلْمَان ليسا شيئاً واحداً ـ أعني قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ ـ قال بعض العلماء[3]: أحد العلمين: عِلْم عِظَمها وفظاعتها، فلا يعلمُ قدرها إلَّا من يجليها لوقتها. الوقت الثاني: علم وقت مجيئها بالتعيين. والظاهر أنه توكيد، والتوكيد أسلوب عربيّ معروف ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [النبأ: الآيتان ٤، ٥] وما جرى مجرى ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله (جل وعلا) استأثر بعلمها فهو (تعالىٰ) مستأثر بعلمها كما صرح به في آيات متعددة كقوله هنا: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وقوله في سورة الأحزاب: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ

---

(١) هكذا في الأصل، وهو من سبق اللسان، وصوابه: ويتقصّاه.

(٢) ديوان الأعشى ص٥٠.

(٣) انظر: القرطبي (٣٣٦/٧).

ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: آية ٦٣] وقوله في النازعات: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: الآيات ٤٢ ـ ٤٤] وقد ثبت في الصحيح في حديث جبريل لما أتى النبي ﷺ في صورة أعرابي وسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان، قال له: أخبرني عن الساعة. قال ﷺ: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»[1]. يعني لا نعلمها أنا ولا أنت؛ لأن الله استأثر بعلمها، والله (جل وعلا) استأثر بعلمها لمْ يُطلع عليه نبياً مرسلاً ولا ملكاً مقرباً.

/ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٨٨ ـ ١٩٠]. ٢٥/ب

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: آية ١٨٨].

أمر الله (جل وعلا) نبيه في هذه الآية الكريمة أن يقول معلناً لجميع الناس إنه (صلوات الله وسلامه عليه) ـ وهو أفضل خلق الله وأكرمهم على الله أنه لا يملك لنفسه نفعاً يجلبه إليها، ولا ضراً يدفعه عنها. فالكلام على حذف مضاف دل المُقام عليه ﴿نَفْعًا﴾ أي: جلب نفع لنفسي أنتفع به. وقوله: ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ أي: دفع ضرٍّ عن نفسي.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ خالقي (جل وعلا) أن يملكني إيَّاه ويعينني عليه ويقوِّيني عليه فإني أملكه بمعونة الله وقدرته ومشيئته. وهذه عادة الرسل الكرام (صلوات الله عليهم)، يبينون للخلق أن النافع والضار هو خالق

---

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

السماوات والأرض (جل وعلا) ليوجه الخلقُ إليه جميع رغباتهم ورهباتهم، وأولى الناس بهذا الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) وأتباعهم فإنهم يوجهون جميع رغباتهم ورهباتهم إلى من بيده النفع والضّر لينفعهم ويدفع عنه الضر، وهذا معنى قوله: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: ولا أعلم الغيب أيضاً. كما أمره أن يعلن ذلك ويقوله في سورة الأنعام في قوله مخاطباً لنبينا ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ الآية [الأنعام: آية ٥٠]. فأول رسول بعثه الله لأهل الأرض بعد أن كفروا هو نوح (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام)، أمره الله أن يقول هذا: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ [هود: آية ٣١] وآخر رسول بعثه الله وختم به الأنبياء: نبينا محمد ﷺ أمره أيضاً بذلك حيث قال له في الأنعام: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ [الأنعام: آية ٥٠] وقوله هنا، كأنه قال: ولا أعلم الغيب ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ اعلموا أولاً أن قول جماعة من المفسرين أن معنى: ﴿لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي: من العمل الصالح قول لا شك في أنه ليس بصحيح؛ لأنه ﷺ مستكثر من العمل الصالح على كل حال، وعمله ديمة (صلوات الله عليه وسلامه). وفي الآية للمفسرين أقوال معروفة[١]، التحقيق إن شاء الله فيها أن معنى قوله: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [الأعراف: آية ١٨٨] من المال ومن غير المال؛ لأنَّ من يعلم ما يكون يعلم الأسباب الذي تستوجب الأمراض فيتقيها فيبقىٰ صحيحاً، ويعلم أوقات الغيب التي يأتي الله فيها بالربح والغلاء والرخص فيدخر للغلاء عدته وللرخص عدته، ويعلم الغيب فيما إذا باع هذا أنه يربح وإذا اشترى هذا أنه يخسر، إلى غير ذلك، فهو دائماً يستكثر من الخير؛ لأن الناس إنما يُغبنون فيشترون شيئاً يخسرون فيه، أو يفعلون فعلاً يضرهم، أو يكون سبباً

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٣٠٢)، القرطبي (٧/٣٣٦).

لمرضهم إنما ذلك من عدم علمهم بالغيب. أمَّا من يعلم الغيب ويعلم ما يكون فإنه إذا اشترى هذه السلعة هو عالم هل يربح منها أو يخسر فيها، فلا يخسر أبداً، وكذلك يعلم إذا اشترىٰ المواشي والرقيق أن هذا يموت بسرعة وهذا يعيش كثيراً، وأنه إن فعل كذا أصابه المرض، فتجنب أسباب الغبن، وأسباب الأمراض، وصار لا يعمل إلاَّ ما فيه خير له لاطلاعه على عواقب الأمور، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ معطوف على جواب (لو) فهو في معنى جواب (لو) أي: ولو كنت أعلم الغيب ما مسني السوء؛ لأن من يعلم الغيب ويعلم متى يأتيه السوء وما سببه يتجنب أسباب السوء من أول، فلا يصل إليه السوء، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ فهو أعم من المال كما بيّنا.

﴿وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ يعني: ما أنا مالك لنفسي النفع ولا الضر، ولا أنا عالم بالغيب، كل ذلك إلى ربي، ولكني رسول من رب العالمين أُنذر من عصى الله بعقابه، وأُبشر من أطاع الله برضوانه وجنته، كما قال هنا: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٨٨] (إن) هنا هي النافية، والمعنى: ما أنا. وهذا القصر قصر إضافي ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾ قد قدمنا[1] بالأمس أن النذير بمعنى المنذر، وأن الإنذار هو الإعلام المقترن بتهديد، فكل إنذار إعلام وليس كل إعلام إنذاراً. ومعنى: (نذير) أي: منذر لمن عصى ربي وكفر به بالنار ﴿وَبَشِيرٌ﴾ أي: مبشر للمؤمنين بالجنة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: آية ٩٧] ونحو ذلك من الآيات.

والبشارة في لغة العرب أكثر ما تطلق على الإخبار بما يسرّ، فَبَشَّرَه وبَشَرَه معناه: أخبره بما يسره. قال بعض العلماء: قيل لها بشارة لأن السرور تظهر به حركة الدم فيظهر على بشرة الوجه آثار السرور. وربما

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

أطلقت العرب البشارة على الإخبار بما يسوء، والظاهر أن إطلاق العرب البشارة على الإخبار بما يسوء أسلوب عربي معروف، فما هو مقرر في علم البلاغة(1): أن إطلاق البشارة على الإخبار بما يسوء أنه من نوع الاستعارة التي يُسمونها بالعنادية(2) ـ ويقسمونها إلى تهكمية وتمليحية ـ الظاهر أن كل ذلك لا حاجة إليه وإن أطبق عليه المتأخرون؛ لأنها أساليب عربية نطقت بها العرب ونزل بها القرآن.

والعرب تطلق البشارة على الإخبار بما يسوء، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾ [الجاثية: الآيتان ٧، ٨] وإطلاق البشارة على ما يسوء إطلاق معروف، وأسلوب عربي معروف تكلمت به العرب في لغتها، ونزل به القرآن، ومنه في كلام العرب قوله(3):

يُبَشِّرُني الغُرابُ بِبَيْنِ أَهْلِي فَقُلْتُ لَهُ ثَكِلْتُكَ مِن بَشِيرِ

وقول الآخر(4):

وبَشَّرْتَني يا سَعْدُ أن أَحِبَّتي جَفُوني وقالوا: الودُّ موعدُهُ الحَشْرُ

هذا إخبار بما يسوء، وهذا معنى قوله: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٨٨].

الظاهر أنه (جل وعلا) في هذه الآية خص النذارة والبشارة بخصوص المؤمنين؛ لأنهم هم المنتفعون بها، [لأن غير المنتفع بها هي في شأنه كلا شيء. ونظير الآية من القرآن: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: آية ٤٥] مع أنه تذكير للأسود والأحمر، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ

---

(1) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

(2) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(3) السابق.

(4) السابق.

﴿ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: آية ١١] وهو منذر للأسود والأحمر، ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ [فاطر: آية ١٨] وهو منذر للأسود والأحمر. أي: بأنهم هم المنتفعون.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فالنفس الواحدة هي آدم عليه السلام، وزوجها حواء. و(جعل) تأتي في كلام العرب على أربعة أنحاء، ثلاثة منها في القرآن، والرابع موجود في لغة العرب وليس في القرآن. وهذه المعاني هي:

الأول: (جعل) بمعنى اعتقد. وهي تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر. ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ أي: اعتقدوا الملائكة إناثاً.

الثاني: (جعل) بمعنى (صيَّر) ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا﴾... أي: صيرنا شياطين الإنس والجن عدواً لكل نبي. وهي أيضاً...][1] تنصب المبتدأ والخبر أيضاً.

الثالث: جعل بمعنى (خلق)[2] ومنه قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: آية ١] أي: خلق الظلمات والنور، بدليل قوله: ﴿خَلَقَ﴾ قبله.

والظاهر أن هذا المعنى هو الذي منه قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: آية ١٨٩] أي: وخلق منها زوجها. وخير ما يُفسر به القرآن القرآن، وقد بيّنت آية النساء أن (جَعَل) هنا في سورة الأعراف وفي سورة الزمر معناها (خلق) لأن الله قال في أول سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وقد تم استدراك النقص المتعلق بتفسير الآية (١٨٨) من كلام الشيخ (رحمه الله) عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام. كما تم استدراك النقص الواقع في تفسير الآية (١٨٩) من كلام للشيخ (رحمه الله) عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام. وجعلت ذلك كله بين معقوفين.

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

﴿كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: آية ١] فقوله في النساء: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ دليل قرآني على أن قوله في الأعراف: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وقوله في الزمر: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: آية ٦] أن (جعل) فيهما بمعنى (خلق) وهذا هو الأظهر لدلالة القرآن عليه[(١)].

وقوله: ﴿زَوْجَهَا﴾ يعني: حواء، وقد قدمنا[(٢)] أن امرأة الرجل يُقال لها: (زوجُه) بلا تاء، وهذه هي اللغة الفصحىٰ، وهي لغة القرآن، وشذ قوم من علماء العربية فزعموا أن الزوجة بالتاء لحن، وأنها من كلام الفقهاء المَلْحُون، والتحقيق أن (الزوجة) بالتاء ـ لامرأة الرجل ـ أنها لغة لا لحن، إلَّا أن اللغة المشهورة الفصحىٰ أن تقول لامرأة الرجل: «هذه زَوجُه». ولو قلت: «هذه زوجته» لكانت لغة، ولم يكن لحناً، خلافاً لما ذكره بعض علماء العربية. ومن إطلاق الزوجة بالتاء على امرأة الرجل في كلام العرب: قول الفرزدق، وهو عربيٌّ فصيح[(٣)]:

وإنَّ الذي يَسْعَى ليُفْسِدَ زَوْجَتي ... كَسَاعٍ إلى أُسْد الشرى يستبيلها

وقول الحماسي[(٤)]:

فبكىٰ بناتي شَجْوَهُنَّ وزوجَتي ... والظَّاعنُونَ إليَّ ثم تَصَدَّعُوا

وفي صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي ﷺ قال في صفية: «**إنها زوجتي**»[(٥)] على القول بأن الحديث يُستدل بألفاظه في العربية. فقوله:

---

(١) وبقي المعنى الرابع من معاني (جعل) لم يذكر هنا وقد ذكره عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام، وهو بمعنى (شرع) وذكر هناك أنه ورد في اللغة ولم يرد في القرآن. فراجعه إن شئت.

(٢) انظر: القرطبي (١/٢٤٠)، اللسان (مادة: زوج).

(٣) البيت في المصدرين السابقين. و(الشرى) مأسدة بجانب الفرات يُضرب بها المثل. ومعنى (يستبيلها) أي: يأخذ بولها في يده.

(٤) البيت لعبدة بن الطبيب، وهو في الخصائص (٣/٢٩٥)، المفضليات ص١٤٨، أوضح المسالك (١/٣٥٩).

(٥) مسلم في السلام، باب بيان أنه يُستحب لمن رُؤي خالياً بامرأة وكانت زوجة أو محرماً له أن يقول: هذه فلانة ليدفع ظن السوء به. حديث رقم (٢١٧٤)، (٤/١٧١٢).

﴿جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ أي: خلق من هذه النفس الواحدة التي هي آدم زوجها، أي: امرأة آدم، التي هي الأم حواء. وقد بيّن (جل وعلا) أنه خلق حواء من آدم في ثلاث آيات من كتابه: الأولىٰ قد قدمناها في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النساء: آية ١] وقال هنا في الأعراف: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ يعني حواء. وقال في الزمر: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [الزمر: آية ٦] فهذه الآيات الثلاث لها شأن عظيم، وخطب جليل، وإشارات إلى أمور عظيمة، سنُلمْ بأطرافها بعض الإلمام: فاعلموا أيها الإخوان أن هذا القرآن العظيم هو كلام رب العالمين ونوره المبين الذي أنزله على خلقه ليستضيئوا بنوره، وقد يشير إلى جميع الأشياء ولا تكون في الدنيا مشكلة إلا أشار لها، وهذه الآيات الثلاث تضمنت حِكَماً لا بد من الإلمام بها والتنبه لها، كما علىٰ المسلمين أن يتفهموا ذلك.

اعلموا أن الله في هذه الآيات الثلاث من كتابه في سورة النساء، وفي سورة الأعراف، وفي سورة الزمر بيّن أنه خلق المرأة الأولىٰ ـ التي هي مبدأ نشأة إيجاد النساء خلقها ـ من ضلع الرجل الأول؛ لتعلموا بذلك أن ابتداء نشأة الأنثىٰ ومبدأ خلقها أنها لم تُخلق مستقلة في الوجود عن الرجل، بل خُلقت في أصل نشأتها الأولىٰ التي أنشأها الله عليها وجودها تابع لوجود الرجل، ومستندة في وجودها على وجوده. وهذا الأمر أمر كوني قدري جبل الله عليه إيجاد الأنثىٰ حيث أوجدها، وهذا الأمر الكوني القدري تحته لوازم عظيمة من عدم مساواة الرجل والأنثىٰ في عشرات الميادين لعدم مساواتهما في النشأة الأولىٰ والإيجاد الأول، فالرجل وُجد ونشأ أولًا مستقلًا بوجوده عنها، لم يتوقف وجوده على وجودها، وهي في نشأتها الأولىٰ وإيجادها الأول أُنشئت جزءاً منه، وجودها تابع لوجوده مستند إليه.

ولوازم هذه المسألة الكونية القدرية لم يهملها رب السماوات والأرض لأنه الحكيم الخبير، فَتَحْتَ هذه الإيجاد الأول لوازم تابعة له كثيرة قد جاءت مبينة في الحس والعقل والشرع الكريم، نُلم بشيء منها، وبهذا

تعلمون أن ملاحدة الإفرنج الكفرة وأتباعهم من الخفافيش الذين يزعمون أنهم مسلمون، الذين يقولون: «إن الأُنثىٰ كالرجل في جميع الميادين» يكذبون أولًا في النشأة الأولىٰ والإيجاد الأول، فإنهما عندما أراد الله إيجادهما لَمْ يبدأ إيجادهما بالتسوية، بل جعله إيجاداً متفاوتاً متبايناً، فجعل إيجاد هذا مستقلًا عن هذا، وجعل إيجاد هذا تابعاً لإيجاد هذا ومستنداً إليه، وهذا التبع الذي هو منشأ الأمر وأصله له لوازم رعاها الشرع (جل وعلا)، ورعاها الحسّ والعادة، وهي أمور سنبيّن أطرافاً منها ليعلم الناس أن ما قدَّره الله في كونه وأزله أنه قد يُراعه في شرعه، وأن من يريد أن يُغالب قدر الله هو المغلوب فالله (جل وعلا) هو خالق هذا الكون، وهو المتصرف فيه بما شاء، وهو المميز بين أجزائه، والمخالف بين أنواعه، وما خالف الله بينه منها لا يمكن أحداً أن يماثله، ومن أراد أن يماثله فإنه مغلوب عاجز لا محالة، كما قال كعب بن مالك في قريش[١]:

زعمتْ سَخِينَةُ أن ستغلب ربها   فليُغلبنَّ مُغالب الغلَّابِ

فمن لوازم كون المرأة تابعٌ وجودها لوجود الرجل، ومستند عليه، ليس مستقلًا له: أنه كان الطلاق بيد الرجل لا بيد المرأة، ونسبة الأولاد إلى الرجل لا إلى المرأة، والرجل يُفضل في الميراث على المرأة، والرجل يجمع بين امرأتين وثلاث وأربع، والمرأة لا تجمع بين رجلين ولا ثلاثة، إلى غير ذلك من الفوارق الشرعية، وهي حسية عقلية مستندة إلى فوارق كونية قدرية جبل الله عليها الجميع عندما أراد إيجاده، وسنلم ببعض الأطراف من هذا ليظهر للناس خزي فلسفة هؤلاء المتفلسفين الكفرة الفجرة ومن قلدهم من الخفافيش التي أعمت أنوار القرآن أبصارها.

---

(١) البيت في تاريخ دمشق (٤٠٥/١٢)، (١٩١/٥٠)، الاقتضاب شرح أدب الكُتَّاب للبطليوسي (٧٦/١)، اللسان (مادة: سخن)، (١١٦/٢)، أساس البلاغة (س، خ، ن)، تهذيب اللغة (١٧٧/٧)، (١٣٨/٨)، جمهرة اللغة (٥٨٣، ٦٠٠، ٨١٦)، تاج العروس (٤١٥/١)، (٢٤٨/٦)، (٢٣٢/٩).

خَفَافيشُ أعماها النهارُ بضَوئِهِ ووافَقَها قِطْعٌ من الليلِ مُظْلمُ[1]

يقولون مثلًا: لِمَ كان الطلاق بيد الرجل؟ ولِمَ لمْ يؤخذ رأي المرأة فيه؟ وهذا ظلم من شرع الإسلام للمرأة؛ لأن ابتداء العقد أولًا لمْ يقع حتى أُخذ رأيها فيه وأُخذ رأيهما معاً، فمن أين أعطىٰ الاستقالة للرجل وحده دون إذنها؟ ويُفلسفون هذه الفلسفات.

ونحن نقول: إنَّ كون الطلاق بيد الرجل هو الأمر المعقول الذي يشهد له الحس والفطرة والشرع، والنشأة الأولىٰ؛ لأنَّ من خلق الرجل وخلق المرأة ـ هو خالق هذا الكون، وهو أعلم بحقائقه وما يُصْلِحُ كُلًّا منه ـ صرح في محكم كتابه ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ أن النساء حروث ومزارع، قال تعالى في محكم كتابه: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٢٣] ولو حاول الإفرنج ما حاولوا أن يكذبوا قوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ لمْ يقدروا على كل حال؛ لأنه قول من خلق الجميع وفعلُه وكونُه وقدرُه لا يمكن أحد أن ينفيه؛ لأن الرجل لمْ يكن في بطنه رحم يتربىٰ فيها الولد، والنطفة المشاهدة أن تبذر في بطن المرأة، وأن تتربىٰ فيها كما يتربىٰ البذر في الأرض حتى يحصد تاماً، هذا أمر مشاهد يشهده الحس والعقل، لا يمكن المكابر أن ينكره: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ ومعلوم أن الحارث المزدرع فاعل، وأن الحقل المزروع مفعول به بطبيعة الحال وحقيقة الأمر الواقع المحسوس الذي لا يمكن أن ينكره المكابر. ومما يوضح هذا: أن آلة الازدراع ـ آلة التناسل ـ هي مع الرجل، فلو قلنا كما يقوله الإفرنج: إنه لا يتركها إلَّا برضاها، وأن ترضىٰ مفارقته إيَّاها، وصار مكرهاً عليها لا يريدها، فهو زارع مُرْغَم على حقل لا يريد الزراعة فيه، فإنها لو أرادت أن تجامعه لتحصل منه على ولد فأنا أؤكد لكم أنها لا تقدر، ولا ينتشر ذكره، ولا يقوم إليها، ولا تقدر أن تأخذ البذر منه بحال من الأحوال، بخلاف الرجل الذي هو بطبيعة الحال فاعل، والذي هو زارع ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: آية ٢٢٣] فإنه قد

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

يُحبلها وهي كارهة، فتكون في أشدِّ التمنع والكراهة ويُرغمها ويقهرها فتحمل. وقد كان العرب يقولون: إن المرأة التي حملت وهي مكرهة على الغَشَيَان أن ولدها لا يطاق أبداً، وهو أمر معروف عندهم مشاهد، ومنه قول أبي كبير الهذلي يصف رجلاً لا يطاق؛ لأن أُمَّه حملته شادَّة حزامها ونطاقها غير راضية بالمسيس(١):

ممن حَمَلْنَ به وهُنَّ عواقدٌ حُبكَ النِّطاقِ فَشَبَّ غير مُهبَّلِ
حملتْ به في ليلةٍ مَزْؤودَةٍ كَرْهاً وعَقْدُ نطاقها لم يُحْللِ

فهذا يُحبلها راغمة كارهة، وهي لا تقدر، فدل على أنه فاعل، وعلى أنها مفعول، والمباينة بين الفاعل والمفعول معروفة، ومن أراد أن يسوي بين الفاعل والمفعول فهو مطموس البصيرة يُنكر القَدَر والأمور الحقيقية المحسوسة كما هو معروف.

وكذلك زعمهم أن تفضيل الرجل على الأنثى في الميراث أنه ظلم من الشرع؛ لأنَّ الرجل والمرأة يدليان للميت بقرابة واحدة، فكيف تكون المرأة والرجل يمتان للموروث بقرابة واحدة ونصيب الرجل أكثر من نصيب الأُنثى؟! وهذا قولهم وفلسفتهم الشيطانية، والله (جل وعلا) في آية الصيف ـ أعني الآية الأخيرة النازلة في المواريث من آخر سورة النساء ـ بيّن (جل وعلا) فيها أن من سوّىٰ بين الذكر والأنثى في الميراث أنه ضال ولا شك في ذلك الضلال؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: آية ١٧٦] ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ تفضيل الذكر على الأنثىٰ في الميراث ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾ كراهة أن تضلوا عن الطريق المستقيم، أو لأجل أن لا تضلوا. فالمسوّي بينهما ضال بنص المحكم المنزل لا شك في ذلك، وإيضاح هذا بالمحسوس المعقول الذي لا يماري فيه إلّا مكابر: أن الله (تبارك وتعالى) جعل الذكورة بطبيعتها جمالًا وكمالًا وقوة خلقية، فنفس الذكورة جمال طبيعي،

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الأعراف.

وكمال خلقي، وقوة طبيعية، كما أن الله (جلَّ وعلا) أوجد الرجل ـ إيجاده الأول ـ إيجاداً مستقلًا، والأنوثة هي بحقيقة ذاتها وطبيعتها نقص جِبلِّي خلقي، وضعف خلقي لا ينكره إلا مكابر، والله (جل وعلا) بين في كتابه أن الأنوثة أنها بطبيعة حالها ضعف جِبلِّي ونقص خِلْقي منحط عن درجة الذكورة حيث قال: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ⑱﴾ [الزخرف: آية ١٨] وفي القراءة الأخرى[1]: ﴿أَوَمَن يَنْشَؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي أتجعلون لله ولداً وبعد ذلك تجعلون له أضعف الولدين وأنقصهما وأحوجهما إلى التكميل الذي يُنَشَّأُ في الحلية من مدته وهو صغير. وتنشئة الأنثىٰ في الحلية: تُثقب آذانها، وبعضهم يثقب أنفها، ويحطون لها الخلاخيل والأسورة والدماليج والثياب الجميلة، وسائر الحلي والحلل، ولا يفعلون شيئاً من هذا للذكر. وهذا يدل على أنها جِبَلَّة طبيعية بشرية عامة أن جمال الذكورة وكمالها أغنى عن الحلي والحلل، وأن الضعف الملموس في الأنثىٰ يحاول جبره بهذه الزينات ليجبر ذلك النقص، وقد صدق من قال[2]:

وَمَا الـحَـلْـيُ إلا زِيْـنَـة مـن نَـقِـيْـصَـةٍ ... يُتَمِّمُ من حُسْنٍ إذا الحُسْنُ قَصَّرا
وأَمَـا إذَا كَـانَ الـجَـمَـالُ مُـوَفَّـراً ... كحُسْنكِ لَمْ يحتَجْ إلى أن يُزَوَّرا

كذلك قال في المرأة: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ لأنَّ أغلب طبيعة النساء أن المرأة لا تُجابه ولا تقدر على مخاصمة فحول الرجال في الميادين التي تزدحم فيها الناس؛ لضعفها الخلقي، ونقصها الجِبلِّي، ومما يدل على أن هذا أمر جِبلِّي مركوز في طبائع العقلاء: أن ضعف أركان المرأة وضعف عظامها ولينها وخنوثتها جمال فيها يستوجب محبتها ويزيد الميل إليها، وكذلك عدم إبانتها في الخصام من جميع محاسنها ولين أُنوثتها الذي يجلب القلوب إليها بخلاف الرجال، وهذا كلام جاء في جِبِلَّات العقلاء فإنهم

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٩٧.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من هذه السورة.

يُشَبِّبُون ويذكرون من محاسن النساء لينها وضعف أركانها، وعدم إبانتها في الكلام، ألا ترون إلى قول جرير وهو عربي فصيح(١):

إن العُيونَ التي في طَرْفِهَا حَوَرٌ ... قَتَّلْنَنَا ثم لم يُحْيِيْنَ قَتْلانَا
يَصْرَعْنَ ذَا اللّبِّ حتى لا حِرَاكَ به ... وهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ الله أَرْكَانَا

فقوله: «وهن أضعف خلق الله أركانا» مما يجر القلوب إليهن ويزيدهن محبة، وذلك يدل على أن الطبيعة كما ذكرنا، كذلك قال ابن الدمينة في امرأة لا تقدر أن ترد عن نفسها ما رُميت به من ريبة(٢):

بِنَفْسِي وأَهْلي مَنْ إذا عَرَضُواْ لَهُ ... لبعضِ الأَذَىٰ لم يَدْرِ كيفَ يُجيبُ
وَلَمْ يَعْتَذِرْ عُذْرَ البَرِيءِ ولم يزلْ ... بِهِ سَكْتَةٌ حتى يُقالَ مُريبُ

فشبب بها بهذا. وهذا الضعف الخلقي الجِبلِّي أمر مشاهد لا ينكره العقلاء، فالإفرنج الذين يقولون: إن المرأة كالرجل في جميع الميادين الكذبة الفجرة الخاسئون يجعلون صبغ الحمرة على فم الأنثىٰ ولا يجعلونه على فم الرجل، ألا ترون أنهم يضعون الحمرة على فم الأُنثىٰ ولا يضعونها على فم الرجل!! ما هذا الفرق إلّا لفوارق طبيعة جُبل عليها عامة العقلاء حتى الإفرنج الذين عقولهم كعقول البهائم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٧٩].

فلما كانت الأُنوثة ضعفاً خلقياً وعدم كمال جِبلِّي، والذكورة كمال جِبلِّي وقوة طبيعة خلقية؛ ولذا لا ترى ذكراً في الدنيا تُثقب آذانه ليُجعل فيها الحلي، ولا يُثقب أنفه، ولا تُجعل له الأساور والحلي ليكمل به؛ لأن شرف ذكورته وكمالها يكفيه عن التزين بالحلي. لما كان هذا النوع من أنواع الإنسان الذي خُلق في مبدأ خلقه مستقلّاً أقوىٰ وأكمل من هذا النوع الآخر

(١) البيتان في ديوانه ص٤٥٢.

(٢) البيتان في ديوان مجنون ليلى ص٢٩، وفي عيون الأخبار (١٠٣/٣)، الشعر والشعراء ص٤٩٢، ونسبه لابن الدمينة.

الذي خُلق في مبدأ خلقه وجوده تابعاً لوجود هذا ومستنداً إليه كما أجرىٰ الله عادته وقدره بذلك كان اللازم أن يكون هذا القوي في خلقته الكامل في طبيعته، قائماً على ذلك الضعيف بجِبِلّته ليوصل له ما يعجز عن إيصاله من النفع لنفسه، ويدفع عنه ما يعجز عن دفعه من الضرّ عن نفسه، وهذا هو الأمر الكوني القدري المُعَضَّد بنور السماء ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ إنما جعل الرجال قوّامين على النساء لأن كمال الرجال بذكورتهم وقوتهم الطبيعية جعلتهم يقومون على النساء لضعفهن الخلقي الجِبِلّي كما قال: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾ [النساء: آية ٣٤] فلما اقتضت طبيعة قوة الرجل وكمال ذكورته أن يكون قائماً على الأنثىٰ، واقتضىٰ ضعف الأُنثىٰ الخلقي، وعدم استقلالها في نشأتها، وتبعية وجودها في نشأتها لوجود الرجل، وعدم استغنائها عنه اقتضىٰ ذلك أن يكون هذا الكامل القوي قائماً على هذا الضعيف في خلقته ليدفع عنه ما لا يقدر علىٰ دفعه من أنواع الضر، ويجلب له ما لا يقدر على جلبه من أنواع النفع وصار الرجال قوّامين على النساء، ومن هنا صار الرجل يترقب النقص دائماً؛ لأنه ينفق على نسائه، ويدفع لهن المهور، فهو يترقب النقصان دائماً، والمرأة بحال طبيعتها ونقصها الجِبِلّي تترقب الزيادة دائماً، فإن المرأة تترقب رجلاً يدفع لها مهراً ضخماً ويقوم بلوازمها في الحياة من مطعم ومشرب ومأكل وملبس إلى غير ذلك، فالمرأة تترقب الزيادة والأخذ دائماً، والرجل يترقب النقصان والغرم دائماً، والميراث ما تَعِبَا فيه، ولا مسحا فيه عرقاً، ملكهما الله إياه ملكاً جبرياً بحكمته وفضله، فاقتضت حكمة الخبير الحكيم العليم أن يُؤثر مترقب النقص دائماً، ويكثر نصيبه على مترقب الزيادة دائماً؛ ليكون في ذلك جبراً لبعض نقصه المترقب. ولو رأيت أحداً قد يعطي اثنين شيئاً وأحد هذين الاثنين يترقب النقص دائماً، وأحدهما يترقب الزيادة دائماً، وآثر في عطائه مترقب النقص ليجبر من نقصه لقلت: أن تأثيره له حكمة واقعة موقعها على أحسن ما يكون.

واعلموا أن الله تبارك وتعالىٰ خلق المرأة ـ لما جبل عليها من الطبيعة خلقها ـ مستعدة للمشاركة في بناء المجتمع الإنساني على أكمل الوجوه

وأبدعها وأحسنها، ولا تقل خدمتها عن خدمة الرجل، إلَّا أن الله جعل تلك الخدمة التي تقوم بها المرأة لمجتمعها جعلها في داخل بيتها في عفاف وصيانة وستر، ومحافظة على الشرف ومكارم الأخلاق، فيذهب الرجل يكدح في الحياة يبيع ويشتري، أو يناجز الأقران في ميدان القتال، والمرأة في بيتها عاطفة على الصغير من أولادها، عاطفة على المريض، عينها من وراء جميع ما في البيت، ترضع الرضيع، وتعالج المريض، وتفعل كل شيء، فإذا جاء قرينها الآخر من عمله وكدِّه في الحياة وجد كل شيء حاضراً، وجد أولاده الصغار مرضعين، والمرضى ممرضين، وكل شيء جاهز، فهذه الخدمة التي قامت بها في داخل بيتها لا تقل عن خدمته هو في الخارج في ميدان الحياة، ومع هذا هي في صيانة وستر، ومحافظة على الشرف والفضيلة، ومرضاة لخالق السماوات والأرض (جل وعلا) ولا شك أن هذا التعاون بين الرجل والمرأة أنه تعاون كريم نزيه بمقتضىٰ جبلتهما وما طبعهما الله عليه، وأنه يغيظ الشيطان ولا يرضي إبليس، فإبليس يحب أن يكون الأمر لا ينبغي، وأنه على حالة خبيثة، فيقرأ فلسفته في آذان أوليائه فيفلسفون في أذن المسكينة فيضللونها بالشعارات الزائفة والكلمات الكاذبة السخيفة من اسم الحضرية، والتمدن، والحضارة، والتقدم، ويقولون للمرأة التي كانت في بيتها تخدم زوجها وأولادها ومجتمعها على أكمل الوجوه وأتمها، في صيانة وستر، ومحافظة على الشرف والفضائل، ومرضاة لخالق هذا الكون، يحسدهم الشيطان على هذا، ويغضبه هذا التعاون الكريم النزيه، فيقول لأوليائه أن يقولوا للمرأة: أنت محبوسة في البيت، أنت مجرمة، أنت دجاجة، فلك أن تخرجي وتشمّي الهواء، وتفعلي كما يفعل الرجل!! وهذا خديعة لها وغرور للمسكينة الجاهلة؛ لأنها تخرج من حيائها وسترها وخدمة بيتها، فإذا خرجت تكدح في الحياة مع الرجل عَرَّضت جمالها لأعين الخائنين؛ لأن المرأة هي أعظم شيء يتعرض لخيانة الخائنين؛ لأن العين الفاجرة الخائنة إذا نظرت في جمالها استغلّت ذلك الجمال والنعمة الإلٰهية مكراً وغدراً وجناية على الشرف والفضيلة وعلى الإنسانية، وإذا مسها واحد ـ مس بدنها في الزحام ـ بدعوى أنها تخرج باسم التقدم

والحضارة والمدنية. وما هذه إلا ألفاظ جوفاء خبيثة كلبة خنزيرة يراد بها ضياع الشرف والفضيلة ـ والعياذ بالله جل وعلا ـ فإذا خرجت بقي جميع خدمات البيت ضائعة، بقي الرضيع من الأولاد ليس عنده من يرضعه، والمريض ليس عنده من يمرضه، وليس هناك من يهيئ طعاماً لهم إذا جاؤوا، فلو قدرنا أنهم أجَّرُوا إنساناً ليجلس مكان المرأة كان هذا الإنسان الأجير هو الذي يأكل عَلْقَة الدجاج والحبس، صار هو المحبوس في البيت ولا ذنب له، وإنما حُبس هذا لتخرج المرأة وتضيع شرفها وفضيلتها وكرامتها، والمرأة إذا ضاع شرفها وفضيلتها وكرامتها وصارت مائدة لعيون الخونة فإنها لا خير لها في الحياة، فبطن الأرض خير لها من ظهرها ولا شك في ذلك.

فهذه الفلسفات الكاذبة تُضَلَّلُ بها المسكينة باسم الحضارة، واسم التقدم، واسم التمدن، وأنها ليست بدجاجة ولا مجرمة محبوسة بالبيت؛ لتُخرج من حيائها وتُجعل مائدة لخونة الأعين الخائنة (والعياذ بالله) ويضيع شرفها، وتضيع دنياها وآخرتها ـ والعياذ بالله ـ.

فعلينا ـ معاشر المؤمنين ـ أن نعلم أن بين الأنثى والذكر فوارق طبيعية جبلهما الله عليها لا يمكن لأحد أن يجهلها ولا يتجاهلها، ومن أراد أن يكسر هذه الحواجز التي بين الذكر والأنثى لبعدها وقوتها فهو ملعون في كتاب الله وعلى لسان رسول الله ﷺ لأنه قد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس أنه قال: «لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال»[1] فالتي تترجل تحاول التشبه بالرجل في جميع الميادين هي ملعونة على لسان رسول الله ﷺ؛ لأنها أرادت أن تحطم فوارق وحواجز وضعها خالق السماوات والأرض كوناً وقدراً وشرعاً لا يمكن لأحد أن يحطمها بوجه من الوجوه.

والعجب كل العجب أن المرأة إذا ضُلِّلت وسُفِّه عقلها بالشعارات

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس، باب المتشبهون بالنساء، والمتشبهات بالرجال. حديث رقم: (٥٨٨٥)، (١٠/٣٣٢). وأطرافه في (٥٨٨٦، ٦٨٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الزائفة، والفلسفات المضلة باسم التقدم، والحضارة، والتمدن، وأنها ليست بدجاجة، ولا مجرمة محبوسة في البيت؛ ليُضَيِّع شرفها وتُعَرض للرذائل وضياع الشرف وسخط رب العالمين، فهي مع هذا تحاول أن تترجل، وأن تكون كالرجل في كل شيء، ولو كشفت ثيابها وكشف الرجل ثيابه لعُلم أن هنالك مغايرة محسوسة طبيعية لا يمكن الإفرنج ولا أذناب الإفرنج أن يكسروها ولا يحطموها؛ لأنه قدر خالق السماوات والأرض وأفعال رب العالمين لا يمكن أن تُكسر، ومع هذا فالمؤسف كل المؤسف أن الرجال يتأنثون ويتماعون، ويترك الواحد حرمه ـ امرأته وبناته ـ ذاهبة في هذه التيارات المخزية الكافرة الفاجرة الملحدة!! ووالله لقد صدق المتأخر في قوله[1]:

وما عجب أن النساء ترجّلت ولكن تأنيث الرجال عُجاب

فالعجب كل العجب أين ضاعت رجولة الرجال، وغيرة الرجال، وضمائر الرجال، أين ضاع هذا وتلاشى وانماع؟! فالرجل إذا كانت حرمه تخرج مائدة لأعين الفجرة، متجردة من الدين والشرف وأخلاق الإسلام على فلسفات كاذبة خسيسة ملعونة جاء بها الإفرنج، كلها شعارات زائفة كاذبة: تمدن، حضارة، تقدم؛ ليضيع الشرف.

ومعلوم عند الناس أن كل البلاد الإسلامية التي كات متمسكة غاية التمسك، ورجالها فيهم غيرة على بناتهم، لما دخل عليها هذا التيار، وجاءتها هذه الشعارات: تمدن، حضارة، تقدم، أن نساءهم ـ والعياذ بالله ـ صاروا فيما لا يُعَبَّر عنه، ولا يحتاج أحد أن يُنَوِّه عنه لشهرته من المجون والفسق، وضياع الشرف والفضيلة، وانعدام الحياء رأساً، والمرأة إذا ضاع شرفها وفضيلتها فبطن الأرض خير لها من ظهرها.

ومعلوم أن الله تبارك وتعالى فرّق بين الذكر والأنثى جِبِلَّةً وكوناً وقدراً وشرعاً، فمن يقول: إن المرأة كالرجل في جميع الميادين، وأنها تزايل ما يزايله الرجل فهو مجنون كاذب مغلوب؛ لأنه يعاند القدر، ومن أراد أن

---

(١) لم أقف عليه.

يعاند قدر الله فهو المغلوب، مع أن المرأة التي يقولون: إنها كالرجل في جميع الميادين بطبيعة حالها تمر عليها أوقات وهي لا تقدر على عمل، فهي في أوقات الحمل إذا صارت لها ستة أشهر ونحوها فإنها يثقلها الحمل، ولا تقدر على فعل شيء وفي بطنها إنسان، فأين هذه من الذكر؟! الذكر لا يمكن أن يكون في بطنه إنسان، ولا يعجزه هذا الإنسان الذي في جوفه عن العمل، فأين الاتحاد، وأين المماثلة؟! وكذلك إذا نُفِسَت فإن النفاس يمرضها ويضعفها، والرجل لا يُنفس، فأين هذه المساوة، وأين هذا من هذا؟! فهذه فوارق قدرية كونية، تترتب عليها فوارق شرعية وحسّية، وهذا من المعلوم. فقد بيّنا في هذه الآية أن الحواجز والفوارق بين الرجل والمرأة أنها موجودة عند نشأة الرجل الأول، وعند نشأة المرأة الأنثى؛ لأن المرأة الأنثى الأولى ما نشأت ولا وُجدت وجوداً مستقلّاً عن الرجل، بل خُلقت من ضلع الرجل، فهي جزء منه، وجودها تابع لوجوده، مستندة في وجودها إليه، وهذا الأمر الكوني القدري الطبيعي الذي فعله خالق السماوات والأرض الحكيم الخبير لوازمه سارية في جميع ميادين الحياة، والإفرنج يحاولون أن يحطموا هذه الفوارق كلها وأتباعهم من الخفافيش!! والغريب كل الغريب أنوثة الرجال وميوعة ضمائرهم!! فإنا لله وإنّا إليه راجعون.

وما عجب أن النساء ترجّلت ولكن تأنيث الرجال عُجاب

أين غيرة الرجال، وأين شهامة الذكور؟!

٢٦/أ / ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٨٩ ـ ١٩٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٨٩، ١٩٠].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ قد ذكرنا بالأمس أن التحقيق أن المراد بهذه النفس الواحدة آدم، وأن زوجها التي خلق منها أنه حواء، وتكلمنا بهذه المناسبة على أن الرجل الأول والمرأة الأولى اللذان هما سبب إيجاد الرجال والنساء جميعاً كما تقدم في قوله في صدر سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: آية ١] أن نشأة ـ بدء ـ هذا الرجل وهذه المرأة كانت المرأة وجودها تابع وجود الرجل، ومستندة في وجودها إليه، وأن هذا الأمر اختلاف أساسي من أصل الوجود والمبدأ، وأن ذلك الاختلاف قد ترتب عليه لوازم من المخالفة الضرورية بين الرجل والمرأة، وذكرنا بعض الأشياء التي يشنع الملحدون فيها على دين الإسلام، ويزعمون أنه لم ينصف المرأة فيها، كجعل الطلاق بيد الرجل، وتفضيله على المرأة في الميراث، وجواز تعدد الزوجات. وقد بيّنا بالأمس حكمة كون الطلاق بيد الرجل، وحكمة تفضيل الرجل في الميراث، وبيّنا أن الرجل يترقب النقص دائماً؛ لأنه ينفق الأموال في مهور النساء ونفقاتهن ونوائب الدهر، والمرأة تترقب الزيادة دائماً، تترقب رجلاً يدفع لها مهراً ويقوم بإنفاقها ولوازمها في الحياة، فمن أعطى اثنين وآثر مترقب النقص منهما على مترقب الزيادة كان إيثاره واقعاً موقعه، مطابقاً للحكمة، ولا سيما إن كان ذلك من العظيم الخبير العالم بخبايا الأمور، الذي بيّن في كتابه أن من زعم استواء الرجل والأنثى في الميراث أنه ضال؛ لأن الله لما قال: ﴿وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أتبع قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ بقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النساء: آية ١٧٦] يعني: هذا الذي فضل الذكر على الأنثى في الميراث عليم بكل شيء، فهو أعلم بخفايا الأمور وخباياها، وبدقائق المصالح وجلائلها، بيّن لكم هذا البيان ﴿أَن

﴿تَضِلُّواْ﴾ كراهة أن تضلوا، أي: لأجل أن لا تضلوا فتسوّوا بينهما في الميراث.

وأردنا الآن أن نتكلم على بقية قليلة من ذلك، فنبين حكمة تعدد الزوجات، وأن الذين أنكروا ذلك وعابوه على دين الإسلام كفرة ملاحدة طمس الله بصائرهم بظلام الكفر - والعياذ بالله - فالله (جل وعلا) أباح للرجل أن يجمع أربع زوجات بشرط أن يقدر على العدل بينهن، وقد بيّن القرآن أن العدل بينهن قسمان: عدل ممكن، وعدل غير ممكن. أما العدل الممكن بين الزوجات: فهو تسويتهن في الحقوق، وإنصاف بعضهن من بعض في اللوازم اللازمة، فهذا ممكن يقدر كل أحد عليه، وهذا الذي نهى الله عن الميل فيه، قال: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: آية ١٢٩]. وعدلٌ بينهن ليس تحت طاقة البشر ولا يُقدر عليه، وهو المساواة بينهن في المحبة الطبيعية والميل النفساني؛ لأن المحبة ليست من الأفعال الاختيارية، وإنما هي من الانفعالات والتأثرات النفسانية التي لا تدخل تحت قدرة العبد. وهذا العدل في المحبة والميل الطبيعي النفساني لا يُقدر عليه، وهو الذي قال الله فيه: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: آية ١٢٩] وكان ﷺ يقسم بين أزواجه فيعدل، ثم يقول مبيّناً هذين القسمين: «**اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك**»(١). يعني الميل الطبيعي والمحبة؛ لأن هذا ليس تحت قدرة البشر، فالله (جل وعلا) أباح للرجل أربع زوجات بشرط قدرته على العدل بينهن في الحقوق الشرعية، وإن كان الميل الطبيعي والمحبة النفسانية ليس بيده، إلا أن المساواة بالحقوق الشرعية هي في مقدوره، فإن كانت

---

(١) أحمد (١٤٤/٦)، والدارمي (٦٧/٢)، وأبو داود في النكاح، باب في القسم بين النساء. حديث رقم (٢١٢٠)، (١٧١/٦ - ١٧٢)، والترمذي في النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر. حديث رقم (١١٤٠)، (٤٣٧/٣)، والنسائي في عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض. حديث رقم (٣٩٤٣)، (٦٣/٧ - ٦٤)، وابن ماجه في النكاح، باب القسمة بين النساء، حديث رقم (١٩٧١)، (٦٣٤/١)، والحاكم (١٨٧/٢)، وابن حبان (الإحسان) (٢٠٣/٦).

هذه أحب إليه طبيعة، وهو أميل إليها بالمحبة؛ فإنه يمكنه أن يسوّي بينها وبين الأخرىٰ، وينصف بينهما في الحقوق الشرعية كمال الإنصاف كما لا يخفى. فإذا كان الإنسان لا يقدر على العدل بينهن يلزمه الاقتصار على واحدة؛ لأن غير العدل جور والجور لا يُؤذن فيه في الشرع الكريم، أو ما ملكت يمينه من الإماء، وقد نص الله على هذا بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۝٣﴾ [النساء: آية ٣] أي: لا تجوروا في الحقوق. وكونه (جل وعلا) أباح للرجل جمع أربعة وحرم عليه الخامسة فما فوقها، وجعل ذلك بشرط العدل، هذا تشريع الحكيم الخبير، تشريع خالق السماوات والأرض، الذي هو أعلم بالمصالح، وأعلم من خلقه؛ لأن الأربع وسط بين القلة والكثرة، فهي دون الكثرة التي هي مَظِنَّة عدم القدرة على القيام بلوازم الجميع، وهي فوق القلة التي هي مَظِنَّة تعطل بعض حقوق الرجل كما سيأتي إيضاحه.

والله (جل وعلا) أباح تعدد الزوجات لمصلحة نفس المرأة، ومصلحة نفس الرجل، ومصلحة نفس أمتهما، فتحت ذلك مصالح عظيمة لا ينكرها إلا من طمس الله بصيرته. ففيه مصلحة المرأة من جهات عديدة منها: أن الله (جل وعلا) أجرىٰ عادته أن عدد النساء في أقطار الدنيا على مر العصور أكثر من الرجال؛ لأن الرجال أقل من النساء، وأكثر تعرضاً لأسباب الموت، فلا تجد محلًا إلا ونساؤه أكثر من رجاله، كما أجرىٰ الله العادة بذلك، وقد جاءت الأحاديث عنه ﷺ أن كثرة النساء أنهن سيكثرن جداً، وأن الرجال سيقلون جداً[1]، ولما كانت عادة الله أن جعل عدد الرجال في أقطار الدنيا على مر العصور أقل من عدد النساء ـ لأن الرجال أكثر تعرضاً لأسباب الموت وخروجاً في الأسفار والمقاتلة والحروب من النساء ـ وكان عدد النساء أكثر، فلو قُصر الواحد على الواحدة لبقي من النساء عدد ضخم

---

(١) البخاري، كتاب الحدود، باب: إثم الزناة، حديث رقم (٦٨٠٨)، (١٢/١١٣)، ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان. حديث رقم (٢٦٧١)، (٤/٢٠٥٦).

هائل لا أزواج له، فيضطررن بذلك إلى ارتكاب فاحشة الزنى ورذائل الأخلاق، وبقين لا عائل لهن، فتشريع الحكيم الخبير يجمع الرجل فيه بين النساء فيحسن إليهن وينفق عليهن ويُعف الجميع؛ لأن الرجل الواحد قد يُعف أربع نساء ويُخدِمهن ويطعمهن ويكسوهن، بحيث لا يَكُنَّ فيهن حاجة إلى شيء.

وكذلك أجرى الله العادة أن المستعدات من النساء للتزويج أكثر من المستعدين من الرجال؛ لأن عامة النساء مستعدات للزواج، وكثير من الرجال غير مستعدين للزواج لفقرهم وعجزهم عن لوازم الزوجية من صداق ونفقات وما يتبع ذلك من مُؤَن، فلو قصرنا الواحد على الواحدة لبقي أيضاً ذلك العدد الضخم بلا أزواج فألجأهن ذلك إلى ارتكاب الفاحشة والعمل بما لا يليق. ومن ذلك أن المرأة الواحدة لو قُصر الرجل عليها فإنها تعتريها أعذار طبيعية تمنعها من القيام بأخص لوازم الزوجية؛ لأنها تمرض وتحيض وتُنفس، وهي في زمن حيضها تتعطل منافع زوجها، وكذلك في زمن نفاسها، فلو قُصر على الواحدة لكان كلما تعطلت تعطلها الطبيعي تعطل معها، فيكون الرجل كأنه يُنفس كما تنفس، ويحيض كما تحيض، وهذا ليس بإنصاف!! والأمة محتاجة إلى الكثرة، وقد حضها ﷺ على التزوج وكثرة الولادة ليكاثر بها الأمم. ومن الغريب كل الغريب، والمؤسف كل المؤسف أنك ترىٰ كثيراً من الأمم المتسمية باسم الإسلام تحضر المؤتمرات التي أصل عقدها من الكفرة الفجرة فيما يسمونه (تحديد النسل)[1] وهذا أعظم شيء مخزي يخجل منه الإنسان الذي في باطنه شيء من نور القرآن؛ لأن منشأ ذلك أن الكفرة ـ عليهم لعائن الله ـ لا يؤمنون بالله، ولا يحسنون به ظناً، ولا يتوكلون عليه، ويظنون أنهم إذا نظروا دخل البلاد القومي وقدر ما يتزايد من النسل أن الناس يكثرون على قدر الدخل، وتعتريهم الفاقة والجوع، فيعقدون المؤتمرات لتحديد هذا النسل خوفاً من الفاقة والفقر والجوع!! وهذه أفكار الخنازير والقردة الذين لا يُقرّون بخالق السماوات

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

والأرض، ولا يعلمون فضله ورحمته وكثرة خزائنه، ولا يتوكلون عليه. والكثرة هي نعمة من نعم الله (جل وعلا)، والله يقول ممتنّاً على أمة شعيب: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: آية ٨٦] الكثرة نعمة وقوة، وهؤلاء يأتيهم الشيطان ليتخلصوا من نعمة الله والقوة!! والله (جل وعلا) قد بيّن أن قوماً فيما مضى قد أرادوا قتل أولادهم من أجل الجوع الواقع، وأن بعضهم أراد قتل الأولاد من خوف الجوع المتوقع، فبيّن لهم خالق السماوات والأرض أن ذلك الجوع المتوقع لا يكون، وأن خالق السماوات والأرض الذي بيده خزائن السماوات والأرض عليه رزق الجميع، قال في الذين يقتلون أولادهم من الفقر الواقع حالاً: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: آية ١٥١] وهذا وعد من الله، والله لا يخلف الميعاد. وقال في الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر المترقب: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: آية ٣١] ونحن نؤكد لكم كل التوكيد أن الأمة لو كثرت كل الكثرة وبلغت الملايين والآلاف المؤلفة أن كل نفس منفوسة يُقدر الله لها رزقها على أحسن ما يكون، وأن الله يفتح من أبواب الرزق وخزائنه ما لم يكن في حسبان الملاحدة الإفرنج الكفرة وأذنابهم من الخنازير الذين طُمست بصائرهم، ولا سيما إن كانت تلك الأمة على طاعة الله - جل وعلا - وتقواه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: الآيتان ٢، ٣] فبيّن أن هذا الرزق ليس من قبيل الدخل القومي المحدود الذي يحسبه الإفرنج ويُحدونه، لا، بل يأتي به الله من أمور لا يعلمها إلا هو - جل وعلا - ولما أراد المنافقون أن يضربوا على النبي ﷺ وأصحابه حصاراً اقتصادياً وقالوا في ذلك: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: آية ٧] ومن كان عنده خزائن السماوات والأرض كيف يُحدد رزقه، وتُقتل الأولاد وتُقلل خوفاً ألا يرزقها؟! فهذا من أُضحوكات الشيطان وأعمال الصبيان الذي لا يصدق عاقل أن رجلاً عاقلاً يشتغل بهذا - عياذاً بالله -.

ثم إن من مصالح تعدد الزوجات أن فيه مصالح عظمىٰ شرعه الله لها، منها: أن فيه مندوحة عن الطلاق؛ لأن الرجل إذا تزوج المرأة حتى كبرت معه ومضىٰ جمالها وصارت لا رغبة فيها للرجال إذا قُصِر عليها ولم تكن عنده مندوحة لزوجة أخرىٰ يتسلى بها ويأت بها فإنه يضطر لفراقها ولو بالمحاكمة حتى يتخلص منها!! أما تعدد الزوجات ففيه مندوحة وفرج من هذا الأمر المحرج؛ لأنه يتزوج أخرىٰ ويبقى مع الأولىٰ ملاطفاً لها، محسناً إليها، منفقاً إليها، ويجد غيرها ممن يسليه ويوسع صدره. وهذا أمر لا يخفىٰ، فالله (جل وعلا) أباح تعدد الزوجات لمصلحة النساء لئلا يتعطلن عن الزواج؛ لأنهن أكثر من الرجال؛ ولئلا يُضطر أزواجهن إلى طلاقهن، ولمصلحة الرجال لئلا تُعطل منافعهم عند حيض المرأة الواحدة ونفاسها ومرضها، ولمصلحة الأمة ليتكاثروا، وليكونوا جمعاً ضخماً يقف في وجه العدو، ويرد الحقوق المسلوبة، ويوقف الكافر عند حده، ويعلي كلمة الله (جل وعلا) فهذه مصالح معروفة موجودة عامة لا ينكرها إلا مطموس البصيرة.

وما يزعمه ملاحدة الإفرنج من أن تعدد الزوجات تلزمه المشاغبة الدائمة، وأن الإنسان لا ينبغي أن يعمل بتشريع يجر له المشاغبة الدائمة والقال والقيل والخصام الذي لا ينقضي. قالوا: إذا تزوج ضرتين فإن أرضىٰ هذه سخطت هذه، فهو دائماً بين سخطتين، وفي شغب وفي خصام وجدال، فلا تكون له حياة هنية، وأن هذا التشويش لا ينبغي. وهذا من جهالتهم وطمس بصائرهم؛ لأن المشاغبة والمشاحة التي تقع بين العائلة أمر طبيعي لا مفر منه، وهي لا خطب لها ولا شأن لها؛ لأنها تقع بين الرجل وأولاده، وبينه وبين أمه وأبيه، وبينه وبين أخواته، وتقع بينه وبين زوجته الواحدة. ولو فرضنا أن فيها بعض الشيء فإنه يُغتفر لأجل المصالح العظمىٰ التي بيّنا من المصالح العامة من صيانة جميع النساء، وعدم تعطل منافع الرجال، ومصلحة الأمة. والمقرر في الأصول: أن الشيء ولو كان مفسدة - على زعمهم - إلا أنها مفسدة صغيرة مرجوحة فإنها تُلغى لأجل المصلحة الكبرىٰ، وهذا لا نزاع فيه بين العلماء أن المصالح العامة الكبرىٰ لا يُنظر

معها لأجل المفاسد الجزئية المرجوحة كما لا يخفىٰ، وهذا معروف في الأصول[١]، ومن ذلك أن الكفار إن أسروا بعض أسارى المسلمين ففداهم المسلمون فإن فداء الأسارىٰ من الكفار وإعطاءهم المال هو مفسدة في الجملة، إلا أن مصلحة إنقاذ المسلمين منهم أرجح من هذه الجملة من هذه المفسدة؛ ولأجل ذلك أطبق جميع العلماء على جواز غرس شجر العنب.

وانظر تدلي دَوَالي العِنَبِ   في كلِ مَشْرِقٍ وكل مَغْرِبِ[٢]

مع أنها تعصر منها الخمر التي هي أم الخبائث، ولكن لما كانت مصلحة وجود العنب والزبيب في جميع أقطار الدنيا مصلحة عامة راجحة، وكون العنب قد يعصر منه بعض السفلة خمراً، فهذه مفسدة مرجوحة ألغاها الشرع في جنب تلك المصلحة الكبرىٰ العظمىٰ. وكذلك مساكنة الرجال والنساء في البلد الواحد؛ لأن مساكنة الرجال والنساء في البلد الواحد يرمقون هذا في بيته معه زوجاته وبناته وأخواته، وهذا لصيق له، وعنده أيضاً بيته فيه بناته وزوجاته وأخواته، هذا ـ وهو وجود الجنسين الرجال والنساء في البلد الواحد ـ قد يكون سبباً للزنى، فإن الناس المختلطة في المحل الواحد قد يكون اختلاطها في البلد الواحد ذريعة إلى الزنى فينظر الرجل فترمي إليه المرأة من الغرفة ورقة فيها وعد، أو يكلمها من فوق السطح كما كان نصر بن حجاج السلمي يقول[٣]:

ليتني في المُؤذنينَ نَهَارا   إنَّهم يَنْظُرونَ مَنْ في السطُوحِ
فيُشيرونَ أوْ يُشارُ إليهم   حَبَّذا كل ذاتِ دلٍّ مَليحِ

إلا أن هذا وإن كان قد يكون سبباً لتمكن بعض السفلة من الفاحشة، فمصلحة اجتماع الرجال والنساء في البلد الواحد متعاونين على دينهم ودنياهم أرجح فأُلغيت من أجلها هذه المفسدة، فلم يقل أحد من

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.
(٢) السابق.
(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

العلماء أبداً: إنه يجب أن يُعزل جميع من في البلد من النساء ويُجعلن وحدهن ليس معهن رجل وتُجعل عليهن حصون من حديد قوية، وأبواب من حديد، ومفاتح من حديد، عند رجل ذي شيبة مأمون معروف بالتقى!! لم يقل أحد هذا!! والحاصل أن المفاسد الصغيرة المرجوحة مُلغاة لدىٰ المصالح العامة الكبرىٰ كما هو معروف في محله.

وهذه نتف قليلة أشرنا بها إلى أن تشريع خالق هذا الكون، ونور هذا القرآن العظيم هو العدل الكامل، والإنصاف التام، والحكمة البالغة ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: آية ٩] فما يقوله الكفرة والملاحدة ومن قلدهم من الخفافيش لا ينبغي لأحد أن يصغي إليه، ولا أن يبالي به.

ومعنى قوله جل وعلا: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: جعل من تلك النفس الواحدة التي هي آدم. وقوله: ﴿مِنْهَا﴾ إنما أنث الضمير نظراً إلى تأنيث النفس، والتأنيث اللفظي قد تجري به أحكام التأنيث ومنه قول الشاعر[1]:

أبـوكَ خَـلـيـفـةٌ ولـدتْـه أُخـرىٰ   وأنـتَ خـلـيـفـةٌ ذاكَ الـكـمـالُ

وقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ جاء بالضمير مذكراً ﴿لِيَسْكُنَ﴾ هو، أي: آدم المُعبر عنه بالنفس الواحدة ﴿إِلَيْهَا﴾ أي: إلى تلك الزوج التي خُلقت منه وهي حواء؛ لأن الرجل يسكن إلى امرأته ويطمئن إليها، وهذا السكون والطمأنينة والألفة التي كانت من الرجل الأول للمرأة الأولى جعله الله سُنة كونية قدرية في ذريتهما كما يأتي في سورة الروم في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الآية [فاطر: آية ١١].

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ تغشاها معناه: جامعها، والعرب تقول: «غشي الرجل امرأته وتغشاها». إذا جامعها، والتغشي: أصله لبس الغشاء، وهو الغطاء ونحوه. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي: جامعها ﴿حَمَلَتْ﴾ من ذلك الجماع ﴿حَمْلًا

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة البقرة.

خَفِيفًا﴾ إنما وصف الحمل بأنه خفيف لأن المرأة في أول حَبَلها ما دام حَبَلها نطفة فَعَلَقَة فمضغة يكون خفيفاً كأنها ليس في بطنها شيء، تذهب وتجيء ولا تجد ثقلًا له إلى حوالي خمسة أشهر، فبعد ستة أشهر يعظم الجنين في بطنها وتُثقل، وتكون الحركة ثقيلة عليها لعظم الجنين في بطنها؛ ولذا قال: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ في أول أشهرها فاستمرت به وذهبت به مقبلة ومدبرة لا يثقلها؛ لأن ذلك هو العادة في أول حملها. ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ يعني تطاولت الأشهر وعظم الجنين في بطنها. وأثقلت، أي: صارت ثقيلة من عظم الجنين في بطنها، خافت هي وزوجها، والظاهر أن هذا في الحمل الأول الذي حملته حواء خافت أن يكون هذا الذي في بطنها بهيمة، أو أنه لا يخرج منها، أو يَشُق بطنها فتموت؛ ولذا ﴿دَّعَوَا﴾ أي: الرجل والمرأة، آدم وحواء ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ دعاءً أخلصا له فيه قائلين: والله ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ لئن أعطيتنا من هذا الحمل ولداً صالحاً، أي: ذكراً، وقال بعض العلماء: بشراً سوياً يخرج بسلام، ليس ببهيمة، ولا مشوّه الخلقة ﴿لَّنَكُونَنَّ﴾ لك يا ربنا على ذلك ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

الشاكرون: جمع شاكر، والشاكر: اسم فاعل الشكر، وأصل الشكر في لغة العرب[1]: الظهور، تقول العرب: «ناقة شكور» إذا كان يظهر عليها السِّمَن، والشكير: هو العُسْلُوج الذي ينبت في الجذع الذي كان مقطوعاً؛ لأنه يظهر فيه بعد أن لم يكن ظاهراً.

وهو في الاصطلاح: ظهور نعم المُنْعِم على من أنعم عليه، والشكر: هو فعل يُنبىء عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعماً. وقد جاء في القرآن إطلاق الشكر من الله لعبده، وإطلاق الشكر من العبد لربه كما هنا. ومن إطلاق الشكر على العبد لربه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: آية ١٤] ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٨٩] ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: آية ١٣]. ومن إطلاق الشكر من الله لعبده: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

[فاطر: آية ٣٤] ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: آية ١٥٨] فمعنىٰ شكر الرب لعبده: قال بعض العلماء: شكر الرب لعبده: هو أن يثيبه ثوابه الجزيل من عمله القليل، وحقيقة شكر العبد لربه المنطبق على جزئياته: هو أن يستعمل العبد جميع نعم ربه فيما يرضي ربه، إن فعل هذا فإنه يكون إن شاء الله من الشاكرين. فهذه العيون[1] التي فتحها الله في وجوهكم هي نعمة من ربكم عليكم تبصرون بها، فشكر هذه النعمة أن لا تنظروا بها في شيء إلا في شيء يُرضي من خلقها وأكرمكم ومنّ عليكم بها، وهذه الأيدي التي جعل لكم تبطشون بها نعم من الله عليكم، فشكرها أن لا تبطشوا بها إلا في شيء يرضي من خلقها وأكرمكم ومنّ عليكم بها، وكذا الرِّجل إلى غير ذلك، وكذا جميع النعم. أما الذي يستعمل نعم الله فيما يسخط الله ويغضبه فهذا ليس من الشاكرين، وهذا من أوقح ما يتصوره العقل أن يكون هذا العبد المسكين الذليل الضعيف ينعم عليه ربه الغلي الأعلى الأعظم بهذا الإنعام ثم يبلغ من الوقاحة والسفاهة والجهل وعدم الحياء أن يصرف نعم خالقه (جل وعلا) فيما يسخط ربه، هذا أمر عظيم يعرق له الجبين، ويخجل منه العاقل، فلا ينبغي للإنسان أن يصرف نعم الخالق العظيم (جل وعلا) إلا فيما يرضي من خلقه ومنّ عليه بها.

ومادة (شكر) هي في لغة العرب تتعدىٰ للنعمة وتتعدىٰ للمنعم، فإن تعدّت للنعمة تعدّت إليها بلا حرف بلا نزاع بين علماء العربية[2]. تقول: «شكر نعمته، وأشكر نعمة الله». وتَعَدِّي الشكر للنعمة بلا حرف أسلوب عربي لا نزاع فيه، وهو في القرآن وفي غيره، أما إذا تعدّى الشكر إلى المنعم كأن تقول: «نحمد الله ونشكر له» فاللغة الفصحىٰ أن تقول: «نحمد الله ونشكر له» ولا تقول: «ونشكره». وقال بعض العلماء: لا يتعدى الشكر للمنعم إلا باللام فتقول: «أحمد الله وأشكر له» ولا تقول: «وأشكره». وشذّ قوم فزعموا أنك لو قلت: «وأشكره» كان لحناً، وأنه يجب

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

أن تقول: «وأشكر له». والتحقيق: أن (وأشكر له) ـ مُعدىً باللام ـ هي اللغة الفصحىٰ، وهي لغة القرآن العظيم، ولم يأت في القرآن العظيم لفظ الشكر مُعدّى إلى المنعم إلا باللام نحو: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: آية ١٤] ولم يقل: أن اشكرني واشكر والديك. ونحو ذلك من الآيات، إلا أن (شَكَرَه) ـ متعدياً للمنعم بلا حرف ـ لغة مسموعة في كلام العرب وليست لحناً، إلا أن التعدية باللام أفصح منها، أما (أحمده) و (أشكره) فالتحقيق أنه ليس بلحن، وأنها لغة عربية مسموعة، ومن شواهدها قول أبي نخيلة[1]:

شَكَرتُكَ إن الشُكْر حبْلٌ من التُّقَىٰ وما كُل من أوْلَيْتَه نَعْمةً يَقْضِي

قال: (شكرتك) ولم يقل: (شكرت لك) ومنه بهذا المعنى قول جميل بن معمر[2]:

خَليلَيّ عُوجَا اليومَ حتى تُسَلِّما على عَذْبةِ الأَنيابِ طيبة النَّشْرِ
فإنكما إن عُجْتُما لي ساعةً شَكَرْتُكُمَا حتى أُغَيَّبَ في قَبْرِي

قال: شكرتكما، ولم يقل: شكرت لكما. هذا هو التحقيق.

قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ يعني فلما أعطىٰ الله آدم وحواء صالحاً، أي: أعطاهما ولداً بشراً سوياً ليس ببهيمة، وخرج منها بسلام.

﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾ قرأ هذا الحرف جميع القراء منهم ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص خاصة: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾ جمع شريك. وقرأه نافع وأبو بكر شعبة وحده عن عاصم: **﴿جعلا له شِرْكاً فيما آتاهما﴾**[3] وكلاهما لغة فصيحة وقراءة سبعية صحيحة لا كلام فيها.

---

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٧.

والضمير في قوله: ﴿جَعَلَا﴾ لآدم وحواء. وفي هذه الآية الكريمة من سورة الأعراف وجهان معروفان من التفسير للعلماء[1]، أحدهما جاءت به أحاديث وآثار، والتحقيق أنها لا يثبت شيء من تلك الأحاديث والآثار، وإن صحح بعض العلماء بعضها. والثاني دلّ عليه القرآن، وما دلّ عليه القرآن أرجح من غيره.

أحد الوجهين في هذا: أن إبليس ـ لعنه الله ـ لما عظُم الجنين في بطن حواء جاءها وقال لها: إنه إذا خرج قد يشق بطنك، وقد يكون بهيمة، فهل أدلك على شيء إن فعلته خرج منك بسلام، وخرج بشراً سوياً؟ وهو أن تسميه عبدالحارث. ويزعمون أن الحارث من أسماء الشيطان، وأنها سمته عبدالحارث، وأنها جعلت لله شركاً حيث نسبت ذلك الولد الصالح الذي أعطاها الله نسبت عبوديته للشيطان، هذا المعنى جاء عن بعض الصحابة[2]، وجاء في بعض الأحاديث المرفوعة، وصحح الحاكم بعضها وغيره[3].

والتحقيق أنها لم يثبت في الحقيقة شيء منها والأغلب أن من رويت عنه من الصحابة أخذوها عن بعض الإسرائيليين.

الوجه الثاني: أن الآية الكريمة على أسلوب عربي معروف، وهو أنه جرت العادة في القرآن أن يسند فعل الآباء إلى الأولاد، وربما أسند فعل الأولاد إلى الآباء، وأن الفعل هنا أُسند لآدم وحواء (جعلا) بألف التثنية

---

(١) انظر: ابن جرير (٣٠٨/١٣)، القرطبي (٣٣٨)، ابن كثير (٢٧٤/٢)، الأضواء (٢٤٠/٢).

(٢) ساق ابن جرير (٣٠٩/١٣ ـ ٣١٥)، وابن أبي حاتم (١٦٣١/٥ ـ ١٦٣٤)، وابن كثير (٢٧٥)، والسيوطي في الدر (١٥١/٣ ـ ١٥٢)، جملة من الروايات في هذه الآية.

(٣) من ذلك ما أخرجه أحمد (١١/٥)، والترمذي في التفسير، باب (ومن سورة الأعراف). حديث رقم (٣٠٧٧)، (٢٦٧/٥ ـ ٢٦٨)، وقال: «حسن غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة. ورواه بعضهم عن عبدالصمد ولم يرفعه. عمر بن إبراهيم شيخ بصري» ا.هـ. والحاكم (٥٤٥/٢)، وابن جرير (٣٠٩/١٣)، وابن أبي حاتم (١٦٣١/٥) وذكره ابن كثير في التفسير (٢٧٤/٢)، وأعله من ثلاثة أوجه. وعزاه لابن مردويه وابن أبي حاتم.

كما ذكره السيوطي في الدر (١٥١/٣)، من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

وأخرجه الترمذي في التفسير، باب: (ومن سورة الأعراف) حديث رقم (٣٠٧٨)، (٢٦٨/٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الواقعة على آدم وحواء، والمراد ذريتهما التي أعطاها الله التناسل يخرج هذا بشراً سوياً، ويخرج بسلام، ومع ذلك يكفرون بالله (جل وعلا) ويعبدون غيره، والدليل على أنه أطلق آدم وحواء وأراد ذريتهما من القرآن أنه قال بعده: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٩٠] ثم قال: ﴿أَيُشۡرِكُونَ﴾ بصيغة الجمع ﴿مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٩١] ثم ذكر علامات الأصنام التي يُشرك بها أولادهم كما هو واضح. وهذا القول أرجح، واختاره غير واحد من المحققين لدلالة القرآن عليه، ونظيره من القرآن: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [الأعراف: آية ١١] لأن معنى ﴿صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ هنا: صورنا أباكم آدم. فنسب التصوير إليهم والمُصوَّر أبوهم آدم، بدليل أنه قال: ﴿ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ﴾ وأمر الملائكة بالسجود قبل تصوير بني آدم الآخرين كما لا يخفى.

وهذا معنى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ القول الأول: سمّيا الولد عبدالحارث، وعلى الثاني: المُراد: ذريتهما جعلت لله شركاء، فأشركت بالله (جل وعلا) الأصنام، وشاركوه في جميع ما أعطاهم من النعم والأولاد حتى قال الله للشيطان: ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ [الإسراء: آية ٦٤] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ [الأنعام: آية ١٣٦] وكونه أسند الفعل لآدم وحواء وأراد ذريتهما وهو الذي دل عليه القرآن؛ ومثل هذا كثير في القرآن؛ لأنه يقول لبني إسرائيل في زمن النبي: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ﴾ [البقرة: آية ٥٧] ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: آية ٦٣] والمفعول بهم هذا أسلاف أسلافهم لا هؤلاء الموجودين كما هو معروف. وهذا معنى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي: تقدس وتعاظم وتنزه ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ به، وهو (جل وعلا) منزّه عن الشريك، وهو الواحد الأحد في عبادته وأسمائه وصفاته وأفعاله لا شريك له في شيء من ذلك.

٢٦/ب / ثم قال منكراً عليهم: ﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـًٔا﴾ ﴿أَيُشۡرِكُونَ﴾ بالله وهو خالق كل شيء ﴿مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـًٔا﴾ [الأعراف: آية ١٩١] هذا ليس بإنصاف، وقد جرت العادة في القرآن في آيات كثيرة أنه يجعل سبب العبادة التي تُستحق

به هو الخلق والإبراز من العدم إلى الوجود، فمن يبرزكم من العدم إلى الوجود، ويوجدكم بعد أن كنتم عدماً هذا هو ربكم الذي يستحق أن تعبدوه وحده، أما الذي يحتاج إلى من يخلقه فهو عبد مربوب فقير مثلكم، عليه أن يَعْبُدَ مَنْ خَلَقَه؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: آية ٢١] وقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: آية ١٦] أي: وخالق كل شيء هو المعبود وحده جل وعلا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ [الحج: آية ٧٣] ومن لم يخلق شيئاً لا يمكن أن يكون معبوداً؛ ولذا قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ [الأعراف: الآيتان ١٩١، ١٩٢] لا يقدرون أن ينصروهم إذا دعوهم وعبدوهم ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ النصر في اللغة: هو إعانة المظلوم. يعني: إن ظُلموا لا يَدفع عنهم الظلم، ولو ظُلم نفس الأصنام لا يقدرون أن ينتصروا لأنفسهم لأنهم جماد، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: آية ٧٣].

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٩٣، ١٩٤].

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ قرأ هذا الحرف جماهير القراء، منهم عامة السبعة غير نافع: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ مضارع اتبعه يتَّبعه، وقرأه نافع وحده من السبعة: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يَتْبَعُوكُم﴾ وتبعه واتّبعه بمعنى واحد، فكلتاهما قراءتان صحيحتان، ولغتان فصيحتان معناهما واحد[1]. عبّر عن الأصنام هنا بضمائر أصحاب العقول وهي لا تعقل؛ لأن الكفار نزلوها منزلة العقلاء أو أعظم من العقلاء.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أي: تدعوا هؤلاء المعبودين الأوثان التي تعبدونها من

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٧.

دون الله التي لا تخلق شيئاً وهي تُخلق ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ معناها: تدعوهم إلى طريق الهدى ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ لأنهم جماد. ومن إذا دُعي إلى الهدى لا يتبع كيف يُطلب منه الهدى؟ ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: آية ٣٥] وهؤلاء إن هُدوا لا يهتدون!! وهذا معنى قوله: ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ هذه الهمزة التي هي قوله: ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ هي التي تسميها علماء العربية: همزة التسوية، وهي وما بعدها ينسبك منهما مصدر من غير حرف سابك. وأجود الإعرابين في ذلك: أن المعنى: دعاؤكم لهم وصمتُكم عنهم سواء، أي: مستويان. فـ (سواء) خبر مقدم، وهو اسم مصدر بمعنى الوصف. وقوله: ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ في محل مبتدأ مصدر مسبوك بلا سابك، وما بعده معطوف عليه. والمعنى: دعاؤكم إياهم إلى الهدى، وصُماتكم إياهم عن ذلك سواء. أي: مستويان، لا يتبعوكم في حالة من الحالتين، لا في حالة دعاؤكم لهم، ولا في حالة صمتكم عنهم، وهذا معنى معروف في كلام العرب، ونظيره في القرآن: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: آية ٦] أي: إنذارك لهم وعدمه سواء. أي: مستويان، وهذا المعنى معروف في كلام العرب، والأجود فيه أن (سواء) خبر مقدم، ونظيره من كلام العرب قول ابن قيس الرُّقَيَّات[1]:

تخطت بي الشهباءُ نحو ابن جعفر سواءٌ عليها ليلُها ونهارُها

يعني: ليلها ونهارها سواء، أي: مستويان. وقول الآخر[2]:

وليلٍ يقول المرءُ من ظُلُماته سَواءٌ صحيحاتُ العيونِ وعُورُها

أي: صحيحات العيون وعُورها سواء، أي: مستويات لشدة ظلامه لا

---

(١) البيت في ديوانه ص١٦٣، ابن جرير (٢٥٦/١)، الكامل للمبرد (٨٢٨/٢)، تاريخ دمشق (٢٧٢/٢٧)، (٢٨٥/٣٣)، (٩١/٣٨) وصدره في بعض هذه المصادر: «تغذّ»، وفي بعضها: «تَقَدَّتْ».

(٢) البيت لمضرس بن ربعي. وهو في ابن جرير (٢٥٦/١)، القرطبي (١٨٤/١)، الدر المصون (١٠٧/١).

يبصر فيه البصير كما لا يبصر الأعمى. وهذا معنى قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ إلى الهدىٰ أم صَمَتُّم عنهم. وعبَّر بالجملة الإسمية، يعني: إذا صَمَتُّم عنهم دائماً فلم يهتدوا، وإذا دعوتهم فلن يهتدوا، فلا يهتدون إلى الهدىٰ في حالة من الأحوال!! ومن كانت هذه حاله فكيف يتخذه العاقل رباً يعبده من دون الله؟! فهذا يدل على أنهم أقوام لا عقول لهم. وكان ابن عباس (رضي الله عنهما) يقول: إذا أردت أن تعرف عدم عقول العرب فاقرأ الآية الفلانية من سورة الأنعام قدر كذا. يعني: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: آية ١٤٠][1] رزقهم الله الأولاد والمال فقتلوا الأولاد وحرموا المال على أنفسهم. فهؤلاء قوم لا يعقلون؛ لأن الكفر يطمس البصائر، ويترك الإنسان أعمىٰ لا يعرف حقاً من باطل. ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: آية ٤٦] وهذا معنى قوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٩٣].

١/٢٧ / ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف: الآيات ١٩٤ ـ ٢٠٣].

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب قصة زمزم وجهل العرب، حديث رقم (٣٥٢٤)، (٥٥١/٦).

يقول الله (جل وعلا): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف: آية ١٩٤].

في هذه الآيات الكريمة من سورة الأعراف بيّن الله (جل وعلا) سخافة عقول المشركين حيث عبدوا من هو دونهم وهم أكمل منه، قال أولًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه الأصنام والأوثان التي تعبدونها من دون الله. سوَّاها أولًا بهم في هذه الآية، قال: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ﴾ إنما أطلق على الأصنام اسم العباد وعبّر عنها بضمائر العقلاء لأن الكفار يصفونها بصفات من هو خير من مطلق العقلاء، أنها معبودات، وأنها تشفع وتقرب إلى الله زلفىٰ، فبهذا الاعتبار أجرىٰ عليها ضمائر العقلاء، وعبّر عنها بالعباد. ووجه مماثلتهم هنا: أن الكفار العابدين، والأصنام المعبودات كلهم مخلوقات لله لا تقدر أن تجلب لنفسها نفعاً ولا أن تدفع عنها ضراً. فهم من قبيل تسخير الله لهم، وخلقه للجميع، وقدرته على الجميع، بهذا الاعتبار هم سواء؛ ولذا قال: ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ﴾ بهذا الاعتبار، وفي الآية التي بعدها سيبيّن انحطاط درجة المعبودين عن العابدين، كما سيأتي إيضاحه قريباً إن شاء الله.

وقوله: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ يعني: ادعوا هذه الأصنام واطلبوا منها النفع، أو ادعوها إلى الهدىٰ ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنها معبودات من دون الله، وأنها تنفع وتقرب إلى الله زُلفىٰ وتشفع ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ إذا دعوتموهم إلى الهدىٰ تبعوكم أو نفعوكم بشيء ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ جمهور علماء العربية على أن جزاء الشرط لا يتقدم عليه، إلا أن ما تقدم دليل الجزاء، أي: إن كنتم صادقين في أنها تعبد وتنفع فادعوها فلتستجب لكم، ولا تستجيب لكم أبداً، كما صرح الله بذلك وأوضحه في آيات من كتابه كقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: الآيتان ١٣، ١٤] وكقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ

كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: الآيتان ٥، ٦] وقال: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وفي القراءة الأخرى[1]: ﴿مَّوَدَّةُ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [العنكبوت: آية ٢٥] وقال جل وعلا: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: الآيتان ٨١، ٨٢] ولذا قال هنا: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ولن يستجيبوا لكم أبداً، ومن يدع من دون الله من لا يستجيب له لا أضل منه، كما صرح الله به في قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: آية ٥] وهذا معنى قوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: آية ١٩٤].

ثم بيّن انحطاط درجة المعبودات عن درجة العابدين، وكأنه يقول لهم: بلغت عقولكم من السخافة حتى عبدتم من أنتم خير منه وأكمل!! ومعبود يكون عابده أكمل منه فهذا لا ينبغي لأحد أن يعبده، كما قال تعالى في الأصنام المعبودات وهي جمادات معبّراً بهمزة الاستفهام ـ استفهام الإنكار ـ المضمنة معنى النفي: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ أنتم أيها العابدون كل واحد منكم ذو رجلين يمشي عليهما ويتصرف، والذي يعبده جماد لا يقدر أن يتحرك ولا يمشي، فكيف تعبدون من أنتم أكمل منه وأقدر؟! هذا عمىً وسخافة؛ ولذا قال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: آية ١٩٥].

الأيدي جمع يد، ووزنه (أفعُل) لأن الرِّجْلَ هنا واليد والعين كلها مجموعة على (أفعُل) أرجل، أعين، أيدي، أصله: (أيديٌ) على وزن (أَفعُل) إلا أن الضمة قُلبت كسرة للياء المتطرفة بعدها؛ لأن الأيدي منقوص، والمنقوص إذا نُكر نوِّن على العين كما هو معروف في محله، ويُرفع بضم مقدر، ويُخفض بكسر مقدر، ويظهر نصبه كما هو معروف في

---

(١) وفيه قراءات غير ما ذكر، انظر: المبسوط لابن مهران ص٣٤٤، السبعة ص٤٩٨.

محله. والأيدي جمع تكسير لليد، واحده يد. وأصل اليد (يَدَيٌ) ففاؤها ياء، وعينها دال، ولامها ياء، فحرفها الأول: ياء، وحرفها الأخير: ياء، وبين الياءين دال، إلا أن العرب حذفت الياء الأخيرة التي في محل اللام ولم تُعوض منها شيئاً، وأعربت (اليد) على العين ولم تُعوض من اللام المحذوفة شيئاً[1]. وهذا فعلته في كلمات معدودة، كـ (يد) و (دم)، و (هَنٍ) و (غد) و (دَب) ونحو ذلك، إلا أن اليد أصلها تعرب على العين، تقول: «قطع يده، وأعطاه هذا بيده، ومدته له يده» بحذف الياء، إلا أن العرب إذا صغَّرت اليد أو جمعتها جمع تكسير رجعت الياء المحذوفة؛ لأن المقرر في فن التصريف: أن جمع التكسير والتصغير كلاهما يَردّ الأمر إلى أصله، فصغرت العرب اليد على يُديَّة، وجمعت اليد على أيدي. يظهر نصبه كقوله: ﴿فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: آية ٣٨] فرجعت في جمع التكسير الياء المحذوفة، وسُمع عن العرب نادراً ذكر الياء في المفرد، وهو نادر، وإذا ذُكرت فيها الياء كانت من المقصور على الألف، فتقول العرب: (اليدى) كالفتى؛ لأن أصل الفتى (فَتَيٌ) وأصل اليد: (يَدَيٌ) وهذا سُمع قليلاً في كلام العرب ـ وجود الياء من أصلها، وإبدالها ألفاً، وجعل اليد من المقصور ـ ومنه بهذا المعنى قول الراجز[2]:

يا رُبَّ سارٍ بَاتَ ما تَوَسَّدا إلا ذِرَاعَ العَنْسِ أو كفَّ اليَدَا

فـ(اليدَا) هنا مردود إلى الأصل فيه (الياء) وأُبدل منها الألف كما هو معروف.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ قرأه بعض السبعة: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟﴾ بكسر اللام على الأصل في التخلص من الساكنين بكسر أولهما، وقرأه بعض السبعة: ﴿قُلُ ادعوا﴾ بضم اللام إتباعاً للضمة كما لا يخفى[3]. وهذا معنى قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾

---

(١) انظر: الدر المصون (١/٤٥١)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٢٩٤.

(٢) البيت في الدر المصون (١/٤٥٢).

(٣) انظر: الإتحاف (٢/٧٢).

[الأعراف: آية ١٩٥] أجرى الله العادة أنه إذا أرسل الأنبياء وعابوا الأصنام وقالوا: إنها لا تنفع ولا تضر، وأن عبادتها كفر بالله مُخلّد في النار، أن أصحاب الأصنام الذين يعبدونها يقولون للرسل: ستضركم هذه الآلهة، ستخبلكم وتخرب عقولكم، ويأتيكم منها الضر؛ لأنكم عبتموها!! والرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) لا يخافون هذا؛ لأن الخوف من الأصنام كفر بالله وعدم توكل عليه، فقد خوفوا النبي ﷺ بأن أصنامهم تضره؛ لأنه عابها، كما سيأتي إيضاحه في الزمر في قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: آية ٣٦] وقد خوفوا بها نبي الله إبراهيم كما قال الله عنه أنه قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ [الأنعام: آية ٨١] وقد قالوا لنبي الله هود: إن آلهتهم اعترته بسوء فَخَبَّلَته وجننته، فزعموا أنه مجنون، وأن الذي أضر عقله آلهتهم، كما في قولهم لهود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: الآيتان ٥٤، ٥٥] هذا الذي قال لهم نبي الله هود هو الذي قال لهم نبينا محمد ﷺ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ وتعاونوا معهم وكل من قدرتم عليه ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ يعني: امكروا بي وافعلوا بي ما تستطيعون من الكيد والمكر ثم لا تنظرون، لا تمهلون؛ إلا أن نبي الله هوداً قال: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: آية ٥٦] ونبينا (صلوات الله وسلامه عليه) قال: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: آية ١٩٦] وقد أجرى الله عادة الشياطين أنهم يخوفون الناس من أولياء الشياطين كما تقدم إيضاحه في تفسير قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ الأصل: يخوفكم أولياءه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: آية ١٧٥] وأنواع تخويف الشيطان الناس من أوليائه مختلفة كما هو معروف؛ ولذا قال هنا: ﴿فَكِيدُونِ جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: آية ١٩٥].

ثم قال (صلوات الله وسلامه عليه): ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ﴾ الولي في لغة

العرب: وهو المولى، وهو الذي انعقد بينك وبينه سبب ولاية يجعلك تواليه ويواليك[١]. والله (جل وعلا) انعقد بينه وبين رسوله موجب الولاية، الرسول يوالي ربه بالطاعات، والله يوالي نبيه بالإعانة والنصر والثواب الجزيل، والرسول ولي المؤمنين، والمؤمنون أولياؤه ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: آية ٦] والله ولي المؤمنين، والرسول ولي المؤمنين ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة: آية ٥٥] والمؤمنون المتقون أولياء الله ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: الآيتان ٦٢، ٦٣].

قوله: ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الأعراف: آية ١٩٦] هو هذا القرآن العظيم. وقال بعض العلماء: المراد جنس الكتاب. فالمعنى: أنه نزل جميع الكتب المنزلة، فيها هذا الكتاب الذي هو الأخير منها، الذي جمع الله فيه علوم الأولين والآخرين، وهذا القرآن سُمي كتاباً، وهو (فِعَال) بمعنى (مَفْعُول) أي: مكتوب؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: الآيتان ٢١، ٢٢] ومكتوب في صحف عند الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: الآيات ١٣ ـ ١٦] وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[٢] أن مادة الكاف، والتاء، والباء. (كَتَبَ) معناها في لغة العرب: الضم والجمع، فكل شيء ضممت بعضه إلى بعض وجمعته فقد كتبته. ومنه سُميت الكتيبة كتيبة، وهي القطعة العظيمة من الجيش؛ لأنها انضم بعضها إلى بعض واجتمع بعضها مع بعض، ومنه قول نابغة ذبيان[٣]:

ولا عيب فيهم غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُم ... بِهِنَّ فُلولٌ من قِرَاعِ الكَتَائِبِ

ولذلك أُطلقت الكتابة على الخياطة؛ لأن الخياطة يُضم فيها طرف الثوب أو طرف الأديم يضم بعضها إلى بعض ويُجمعان بالخيط الذي يخيط

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

به الخائط كما هو معروف، وفي ألغاز الحريري[١]:

وكَاتِبِيْنَ وما خَطَّتْ أَنَامِلُهمْ حَرْفاً ولا قرؤوا ما خُطَّ في الكُتُبِ

يعني الخياطين؛ ولذلك سمّت العرب الرقعة التي تكون في السقاء، والسير التي تُخاط به سَمَّتْهُمَا (كُتبة) لأنه شيء يُلصق بشيء ويُضم إليه، وهو معنى معروف في كلامها، ومنه قول غيلان ذي الرمة[٢]:

ما بَالُ عَيْنَيْكَ منها الماءُ يَنْسَكِبُ كأنهُ من كُلَى مَفْرِيةٍ سَرَبُ
وفْراءَ غَرْفِيَّةٍ أَثْأَى خَوَارِزُها مَشَلْشَلٌ ضَيَّعَتْهُ بينها الكُتَبُ

ومن هذا قيل للخياط: كاتب، ومنه قول الشاعر يهجو بني فزارة ويعيرهم بأنهم يفعلون الفاحشة مع إناث الإبل[٣]:

لا تَأْمَنَنَّ فَزَارِياً خَلَوْتَ بِه على قَلُوصِكَ واكتُبها بأَسْيَارِ

فقوله: «واكتبها بأسيار» يعني: خِط ثفرها بأسيار لئلا يفعل بها الفزاري الفاحشة. هذا أصل هذه المادة في لغة العرب. والكتابة مصدر سيَّال معناه أنك تجمع نقوشاً وتضم بعضها إلى بعض، وتجمع بعضها مع بعض، هي هذه الحروف، حتى تصير دالة على المعاني. هذا معنى الكتاب، وهو (فِعال) بمعنى (مفعول) مكتوب. وهذا معنى قوله: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾.

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ وهو (جل وعلا) يتولىٰ الصالحين، وسيدهم وخيرهم هو النبي ﷺ، فقد تولاه، ولا يضره شيء مع كلاءة الله وحفظه له ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: آية ٦٧] ومعنى كونه يتولاهم أي: يتولاهم بالنصر والحفظ والكلاءة والجزاء ونحو ذلك.

والصالحون جمع صالح، وهو ضد الطالح، وهو الذي يطيع الله (جل وعلا) فيما أمره به ونهاه عنه. وهذا معنى قوله: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

---

(١) السابق.
(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.
(٣) السابق.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ أي: إعانتكم من ظالم ظلمكم، لا يقدرون أن يدفعوا عنكم شيئاً ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٩٧].

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟﴾ كما تقدم بيانه.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٩٨] في هذه الآية الكريمة أوجه معروفة من التفسير[1]: قال بعض العلماء: الضمير في ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ عائد إلى الكفار الذين يعبدون الأصنام. يعني: تراهم ينظرون إليك وتظن أن عيونهم مبصرة وهم لا يبصرون شيئاً؛ لأنهم عمي، إذ لو كانوا يبصرون شيئاً لما عبدوا حجارة لا تنفع ولا تضر!!

وقال بعض العلماء: الضمير في قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ عائد إلى الأصنام. والذين قالوا هذا اختلفوا إلى قولين:

أحد القولين: أنهم كانوا يمثلون تماثيل ويجعلون لها أعيناً تشبه عيون الناس، حتى إنه إذا قابلك الصنم كأنه إنسان ينظر إليك. قالوا: وعلى هذا تراهم فيما يتراءى للناظر ينظرون إليك وهم لا يبصرون؛ لأنهم في الحقيقة جمادات. وذكر ابن جرير[2] وغير واحد أن العرب تقول لكل مقابل شيء إنه ناظر إليه، تقول: دار فلان تنظر إلى داري. معناه: أنها مقابلة لها. وقالوا: إن هذا أسلوب عربي معروف، نزل به القرآن. وعلى هذا القول: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ مقابلين لك ليس بينك وبينهما حاجز ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ لأنها جمادات لا تنفع ولا تضر. هذه الأقوال الثلاثة هي حاصل كلام أهل العلم في الآية. وهذا معنى قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: آية ١٩٨].

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٩٩، ٢٠٠].

هذه الآية الكريمة من أخريات سورة الأعراف إحدى ثلاث آيات[3] في

(١) انظر: ابن جرير (٣٢٤/١٣)، القرطبي (٣٤٤/٧).

(٢) تفسير ابن جرير (٣٢٥/١٣).

(٣) انظر: الأضواء (٣٤١/٢).

كتاب الله بيّن الله (جل وعلا) فيها آداباً اجتماعية يجب على كل مسلم أن يتفهمها ويتدبرها ويعمل بها؛ لأنه ينتفع بها في طول حياته انتفاعاً تاماً، وهي من تعاليم خالق السماوات والأرض، وسنلم بهذه الآيات ونذكر هذه الآداب الاجتماعية التي دلت عليها التي يحتاج إلى تعليمها كل إنسان، ثم نرجع إلى الآية فنفسر مفرداتها.

اعلموا أولًا أن الله أجرىٰ العادة بأنه لا يخلو أحد كائناً من كان من عدو مناوىء له من بني آدم ومن الشياطين، لا بد للإنسان من عدو يناوئه من بني جنسه ومن الشياطين. وهذا أمر غالباً، وخير الناس الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ والله يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ [الأنعام: آية ١١٢] فلا يخلو إنسان من عدو من بني جنسه وعدو من الشياطين.

ليسَ يَخْلُو المرءُ من ضدٍ ولَو   حَاوَلَ العُزلَةَ في رَأْسِ جَبَل[١]

وفي هذه الآية والآيتان الأخريان بيان ما يتلقى الإنسان به العدو من جنسه والعدو من الشياطين؛ ليكتفي شرهما ويكسر أصل هذه العداوة المضرة الشنيعة التي لا يسلم منها أحد[٢]، وذلك أن عدوك من بني جنسك أنك تقابل إساءته بالإحسان، ومنكره بالمعروف، وإساءته بالحلم والصفح، فإن ذلك الإحسان وذلك الحلم والصفح يقضي على إساءته ويذهبها حتى يُضطر إلى أن يصير في آخر الأمر من أصدق الأصدقاء.

وأما إذا كان العدو من الشياطين فإن الملاينة لا تفيد فيه، وأنت لا تراه ولا لك فيه حيلة إلا الاستغاثة بخالق السماوات والأرض والاستعاذة به منه. قال هنا فيمن يتسلط عليك من الإنس: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: آية ١٩٩] وقال في صاحبه الآخر من شياطين الجن: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ لا دواء له إلا ذلك ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٠].

---

(١) هذا البيت من لامية ابن الوردي. وهي ضمن مجموع (كفاية الإنسان من القصائد الغر الحسان) ص١٦٨.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

الموضع الثاني: في سورة (قد أفلح المؤمنون) قال تعالى في عدوك من بني جنسك: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يعني: ادفع سيئات المسيئين بمقابلتها بالتي هي أحسن ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ثم قال في العدو الثاني من شياطين الجن: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: الآيات ٩٦ ـ ٩٨].

الموضع الثالث: في (حم. السجدة) زاد فيه تعالى أن هذا الدواء السماوي والعلاج القرآني الذي يكسر عداوة هذين العدوين لا يعطيه الله لكل أحد، وإنما يخص به من شاء ممن له عنده الحظ الأعظم، وزاد أن هذا دواء نافع وعلاج عظيم حيث قال في العدو من الإنس: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: آية ٣٤] في غاية الصداقة؛ لأن مقابلة إساءته بالإحسان تخجله وتقضي على عداوته حتى يُضطر إلى أن يرجع صديقاً. وقال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ [فصلت: آية ٣٥] هذه الخصلة وهذا التعليم القرآني لا يُعطاه كل الناس، لا يعطيه الله إلا لصاحب الحظ والبخت العظيم عنده من الصابرين؛ ولذا قال: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ ثم قال في رفيقه الآخر: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: الآيتان ٣٥، ٣٦] فهذا علاج قرآني ودواء سماوي نافع يحتاج إليه كل مسلم، ومحل هذا في غير الكفار المناصبين الناس بالعداوة، فالملاينة لهم لا تجوز؛ لأن الكفار يجب عليهم الغلظة والقوة والعزة، ولا يُلاينون، ولا تُقابل سيئاتهم بالحسنات، كما وصف الله بذلك نبينا ﷺ وأصحابه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: آية ٢٩] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: آية ٧٣] مع أنه يقول: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: آية ٨٨] ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء: آية ٢١٥] ويقول في غيرهم: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: آية ٧٣] وقد مدح الله قوماً بلين جانبهم لإخوانهم المسلمين وقوتهم على الكفرة ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: آية ٥٤] وقد قال الشاعر في نبينا ﷺ:

وما حَمَلَتْ من نَاقَةٍ فوقَ رَحْلِهَا أَشَدَّ على أَعدائِهِ من محمدِ[١]

صلوات الله وسلامه عليه. ومن شعر مالك بن نمط الهمداني لما قدم على النبي ﷺ في وفد همذان:

وما حَمَلَتْ من نَاقَةٍ فوقَ رَحْلِهَا أَبَرَّ وأَوفَىٰ ذمةً من محمدِ
وأَعْطَىٰ إذا ما طالِبُ العُرْفِ جَاءَهُ وأَمْضَى بحدِّ المَشْرَفِيِّ المُهَنَّدِ

والحاصل أن الشدة في محل اللين حمق وخرق، واللين في محل الشدة ضعف وخور، وكل مقال له مقام. وقد صدق أبو الطيب المتنبي في قوله[٢]:

إذا قِيلَ حِلْمٌ فقل للحلمِ موضعٌ وحِلْمُ الفتَىٰ في غيرِ موضَعِهِ جَهْلُ

وقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ قال بعض العلماء: لما نزلت هذه الآية سأل النبي ﷺ عنها جبريل فقال له: حتى أسأل ربي، ثم رجع له وقال: ربك يقول: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي: صِل من قطعك، وأعطِ من حرمك. ونحو ذلك[٣]... فإن

---

(١) هذا البيت وما ذكره الشيخ بعده لمالك بن نمط. وقوله: «أبر وأوفى ذمة من محمد» ليس في أبياته التي أوردها ابن هشام في السيرة (١٤٥٥/٤)، وإنما هو باللفظ الأول الذي ذكره الشيخ (أشد على أعدائه من محمد). والبيت المذكور (أبر وأوفى ذمة من محمد) ذكره الصالحي في (سبيل الهدى والرشاد) (٤١٩/١) منسوباً لأُسيد بن أبي إياس الدؤلي. ونقل عن أبي علي الحاتمي قوله: «اتفق أهل الأدب على أن أصدق بيت قالته العرب هو قول أبي إياس الدؤلي...» وذكره. كما أورده الحافظ ابن حجر في الإصابة (١٣٢/١) في ترجمة أنس بن أسيد بن أبي إياس بن زنيم الكناني. وقال الحافظ بعد أن أورده: «هذا البيت من قصيدة أنس بن زنيم» ا.هـ. وأورده في ترجمته (٦٩/١)، وانظر ما قاله الحافظ (رحمه الله) في ترجمة أسيد بن أبي إياس بن زنيم الكناني الدؤلي (٤٧/١).

(٢) البيت في ديوانه (بشرح العكبري (١٨٧/٣)، وشطره الأول: «إذا قيل رفقاً قال...».

(٣) أخرجه ابن جرير (٣٣٠/١٣)، وابن أبي حاتم (١٦٣٨/٥)، عن سفيان بن عيينة عن أُمَيّ مرسلاً. وأخرجه ابن أبي حاتم (١٦٣٨/٥) وأورده السيوطي في الدر (١٥٣/٣)، عن الشعبي مرسلاً، وعزاه لابن أبي الدنيا وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن جرير. والذي عند ابن جرير عن أُمَيّ كما تقدم.
كما أورده في الدر عن جابر (رضي الله عنه) وقيس بن سعد بن عبادة وعزاه لابن مردويه.

هذا هو العفو، بأن تصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك، قال له: صِلْ من قطعك، واعف عمن ظلمك. هذا هو الأخذ بالعفو، وقد ثبت في صحيح البخاري في تفسير هذه الآية الكريمة أن عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري المعروف من رؤساء فزارة وهو الذي يُقال: إنه مطاع أحمق، وكان ابن أخيه الحر بن قيس من خيار المسلمين ومن القُراء، وكان له مكانة عند عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)؛ لأن عمر (رضي الله عنه) كان جلساؤه القراء صغاراً كانوا أو كباراً، فقال عيينة لابن أخيه الحر بن قيس: لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لنا عليه. فاستأذن له عليه، فلما دخل عيينة على عمر (رضي الله عنه) ـ وكان عيينة بدوياً جافياً ـ فقال: هِيْ يا ابن الخطاب!! ما تعطينا الجزل، ولا تقسم بيننا بالعدل!! فغضب عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حتى همّ به، فقال له الحرّ بن قيس: يا أمير المؤمنين إن الله يقول لنبيه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ وإن هذا من الجاهلين. فما جاوزها عمر، وكان عمر (رضي الله عنه) وقّافاً عند كتاب الله[١].

قال بعض العلماء[٢]: (العفو) هو ما تسهّل لك من أخلاق الناس، خذ ما وجدته سهلًا من أخلاق الناس، ما وجدت منهم من طيب خذه، وما جاءك منهم من غير ذلك تجاوز عنه واصفح عنه.

والعفو في لغة العرب يطلق على ضد الجهد، فكل شيء متيسر لا مجهود فيه تسمية العرب عفواً[٣]. وقد قدمنا إيضاحه في تفسير قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: آية ٢١٩] أي: الشيء الزائد الذي لا يُجهد الزائد على قدر الخَلَّة الضرورية على أصح التفسيرين. وهو معنى معروف في كلام العرب، تقول لك: «خذ العفو مني» خذ ما تسهّل لك مني، وما تعصّى عليك لا تكلمني فيه. ومنه

---

(١) البخاري في التفسير، باب (خذ العفو...) حديث رقم (٤٦٤٢)، (٨/٣٠٤).

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٣٢٦).

(٣) انظر: المفردات (مادة: عفا) (٥٧٤).

قول أسماء بن خارجة وقيل حاتم الطائي[١]:

خذي العفو مني تستديمي مودتي ولا تنطقي في سَوْرَتي حين أغضبُ

ومنه قول حسان (رضي الله عنه) يمدح المهاجرين في شعره المشهور الذي فاخر به وفد تميم[٢]:

خُذْ منهمُ ما أَتَوا عَفْواً إذا غَضِبُوا ولا يكُن همُّكَ الأَمرَ الذي منعُوا

وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الآخر[٣]:

إذا ما بُلغة جاءتْكَ عَفْواً فخذها فالغِنَى مرعىً وشُربُ

فعلىٰ هذا ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ ما تسهّل لك من أخلاق الناس ووجدت منهم طيباً بلا كلفة فخذه، وما جاءك من غير ذلك فاصفح عنه وتجاوزه، كما قال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ العرب تطلق لفظة العُرف والمعروف والعارفة على كل خصلة جميلة تستحسنها العقول وتطمئن إليها النفوس[٤]. معناه: وأمر بكل معروف جميل تطمئن إليه النفوس. وهذا معنى قوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الحطيئة[٥]:

من يفعل الخير لا يَعْدَم جَوَازِيَه لا يذهبُ العُرف بينَ الله والناسِ

---

(١) البيت في تاريخ دمشق (٥٧/٩، ٥٨)، شواهد الكشاف ص٩، مع عزوه لأسماء بن خارجة. وذكره ابن قتيبة في عيون الأخبار (١١/٣)، (٧٧/٤)، وعزاه لأبي الأسود الدؤلي. وذكره ابن القيم في روضة المحبين ص٧١ ، والشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٤٦/١).

(٢) ديوان حسان ص١٥٣.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) انظر: القرطبي (٣٤٦/٧).

(٥) البيت في القرطبي (٣٤٦/٧).

يعني: أؤمُر بالعرف أي: بكل جميل حسن تطمئن إليه النفوس وتستحسنه العقول، كالإعراض عن الجاهل، والعفو عن المسيء، وكان بعض علماء الأصول يقول: إن هذه الآية يدخل فيها ما يتعارف عليه الناس في معاملتهم وبيوعاتهم ونحو ذلك[1]، أن الناس إذا جرت عادتهم بعرف بينهم في جميع معاملاتهم يجب على الحاكم أن يأخذه؛ ولذا قال العلماء: إذا جاء قاض إلى بلد وهو غريب عنها ليس من أهلها لا يجوز له أن يحكم ولا أن يفتي حتى يسأل عن عرفهم وعاداتهم في ماذا يريدون بالصيغ والألفاظ المعاملات؛ لأن الأحكام تختلف باختلاف الأعراف، قد يكون الناس يطلقون هذه الكلمة على معنى معين لا يريدون غيره فيحملها القاضي على لفظها اللغوي فيظلمهم، ويُحَمِّلَهُم ما لا يقصدون. ومن هذا كان بعض علماء الأصول يقول: هذه المسألة التي دخلت في عموم هذه الآية إحدىٰ القواعد الخمس التي أُسس عليها الفقه الإسلامي[2]. وبعضهم يقول: أصلها أربعة، زاد بعض الأصوليين فيها خامسة[3]، وهي قواعد خمس:

أولها: (الضرر يُزال) هذه قاعدة عظيمة من قواعد التشريع الإسلامي (إزالة الضرر)، ويشهد لها حديث: «**لا ضرر ولا ضرار**»[4].

---

(١) انظر: نشر البنود (٢/٢٧٢)، العرف وأثره في التشريع الإسلامي ص١٢٢.

(٢) للوقوف على هذه القواعد انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص٧، فما بعدها، نشر البنود (٢/٢٧٠)، نثر الورود (٢/٥٧٩).

(٣) انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص٧ ـ ٨.

(٤) روى هذا الحديث جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم) منهم:

١ ـ أبو سعيد الخدري. عند الحاكم (٢/٥٧ ـ ٥٨)، وقال: «صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه» ا.هـ. ووافقه الذهبي. ورواه الدارقطني (٣/٧٧)، (٤/٢٢٨)، والبيهقي (٦/٦٩).

٢ ـ عبادة بن الصامت. عند أحمد (٥/٣٢٦ ـ ٣٢٧)، وابن ماجه في الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره. حديث رقم (٢٣٤٠)، (٢/٧٨٤)، والبيهقي (٦/١٥٧)، (١٠/١٣٣).

٣ ـ ابن عباس عند أحمد (١/٣١٣)، وابن ماجه في الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره. حديث رقم (٢٣٤١)، (٢/٧٨٤)، الدارقطني (٤/٢٢٨)، والطبراني في =

الثانية: (المشقة تجلب التيسير) هذه من قواعد الفقه الإسلامي التي أُسس عليها، ومن فروع هذه القاعدة: التسهيلات والرخص، كقصر المسافر للصلاة، وفطره في رمضان، وغير ذلك من الرخص والتسهيلات المنتشرة في الشرع.

الثالثة: (لا يرتفع يقين بشك) وهذه من أمثلتها: أن الذمة تُحمل على براءتها حتى يُتحقق بالبينة شغلها. وكذلك إذا ثبت أن الذمة شُغِلَتْ بدَيْنٍ وجب استصحاب ذلك الشغل حتى تقوم البيّنة على أنه قضاه. وهكذا في مسائل كثيرة.

الرابعة: قولهم (العُرفُ مُحَكَّم) وهو أن الناس في معاملاتها وما يجري بينها في بيوعها ونكاحها وإجاراتها وطلاقها وغير ذلك من العقود أنها يُرجع بها إلى عرفها وما تعتاده في مخاطبتها وتقصده، ولا تُحمَّل بمطلق ألفاظ اللغة التي يخالفها عرفها.

القاعدة الخامسة: (الأمور تبع المقاصد) وهذه قاعدة عظيمة يشير إليها قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى**»[1] وهذا معنى قوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾.

﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ الإعراض عن الجاهلين خُلُق سماوي أمر الله

= الكبير (١١/٣٠٢). والأوسط (٤/١٢٥). وعزاه في نصب الراية (٤/٣٨٤) لعبدالرزاق وابن أبي شيبة.

٤ ـ عائشة. عند الدارقطني (٤/٢٢٧)، والطبراني في الأوسط (١/٩٠).

٥ ـ أبو هريرة. عند الدارقطني (٤/٢٢٨).

٦ ـ عمرو بن يحيى المازني عن أبيه. عند مالك في الموطأ (مرسلاً)، كتاب الأقضية، باب القضاء في المرفق. حديث رقم (١٤٢٦)، ص٥٢٩.

٧ ـ ثعلبة بن أبي مالك. عند الطبراني في الكبير (٢/٨٦).

٨ ـ جابر بن عبدالله. عند الطبراني في الأوسط (٥/٢٣٨).

وانظر: إرواء الغليل (٨٩٦)، السلسلة الصحيحة (٢٥٠)، صحيح الجامع (٧٥١٧).

(١) البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي...، حديث رقم (١)، (١/٩). وأطرافه في: (٥٤)، (٢٥٢٩)، (٣٨٩٨)، (٥٠٧٠)، (٦٦٨٩)، (٦٩٥٣).

ومسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية**». حديث رقم (١٩٠٧)، (٣/١٥١٥).

به نبيّه لِيُعَلِّم خَلْقَه هذا الخُلق الكريم، والأدب السماوي العظيم، أنه إذا جهل عليك جاهل فأساء إليك أن تعرض عنه ولا تأخذه بزلته، كما قال جل وعلا: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: آية ٧٢] ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: آية ٥٥] ونحو ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٠] (إما) هذه أصلها (إن) الشرطية زيدت بعدها (ما) المزيدة لتوكيد الشرط[١] والكثير في كلام العرب: أن (إن) الشرطية إذا أُكِّدت شرطيتها بـ (ما) المزيدة بعدها كان الفعل المضارع لا بد أن تكون فيه نون التوكيد المُثَقَّلة، حتى قال بعض العلماء: كل مضارع قبله (إما) لا بد أن يتصل بنون التوكيد الثَقيلة[٢]. والتحقيق أن هذا وإن كان هو لغة القرآن لم يوجد في القرآن فعل مضارع قبله (إما) إلا وهو مقترن بنون التوكيد المُثَقَّلة ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٠] ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ [الزخرف: آية ٤١] ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [مريم: آية ٢٦] إلى غير ذلك؛ إلا أن التحقيق أن إتيان نون التوكيد بعده هو اللغة الفصيحة ولو لم تأت بعده لكان جائزاً، وسُمع في أشعار العرب بكثرة عدم توكيد الفعل بعد (إما)، ومنه قول الأعشى[٣]:

فَـإِمَّـا تَـرَيْـنـي ولـي لِـمَّـةٌ فـإنَّ الـحَـوَادثَ أودَى بـهـا

قال: «تريني» ولم يأت بنون التوكيد. ومنه قول الحماسي[٤]:

زَعَـمـتْ تُـمَـاضِـرُ أَنَّـني إِمَّـا أَمُـت يَـسْـدُدْ أُبَـيْـنُـوهَـا الأَصَـاغِـرُ خُـلَّـتي

ومنه قول الشنفرى[٥]:

(١) انظر: الدر المصون (٢٩٨/١).
(٢) انظر: المصدر السابق (٢٩٩/١).
(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من هذه السورة.
(٤) السابق.
(٥) السابق.

فإما تريني كابنةِ الرَّمْلِ ضَاحِياً ... علـى رِقَّـةٍ أَحْـفَـى ولا أَتَـنَـعَّـلُ

وقول لبيد بن ربيعة[١]:

فَإِمَّا تريني اليومَ أصبحتُ سَالماً ... فلَسْتُ بِأَحْيَا من كلابٍ وجعفرِ

وهو كثير في كلام العرب. وزعم قوم أن حذف نون التوكيد لضرورة الشعر. وقال جماعة من علماء العربية: إنه لغة صحيحة لا ضرورة، كما هو معروف في محله. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٠] أسند الفعل هنا إلى مصدره، كقول العرب إذا جدَّ الأمر: «جدَّ جِدُّ هذا الأمر». والأصل يعنون: جدَّ الناس في ذلك الأمر. وإسناد الفعل إلى مصدره أسلوب عربي معروف، منه قول أبي فراس الحمداني وإن كان شعره لا يصلح إلا مثالاً لا شاهداً[٢]:

سَيَذْكُرني قَومي إذا جَدَّ جِدُّهُم ... وفي الليلةِ الظَّلماء يُفْتَقَدُ البدرُ

قال بعض العلماء[٣]: النزغ والنغز معناه: النخس. وإما ينخسنك الشيطان. ونخس الشيطان كأنه يأتي بشيء محدد ينخس في الإنسان ويغرزه فيه ليثيره إلى ما لا يرضي الله من المعاصي. وهذا النزغ هو فساد الشيطان على الإنسان إما بالوساوس، وإما بشدة الغضب، ونحو ذلك مما يحمله عليه الشيطان من انتهاك حرمات الله وتضييعها. إذا نزغك هذا النزغ من الشيطان بأن وسوس لك حتى زين لك أن تعصيه، أو أغضبك حتى خرجت عن حدود الطاعة، وكان هذا النزغ سيؤديك إلى أن تفعل ما لا ينبغي ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من الشيطان. (استعذ) معناه: اطلبه أن يعيذك منه. والإعاذة: هي الحفظ والتمنع والتوقي، عكس اللياذ؛ لأن اللياذ بالإنسان لاذ به يلوذ إذا كان يريد أن يجلب له

---

(١) السابق.

(٢) البيت في ديوانه ص١٦١.

(٣) انظر: القرطبي (٧/٣٤٧).

مصالحه. واستعاذ به يستعيذ ليمنعه ويقيه مما يخاف، كما قال[١]:

يَا مَنْ أَعُوذُ بِهِ فِيمَا أُحَاذِرُه ومن أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُحَاوِلُه

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: اطلب أن يعيذك، أي: يمنعك ويقيك من هذا الشيطان الرجيم ﴿إِنَّهُۥ﴾ جل وعلا ﴿سَمِيعٌ﴾ لدعائك، سميع لما يوسوس لك من الشيطان ﴿عَلِيمٌ﴾ بوسوسة الشيطان لك، وبالتجائك إليه، وبكل ما يقوله ويفعله خلقه، فهو الذي بيده إنجاؤك منه، وهذا معنى قوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٠].

٢٧/ب / [﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: الآية ٢٠١] قوله: ﴿طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ قرأه ابن كثير وأبو عمرو: ﴿طَيْفٌ من الشيطان﴾. وقرأه نافع وابن عامر وعاصم وحمزة: ﴿طَٰٓئِفٌ﴾. فعلى القراءة الأولى ﴿طَيْفٌ﴾ أي: لَمَّةٌ وخَطْرَة، فإذا وقع لهم شيء من ذلك أعرضوا عنه][٢] إلى ما يرضي الله ويسخط الشيطان. وعلى قراءة الآخرين: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [الأعراف: آية ٢٠١] فالطائف: اسم فاعل طاف يطوف فهو طائف. ﴿طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الشيء الذي يطوف بهم من قِبَل الشيطان من وساوسه وإغضابه لهم. ومعنى القراءتين متلازم، إلا أن الأول يقول: ﴿طيف من الشيطان﴾ أي: لَمَّة منه. والثاني يقول: ﴿طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ كما قال: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [القلم: آية ١٩] ومعنى القراءتين راجع إلى شيء واحد.

وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أي: تذكروا عقاب الله وثوابه ففاجأهم الإبصار. والإبصار هنا معناه: الإبصار بالقلب الذي يحمل الإنسان على الرجوع إلى

---

(١) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه (شرح البرقوقي) (٢/٢٢٥)، وقد وقع فيه هنا تقديم وتأخير، ولفظه في الديوان:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وتم استدراك النقص بالرجوع إلى كتب القراءات والتوجيه. وقد جعلت ذلك بين معقوفين. انظر: المبسوط لابن مهران ص٢١٨، حجة القراءات ص٣٠٥، القرطبي (٧/٣٤٩)، الدر المصون (٥/٥٤٥ ـ ٥٤٧).

ما يرضي الله ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: آية ٤٦].

وقد قدمنا أن (إذا) الفجائية فيها ثلاثة أقوال(١):

أحدها: أنها حرف.

والثاني: أنها ظرف زمان.

الثالث: أنها ظرف مكان. كما هو معروف في محله.

وهذا معنى قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ وهذا معنى قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: آية ٢٠١].

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ الآخرين، إخوانهم في النسب لا في الدين، الذين لا يبصرون﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ يمدهم الشياطين. فالإخوان الأولون من الإنس. وقوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ يعني: تمدهم الشياطين. ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾ الآخرين من عتاة الإنس ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ أي: تمدهم الشياطين. هذا الذي ذكره غير واحد، أن المراد بالإخوان: العتاة من الآدميين، والذين يمدونهم: هم إخوانهم من الشياطين.

وقال بعض العلماء: إن الإخوان الأولين: الشياطين يمدون إخوانهم من عتاة الإنس. وعلى كل الأحوال فالمعنى: أن المتمردين من بني آدم، العصاة والكفرة لهم إخوان من الشياطين يمدونهم في الغي. ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ معناه يكونون لهم مدداً في الغي، ويزيدونهم فيه، فيزيدونهم طغياناً إلى طغيانهم، وكفراً إلى كفرهم بما يزينون لهم من الكفر والمعاصي ويعينونهم عليه.

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٢] أي: لا يقصر الشياطين الذين يمدون عتاة الإنس لا يقصرون في ذلك أبداً؛ لأن الشيطان لا يحصل منه تقصير البتة في فعل السوء، فهو طبيعته متمادٍ فيه أبداً. والعرب تقول: أقصر عن الأمر يُقصر. إذا كف ونزع عنه وقلل منه، وهو معروف في كلام العرب، ومنه قول امرىء القيس(٢):

---

(١) انظر: الدر المصون (١٣٣/١)، (٤٠/٤)، مغني اللبيب (٧٩/١)، معجم الإعراب والإملاء ص٥٠.

(٢) ديوان امرىء القيس ص٥٩، و (قَوّ) اسم واد في جزيرة العرب. و (عرعر) اسم موضع آخر.

سَمَا بك شوقٌ بَعْدَ ما كانَ أَقْصَرَا وَحَلَّتْ سُليمَى بَطْنَ قَوٍّ فعَرعَرَا

ومعنى الآية بالإجمال: أن المؤمنين المتقين إذا أصابتهم لَمَّة من الشيطان ونزغ منه فوسوس لهم ليحملهم على المعاصي، أو أغضبهم ليوقعهم بالغضب في المعاصي، تذكروا الله فأبصرت قلوبهم عقاب الله وثوابه، فرجعوا إلى ما يرضي الله، وأن غيرهم من الكفرة و [أصحاب](١) المعاصي إذا جاءتهم لَمَّاتُ الشياطين وطائف الشياطين مدوا لهم وزادوهم ضلالًا إلى ضلال، فلا يبصر هؤلاء ولا يبصر هؤلاء. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف: آية ٢٠٢].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف: آية ٢٠٣] ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم﴾ (إذا) أصلها ظرف مضمن معنى الشرط، ومن أحكامه عند علماء العربية: أنه يدل على تحقق وجود المشروط. فلو قلت لعبدك وهو يعرف معنى اللغة العربية: «إن جاءك زيد فأعطه درهماً». فهو يعلم أن معنى الكلام: أن زيداً محتمل أن يجيء ومحتمل أن لا يجيء؛ لأن (إنْ) حرف شرط لا يقتضي وجود الشرط. أما إذا قلت له: «إذا جاءك زيد فأعطه درهماً» وهو يعرف معنى اللغة فإنه يعلم أن زيداً آتٍ لا محالة؛ لأن (إذا) تدل على تحقق وقوع الشرط، وهي لا تقتضي التكرار على التحقيق إلا إذا اقترنت بقرينة تدل على ذلك(٢). فمن قال لزوجته: «إذا دخلت الدار فأنت طالق» ثم دخلتها فإنها تطلق، ولو دخلتها مرة أخرى لا يكون عليه طلاق جديد؛ لأن (إذا) ليس أداة تكرار. قال بعض علماء العربية: وربما دلت على التكرار إن احتفت بقرينة يُفهم منها ذلك. والتحقيق أن (إذا) قد تأتي أداة تكرار إذا دلت قرينة على ذلك، ومنه بذلك المعنى قوله(٣):

---

(١) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

(٢) انظر: البرهان للزركشي (١٩٠/٤، ٢٠٣)، شرح الكوكب المنير (٢٧٢/١)، الفروق للقرافي (٩٧/٢).

(٣) البيتان لعروة بن أُذينة. وهما في الشعر والشعراء ص٥٨٠، تاريخ ابن عساكر =

إذا وجدت أُوار النار في كبدي ذهبت نحو سقاء القوم أبترد
هبني بردت ببرد الماء ظاهره فمن لنار على الأحشاء تتقد

فإن معنى «إذا وجدت أُوار النار في كبدي»: كلما وجدت الحرارة الشديدة في كبدي بردتها بالماء.

وقوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ كانت عادة الكفار اقتراح الآيات على رسول الله ﷺ[1]، تارة يقترحون عليه آيات قرآنية تُتلىٰ غير هذا القرآن، كما سيأتي في سورة يونس، وفي تفسير قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [يونس: آية ١٥] وتارة تكون الآيات المقترحات آيات كونية قدرية كما في قوله: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ وفي القراءة الأخرى[2]: ﴿حَتَّىٰ تَفَجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾[الإسراء: الآيتان ٩٠، ٩١] إلى آخر الآيات المقترحات، وهي كثيرة في كلام العرب.

ومن العلماء ما ظاهر كلامه أن الآية المقترحة هنا آيات أُخر من جنس القرآن غير ما أنزل، وعلى هذا القول فلا إشكال في الكلام؛ لأن المعنى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ﴾ تقرأ عليهم آيات أُخر غير ما أنزل عليك ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ (لولا) هنا حرف تحضيض، والتحضيض: الطلب بِحَثٍّ. معناه: أطلب منك طلباً حثيثاً شديداً أن تجتبيها.

و ﴿اجْتَبَيْتَهَا﴾ أصل الاجتباء معناه المشهور في لغة العرب: الاختيار والاصطفاء. هذا أشهر معانيه المعروفة، ومنه قوله: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: آية ١٢٢] قال بعض العلماء: لولا اخترتها واصطفيتها

= (٢٠٥/٤٠، ٢٠٦، ٢٠٧)، زاد المعاد (٢٩/٤)، روضة المحبين ص٤٦، زهر الآداب (١٦٧/١)، وفيات الأعيان (٣٩٤/٢)، مع شيء من الاختلاف في بعض الألفاظ.

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٧١.

وجئت بها. وقالت جماعة من المفسرين: العرب تقول: اجتبيت الكلام. إذا اختلقته واخترعته من وقته، ولم يكن عندك فيما سبق، بل جئت به اختلاقاً واختراعاً في وقته. ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ هلَّا جئت بها مخترعة مختلقة في عجلة؛ لأنهم يزعمون أن كل القرآن اختلاق ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص: آية ٧] ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: آية ٢٥] كما أن هذا الذي تقرأ مختلق في زعمهم فاقرأ الآية المطلوبة منك مختلقة أيضاً كهذا الذي تقرأ. وهذا تكذيب منهم ـ قبّحهم الله ـ بالقرآن. وعلى هذا القول فلا إشكال في قوله: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: هلَّا اخترعتها واختلقتها وقرأتها علينا كما طلبناك، كما اختلقت هذا القرآن كله ونسبته إلى الله بغير حق. هذا قولهم لعنهم الله.

وذهبت جماعة أخرى من أهل التأويل إلى أن الآية المطلوبة هنا آية كونية قدرية، كما قال: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء: آية ٩٠] وقد قالوا له ﷺ: اجعل لنا الصفا ذهباً، وباعد عنا بين جبال مكة لنزدرعها، وهاتنا بالرياح لنركبها إلى الشام كما كان يفعل سليمان، وأحيي لنا قصياً نسأله عنك هل أنت رسول أو لا؟ إلى غير ذلك من الآيات المقترحات.

وعلى أن الآية المطلوبة هنا كونية قدرية قال بعض العلماء: معنى ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ هلا اقترحتها وتلقيتها من تلقاء ربك؛ لأنك تزعم أن كل ما سألت منه يعطيك إياه. يعني فتقلب لنا الصفا ذهباً، وتحيي لنا قصياً نسأله عنك، إلى غير ذلك من الآيات المقترحات. وعلى هذا القول فالاجتباء هنا بمعنى تلقيها من الله مقترحة، وإجابة الله إلى ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ قل لهم يا نبي الله: ليس من شأني اختلاق الآيات التي تُقرأ وتتلى، وليس من شأني اقتراح الآيات الكونية القدرية، إنما أنا عبد مأمور أفعل كما أمرني ربي ولا أتجاوزه إلى شيء آخر.

﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ﴾ ما أتبع إلا ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ فهذا الذي أتلوه عليكم أوحاه

ربي إلي، وهو الذي أقرأه عليكم، أما شيء آخر لم يُوح إلي فلا أقوله لكم ولا أقترح على ربي شيئاً. والله (جل وعلا) قد بيّن في سورة بني إسرائيل أنه إنما لم يرسله بخارق مثل خارق الرسل المتقدمة كناقة صالح ونحو ذلك أنه إن فعل ذلك كذبوا فأهلكهم، كما قال: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾ [الإسراء: آية ٥٩] لأن الله تبارك وتعالى لما اقترحوا هذه الآيات بيّن لهم هنا وفي سورة العنكبوت أنه أنزل لهم آية هي أعظم من جميع الآيات وأكبر، وهي هذا القرآن العظيم، فهذا القرآن العظيم أعظم آية من ناقة صالح، ويد موسى البيضاء، وعصاه التي تكون ثعباناً. ومما يدل على أنها أعظم الآيات: أنها تتردد في أسماع الخلائق إلى يوم القيامة، وأنها كلام رب العالمين الذي يعجز عن الإتيان بمثله جميع الخلائق، وقد تحدى الله العرب بسورة من هذا القرآن العظيم في سورة البقرة قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: آية ٢٣] وتحداهم بسورة منه في سورة يونس قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: آية ٣٨] وتحداهم بعشر سور في سورة هود ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: آية ١٣] وتحداهم به كله في سورة الطور: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: آية ٣٤] ثم بيّن في سورة بني إسرائيل أن عامة الخلائق لو تعاونوا واجتمعوا لا يقدرون على الإتيان بمثل هذا القرآن: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: آية ٨٨] فلما كان معجزة يعجز عن مضاهاتها جميع الإنس والجن، وهي معجزة باقية تتردد في آذان الخلائق إلى يوم القيامة، محفوظة، تولى رب العالمين حفظها، لو أراد أحد أن يزيد في هذا القرآن العظيم نقطة واحدة، أو يغير شكلة حرف لرد عليه الآلاف من صغار أطفال المسلمين في أقطار الدنيا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: آية ٩] ولأجل عظم هذه الآية وكبرها

وأنها أعظم الآيات وأكبرها أنكر (جلّ وعلا) على من طلب آية غيرها إنكاراً شديداً في سورة العنكبوت حيث قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ ثم أنكر عليهم طلب آية غيره قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ الآية [العنكبوت: الآيتان ٥٠ ـ ٥١]. فمن لم يكتف بهذه الآية العظمىٰ عن جميع الآيات فهو جدير بأن ينكر عليه؛ ولذلك قال هنا في أخريات الأعراف لما قال عنهم إنهم قالوا: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ﴾ بيّن لهم أن هذا القرآن العظيم أعظم آية، لا ينبغي للإنسان أن يطلب آية غيره حيث قال: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٣] فمن لم تهده هذه البصائر، والأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، والمعجزة العظمى، والهدى والرحمة فلا آية تهديه ألبتة. وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ﴾ لا أختلق آية ولا أقترح أخرى.

ثم قال: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ الإشارة في (هذا) إلى هذا القرآن العظيم. أي: هذا القرآن الذي هو أعظم آية وأنتم تقترحون آيات غيره ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ البصائر جمع البصيرة، والبصيرة المراد بها: البرهان القاطع والدليل الساطع الذي يُبْصَر في ضوئه الحق واضحاً لا لبس فيه. فالبصائر: الحُجج القاطعات، والبينات الواضحات التي لا تترك في الحق لبساً، وواحدها (بصيرة)، ومنه قوله تعالى في أخريات يوسف: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: آية ١٠٨] وإنما كان المبتدأ الذي هو (هذا) إشارة إلى مذكر، والخبر جمع تكثير جمع تكسير (بصائر)؛ لأن (هذا) وهو إشارة إلى القرآن، والقرآن يتضمن حُجَجاً كثيرة، وبراهين قاطعة بكثرة؛ ولذا عبر عنه بـ (هذا) وأخبر عنه بقوله: ﴿بَصَآئِرُ﴾ و ﴿وَهُدًى﴾ أي: بيان ودلالة؛ لأن القرآن العظيم يُطلق هداه الهدى العام، ويُطلق هداه الهدى الخاص، والقرآن العظيم قد بيّن تعالى أن له هدى عاماً للأسود والأحمر، وهدى خاصاً لمن وفقه الله.

أما الهدى العام: فمعناه بيان الطريق، وإيضاح المحجة البيضاء، وبيان الحق من الباطل، والنافع من الضار، والحسن والقبيح. تقول العرب: «هديته» إذا أرشدته إلى الخير، سواء تبعه أم لا. ومنه بمعناه العام: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: بينا لهم الحق على لسان نبينا صالح، وهو هداية إرشاد وبيان لا هداية توفيق؛ لأن الله قال: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ الآية [فصلت: آية ١٧].

ومن إطلاق الهدى بمعناه العام الذي هو البيان والإيضاح والإرشاد قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي: بينا له طريق الحق وطريق الباطل، بدليل قوله: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: الآيتان ٢، ٣] لأن الهداية في قوله: ﴿هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ لو كانت هداية توفيق لما قسم من هداه الله بها إلى شاكر وإلى كفور.

المعنى الثاني: هو إطلاق الهدى بمعناه الخاص، والهدى بمعناه الخاص: معناه توفيق الله (جل وعلا) لعبده حتى يهتدي إلى ما يرضي ربه، ويكون سبب دخوله الجنة. ومنه بهذا المعنى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ [الأعراف: آية ١٧٨] وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: آية ٩٠].

وكون الهدى يُطلق إطلاقاً عاماً وإطلاقاً خاصاً إذا فهم الإنسان ذلك زالت عنه إشكالات في كتاب الله، ومناقضات يظنها الجاهل ببعض آيات الله، كقوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: آية ٥٦] مع قوله فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: آية ٥٢] فنفى عنه الهدى في آية وأثبته له في آية، فالهدى المُثبت له في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو الهدى بمعناه العام، وهو البيان والإيضاح. وقد بين ﷺ هذه المحجة البيضاء حتى تركها ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، صلوات الله وسلامه عليه.

أما الهدى المنفي عنه في قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

[القصص: آية ٥٦] فهو التفضل بالتوفيق وسعادة المرء؛ لأن هذا بيد الله وحده ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ الآية [المائدة: آية ٤١]. . ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ﴾ [النحل: آية ٣٧] في القراءة الأخرى[1]: ﴿لا يُهْدَى من يُضِل﴾ أي: لا يُهْدَى أحد أضله الله. إلى غير ذلك من الآيات؛ ولذا قال في آية في هدى القرآن العام: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ﴾ [البقرة: آية ١٨٥] وقال في هداه الخاص: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: آية ٢] وبهذا تعلم أن هداه المخصوص بالمتقين في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والمخصوص بالمؤمنين كقوله هنا في آية الأعراف هذه: ﴿هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٣] أن المخصوص بالمؤمنين هو الهدى الخاص، وهو توفيق الله (جل وعلا) لهم وتيسيره لهم إلى الأعمال التي ترضيه؛ ولذا كان القرآن العظيم لمن وفقه الله هدى بهذا المعنى، وكان حجة على غيره ـ والعياذ بالله ـ يدخله الله بها النار، كما بينه تعالى في آيات كثيرة كقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: آية ٤٤] وقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: آية ٨٢] وقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: الآيتان ١٢٤، ١٢٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ﴾ [المائدة: آية ٦٤، ٦٨] في الموضعين في سورة المائدة كما تقدم، وهذا معنى قوله: ﴿هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ لأن القرآن بصائر، أي: حجج واضحات، وبينات قاطعات، وبراهين ساطعة لا تترك في الحق لبساً. ﴿وَهُدًى﴾ أي: إرشاداً ودلالة

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأنعام.

للمسلمين يبين لهم بياناً لا خفاء معه ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ لمن وفقه الله للعمل به يرحمه الله به ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أما القوم الذين سبق لهم الشقاء فهو حجة عليهم يدخلون به النار، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: آية ٤٤] لأن الله (تبارك وتعالى) منذ أنزل هذا الكتاب المنزل كان واجباً شرعاً ألا يدخل أحد الجنة كائناً من كان إلا عن طريق العمل به، وألا يدخل أحد النار إلا عن طريق الإعراض عنه ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ الآية [هود: آية ١٧]. فالعمل به مفتاح الجنة، والإعراض عنه سبب دخول النار. وهذا معنى قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: آية ٢٠٤] قال بعض العلماء: كان كفار مكة لا ينصتون للقرآن ولا يستمعون له، ولا يرضون أحداً أن يسمعه، بل يُخَلِّطُوا فيه بالأصوات والتصدية والمكاء من تصفيق وتصفير، ويأتون باللغط واللغو ليمنعوا الناس من سماعه وتدبره كما نص الله على ذلك عنهم في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: آية ٢٦] فأمر الله المؤمنين أن ينصتوا له ويستمعوا.

قال بعض العلماء: هو أمر للكافرين أن يكفوا عما يفعلون في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ وقد أجرى الله العادة أن الكفرة يكرهون كل الكراهة سماع كلام رب العالمين ـ والعياذ بالله ـ هذا أول الأنبياء الذين أُرسلوا لأهل الأرض بعد أن كفروا، نوح (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام) فانظروا كيف يكره قومه سماع كلامه؛ لأنه يقول عنهم: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾﴾ [نوح: آية ٧] كراهة أن يسمعوا الحق الذي يقوله لهم ذلك النبي الكريم. وهؤلاء الذين بُعث فيهم خاتم الرسل (صلوات الله وسلامه عليه) يقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: آية ٢٦] فقد بين ـ جل وعلا ـ في أُخريات سورة الحج شدة كراهتهم لتلاوة القرآن عليهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ [الحج: آية ٧٢] أي: لشدة كراهتهم وبغضهم لتلاوتها؛ ولذا قال هنا: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ﴾.

وكثير من علماء السلف يقولون: هذه في الصلاة خاصة إذا كان الإمام يقرأ صلاة جهرية، فإذا قرأ الإمام قراءة جهرية فعلى المأمومين أن يستمعوا وينصتوا. وكان بعض العلماء من هذا المعنى يقول: ليس على المأموم قراءة؛ لأن قراءة الإمام تكفيه في الجهرية. وبعضهم يقول: تكفيه مطلقاً، وفي الحديث الصحيح: «**إنما جُعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبَّر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا**»[١] فجماعات كثيرة من علماء السلف يقولون: هي في الصلاة إذا كان الإمام يقرأ جهراً. إذا قرأ الإمام القرآن في الصلاة ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ الاستماع: هو أن تتفهم هذا الذي يقال حتى تفهم معانيه، والإنصات: هو السكوت وترك الكلام لأجل استماع الكلام. هذا معنى: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾.

وكان بعض العلماء يقول: هي في خطبة الجمعة.

وبعضهم يقول: هي في الفطر، والأضحى، وخطبة الجمعة، وكل ما يجهر فيه الإمام[٢].

وكونها في خطبة الجمعة وإن قال به جماعة كثيرة من السلف فإنه لا يخلو من بُعد لمسائل منها: أن القرآن غير كثير فيها. ومنها: أن الجمعة ما

---

(١) البخاري في الصلاة، باب الصلاة في السطوح والمنبر والخشب. حديث رقم (٣٧٨)، (٤٨٧/١). وأطرافه في (٦٨٩، ٧٣٢، ٧٣٣، ٨٠٥، ١١١٤، ١٩١١، ٢٤٦٩، ٥٢٠١، ٥٢٨٩، ٦٦٨٤)، ومسلم في الصلاة، باب ائتمام المأموم بالإمام. حديث رقم (٤١١)، (٣٠٨/١)، من حديث أنس رضي الله عنه. وقد أخرجه من حديث عائشة برقم (٤١٢)، وبمعناه من حديث جابر برقم (٤١٣)، وأبي هريرة برقم (٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧).

(٢) للوقوف على أقوال السلف في هذه الآية انظر: ابن جرير (٣٤٥/١٣)، القرطبي (٣٥٣/٧)، ابن كثير (٢٨٠/٢).

شُرعت إلا بالمدينة، وهذه الآيات من سورة الأعراف مكية؛ لأن سورة الأعراف من القرآن النازل بمكة قبل الهجرة كما هو معلوم.

وهنا كان خلاف بين العلماء: هل إذا قرأ الإمام يسكت المأموم ويكتفي بقراءة الإمام، أو لا بد أن يقرأ الفاتحة؟ في هذا خلاف مشهور بين العلماء[1]، فبعض العلماء يقول: أما في الجهرية فإن المأموم يسكت؛ لأن الله أمره في قوله: ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ والله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: آية ٦٣].

ومن العلماء من لا يرى الفاتحة واجبة على المأموم؛ لأن الإمام يحملها عنه. وهذا مذهب مالك، وروي عن أبي حنيفة مثله، وقال به بعض العلماء. قالوا: دل القرآن على أن الذي يسمع ويُؤَمِّن أنه كالذي كان يتكلم. قالوا: والدليل على ذلك أن الله قال في محكم كتابه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ موسى وحده لم يكن معه هارون ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيَضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ وفي القراءة الأخرى[2]: ﴿لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ ثم قال: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: الآيتان ٨٨، ٨٩] قالوا: كيف يكون الداعي واحداً ـ وهو موسى ـ وتكون الدعوة المجابة من اثنين؟! قالوا: لأن هارون كان ينصت لدعاء موسى ويُؤَمِّن عليه، فصار أحد الداعيين لإنصاته وتأمينه، فدل ذلك على أن المنصت المُؤَمِّن كالذي كان يقرأ. هذا قال به جماعة من العلماء.

وقالت طائفة أخرى: ينبغي للمأموم أن لا يترك قراءة الفاتحة، فلو سكت الإمام وأعطاه الفرصة بالسكوت لبادر أن يقرأ الفاتحة في سكتة الإمام، وإن لم يعطه فترة في ذلك قرأها. قالوا: نعم ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ

---

(١) انظر: الاستذكار لابن عبدالبر (٢٢٣/٤ ـ ٢٤٨)، المجموع (٣٦٥/٣)، تفسير القرطبي (١١٧/١ ـ ١٢٤)، المغني (١٤٦/٢ ـ ١٥٦) وقد أفرد هذه المسألة في التأليف الإمامان: البخاري والبيهقي رحمهما الله، وكتاباهما مطبوعان.

(٢) مضت عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأعراف.

﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ هذا نص عام في قراءة القرآن، إلا أن قوله ﷺ: **«لا صلاة لمن لم يقرأ بأم الكتاب»**[1] أخص منه، فهو تخصيص عموم القرآن بحديث نبوي، فتخصيصات عمومات القرآن بالأحاديث كثيرة جداً. وقد روي حديث في خصوصه أنه يقرأ وراء الإمام في الجهرية. فإن كان ثابتاً محفوظاً فلا كلام.

وعلى كل حال فقوم من العلماء منعوا القراءة في حال جهر الإمام، وقوم أوجبوا قراءة الفاتحة خصوصاً. والأحوط في هذا ألا يترك الفاتحة؛ لأن الصلاة دعيمة عظيمة من دعائم الإسلام، وهي أعظمها بعد الشهادتين، فلا ينبغي للإنسان أن يفعل صلاة يقول بعض الناس: إنها غير مجزئة، فينبغي أن يعمل عملًا يتفق الناس فيه على أن صلاته مجزئة، والله تعالى أعلم. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾.

الاستماع: هو التدبر في الشيء والإصغاء إليه، الإصغاء إلى الشيء بتدبر.

والإنصات: هو السكوت وترك الكلام؛ لأجل سماع ما يقال. هذا معنى قوله: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٤].

ثم إن الله علم نبيه ﷺ آداب الذكر، وجعل له الذكر على نوعين على التحقيق: ذكر نفساني، وذكر لساني، أما الذكر النفساني فهو هذا الذي يذكره العبد في نفسه بالتدبر والتفكر والاعتبار ولا ينطق به. وما قاله ابن عطية[2] (رحمه الله) من أنه لا ذكر إلا بحركة اللسان خلاف ظاهر هذه الآية

---

(١) البخاري في الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلاة كلها...، حديث رقم (٧٥٦)، (٢/٢٣٦ ـ ٢٣٧)، ومسلم في الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، حديث رقم (٣٩٤)، (١/٢٩٥)، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) عبارة ابن عطية: «والجمهور على أن الذكر لا يكون في النفس، ولا يراعى إلا بحركة اللسان» ا.هـ. المحرر الوجيز(٧/٢٣٩).

الكريمة؛ لأن الله قال لنبيه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٥] أي: فيما بينك وبين ربك في نفسك من غير كلام، فتذكر عظمته وكماله وجلاله وصفاته، وما عنده من الثواب لمن أطاعه، ومن العقاب لمن عصاه، ويكون هذا التذكر والتفكر في عظمة الله (جل وعلا) وفي صفاته العظمى، وفي ثوابه وعقابه يكون في نفسك لأجل التضرع والخوف.

وقوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ قيل هما مفعولان لأجلهما. أي: لأجل التضرع. والتضرع معناه: التذلل والتخشع والتواضع. أي: لأجل التذلل والتخشع والتواضع لرب العالمين. وقال بعض العلماء: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ مصدران مُنكَّران بمعنى الحال. أي: في حال كونك متضرعاً خائفاً. والكل محتمل.

وقوله: ﴿خِيفَةً﴾ ياؤه مبدلة من واو، أصله: (خِوْفَة) لأنها (فِعْلَةٌ) من الخوف[1]؛ لأن المادة من الأجوف الذي هو واوي العين، والقاعدة المقررة في التصريف: أن الواو إذا سكنت بعد الكسر أُبدلت ياءً بقياس مطرد[2]. فـ (الخيفة) هي (فِعْلَة) من الخوف، فالياء مبدلة من واو، وتُجمع على (خِيَف) لأن الإعلال الذي في المفرد هو موجود أيضاً في الجمع، وشذ بعض العلماء فقال: تُجمع على (خِوَف).

والفرق في لغة العرب بين الخوف والحزن[3]: أن الخوف هو غم من أمر مستقبل، والحزن غم من أمر فائت. هذا أكثر ما يستعمل فيه الخوف والحزن، إلا أنهما ربما استعمل أحدهما في موضع الآخر. فقوله: ﴿خِيفَةً﴾ أي: غماً من أمر مستقبل، وهو سخط رب العالمين وعقابه؛ لأن الخائف من سخطه وعقابه المغموم مما يقع من ذلك في المستقبل يُطيع الله (جل وعلا) في دار الدنيا وقت إمكان الفرصة. وربما أطلقت العرب اسم الخوف على العلم، تقول العرب: «خفت كذا». أي: علمته. وإطلاق الخوف على

---

(١) انظر: اللسان (مادة: خوف) (٩٢١/١)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص١٠٣.

(٢) انظر: التوضيح والتكميل (٤٩١/٢ ـ ٤٩٢).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

العلم أسلوب عربي معروف، قال بعض العلماء: منه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: آية ٢٢٩] أي: علمتم ألا يقيما حدود الله ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: آية ٢٢٩] إلا أن يعلما ألا يقيما حدود الله، على القول بذلك. ومن إطلاق الخوف بمعنى العلم قول أبي محجن الثقفي في أبياته المشهورة[1]:

إذا مِتُّ فادفنِّي إلى جَنْبِ كَرْمَةٍ تُرَوِّي عِظَامي بالمماتِ عُروقُها
ولا تَدفنَنِّي بالفَلاةِ فإنَّني أخافُ إذا ما مِتُّ ألاَّ أَذُوقُها

فإنه يعلم أنه إذا مات ليس شارباً الخمر بعد موته، فمعنى (أخاف) أي: أعلم. كما هو ظاهر. وهذا معنى قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ ذكرين، أمَّا الذكر النفساني فهذا الذي يكون في نفسك لا يعلمه منك إلا ربك، من أن تتفكر في عظمته وسلطانه وجبروته وصفاته وعقابه وثوابه، متضرعاً خائفاً منه (جلّ وعلا). وهذا النوع من الذكر القلبي عظيم جداً.

الثاني: ذكر لساني، وقد علمهم (جلّ وعلا) آداب الذكر اللساني، وأنهم لا يرفعوا صوته جداً ولا يُخافتوا به جداً، كما قال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: آية ١١٠] والمخافتة: الإسرار الشديد. وقال هنا: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾ أي: واذكر ربك بالقول دون الجهر، لا تجهر به وترفع صوتك جداً؛ لأن رفع الصوت الكثير بالدعاء وبالأذكار لا ينبغي. والله (جلّ وعلا) يعلم نبيه ﷺ أن لا يرفع صوته به جداً ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ يعني: دون الجهر وفوق الإسرار: المخافتة. لا تجعله سراً جداً كالمخافتة، ولا تجعله جهراً جداً بل سبيلاً بين ذلك كما قال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: آية ١١٠].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

وقوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ الغدو: قال بعض العلماء: هو مفرد مصدر غدا غدواً. وقال بعض العلماء: هو جمع (غُدوة)[١].

والآصال: جمع (أصيل). وقيل جمع (أُصُل). وبعضهم يقول: (الأُصُل) جمع (أصيل)، و (الآصال) جمع الجمع، ولا داعي إليه؛ لأن (الأصيل) يُجمع على (آصال)، كما تُجمع اليمين على الأيمان، والأُصُل أيضاً يُجمع على الآصال. والأُصُل يطلق مفرداً وجمعاً[٢].

والغدو: أوائل النهار، والآصال: أواخره. فالآصال: من العصر فما وراءه إلى الليل. والغدو: من أول النهار.

قال بعض العلماء: كان قبل فرض الصلاة ليلة المعراج يصلون صلاتين: آخر النهار، وأوله، وأنه هو المُراد هنا.

وقال بعضهم: خص هذين الوقتين من النهار ـ أول النهار وآخره ـ لفضلهما.

قال بعض العلماء: الذكر بالغدو: صلاة الصبح، وبالآصال: صلاة العصر. والله تعالى أعلم، وهذا معنى قوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾.

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ معلوم أنه ﷺ لا يغفل عن ذكر ربه ولكنه يُؤمر ويُنهىٰ ليُشرِّع لأمته على لسانه. وفي هذه الآية الكريمة نهي للمسلمين عن الغفلة عن ذكر الله (جل وعلا)، فعلينا معاشر المسلمين ألا نغفل عن ذكر الله، وأن نذكر الله في أنفسنا تضرعاً وخيفةً، وأن نذكره بقولنا دون الجهر من القول، أول النهار وآخره، وفي كل وقت؛ لأن الله أثنىٰ على عباده بالذكر عليه في كل حال، ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: آية ١٩١] هذا التفكر في خلق السماوات والأرض من ذكرك ربك في نفسك تضرعاً وخيفةً كما لا يخفىٰ. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٥].

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٥٥٢).

(٢) انظر: المصدر السابق، القرطبي (٧/٣٥٥).

ثم إن الله لما أمر عباده المؤمنين بهذه الآداب السماوية وهذه الأوامر الكريمة بين لهم أن ملائكته المقربين يطيعونه ويعبدونه ولا يستكبرون عن عبادته فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: آية ٢٠٦] وهم ملائكته (جل وعلا) صلوات الله وسلامه عليهم: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ لا يتكبرون عنها أبداً، بل هم خاضعون متذللون عابدون لربهم (جل وعلا). وأصل العبادة في لغة العرب[1]: معناها الذل والخضوع. فالعبادة: الذل والخضوع على وجه المحبة خاصة. وكل مُذلّل مُخضَع تسميه العرب (مُعَبَّداً) وقيل للعبد (عبد) لذله وخضوعه لسيده، وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول طرفة بن العبد في معلقته[2]:

تُبَاري عِتَاقاً نَاجِيَاتٍ وأتْبَعَتْ وَظِيفاً وَظِيفاً فَوْقَ مور مُعَبَّدِ

أي: طريقاً مذللاً لدوس الأقدام. وإنما قلنا: إن العبادة هي الذل والخضوع لله على وجه المحبة خاصة فلا تكفي المحبة دون الذل والخضوع، ولا يكفي الذل والخضوع دون المحبة؛ لأن الإنسان إذا كان ذله متجرداً عن محبة كان يُبغض الذي هو يذل له، ومن أبغض ربه هلك. وإذا كانت محبةً خالصةً لا خوف معها فإن المُحب الذي لا يُداخله خوف يحمله الدلال على أن يسيء الأدب، ويرتكب أموراً لا تنبغي، والله (جل وعلا) لا يليق به شيء من ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾.

﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ جلّ وعلا. التسبيح في لغة العرب: معناه الإبعاد عن السوء، فسبحتُ الشيء معناه: أبعدته عن السوء.

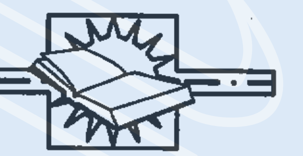
وهو في اصطلاح الشرع: تنزيه رب العالمين (جل وعلا) عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ سجود تواضع وتذلل وخضوع سبحانه وتعالى.

فإذا كان ملائكته المقربون مع عظمهم ومكانتهم عنده لا يستكبرون عن عبادته وينزهونه ويخضعون ويتذللون له فكيف بنا معاشر بني آدم؟!

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

(٢) السابق.



تفسير سورة الأنفال

١/أ /﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ [الأنفال: الآيات ١ ـ ٦].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾ [الأنفال: الآية ١].

الجماهير من العلماء[1] علىٰ أن سبب نزول هذه الآية الكريمة أنها نزلت في غنائم بدر، لما اصطف المسلمون لقتال المشركين كانت المشيخة رِدْءًا لهم، وكان الشباب تلقىٰ العدو، وكان قوم يحرسون رسول الله ﷺ لما بُني له العريش يوم بدر. فلما هزم الله المشركين، وأخذ المسلمون غنائمهم، وقع خلاف ومشاجرة بين الصحابة، قال الذين أخذوا الغنيمة: نحن الذين احتويناها وحُزناها فليس لغيرنا نصيب فيها!

(١) انظر: ابن جرير (٣٢٧/١٣)، القرطبي (٣٦٠/٧)، ابن كثير (٢٨٣/٢)، الأضواء (٣٤٢/٢).

وقال المشيخة: نحن كنا رِدْءًا لكم فلو انهزمتم لانحزتم إلينا، فلستم أحق منا!

وقال الآخرون: نحن ليس بنا جبن ولا بخل، وإنما خفنا أن ينال العدو غِرَّة من رسول الله ﷺ فكنا نُحْدِق بنبي الله نحرسه من العدو، فلستم بأحق منا! فوقع هذا الخلاف والتنازع، وهذا سبب نزول هذه الآية الكريمة كما عليه جماهير العلماء، وحديث عبادة بن الصامت فيه (رضي الله عنه) عند أحمد وأصحاب السنن مشهور[(١)]، قال: فينا معاشر المسلمين نزلت، لما أخذنا غنائم بدر ساءت أخلاقنا وتنازعنا فأنزل الله الآية، وبيّن أن الأمر فيها إلى الله وإلىٰ رسوله، ففعل فيها رسول الله ما أرضىٰ الله، وما أصلح به ذات البين بين الجميع، وما حصل به تقوىٰ الله، كما يأتي إيضاحه، وهذا القول ـ أنها نزلت في غنائم بدر جميعها ـ هو المعروف عند جماهير العلماء.

وفي سبب نزولها أربعة أقوال أُخر معروفة عند العلماء.

قال بعض العلماء: (...)[(٢)] خاصة دون بعض، والذين قالوا هذا القول استدلوا بحديث سعد بن أبي وقاص عند أحمد وغيره قال سعد: لما قُتِلَ أخي عمير يوم بدر ـ لأن عمير بن أبي وقاص من شهداء بدر كانوا يقولون: إنه قتله عمرو بن عبد ود[(٣)] فكان أخوه سعد (رضي الله عنه) أصابه من قتل أخيه أمر عظيم، وحمل علىٰ الكفار وقتل سعيد بن العاص، وأخذ سيفه، وكان يسمىٰ (ذو الكتيفة) قال: فجئت به رسول الله ﷺ فقلت: أعطنيه

---

(١) أحمد (٥/٣٢٤)، والحاكم (٢/١٣٥، ١٣٦، ٣٢٦). وقال: صحيح على شرط مسلم، وأقره الذهبي، والبيهقي (٦/٢٩٢)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٣٢، وابن جرير(١٣/٣٧٠، ٣٧١).

وقال الهيثمي في المجمع (٦/٩٢): «ورجال أحمد ثقات» ا.هـ وانظر أيضاً: (٧/٢٦) منه.

(٢) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل. والمراد: أنها نزلت في الشيء الخاص يُسأل من الغنيمة قبل أن تُقسم. انظر ابن جرير (١٣/٣٧١).

(٣) في البداية والنهاية (٣/٣٢٧) أن الذي قتله: العاص بن سعيد. وقال الحافظ في الإصابة (٣/٣٥): «يقال: وقتله عمرو بن عبد ود العامري الذي قتله علي يوم الخندق» ا.هـ وقال في آخر الترجمة (٣/٣٦): «وأخرج البغوي من طريق محمد بن عبدالله الثقفي عن سعد قال: «لما كان يوم بدر قُتل أخي عمير، وقتلت أنا سعيد بن العاص. كذا فيه، والصواب: العاص بن سعيد بن العاص» ا.هـ.

يا رسول الله. فقال: «**ليس لي ولا لك فاطرحه من حيث أَخَذْتَه، واجعله في القَبَض**» ـ يعني محل غنائم المسلمين ـ قال: فخرجت وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سَلَبي. قال: ثم رجعت إليه فقلت: أعطنيه؟ فرفع لي صوته: «**اطرحه من حيث أخذته**»، إلى الثالثة، قال: فذهبت به فأنزل الله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ قال: فدعاني رسول الله ﷺ فقال: «**إنك سألتني السيف وفي ذلك الوقت ليس لي، والآن صار لي فخذه**»[1]. فأعطاه إياه. فاستدلوا بهذا على أن الأنفال المسئول عنها: الشيء الخاص، كهذا السيف ينفله النبي ﷺ أو الإمام لبعض الناس.

وقال بعض العلماء: هي نزلت في خُمس الغنيمة[2].

وقال بعض العلماء: نزلت في خُمس الخمس خاصة.

كل هذا قال به جماعة من العلماء.

وقال عطاء وغيره[3]: نزلت فيما يشذُّ إلى المسلمين من الكافرين من غير قتال، كالفرس يأتي المسلمين من الكفار بلا قتال.

هذه الأقوال جاءت في سبب نزول هذه الآية الكريمة، والذي عليه جماهير المفسرين: أن نزولها في غنائم بدر كما بيَّنا، لما اختلف الصحابة فيهم، وقال قوم: لا نصيب فيها لغيرنا؛ لأنا نحن الذين احتويناها. وقال الآخرون: كنا رِدْءًا لكم فلو انهزمتم لانحزتم إلينا، فلستم أحق منّا، وقال الآخرون: نحن كنا نشتغل بحراسة رسول الله ﷺ فلستم أحق منا. ولذا لما اختصموا هذا الخصام كأن الله لامهم وقال لهم: لا تصرف لكم فيها، فالأمر فيها إلى الله وإلى رسوله. فقسمها رسول الله ﷺ بينهم على السواء، وكان بعض العلماء يقول: إنه لما التقى الجيشان رغّب وقال: من أسر أسيراً

---

(١) الحديث أصله في مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. حديث رقم: (١٧٤٨) (١٨٧٧/٤)، وفي الجهاد والسير، باب الأنفال. حديث رقم: (١٧٤٨)، (١٣٦٧/٣). وهو في مسند الإمام أحمد (١٧٨/١، ١٨١، ١٨٦). وللتوسع في تخريجه راجع الطبعة المحققة من المسند (١٥٣٨، ١٥٦٧، ١٦١٤).

(٢) انظر: ابن جرير (٣٦٥/١٣).

(٣) المصدر السابق (٣٦٣/١٣)

فله كذا، ومن قتل قتيلًا فله كذا. فقال له بعض أصحابه: لو وفيت لهم بهذا لم يبق للآخرين شيء!! ووقع بعض الخصام[١].

وقال بعض العلماء: كان الخصام بسبب النفر الثمانية الذين قسم لهم رسول الله ﷺ في غنائم بدر ولم يشهدوا بدراً. والحق أن هذا ـ وإن ذكره الأخباريون وأصحاب المغازي ـ أنه لم يُنْزل الخلاف، ومعروف عند أصحاب المغازي أن ثلاثة من المهاجرين وخمسة من الأنصار ضرب لهم النبي ﷺ بسهامهم في مغانم بدر ولم يشهدوها[٢]، أما ثلاثة المهاجرين فهم: عثمان بن عفان (رضي الله عنه)؛ لأن النبي ﷺ لما خرج إلى بدر الكبرىٰ كانت ابنته رقية (رضي الله عنها) مريضة، وكانت إذ ذاك زوجة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، فأمره أن يبقىٰ يمرضها، وتوفيت يوم مجيء زيد بن حارثة بالبشارة بما فتح الله علىٰ النبي ﷺ وأصحابه يوم بدر، فقسم له في المغنم. قال بعضهم: والأجر، والآخران من المهاجرين: طلحة بن عبيدالله، وسعيد بن زيد، أرسلهما النبي ﷺ يتجسسان علىٰ عير أبي سفيان قبل وصولها لبدر إلىٰ جهة الشام، ففاتت بدرٌ ولم يحضرا، فقسم لهما، وأما خمسة [الأنصار][٣]: فمنهم: أبو لبابة بن عبد المنذر كان النبيّ ﷺ خلّفه علىٰ المدينة، ومنهم الحارث بن الصمة، وخوّات بن جبير (رضي الله عن الجميع) أصابهما مرض فردهما رسول الله ﷺ، ومنهم الحارث بن حاطب رده النبي ﷺ إلى قباء ليكون علىٰ بني عمرو بن عوف حتى يرجع ﷺ، وعاصم بن عدي العجلاني خلّفه النبيّ ﷺ علىٰ العوالي.

والتحقيق الذي عليه الجمهور: أنها نزلت في اختلاف الصحابة في غنائم بدر؛ ولذا قال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: الآية ١] الأنفال:

---

(١) أخرجه عبدالرزاق من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. رقم: (٩٤٨٣) (٢٣٩/٥). وهذا الإسناد لا يصح. وقد عزاه في الدر (١٦٠/٣) لعبد بن حميد وابن مردويه. وهو عند ابن أبي شيبة في كتاب المغازي المفرد (١٢٨) ص١٧٨ مختصراً دون ذكر قول بعض الصحابة هذا. ورجال إسناده ثقات.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣٢٧/٣).

(٣) في الأصل: «المهاجرين» وهو سبق لسان.

جمع نَفَل ـ بفتحتين ـ وأصل النفل الزيادة، فكل زائد يُسمىٰ نَفَلا، ومنه قيل للزائد على الواجبات: نفل. وإنما سُميت المغانم أنفالاً لأن الله زادها من الحلال لهذه الأمة، لم تكن تحل لمن قبلها. والنَفَل: المغنم، والأنفال: المغانم. وهذا معروف في كلام العرب[1]، وقد نزل به القرآن، ومن إطلاق النَفَل على المغنم قول لبيد بن ربيعة[2]:

إن تـقـوىٰ ربِّـنَـا خَـيْـرُ نَـفَـلْ وبـإذْنِ الـلّـهِ ريـثـي وعَـجَـلْ

يعني: تقوىٰ الله خير غنيمة يغتنمها الإنسان في حياته، ومن إطلاق الأنفال علىٰ المغانم قول عنترة[3]:

إنّـا إذا احـمـرَّ الـوَغَـىٰ نُـروي الـقَـنـا ونَـعـفّ عـنـد تَـقَـاسُـمِ الأنـفـالِ

أي: قسم المغانم كما هو معروف. قل لهم يا نبي الله مجيباً عن سؤالهم: الأنفال ـ الغنائم ـ أي: وعلىٰ الأخص غنائم بدر: هذه ﴿لِلَّهِ﴾؛ لأنه هو مالكها الذي أقدركم علىٰ أخذها، المتصرف فيها كيف يشاء ﴿وَٱلرَّسُولِۖ﴾ ذكر الرسول ﷺ لأنه جعل أمرها إليه وفوضه إليه، ليس لأحد فيها كلام؛ لينقطع خصامهم، ويضمحل نزاعهم، فقسمها رسول الله ﷺ بينهم علىٰ السوية قسمة عدل علىٰ أحسن ما يكون، والتحقيق: أن النبي ﷺ خَمَّسَ غنائم بدر ـ أخرج منها الخُمس ـ كما يدل عليه الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في قصة الشارفين من الإبل اللتين ذبحهما حمزة بن عبد المطلب لما كان به سُكْر قبل تحريم الخمر. قال: إن أحدهما من سهمه يوم بدر، وإن الشارف الثانية أعطاها له رسول الله ﷺ من خُمس الغنيمة يوم بدر[4]. فدلّ ذلك على أنه خَمَّسَها.

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٣٦١)، القرطبي (٧/٣٦١).

(٢) البيت في ابن جرير (١٣/٣٦٦)، الكامل للمبرد (٣/١٣٥١).

(٣) ديوانه ص١٠٧.

(٤) أخرجه البخاري في البيوع، باب ما يُكره من الحلف في البيع. حديث رقم: (٢٠٨٩)، (٤/٣١٦) وأطرافه في (٢٣٧٥، ٣٠٩١، ٤٠٠٣، ٥٧٩٣). ومسلم، كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، حديث رقم: (١٩٧٩) (٣/١٥٦٨).

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: إذا قررتم أن سبب نزول الآية في المغانم جميعها لا في خصوص الذي يشذ من الكفار إلى المسلمين، ولا في خصوص الذي يُنفّله الإمام لبعض الجيش، ولا في تنفيل الإمام لبعض السرايا التي يرسلها، ولا في خصوص الخُمس، ولا في خصوص خُمس الخُمس، فكيف تكون لا حق فيها للغانمين؟ والله يقول: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الآية [الأنفال: الآية ٤١]. وهذه الآية من هذه السورة الكريمة نص في أن أرباع الغنيمة أنها ملك للغانمين استحقوها، وأن الخارج عنهم منها هو الخمس؟ هذا سؤال معروف وقد أجاب العلماء عنه بجوابين[1]:

أحدهما: ما ذكره أبو عبيدة وعزاه القرطبي لجمهور العلماء أن آية ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ [الأنفال: الآية ١] منسوخة بآية ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الآية [الأنفال: الآية ٤١].

القول الثاني: ـ وليس ببعيد ـ أن معنىٰ أنها لله: أنه هو المتصرف فيها، وأن نسبتها للرسول ﷺ من حيث أنه القاسم، الذي يقسمها علىٰ ما يرضي الله (جل وعلا)، فلا ينافي أن لهم حقوقاً فيها، كما قسمها ﷺ عليهم بالسواء. وسيأتي لهذا زيادة إيضاح كثيرة في تفسير قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ الآية [الأنفال: الآية ٤١] إن شاء الله، وهذا معنىٰ قوله: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اتقوا الله بامتثال أمره واجتناب نهيه، ولا تتخاصموا هذا الخصام بحضرة رسول الله ﷺ لعرض من الدنيا.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ معنىٰ: ﴿ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ أي: الأحوال الكائنة فيما بينكم مما يستوجب المحبة والوئام، وما يستوجب النُفرة

(١) انظر: ابن جرير (٣٨٠/١٣)، القرطبي (٢/٨)، الأضواء (٣٤٥/٢).

والوحشة والفراق، هذه الأحوال التي تكون فيما بينكم أصلحوها لتكون جارية علىٰ ما ينبغي وعلىٰ ما يرضي الله، وقد اشتهر في كلام العرب إطلاق (إصلاح ذات البين) علىٰ أن يصلح ما بين هذا وهذا من الأحوال حتى يكون الشيء الذي بينهما علىٰ الحالة التي تنبغي، خالياً من النزاع والخصام والنفرة وغير ذلك.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ طاعة الله (جل وعلا) هي: امتثال أمره واجتناب نهيه، ومن ذلك أن لا تختصموا في عَرَضٍ من الدنيا عند رسول الله ﷺ، وأطيعوا رسوله ﷺ واقبلوا وارضوا بما يفعله بينكم من قَسْم هذه الغنائم.

قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (إنْ) هذه أصلها تُشكل علىٰ بعض أهل العلم؛ لأن المعروف في كلام العرب أنَّ (إنْ) الشرطية تدل علىٰ الشك في الشرط، وهم مؤمنون لا شك في إيمانهم، فكيف يتقيّد إيمانهم بالشرط مع أنهم مؤمنون؟!!

(إنْ) هذه أصلها من مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين(١)، فعلماء الكوفيين يقولون: إنَّ (إنْ) هنا بمعنىٰ (إذ) التعليلية **﴿واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾** قالوا: واتقوا الله إذ كنتم مؤمنين، أي: لأجل كونكم مؤمنين فاتقوا الله؛ لأن إيمانكم سبب يحملكم علىٰ تقوىٰ الله، قالوا: وإتيان (إنْ) بمعنىٰ (إذ) أسلوب عربي معروف، قالوا: ومنه قول الفرزدق وهو عربي فصيح(٢):

أَتَغْضَبُ إِنْ أُذْنَا قُتَيبَةَ حُزَّتَا جِهَاراً ولم تَغْضَبْ لقَتْل ابنِ خَازِمِ

معناها: أتغضب لأجل حزّ أذني قتيبة.

والبصريون يقولون: إنَّ (إنْ) هذه تستعمل استعمالين:

أحدهما: يراد به التهييج والحض على الفعل، وأن ذلك أسلوب

---

(١) انظر: الحروف العاملة في القرآن الكريم ٦٣٩، ٦٤٧، ٧٠٤ ـ ٧١١، وراجع ما سبق عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

عربي معروف، كما تقول للرجل الكريم: «إن كنت ابن الكرام فاقض حاجتي». وأنت تعلم أنه ابن الكرام، إلا أنك تهيجه بهذا الكلام وتستثيره وتحمله على الامتثال، والاستثارة بأداة الشرط في هذا المعنى أسلوب عربي معروف، العرب تقول: «إن لم أفعل كذا فلست ابن فلان»، و«إن كنت ابن فلان فافعل كذا» تهيجه على الفعل وتحضه عليه. فعلى هذا فالمراد بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تهييجهم وتحريضهم إلى امتثال أمر الله جل وعلا.

الثاني: في بعض الأشياء التي لا يُحتمل فيها هذا كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: الآية ٢٧] وقوله ﷺ في حديث زيارة القبور: «**السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**»[(١)]. فإنهم لاحقون قطعاً، وداخلون المسجد قطعاً، قال بعض العلماء: جيء بـ (إنْ) في مثل هذا ليُعلِّم الناس أنهم لا يتحدثون عن المستقبل إلا معلقين بمشيئة الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: الآية ٢٤] فلما كانت المشيئة يُعلق بها في الشيء الواقع لا محالة فما بالك بغيره؟!! هكذا قالوا، وهذا معنى قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية ١].

ثم بيّن صفات المؤمنين الذين هم مؤمنون حقاً بمعنى الكلمة قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٢] (إنما) أداة حصر كما بينّا. أي: إنما المؤمنون الكاملون في إيمانهم كمالاً كما ينبغي ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ أي: إذا سمعوا ذكر الله ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الوجل في لغة العرب معناه: الخوف. أي: خافت قلوبهم عند ذكر الله إعظاماً لله (جل وعلا) وإجلالاً له، وخوفاً من بأسه وبطشه، فالمؤمن الحقيقي إذا سمع ذكر الله وجل قلبه، أي: خاف قلبه استعظاماً لرب العالمين، وإجلالاً له، وخوفاً من عقابه، وهذا معنى قوله: ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ والعرب تقول: «وَجِلَ من

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

الأمر، يَوجَل، وجلاً» إذا خاف منه، ومنه قول إبراهيم للملائكة لما لم يرَ أيديهم تصل إلى العجل الذي قربه إليهم: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣﴾ [الحجر: الآيتان ٥٢، ٥٣] فالوجل الخوف.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾[1] أي: قُرأت عليهم آياته، والياء في ﴿تُلِيَتْ﴾ أصلها مُبدلة من واو؛ لأن مادة التلاوة من الناقص الذي لامه واو[2]، وأصل التلاوة مصدر سيال، والعرب تقول: «تلاه يتلوه» إذا تبعه، تقول العرب: «هذا يتلو هذا» أي: يتبعه، ومنه قيل للجمل الذي يتبع النوق لضرابها: (التالي)؛ لأنه يتبع إناث الإبل كما هو معروف، ومنه قول غيلان ذي الرمة[3]:

إذا الجَافِر التالي تَنَاسَيْنَ عهده وعارضْنَ أنفاسَ الرياحِ الجَنَائِبِ

وإنما قيل للقراءة (تلاوة) لأن القراءة مصدر سيال لا بد من حرف يتلوه حرف، يتلوه حرف، يتلوه حرف، حتى يتجمع من هذا المتلو: المقروء. ﴿تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: قُرأت عليهم آياته ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي: تصديقاً بالله إلى تصديقهم، وإيماناً إلى إيمانهم.

وهذه الآية وأمثالها في القرآن نصوص صريحة على أن الإيمان يزيد كما أنه ينقص[4]؛ لأن الآيات الدالة على أن الإيمان يزيد متعددة في كتاب الله، كقوله هنا: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ وقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٣٣٩.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

(٤) انظر: الإيمان لأبي عبيد ص٢٤، الإيمان للعدني ص٩٤، الإيمان لابن منده (٣٤٥/١)، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٨٩٠/٥)، الشريعة للآجري ص١١١، أصول السنة لابن أبي زمنين (رياض الجنة ص٢١١)، تعظيم قدر الصلاة (٣٥٦/١) الإيمان لابن تيمية ص٢١١، تفسير ابن كثير (٢٨٥/٢، ٤٠٢)، (٧٤/٣)، شرح الطحاوية ص٤٦٦، زيادة الإيمان ونقصانه لعبدالرزاق البدر، الأضواء (٣٤٦/٢).

أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾ إلى قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: الآية ١٢٤] ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: الآية ٤] ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: الآية ٣١] ونحو ذلك من الآيات، وهذه الآيات المصرحة بزيادة الإيمان تدل بدلالة الالتزام على أن الإيمان ينقص بنقص الأعمال، وقد جاء مصرحاً بذلك من النبيّ ﷺ في أحاديث الشفاعة المتواترة: «**يَخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن حبة من إيمان**»[(١)] ونحو ذلك من الآيات، فالذي ليس في قلبه إلا وزن حبة أو شعيرة من إيمان فلا شك أن إيمانه ناقص، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد بزيادة الأعمال الصالحة، وينقص بنقصانها، كما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فقول المتكلمين: «إنه لا يزيد ولا ينقص، وإنما ذلك بحسب التعلقات» قول لا يخفى بطلانه على متأمل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ التوكل على الله هو: الثقة به (جل وعلا) وتفويض جميع الأمور إليه، فهنا ذكر من صفات المؤمنين أولاً: الخوف من الله (جل وعلا)، والثانية: زيادة الإيمان، والثالث: تفويض الأمر إلى الله والتوكل عليه في كل شيء.

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يقول طالب العلم: إن الله (جل وعلا) ذكر في هذه الآية الكريمة من صفات المؤمنين أنهم إذا سمعوا ذكر الله ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت قلوبهم، مع أنه ذكر في موضع آخر أن ذكر الله يكون سبباً لطمأنينة القلوب، كما قال تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: الآية ٢٨] قالوا كيف جمع بين الوجل والطمأنينة عند ذكر الله؟!!

والجواب عن هذا[(٢)] مشهور عند العلماء لا إشكال فيه، وهو أن الطمأنينة

---

(١) البخاري في الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه. حديث رقم: (٤٤) (١/١٠٣) وأطرافه: (٤٤٧٦، ٦٥٦٥، ٧٤١٠، ٧٤٤٠، ٧٥٠٩، ٧٥١٠، ٧٥١٦). ومسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها. حديث رقم: (١٩٣) (١/١٨٢).

(٢) انظر: تفسير القاسمي (٩/٨).

إنما تعتري قلوبهم إذا سمعوا ذكر الله لِمَا انشرحت له صدورهم من معرفة الحق وتيقنه، فقلوبهم مطمئنة غاية الطمأنينة إلى معرفة الحق، عالمون أنه حق لا يخالجهم شك، ومع هذا يخافون من الله أن لا يتقبل منهم أعمالهم ونحو ذلك، وهذه صفة المؤمنين يطمئنون باليقين ويخافون ربهم (جل وعلا). وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٢].

ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنفال: الآية ٣] إقامة الصلاة: وهو الإتيان بها على الوجه الأكمل المطلوب، كالمحافظة علىٰ شروطها، وأوقاتها، وصلاتها في الجماعات، وإعطائها حقها في السجود والركوع ونحو ذلك من الأركان.

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ قال بعض العلماء: يعني الزكاة؛ لأنها رديفة للصلاة في القرآن، والأظهر أنه أعم من الزكاة، أنهم ينفقون مما رزقهم الله النفقة الواجبة وغيرها من النفقات المستحبات المرغب فيها من مواساة الفقراء، وصِلاَت الأرحام، ونحو ذلك[١]، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ [الأنفال: الآية ٤] أولئك الذين هذه صفاتهم هم المؤمنون حقاً، قال بعض العلماء: قوله: ﴿حَقّٗاۚ﴾ نعت لمصدر محذوف، أي: المؤمنون إيماناً حقاً، والتحقيق المعروف عند علماء العربية: أن (حقاً) هنا من نوع المصدر المُؤَكِّد لعامله، وهو الجملة قبله؛ لأن قوله: ﴿حَقّٗاۚ﴾ مُؤكِّد للإسناد الخبريّ في قوله: ﴿هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أُحِقُّ ذلك حقاً، وأُؤكِّد ذلك الإيمان توكيداً[٢].

﴿لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ الدرجات: جمع درجة. قال بعض العلماء[٣]: هي درجات الجنات يوم القيامة؛ لأن الناس لهم درجات يوم

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٣٨٨).

(٢) انظر: الدر المصون (٥/٥٥٨ ـ ٥٥٩).

(٣) انظر: ابن جرير (١٣/٣٨٩).

القيامة في الجنة بحسب أعمالهم ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف: الآية ١٩] وقد يكون بعض الناس يتراءىٰ أصحاب الغُرف كالكوكب الدُّري ينظره أهل الأرض لمباعدة ما بينهم، ﴿وَلَلْأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٢١].

وقال بعض العلماء: الدرجات: المقامات، والأول أظهر، ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ﴾ (مَفْعِلَة) من غفران الذنوب. وأصله ستر الذنوب وتغطيتها بحلم الله حتى لا يظهر لها أثر يتضرر به صاحبها[1].

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ هو رزق الجنة، من مآكلها ومشاربها، كما جاء مبيناً في مواضع من كتاب الله، وهذا معنىٰ قوله لهم: ﴿مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ [الأنفال: الآيتان ٥، ٦].

الكاف في قوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ اختلفت فيها عبارات المفسرين إلى خمسة عشر قولاً[2]، كثير منها لا يظهر، بل يظهر سقوطه لعدم الدليل عليه، وعدم تمشيه مع لغة العرب، فهي من الآيات التي كثر فيها غلط المفسرين حتى اختلفوا فيها إلى خمسة عشر طريقاً معروفة في كتب التفسير، والآية في الجملة دلت على تشبيه شيء بشيء بناء علىٰ الصحيح من أن الكاف للتشبيه.

وأظهر الأقوال وأقربها: أن الله شبه فيها قصة بقصة؛ لأنه وقع في أول غزوة بدر قصتان:

إحداهما: أن الله تبارك وتعالىٰ لما هزم المشركين ونفَّل المسلمين غنائمهم، وحصلت عند المسلمين غنائم اختلفوا فيها، فجعل الله الأمر فيها إلى رسوله فقسمها رسوله ﷺ وبعضهم في نفسه غير راغب في تلك

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٣٩١)، القرطبي (٧/٣٦٧)، الدر المصون (٥/٥٥٩).

القسمة؛ لأنه كان يرىٰ أنه أولىٰ من غيره، فقد قضىٰ الله عليهم شيئاً ليس هو رغبتهم لكنه هو المصلحة لهم في دينهم ودنياهم، هذه المسألة المشبّهة.

والمسألة المشبه بها: أن الله أخرج نبيه من بيته في المدينة ـ هنا[1] ـ أخرجه إلى غزوة بدر الكبرىٰ، فقد كان ﷺ خرج لحكمة الله (جل وعلا)، خرج وكأنه يقصد عير أبي سفيان ليأخذ المال ليس دونه قتال، فلما خرج ﷺ يريد أخذ مال لا قتال دونه في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا من أصحابه، وشاء الله أن أبا سفيان سَاحَلَ بِعِيْرِهِ إلى جهة ساحل البحر، وأرسل إلى قريش ضمضم بن عمرو الغفاري ليبادروا عِيرهم، قال: لا يأخذها محمد ﷺ كما فعل بعِير ابن الحضرمي بنخلة، وجاء النفير، وأُخبر النبي ﷺ أن نفير قريش جاءهم جيش عرمرم في عَدده وعُدده، والله (تبارك وتعالىٰ) أراد أن يُخرجهم إلى عِير ليسهل عليهم الخروج ويجعلهم ليسوا مستعدين للقتال ليُجَرِّىء عليهم نفير قريش؛ ليقضي الله أمره ـ كما سيأتي تفاصيله ـ وسنذكر في هذه السورة الكريمة ـ إن شاء الله ـ حاصل غزوة بدر وما فيها من المهمات؛ لأنها مذكورة في هذه السورة الكريمة ـ أعني غزوة بدر ـ والحاصل أنهما قصتان كأن إحداهما شُبّهت بالأخرىٰ، كما أن الله وكل قسم الغنائم إلى رسوله ﷺ وبعضهم لا يرغب في هذا؛ لأنه يرىٰ أنه أحق من غيره، كذلك أخرج رسوله إلى أخذ مال من عِير فجاءها نفير، فصار بعض الصحابة يكره ملاقاة النفير ويقول: ما خرجنا مستعدين لقتال الرجال الذين هم في عَددهم وعُددهم، إنما خرجنا لأخذ عِير لا قتال دونها ولا سلاح، فهم كرهوا ملاقاة النفير ـ جيش قريش ـ مع أن ملاقاته فيها لهم المصلحة، فالذي كرهوه من قَسْم غنائم بدر هو الذي لهم فيه مصلحة الدنيا والآخرة، والذي كرهوه من خروج رسول الله ﷺ بهم الذي آل إلى قتال جيش قريش كرهوه وهو أيضاً خير لهم في دينهم ودنياهم، فالله (تبارك وتعالى) كأنه أشار بالتشبيه على هذا القول إلى أنه أعلم بمصالحهم من

(١) معلوم أن الشيخ (رحمه الله) كان يلقي هذه الدروس في المسجد النبوي.

خلقه، وأن خلقه يكرهون شيئاً والمصلحة لهم فيما يختاره لهم ربهم كما قال جل وعلا: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ [البقرة: آية ٢١٦] هذا أقرب الأقوال، وكثير من الأقوال ساقط سقوطاً بيّناً، وهذا أقربها، واختاره غير واحد.

وقال بعض العلماء: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ﴾ كما أن إخراج ربك إياك حق لا شك فيه.

وقال بعض العلماء: هي التي تدل على المجازاة والتعليل، كما تقول لعبدك: «كما أحسنتُ إليك فأطعني». وتقول لمن ترسله إلى مهمة: «كما قطعت عِللك ووفرت لك جميع الأسباب فافعل ما ينبغي». وأنه على هذا كأنه يقول: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، وغشاكم النعاس، وثبتكم بالملائكة، وأنزل عليكم ماء السماء ليطهركم به، وليربط على قلوبكم ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: الآية ١٢] ولا يخلو هذا من بُعد، وأقربها هو ما ذكرنا من أنهما مسألتان كلاهما أراد الصحابة فيها غير الأصلح، وكره بعضهم ما هو الأصلح لهم فيها، فبيّن الله لهم أنهم في المسألتين كرهوا ما هو الأصلح لهم، وأن الله (جل وعلا) فعل بهم ما هو الأصلح ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ [البقرة: الآية ٢١٦].

قوله: ﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ﴾ التحقيق أن المراد به خروجه من بيته في المدينة إلى عِير أبي سفيان، وقد تمخض هذا الخروج عن قتال جيش قريش في بدر الكبرى. هذا هو التحقيق، خلافاً لقوم زعموا أن معنى: ﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: من مسقط رأسك مكة أخرجك ربك بسبب معاداة قومك لك ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ وهذا خلاف التحقيق، والأول هو الصحيح[1].

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ﴾ لكارهون للخروج لما علموا أن

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٣٩٤).

القتال قتال النفير، وأن الأمر ليس أمر العير، وذلك كما سيأتي شرحه وإيضاحه أن عير أبي سفيان وفيها أموال قريش، فيها أموال كثيرة، وقد ذهبت إلى الشام في رحلة الصيف، كما في قوله: ﴿رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ [قريش: الآية ٢] وقد سمع بها ﷺ أنها ذهبت إلى الشام، فتلقاها وهي واردة إلى الشام حتىٰ بلغ العُشيرة ـ وهي غزوة العُشيرة ـ ففاته أبو سفيان ولم يدركه، ثم كان يترقب قفول العير ليعترض لها فيستعين بما فيها من الأموال، فلما حان قُفول العير استنهض ﷺ مَنْ خَفَّ من أصحابه، وكانوا لا يرون أنه قتال؛ ولذا راحوا في قلة من العَدد والعُدد، خرج معه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً يريدون عير أبي سفيان وسيأتي/ شرح هذه القصة، وغزوة بدر[١]، وعلىٰ كل حال أنه لما خرج ﷺ وقرُب من بدر أرسل بسبس[٢] بن عمرو الجهني وعدي بن أبي الزغباء يتنظرون خبر القوم[٣]، ثم راح هو وأبو بكر وجاؤوا إلىٰ شيخ من بني غفار[٤]، لأن بدراً أصله ماء لبني غفار سُمّي برجل من غفار يُسمىٰ (بدراً) هو الذي حفر بئر بدر، فقال له ﷺ: «**أخبرني عن أبي سفيان؟**» قال له: لا أخبرك حتىٰ تخبرني، قال له ﷺ: «**إن أخبرتنا أخبرناك**»، فقال له الشيخ: ذاك بذاك؟! قال: «**نعم**»، قال: أُخبرت أن محمداً ﷺ خرج في تاريخ كذا وإن كان المخبر صادقاً فهو الآن في محل كذا ـ وهو نفس المحل الذي فيه رسول الله ﷺ وأصحابه ـ وأن أبا سفيان خرج بِعِيْرِه بتاريخ كذا، وإن كان المخبر صادقاً فإنه يكون في محل كذا ـ للمحل الذي فيه أبو سفيان، فلما أعطاهم الخبر قال: أنجزوا لي الوعد، فأخبروني؟ فقال له ﷺ: «**نحن من ماء**». وصار الشيخ يقول: من ماء؟ من ماء العراق؟ لا يدري ما يقصده رسول الله ﷺ[٥]. فبعد أن ذهب رسول الله

١/ب

---

(١) انظر تفاصيل الغزوة في السيرة لابن هشام (٦٤٣/٢) فما بعدها.

(٢) في صحيح مسلم (١٩٠١): «بُسَيْسَة». قال النووي في شرح مسلم (٤٧/١٣): «هكذا هو في جميع النسخ» ا.هـ ونقل عن القاضي قوله: «والمعروف في كتب السيرة: بسبس... وهو بسبس بن عمرو» وعقبه النووي بقوله: «يجوز أن يكون أحد اللفظين اسماً له والآخر لقباً» ا.هـ. وانظر: إكمال المُعلم (٣٢٢/٦).

(٣) انظر: السيرة ص٦٥٣.

(٤) وهو سفيان الضمري كما في ابن هشام.

(٥) ابن هشام ص٦٥٤ والبداية والنهاية (٢٦٤/٣).

وأبو بكر جاء أبو سفيان أمام عِيره يتجسّس الخبر، فقصّ عليه الغفاري قصة ما جرىٰ له مع النبيّ ﷺ(١)، فقال: هل أناخ بعيره؟ قال: نعم، فأراه الموضع الذي أناخ فيه رسول الله، فجاء فوجد بعر البعير ففتته فإذا فيه النوىٰ، قال: هذه والله علائف يثرب؛ لأنهم يعلفون مواشيهم النوىٰ، وآجر في ذلك الوقت ضمضم بن عمرو الغفاري يقرن بين مشي الليل والنهار لينذر قريشاً أن عِيرَهُم تعرضها محمد ﷺ، وذهب هو بالعِيْر وسَاحَل بها إلى جهة ساحل البحر، وأبعد بها عن بدر، ولم يلبث الغفاري أن جاء قريشاً فاستنفروا بسرعة وجاؤوا، فلما جاؤوا علم بهم رسول الله ﷺ أن الجيش أتىٰ، وأن العِيْر سلمت، وكان الصحابة يكرهون هذا، وكان الله ـ جل وعلا ـ وعد نبيه بأنه يعطيه إحدىٰ الطائفتين إما العير وإما النفير، وكان أصحابه (رضي الله عنهم) يرغبون في أن يكون الوعد بالعِيْر لا بالنفير كما سيأتي في قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٧] فلما علموا أنه النفير وعلم ﷺ بجيش قريش أنه أقبل يريده، وقص خبره علىٰ أصحابه، كره جماعة منهم ملاقاته غاية الكراهة، حتىٰ قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٦] من شدة خوفهم وكراهتهم؛ ولذا قال لنبيه: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: الآية ٦] الحق تبين أن الله أمرك بالخروج ووعدك إحدىٰ الطائفتين: إما أن يمكنك من العير، وإما أن ينصرك ويظفرك بالنفير.

وهذا حق ووعد من الله لا شك فيه، وهم يجادلون في هذا الحق بعد ما أوضحه الله لرسوله فيقولوا: نحن ما استعددنا أولًا لقتال النفير، إنما

(١) المعروف أن بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء أتيا بدراً فأناخا إلى تل قريب من الماء، وكان مجدي بن عمرو الجهني على الماء... ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ... وأقبل أبو سفيان حتى ورد الماء، فقال لمجدي: هل أحسست أحداً؟ فقال: ما رأيت أحداً أُنكره إلا أنني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل... إلخ. كما في سيرة ابن هشام ص٦٥٥.

خرجنا لنأخذ عيراً ولم نستعد للقتال فدعْنا نرجع حتىٰ نستعد للقتال. وهذا إخراجه من بيته الذي كرهوه وكان خيراً لهم؛ ولذا قال: ﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنفال: الآية ٥] وهذا الحق الذي أخرجه من بيته متلبساً به هو نصرة دينه، وإعزاز كلمته، وإعلاء كلمة الله (جل وعلا) لأن أول وقعة عظُمت فيها قوة الإسلام، وارتفعت فيها كلمة الله وعلت، وعزّ بها المسلمون وانتصروا هو غزوة بدر الكبرىٰ هذه، وسنُلم بتفاصيلها - إن شاء الله - في هذه الآيات المقبلة؛ لأن الله ذكر في هذه الآيات الآتية من سورة الأنفال غزوة بدر الكبرىٰ؛ ولذا قال هنا: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين هم معك ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾ لذلك الخروج لما علموا أنه آيل إلى قتال الجيش لا إلى العير ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ [الأنفال: الآية ٦] وهو أن الله (جل وعلا) أمرك أن تخرج خروجاً متلبساً بالحق، ووعدك إحدىٰ الطائفتين: إما العير وإما النفير، فأنت ظافر لا محالة، فخروجك خروج حق مصحوب بالوعد من الله بالنصر والظفر إما بالعِيْر وإما بالنفير، ومع هذا يخاصمون ويجادلون في الحق بعد ظهوره فيقولون: نحن ما كنا مستعدين للقتال، فما خرجنا إلا لنأخذ عيراً لا حرب دونها.

وهذا معنىٰ قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ من شدة كراهتهم لقتال العدو ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ لأن من يساق إلى الموت وهو يرىٰ وينظر هذا أعظم شيء عليه، وهذا في بعضهم لا في كلهم، كما قد أشرنا إليه سابقاً من أن النبيّ ﷺ لما سمع بأنهم استنفروا النفير وأنه آتيهم، قال بعض العلماء: كان الذي أرسله له سراً بذلك عمه العباس بن عبد المطلب ـ والله تعالىٰ أعلم ـ فلما أخبر قومه به جادل قوم في الحق، وقالوا: ما خرجنا للقتال، وإنما خرجنا للعير، فدعنا نرجع فنستعد للقتال، وتكلم أبو بكر وعمر فأحسنا، وتكلم المقداد بن عمرو ـ وهو المقداد بن الأسود، وهو المقداد بن عمرو (رضي الله عنه) ـ وقال كلامه المشهور: والله لو سرت بنا إلى بَرْكِ الغِمَاد لجالدنا من دونه معك، لا نقول لك كما قال قوم موسىٰ لموسىٰ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: الآية ٢٤] إلى آخر

كلامه[1]. وأنه لما أعاد الكلام مراراً، قال له سعد بن معاذ: كأنك تريدنا معشر الأنصار؟ قال: نعم، وقال له كلامه العظيم الذي يقول في جملته: لقد بايعناك على الحق، وعلمنا أنك رسول الله ﷺ، وإنا لقوم صُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء[2].

[وهذا يدل على أن الصحابة تباينت مواقفهم فما][3] كرهوا كلهم هذا الخروج بل بعضهم رغب فيه وحبَّذه وصرح بالإعانة عليه، خلافاً للبعض الآخر. وهذا معنى قوله: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٦] لشدة كراهتهم لقتال ذلك الجيش.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١﴾ [الأنفال: الآيات ٧ ـ ١١].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال: الآيات ٧، ٨].

المراد بالطائفتين هنا كما أطبق عليه عامة المفسرين: هما العِيْر والنفير. العِيْر: الإبل تحمل المتاع، والنفير: الجيش في سلاحه وعدده وعُدده.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٧) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

وقد ذكرنا فيما مضىٰ أن بدراً (الكبرىٰ) هذه؛ لأن بدراً ثلاث غزوات كلها تسمىٰ بدراً، وهي: بدر الأولىٰ، وبدر الكبرىٰ ـ هي هذه التي يُقال لها بدر العظمىٰ ـ وبدر الأخيرة بعد أُحد في العام القادم كما تقدم إيضاحه في تفسير سورة آل عمران، وقد ذكرنا فيما تقدم أن أبا سفيان خرج إلىٰ الشام في الرحلة إلى الشام معه عير فيها كثير من أموال قريش، وقد علم النبي ﷺ بذهابها إلى الشام فتلقّاها وهي ذاهبة إلى الشام ليأخذ المال الذي يشترون به من الشام ففاتته العير، وبلغ (العُشيرة) ورجع منها إلى المدينة، وهي غزوة العُشيرة، ثم بعد ذلك صار يترقب رجوع عِيْر أبي سفيان، فلما حان وقت قفولها وعلم أنها راجعة استنفر من خفَّ من أصحابه وتلقاها وقال لهم: «**اخرجوا إليها لعل الله يُنَفِّلكُمُوها**»؛ ليستعينوا بها على أمور دينهم ودنياهم؛ لأنهم في ذلك الوقت ينقص عليهم المال، فاستنفر ﷺ من كان ظهره حاضراً من القوم ولم يخرجوا معدّين للقتال، لكن خرجوا يتلقّون عِيْراً، والمؤرخون يقولون: إن العِيْر فيها أربعون رجلاً أو ثلاثون رجلاً من قريش، فيهم رئيسهم أبو سفيان بن حرب، وفيهم عمرو بن العاص، ومخرمة بن نوفل، وغيرهم من قريش[١]. فسار إلى العِيْر في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من أصحابه ليس عندهم من السيوف إلا ثمانية سيوف، ولا من الخيل إلا فرسان. يقولون: إن إحداهما تحت المقداد بن عمرو، والثانية تحت الزبير بن العوام، وذكر بعض أصحاب المغازي أن إحداهما عند مصعب بن عمير (رضي الله عنهم أجمعين)، والأول هو المشهور عند أصحاب المغازي. عندهم ثمانية سيوف ـ فيما يقولون ـ وفرسان، ونحو من سبعين بعيراً يعتقبون عليها، كل ثلاثة يعتقبون على بعير، وذكروا أن النبيّ ﷺ كان هو وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون علىٰ بعير[٢]، وكانت إذا جاءت عقبة رسول الله ﷺ قالوا: «اركب حتىٰ نمشي عنك» فلم يرض إلا أن يمشي كما يمشون، ويقول

---

(١) انظر: السيرة لابن هشام ص٦٤٣.

(٢) المصدر السابق ص٦٥١.

لهم: «**لستم بأقوىٰ مني، ولست بأغنى عن الأجر منكما**»[١]. وما ذكره بعض المؤرخين وأصحاب المغازي من أن اللَّذَين كانا يعتقبان مع النبي ﷺ هما: علي وأبو لبابة بن عبد المنذر لا ينافي ما عليه الأكثرون من أن الثالث هو مرثد بن أبي مرثد الغنوي؛ لأنّا قدمنا أن أبا لبابة بن عبد المنذر ردّه النبيّ ﷺ من الروحاء وخلفه على المدينة، ردّه إليها من الروحاء، فلعل مُعاقبة أبي لبابة كانت قبل رجوعه، وبعد أن ردّه النبي ﷺ إلى المدينة صار مكانه مرثد بن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه[٢].

ثم إنهم ذهبوا في طريقهم ذلك حتىٰ قربوا من بدر، وقد أرسل النبي ﷺ قبل ذلك طلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد يتجسسان أخبار عِيْر أبي سفيان إلى جهة الشام، وقد انتهت الوقعة قبل رجوعهما، وأرسل أيضاً بسبس بن عمرو الجهني ـ حليف بني ساعدة ـ وعدي بن أبي الزغباء (رضي الله عنهما) يتجسسان الخبر، وقد جاءاه ببعض الخبر لأنهم لما جاءا بئر بدر وأناخا بعيريهما سمعا ـ عدي بن أبي الزغباء هذا، وبسبس بن عمرو (رضي الله عنهما) ـ سمعا جاريتين تُداين إحداهما الأخرىٰ، والتي تُطالَبُ تقول لها: إن عِيْر أبي سفيان ستنزل هنا غداً فأشتغل عندهم وأقضيك من ذلك، وعلى الماء رجل من بني غفار[٣]، فقال للجارية الطالبة: صدقت فسترد العير وستقضيك إذا اشتغلت عندها، فأخبرا رسول الله ﷺ بذلك[٤]. وقد جاء رسول الله ومعه أبو بكر وسأل الشيخ الغفاري الذي كان على الماء واسمه سفيان[٥] كما ذكرنا بالأمس. وأخبرهما عن موقع النبي ﷺ وعن

---

(١) أحمد (٤١٨/١، ٤٢٢)، والنسائي (في الكبرى) في السير، باب الاعتقاب في الدابة. حديث رقم: (٨٨٠٧) (٢٥٠/٥) والحاكم (٢٠/٣)، والبيهقي في الدلائل (٣٩/٣)، والبزار (كشف الأستار (٣١٠/٢)). وذكره الهيثمي في المجمع (٦٩/٦) وعقبه بقوله: «وفيه عاصم بن بهدلة وحديثه حسن، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح» ا.هـ.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٢٦١/٣).

(٣) الذي على الماء: مجدي بن عمرو الجهني، كما في ابن هشام ص٦٥٦.

(٤) المصدر السابق.

(٥) اسمه: سفيان الضمري. (ابن هشام ص٦٥٤) والبداية والنهاية (٢٦٤/٣). وهو آخر غير الجهني الذي جاءه بسبس وصاحبه.

موضع أبي سفيان، وقد قال له النبي: «**نحن من ماء**» كما ذكرنا.

وذكر الأخباريون[١] أن أبا سفيان جاء وفَتَّت بعض أبعار النواضح، بعضهم يقول: فتت بعر بعير بسبس وعدي بن أبي الزغباء فوجد في بعر البعير النوىٰ فقال: هذه علائف يثرب. ولم يشك في أنها من النبيّ ﷺ وأصحابه، فرجع مسرعاً وردّ العِير عن بدر أصلًا وسَاحَل بها إلى جهة البحر، وأسرع بها هناك، وآجر ضمضم بن عمرو الغفاري على أن يسير سيراً مسرعاً إلى قريش ويخبرهم أن محمداً ﷺ تعرض لعِيْرِهم فيها أموالهم، والمؤرخون يقولون: إن هذه العير فيها ألف بعير كلها تحمل الأموال، وفيها أربعون أو ثلاثون رجلًا من قريش، وهي تحمل مالًا كثيراً، فأسرع ضمضم بن عمرو الغفاري إلى قريش بمشي سريع وجاءهم بسرعة، ولما قرُب منهم جدع أُذني البعير الذي هو عليه. وحوَّل الرحل، وشق القميص، وصاح بصوت مزعج: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة. واللطيمة: الإبل تحمل المتاع، كما قال نابغة ذبيان[٢]:

.... يطوفُ بها وسطَ اللطيمة بائعُ

إن محمداً تعرض لعِيْرِكم يريد أن يأخذها كما أخذ عِير ابن الحضرمي. وبعضهم يقول: إن بين وقعة بدر وبين قضية عِيْر ابن الحضرمي شهران فقط والله تعالى أعلم.

وقبل مجيء ضمضم بن عمرو الغفاري بثلاث ليالٍ رأت عاتكة بنت عبد المطلب (رضي الله عنها) رؤيا هائلة عجيبة أَسَرَّت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه)، قالت له: إني رأيت في منامي رؤيا عجيبة أخاف أن يصل إلى قومك منها شر. قال: وما هي؟ قالت: رأيت راكباً علىٰ بعير له، لما جاء بالأبطح رفع صوته ونادىٰ: ألا انفروا إلى مصارعكم في ثلاث. قالت: وأناخ بعيره علىٰ ظهر الكعبة فيما ترىٰ في نومها وصرخ بهم

(١) ابن هشام ص٦٥٦، والبداية والنهاية (٣/٢٦٥).

(٢) هذا الشطر الأخير من بيت أوله: «على ظهر مبناه جديد سيُورُها» وهو في ديوانه ص٥٣.

مرات: ألا انفروا إلى مصارعكم في ثلاث، وفعل كذلك على جبل أبي قبيس، وأرسل صخرة عظيمة من أبي قبيس فلما جاءت إلى أسفل الجبل ارفَضَّت - أي انكسرت وتفرقت شظاياها - فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا دخله منها شيء. كانت أسرّت هذه الرؤيا إلى العباس أخيها واستكتمته عليها، فأَسَرَّها العباس إلى بعض أصدقائه من بني ربيعة، فأَسَرَّها ذلك إلى غيره حتى فشى الخبر وتناقلها الناس، فأتى العباس البيت ليطوف وإذا أبو جهل في نفر من قريش، فقال له أبو جهل: إذا انتهيت من طوافك فأتنا. فلما أتاهم قال له أبو جهل: يا أبا الفضل متى حَدَثَتْ فيكم هذه النبية الجديدة؟!! أما كفاكم أن تتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم!! هي قالت: إنّا ننفر إلى مصارعنا في ثلاث، فسننتظر هذه الثلاث، وإن انقضت ولم يكن فيها شيء كتبنا عليكم أنكم أكذب بيت من العرب، فالعباس في ذلك الوقت لم يغضب ولم يقل شيئاً إلا أنه أنكر وجحد أن أخته رأت شيئاً، فلما كان بالليل ورجع إلى أهله وجد نساء بني عبد المطلب كلهن في شدة الغضب، وقالوا له: هذا الفاسق يسب رجالنا ثم شرع يسب نساءنا وأنت لا تغيّر شيئاً؟!! فأوغرن صدره عليه، وغضب العباس وندم على ما فات منه، وأصبح ينوي التعرض لأبي جهل لإن عاد إلى ذلك لينتقمن منه، وكان ذلك هو اليوم الثالث من أيام الرؤيا، فجاءه في المسجد يتعرض إليه وأبو جهل مشغول؛ لأنه يسمع صوت ضمضم بن عمرو والعباس لا يسمعه، كان أبو جهل حديد السمع، فرآه مشغولاً حتى وثب إلى باب المسجد فإذا ضمضم على بعيره يقول: «اللطيمة، اللطيمة». إلى آخر ما ذكرنا[1]، فاشتغلوا وتجهزوا سراعاً إلى النبي ﷺ وقالوا: يظن محمد أنها كعِيْر ابن الحضرمي!! لا والله ليكونن غير ذلك، ثم إنهم تجهزوا مسرعين ولم يبق من أشراف قريش أحد.

وتخلف من أشرافهم: أبو لهب بن عبد المطلب - قبحه الله - واستأجر العاصي بن هشام بن المغيرة لِدَيْنٍ كان له عليه، أنه يذهب مكانه وبدله إلى بدر - قبحه الله - ثم إنهم لما تهيؤوا للسفر قالوا: إن بينكم وبين بني بكر بن

---

(١) ابن هشام ٦٤٤ - ٦٤٧.

عبد مناة بن كنانة حرباً، إن خرجتم عن دياركم لعل بني بكر أن تأتي بلدكم بعدكم وتأخذ نساءكم وصبيانكم وأموالكم ليس دونهم رجال، وكان بين قريش وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة حرب[1] سببها أن رجلًا من بني عامر بن لؤي وهو ابن لحفص ـ رجلٌ من بني عامر بن لؤي، أخو مكرز بن حفص (رضي الله عنه) الصحابي المشهور ـ كان قتله رجل من بني بكر بن كنانة، فأخذ مكرز بن حفص بثأره فقتل الكناني، فصارت بين قريش وبين كنانة قاتل ومقتول، وصارت بينهم حرب، فلما خافوا كنانة جاءهم إبليس اللعين علناً متمثلًا لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم (رضي الله عنه)، وهو الذي ساخت به قوائم فرسه لما تبع النبيّ ﷺ في سفر الهجرة، وهو سراقة بن مالك بن جعشم (رضي الله عنه) صار من أصحاب رسول الله ـ أسلم ـ وهو سيد بني مدلج من بني بكر بن كنانة، جاء الشيطان في صورته، وهم يعرفون سراقة، كأنه سراقة لا ينكرون منه شيئاً، وهو الشيطان متمثل في صورة ذلك الرجل، وقال لهم: أنا سراقة بن مالك بن جعشم، إني جار لكم من كنانة، لا يمكن أن يصلوا إليكم بسوء. كما سيأتي تفاصيل هذا في هذه السورة الكريمة؛ لأنه قال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] هو الشيطان لما تمثل لهم بصورة سراقة بن مالك (رضي الله عنه)، ولم يزل معهم يَقِيلُ معهم حيث قالوا، ويبيت معهم حيث باتوا، حتى تراءى الجمعان يوم بدر، ورأىٰ الشيطان الملائكة ينزلون من السماء ـ لنصر دين الله ـ لما رأىٰ الملائكة خاف القبيح وقال لهم: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ نكص علىٰ عقبيه وقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[2] [الأنفال: الآية ٤٨]، وبعد ذلك يقول قريش: خذلنا سراقة وهرب عنا. ولم يعلموا أنه الشيطان حتى أسلموا وسمعوا قصته تُتلىٰ في سورة الأنفال هذه[3]، فلما قال

---

(١) المصدر السابق ص٦٤٨.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/٢٥٩، ٢٨٣).

(٣) خبر مجيء الشيطان يوم بدر على صورة سراقة بن مالك (رضي الله عنه) جاء في روايات عدة عن جماعة، منهم:

=

لهم الشيطان: إني جار لكم من بني بكر. وخرجوا، وكان أمية بن خلف ـ من سادات قريش ـ هَمَّ أن لا يخرج؛ لأنه كان صديقاً لسعد بن معاذ (رضي الله عنه) في الجاهلية، وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل عند سعد، وكان سعد إذا مر بمكة أو جاء معتمراً نزل عند أمية، وكان سعد (رضي الله عنه) بعد أن وصل إليهم النبيّ ﷺ في هجرته ذهب معتمراً إلى مكة ونزل عند أمية بن خلف، فقال له: انظر لي وقتاً يكون البيت ليس عنده أحد لأطوف. فراح به منتصف النهار ليطوف ببيت الله الحرام، فرآه أبو جهل يطوف فقال: من هذا؟ قال: أنا سعد بن معاذ. قال: تطوف بالبيت آمناً وأنتم آويتم محمداً وأصحابه؟! فقال له سعد: والله إن منعتني من مكة لأمنعنك مُتَّجرك إلى الشام!! ورفع صوته، وقال له أُمية بن خلف: يا سعد لا ترفع عليه صوتك!! هذا سيد أهل الوادي، فغضب سعد وقال لأمية: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنهم قاتلوك**»، فجزع أمية جزعاً شديداً لعلمه أن النبي ﷺ لا يقول إلا حقاً، ورجع إلىٰ امرأته فقال: يا أم صفوان أما سمعتي ما قال أخي اليثربي؟!! قالت: ماذا قال؟ قال: إنه سمع محمداً ﷺ يقول: إنه قاتلي، فقالت: والله ما يكذب محمد ﷺ. هم مع كفرهم وعنادهم يعلمون أنه لا يكذب!! فلما تهيؤوا للنفير أراد أمية أن يتخلف، فجاءه أبو

= ١ ـ ابن عباس. عند ابن جرير (٧/١٤) (من طريق ابن أبي طلحة)، وابن أبي حاتم (١٧١٥/٥)، والبيهقي في الدلائل (٧٩/٣). وعزاه في الدر (١٩٠/٣) لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والواقدي.

٢ ـ رفاعة بن رافع الأنصاري. وقد ذكره الهيثمي في المجمع (٧٧/٦) وعزاه للطبراني، وقال: «وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف» ا.هـ وعزاه في الدر (١٩٠/٣) للطبراني وأبي نعيم في الدلائل.

٣ ـ السدي. عند ابن جرير (٨/١٤).

٤ ـ عروة بن الزبير. عند ابن جرير (٨/١٤).

٥ ـ ابن إسحاق عند ابن جرير (٨/١٤).

٦ ـ محمد بن كعب عند ابن جرير (١١/١٤).

٧ ـ يحيى بن عُباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عُباد. عند ابن أبي حاتم (١٧١٥/٥).

وقد ذكر ابن كثير (٣١٧/٢) بعض هذه الروايات وأورد غيرها من طريق الواقدي وابن إسحاق.

جهل وقال: يا أبا صفوان أنت من سادة أهل الوادي إذا تخلفت تخلف الناس، فلا بد أن تذهب، فلم يزل به حتىٰ ذهب[١].

وقال بعضهم[٢]: جاءه عقبة بن أبي معيط بطيب ومجمر فقال له: تبخر بهذا فإنما أنت من النساء!! فلم يزالوا به حتىٰ خرج، وخرجوا مُوْعِدِين للحرب، لم يبق من سادات قريش وقادتها أحد إلا ما ذكرنا عن أبي لهب ـ قبحه الله ـ وذكر أصحاب المغازي المطعمين منهم[٣] فقالوا: عندما خرجوا من مكة نحر لهم أبو جهل عمرو بن هشام ـ قبحه الله ـ عشراً من الإبل، ثم من الغد نحر لهم أمية بن خلف بعسفان تسعاً من الإبل؛ لأنهم يوماً ينحرون عشراً ويوماً تسعاً، ثم نحر لهم بقديد سهيل بن عمرو عشراً من الإبل، ثم من قُديد ذهبوا إلىٰ المياه إلىٰ جهة ساحل البحر فأقاموا هناك يوماً، فنحر لهم شيبة بن ربيعة تسعاً من الإبل، ثم أصبحوا بالجحفة فنحر لهم عتبة بن ربيعة عشراً من الإبل، ثم أصبحوا بالأبواء فنحر لهم منبه ونبيه ابنا الحجاج السهميان عشراً من الإبل، ثم نحر لهم العباس عشراً من الإبل، ونحر لهم أبو البختري بن هشام علىٰ ماء بدر عشراً من الإبل، وأرسل لهم إيماء بن رحفة الغفاري عشراً من الإبل. وغير ذلك كانوا يأكلون من أزوادهم، فلما نجىٰ أبو سفيان أرسل إلى قريش: أن ارجعوا فإنكم كنتم تريدون أن تمنعوا أموالكم وعيركم وقد نجاها الله فارجعوا فلا حاجة لكم بقتال محمد وأصحابه. فقال اللعين أبو جهل: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً، وتعزف علينا القيان، ونشرب الخمور، وتسمع العرب بنا فتهابنا. وكانت بدر موسماً من مواسم العرب في الزمن القديم، وكان الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة، فلما سلمت العير ونجت وكان فيها رجل واحد من بني زهرة، بعضهم يقول: هو مخرمة بن نوفل، فقال الأخنس بن شريق: والله لترجعن يا بني زهرة، وهذا ابن بنتكم إن غلب

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب ذكر النبي ﷺ من يُقتل ببدر. حديث رقم: (٣٩٥٠) (٢٨٢/٧). وطرفه في (٣٦٣٢).

(٢) البداية والنهاية (٢٥٨/٣).

(٣) ابن هشام ص٧٠٧.

الناس كُلّاً فَعِزُّهُ وشرفه لكم، وإن غلبته العرب كفتكم إياه. فرجع ببني زهرة ولم يشهدها زهري أبداً، ولم يخرج من مكة فيها عدوي أبداً، فبنو عديّ وبنو زهرة لم يشهد بدراً أحد منهم مع الكفار[1]. بعد ذلك كان للأخنس بن شريق شرف في بني زهرة، وهو حليف لهم، أصله من بني ثقيف، وابنه أبو الحكم بن الأخنس هو الذي قتل عبد الله بن جحش المُجَدَّع يوم أحد كما تقدم في تفسير سورة آل عمران، وعندما جاؤوا ونزلوا وراء الكثيب وراء العقنقل بالعدوة القصوىٰ من بدر كان النبي ﷺ نزل بواد فيه دهس ورمل تسوخ فيه الأقدام من وراء عدوة بدر الدنيا التي تلي المدينة، وكان أولئك نزلوا وراء العقنقل ـ الكثيب الكبير ـ فأرسل الله مطراً تلك الليلة التي وقعة بدر من صبيحتها، وكانت ليلة الجمعة، وهي الليلة السابعة عشرة من رمضان عام اثنين من الهجرة، فكان المطر الذي نزل علىٰ رسول الله وأصحابه واقعاً موقعه؛ لأن المحل الذي كانوا فيه كان الوادي فيه دهس، يعني رمل تسوخ فيه الأقدام، وكانوا في عطش، وناموا تلك الليلة؛ لأن الله سلط عليهم النعاس كما هو أحد التفسيرين علىٰ ما سيأتي في قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: الآية ١١] فجاءهم الشيطان ووسوس لهم وسوسة ثقلت علىٰ بعض الصحابة ثِقلاً شديداً، فقال لهم: أنتم تقولون إنكم علىٰ الحق. ـ هذه وسوسة إبليس التي أثر عليهم بها ـ أنتم تقولون إنكم علىٰ الحق، وفيكم نبي الله، وأنتم في عطش، وعليكم الجنابة لا تجدون ماء تغتسلون به، فسيجهدكم العطش حتىٰ إذا علم القوم أن العطش قطع أعناقكم جاؤوكم فقتلوا من شاؤوا، وأخذوا من شاؤوا، فأرسل الله المطر حتى سال الوادي فاغتسلوا من الجنابة، وتطهروا وشربوا وسقوا دوابهم، وثَبَّتَ لهم المطر الأرض الدهسة، حتى صار المشي عليها ليس فيه كلفة عليهم، وكانت العدوة القصوىٰ التي بها الكفار لما جاءها المطر كان بها وحل ـ أي طين ـ تسوخ به الأقدام، فلم يقدروا علىٰ الرحيل منها في ذلك الوقت، ثم بعد ذلك لما خرجوا وجاؤوهم متصوبين من

---

(١) المصدر السابق ص٦٥٧.

الكثيب الكبير العقنقل، وكان النبي ﷺ أول الليلة التي من صبيحتها بدر أرسل طائفة من أصحابه فيهم علي، والزبير بن العوام (رضي الله عنهم) فوجدوا واردة لقريش، منهم غلام لمنبه ونبيه ابني الحجاج من بني سهم وغيرهم فأخذوهم فجاؤوا بهم والنبي يصلي ﷺ والصحابة (رضي الله عنهم) كانوا يحبون أن تكون الراوية الواردة لأبي سفيان؛ لأنهم يحبون العير ويكرهون النفير، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٧] فإذا قالوا لهم: أين أبو سفيان؟ قالوا: لا علم لنا بأبي سفيان، ولكنا مع قريش: فلان بن فلان. . ، ويعدون لهم سادات قريش: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، ومنبه ونبيه ابني الحجاج، وغير ذلك من صناديد قريش، فإذا قالوا لهم هذا ضربوهم، فإذا ضربوهم تخلصوا منهم وقالوا: نحن واردة أبي سفيان. فإذا قالوا ذلك تركوهم!! حتىٰ انصرف النبي ﷺ من صلاته وقال: «**إذا صدقوكم ضربتموهم، وإذا كذبوكم تركتموهم؟!! والله إنهم لواردة الجيش**»، وسألهم النبي ﷺ: «**كم عددهم**»؟!! فقالوا: كثير ولا ندري عددهم. فقال: «**كم ينحرون؟؟**» قالوا: يوماً عشراً من الإبل، ويوماً تسعاً، قال: «**القوم ما بين التسعمائة والألف**» وهو كما قال ﷺ. قال: «**من فيهم؟؟**» فعدّوا صناديد قريش وأشرافها فذكروا أبا جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وحكيم بن حزام، وزمعة بن الأسود، وأبا البختري، وعمرو بن عبد ود، وذكروا جميع سادة قريش وقادتها، وقال لهم ﷺ: «**هذه مكة رمتكم بأفلاذ كبدها**»[1].

وقد أرسل القوم عمير بن وهب الجمحي (رضي الله عنه) وهو في ذلك الوقت كافر مع الكفار، وقالوا له: اذهب فاحزر لنا القوم، فجاءهم عمير وقال لهم: حزرت القوم فوجدتهم ثلاثمائة يزيدون قليلًا أو ينقصون قليلًا، ولكن أنظروني أنظر هل للقوم كمين؟ فركب فرسه وجال في الوادي حتى أبعد ورجع إلى قومه فقال: والله ما لهم كمين، وقال لهم: والله لا

---

(١) المصدر السابق ص٦٥٤ ـ ٦٥٥.

يُقتل رجل منهم حتىٰ يَقْتُل رجلًا منكم، والله لقد رأيت نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، رأيت البلايا تحمل المنايا، فالرأي عندي أن ترجعوا عن هؤلاء. فسمع كلامه حكيم بن حزام بن خويلد (رضي الله عنه) فجاء إلى عتبة وقال له: قريش لا تطلب عند محمد ﷺ شيئاً إلا ثأر عمرو بن الحضرمي ـ الذي قُتل في سرية نخلة ـ وهو حليفك، فتول أمره وارجع بقريش، فقال عتبة بن ربيعة: هو حليفي، وعليَّ جبنها وعَقْلُ حليفي عليَّ، وارجعوا من هنا، ولا حاجة لكم بقتال محمد وأصحابه، فاتفق رأي حكيم، وعمير بن وهب، وعتبة بن ربيعة علىٰ رجوع القوم. فقال عتبة بن ربيعة لحكيم: الصواب أنه نرجع ولكن انظر إلىٰ ابن الحنظلية ـ يعني أبا جهل ـ فلما جاءه من عند عتبة وقال له: إن عتبة يقول لك إنه حمل عقل صاحبه، وحمل جبنها، فارجع بالناس فقال أبو جهل: انتفخ سَحَرُ عتبة من الجبن ـ والسَّحَر: الرئة، هم يقولون: إن الإنسان إذا اشتد خوفه انتفخت رئته في صدره فملأت صدره ـ كذا قال ـ فغضب عند ذلك عتبة وقال: سيعلم مصفر استك غداً من الجبان!! وأمر أبو جهل ـ قبحه الله ـ عامر بن الحضرمي أخا عمرو بن الحضرمي أن ينشد ثأره، فقام عامر بن الحضرمي وقال: واثأراه، واعمراه، فاحتدم الناس للقتال، وأفسد أبو جهل كل ما أراد عتبة وحكيم وعمير أن يصلحوه[١]، فلما وقع ذلك قال بعض المؤرخين[٢]: أول قتيل قُتل من الكفار قبل المبارزة: الأسود بن عبد الأسد، جاء وأراد أن يقتحم الحوض الذي بناه ﷺ وأصحابه؛ لأن النبي ﷺ وأصحابه سبقوا إلى بدر، وأقام النبي ﷺ عند أول قليب فجاءه الحُباب بن المنذر بن الجموع (رضي الله عنه) وقال له: يا نبي الله إن كان هذا وحياً من الله فلا ينبغي لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه، وإن كان الرأي والحرب والمكيدة فلنا منه حول. فقال: «**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**». قال: الأصلح في ذلك أن نذهب إلى أقرب قليب من القوم ونُغَوِّر جميع القُلُب، ونترك ذلك القليب

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٦٤/٣)، وانظر المصدر السابق ص٦٦١ ـ ٦٦٣.

(٢) انظر: السيرة لابن هشام ص٦٦٣.

ونبني عليه حوضاً، ونلقي فيه الأواني، فإن غلبنا القوم: شربنا ومنعناهم من الماء، وإن غلبونا قدرنا على أن نشرب[١]. فذلك الحوض لم يشرب منه أحد إلا مات، إلا حكيم بن حزام جاء الأسود هذا ليشرب منه فقتله حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه) ثم إنه لما احتدم القتال جاء ﷺ وصف أصحابه للقتال، وبُني له عريش (صلوات الله وسلامه عليه)، وكان في العريش هو وأبو بكر، وسعد بن معاذ متوشحاً سيفه في قوم من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ فجاء النبي ﷺ وصف الصفوف ورجع للعريش يهتف بربه ويناديه: «**رب أنجز ما وعدتني، رب أنجز ما وعدتني**»، فلما نظر إلى قريش مُتَصَوِّبَة من كثيب بدر من العقنقل الكبير فإذا هم ألف مقاتل، وإلى أصحابه فإذا هم نيف وثلاثمائة رجل هتف [ﷺ][٢] بربه، وألح في مسألة ربه والاستغاثة به كما يأتي في تفسير قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ [الأنفال: آية ٩] فصف ﷺ الصفوف فلما جاء القوم برز عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، وولده الوليد بن عتبة بن ربيعة ـ وربيعة: ابن عبد شمس بن عبد مناف ـ برزوا للقتال، فبرز لهم نفر من الأنصار، وقالوا إنهم: معاذ ومعوذ ابنا الحارث، وهما المعروفان بـ(ابني عفراء)، أمهما (عفراء) اشتهرا بها؛ لأن أولاد الحارث الثلاثة ـ وهم: عوف، ومعوذ، ومعاذ ـ اشتهروا بالنسبة إلى أمهم عفراء (رضي الله عن الجميع) قال بعض المؤرخين: قال العبشميون للأنصار: لا حاجة لنا بقتالكم إنما نريد بني عمنا من قريش. وقال بعض المؤرخين: قالوا: أكفاء كرام، ولكنا نريد بني عمنا. فطلبوا مبارزين من بني عمهم، فأخرج النبي ﷺ إليهم عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ـ وهو أسن أهل بدر جميعاً، وقد شهد بدراً أخواه، وهما: الحصين والطفيل، شهدها من بني الحارث بن المطلب ثلاثة: عبيدة بن الحارث أحد المبارزين، وأخواه: الطفيل والحصين ـ قال: قم يا

---

(١) رواه الحاكم (١٢٦/٣، ١٢٧)، وأورده ابن هشام في السيرة.
وكذا الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢٦٧/٣). وضعفه الألباني في تعليقه على فقه السيرة ص. ٢٤٠

(٢) في الأصل: (جل وعلا). وهو سبق لسان.

عبيدة بن الحارث، ويا حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب. فجاؤوهم فقالوا: من أنتم؟ لأنهم لا يعرفونهم؛ لأن القوم مقنعون في الحديد، فانتسب كل واحد منهم. فقال عبيدة: أنا عبيدة بن الحارث بن المطلب. وقال حمزة: أنا حمزة ابن عبدالمطلب. فلما انتسبوا لهم قالوا: أكفاء كرام. فكانت المبارزة بين عبيدة وعتبة، وبين حمزة وشيبة، وبين الوليد وعلي، أما علي (رضي الله عنه) فلم يلبث أن قتل الوليد، وأما حمزة (رضي الله عنه) فلم يلبث أن قتل شيبة، وأما عبيدة وعتبة فاختلفا ضربتين فأثبت كل واحد منهما صاحبه، وكان عتبة قطع قدم عبيدة بنصف ساقه، فَذَفَّفَ عليه عليّ وحمزة فقتلا عتبة، وحملا صاحبهما عبيدة حتى وضعاه عند النبي ﷺ ورجله تشخب دماً، سقطت قدمه بنصف ساقه، وعند ذلك قال: يا رسول الله لو كان أبو طالب حياً لعلم أنا أحق منه بقوله[١]:

ونمنعه حتى نُصَرَّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وحملوه ومات بالصفراء، وهم قافلون من بدر.

فلما وقع هذا التحم القتال، واختلط الحابل بالنابل، واشتدت مناجاته ﷺ واستغاثته بربه، فأنزل الله الملائكة مدداً، فقال هنا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ﴾. [الأنفال: آية ٩] وقد قدمنا في سورة آل عمران أن مددهم إلى خمسة آلاف كما تقدم في قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ١٢٤ ـ ١٢٥] وبعض العلماء يقول: هذه الخمسة الآلاف التي ذُكرت في آل عمران دلت عليها آية الأنفال هذه؛ لأنه في قراءة الجمهور (...)[٢]/ نافع من السبعة: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدَفِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٩] بصيغة المفعول[٣]. ٢/أ

(١) البيت في البداية والنهاية (٣/٢٧٤).

(٢) في هذا الموضع وُجد انقطاع في التسجيل.

(٣) ستأتي القراءات عند تفسير الآية.

واختلف العلماء: هل باشرت الملائكة القتال أو لم تباشره؟؟ فكثير من المؤرخين ـ وقد جاء في بعض الآثار وبعض الأحاديث ـ أن الملائكة باشرت القتال يوم بدر، وأن بعض الصحابة يتبع رجلًا حتىٰ يسقط أمامه لا يدري من قتله؟ قال بعضهم: كنت أتبع رجلًا من الكفار فسمعت صوت سوط ضربه، فإذا وجهه منشق، وجميع وجهه قد اخضرّ ومات[١]، وبعضهم قال: أردت أن أمدّ سيفي إلى رجل فسقط رأسه قبل أن يصل إليه سيفي[٢]. لأن الملائكة تقتلهم، وأظهر القولين: أن الملائكة في ذلك اليوم قاتلت، خلافاً لمن قال: إنها للتثبيت والعدد والمدد، وأنها لم تباشر القتال. والذين قالوا: لم تباشر القتال قالوا: لأن مَلَكاً واحداً لو شاء أن يفني ما علىٰ وجه الأرض لما أتعبه ذلك، فإن جبريل لما صاح بثمود أهلكهم مرة واحدة، ولما رفع قرىٰ قوم لوط أهلكهم مرة واحدة، لو أراد أن يمسحهم بريشة من جناحه لما ترك لهم أثراً.

وقال بعض العلماء: لا مانع من قتال الملائكة، ولم يُنسب الأمر إلى الملائكة ليجعلهم عدداً ومدداً، فيكون الفتح والظفر والنصر كأنه علىٰ أيدي الصحابة، إذ لو كان المَلَك أهلكهم لما كان للصحابة في هذه الوقعة العظيمة مزية، فلما اختلطوا يعني صاروا يقتلونهم فأنزل الله المدد من السماء، وثبَّت قلوب المؤمنين، وألقىٰ الرعب في قلوب الكافرين، كما سيأتي في قوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: الآية ١٢].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر. حديث رقم: (١٧٦٣) (١٣٨٣/٣).

(٢) أورد السيوطي نحوه في الدر (١٧٣/٣) عن أبي داود المازني رضي الله عنه، وعزاه لعبد بن حميد وابن مردويه. وقد أخرجه ابن جرير (١٧٥/٧ ـ ١٧٦)، وذكره ابن هشام في السيرة ص٦٧٢.
وأخرج البيهقي في الدلائل (٥٦/٣) بهذا المعنى عن سهل بن حنيف (رضي الله عنه).
وعند البيهقي في الدلائل (٥٦/٣)، وابن إسحاق عن أبي واقد الليثي، كما نقل ابن كثير في البداية والنهاية (٢٨١/٣).

وقد نهى ﷺ في ذلك اليوم عن قتل بعض الناس[(١)]، نهىٰ عن قتل العباس بن عبد المطلب عمه (رضي الله عنه). وقد بدرت من أبي حذيفة بن عتبة (رضي الله عنه) تلك البادرة التي ندم عليها، وصار في خوف دائماً، حتى استشهد فيمن استشهد من الصحابة في اليمامة أيام قتال مسيلمة؛ لأن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة (رضي الله عنه) ـ أعني أبا حذيفة ـ لما نهى ﷺ عن قتل العباس قال: أنقتل أبناءنا وإخواننا ونترك العباس؟ والله إن لقيته لألجمنه السيف[(٢)]. ولما قالها ندم وجزع منها وصار خائفاً منها دائماً حتى استشهد، وكذلك لما جُرّ قتلىٰ قريش إلى القليب، وكان أبوه عتبة يُجرّ إلى القليب، رُؤيت الكراهة في وجهه فاعتذر إلى رسول الله ﷺ وقال: إن الكراهية التي ظهرت في وجهي ليست انتصاراً لكافر، ولكن عتبة هذا كنت أعهد فيه عقلًا وحزماً وحلماً، كنت أظن أن عقله وحِجَاه يمنعه من ميتة السوء هذه، وأنه يؤمن بالله!! فاعتذر بهذا[(٣)].

وممن نهىٰ عنه ﷺ ذلك اليوم: أبو البختري بن هشام الذي كان من أحسن الناس معاملة لرسول الله وبني هاشم، لم يؤذهم قط، وأيام حصار قريش لهم في الشِّعب كان معهم، وهو من النفر الذين سعوا في نقض الصحيفة التي كتبوا فيها مقاطعتهم، فلم يؤذهم قط، فلم يجدوا منه إلا الإحسان، فنهىٰ ﷺ عن قتله، فالتقىٰ به الْمجذَّر بن زياد البلوي (رضي الله عنه) حليف الأنصار، فقال له: يا أبا البختري: إن نبينا ﷺ نهانا عن قتلك فلا نتعرض لك. وكان مع أبي البختري زميل يُسمى جنادة بن مليحة، فقال له أبو البختري: والزميل؟ قال: لم ينهنا ﷺ عن قتل الزميل. قال: أما أنا فلا يُقتل زميلي حتى أُقتل دونه، وذكر رجزه المشهور:

لا يُسْلِمُ ابنُ حُرةٍ زَميلَه حَتَّى يَمُوتَ أو يَرَىٰ سَبيلَه

ولا يفارق جزعاً أكيله[(٤)]

---

(١) السيرة لابن هشام ص٦٦٨، البداية والنهاية (٣/٢٨٤).

(٢) البيهقي في الدلائل (٣/١٤٠)، السيرة لابن هاشم ص٦٦٨، البداية والنهاية (٣/٢٨٤).

(٣) السيرة لابن هشام ٦٨٠، البداية والنهاية (٣/٢٩٤).

(٤) السيرة لابن هشام ص٦٦٩.

ولذا صار يقاتل المُجذَّرَ دون ذلك الزميل فقتله المُجَذَّر (رضي الله عنه) وكان المُجَذَّر بن زياد البلوي (رضي الله عنه) يرتجز في ذلك رواجز، ومن جملة ما يقول فيها[١]:

أَنَا الذي أزعمُ أَصْلي من بَلِي أضربُ بالحربةِ حتى تَنْثَني

ويروى عنه: «بالصَّعْدَةِ حتى تنثني». فجاء واعتذر إلى النبي ﷺ من قَتْلِهِ بأنه ما تعرض له حتىٰ قاتله دون زميله[٢].

فمنح الله المسلمين أكتاف الكافرين، فقتلوا سبعين من خيارهم، وأسروا سبعين، وكان ممن قُتل في ذلك اليوم: أبو جهل بن هشام ـ لعنه الله ـ وقد صح عن عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه) أنه لما صف النبي ﷺ الصفوف كان بجنب عبد الرحمٰن ـ وكان رجلًا له قامة ـ كان بجنبه رجلان صغيران في القدر، وهما: معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن الحارث المشهور: بمعاذ بن عفراء، فكأن عبد الرحمٰن بن عوف استنقصهما وظن أن الَّذَيْن بجانبيه ليسا رجالًا يمنعانه؛ لأن الرجل إذا كان في صف القتال بجنبه الرجال كانوا يمنعونه ويشدون أزره، فهو استنقص هذين واستحقرهما لصغر قدرهما، فإذا أحدهما يكلمه خفية من صاحبه ويقول: يا عمي أرني أبا جهل. قال: ما حاجتك به؟!! قال: سمعت عداوته لرسول الله ﷺ، والله إن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا. ولم يلبث إذ الآخر يُسائله سراً من صاحبه ويقول له مثل ما قال صاحبه. قال: فعلمت أن الَّذَيْن بجنبي أنهما رجال، ورأيت أبا جهل يدور في قريش كالحَرَجَة ـ والحرجة: الشجرة الكبيرة في الغابة يحتف بها الشجر من جميع جوانبها ـ وقريش يحتفون به ويقولون: أبو الحكم لا يُخلص إليه، وهو ـ قبحه الله ـ يرتجز ويقول[٣]:

---

(١) السابق، ولفظ البيت هناك:

أنا الذي يُقال أصلي من بلي أطعن بالصعدة حتى تنثني

(٢) السابق ص ٦٦٩.

(٣) هذا الرجز ذكره ابن هشام في السيرة ص٦٧٣.

مـا تَـنْـقِـمُ الـحـربُ الـعَـوَانُ منـي بَـازِلُ عَـامَـيـنِ حـديـثٌ سِـنِّـي

لِـمـثـلِ هـذا ولَدَتْـنـي أُمـي

فقلت لهما: هذا صاحبكما. فابتدراه بسيفيهما فأطارا رجله بنصف ساقه، كأنها نواة طائرة من تحت مرضخة من شدة الضربة، فسقط صريعاً وبقي - قبحه الله - في المعركة حتى انهزم عنه قومه، فجاءه عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) ووجده في آخر رمق فاحتز رأسه. قالوا: لما أخذ لحيته وأراد أن يقطع رأسه قال له: ارتقيت صعباً يا رويعي الغنم!! وقال له: أخبرني لمن الدائرة؟؟ قال: لله ولرسوله[1]. فجيء ﷺ برأس أبي جهل وهو في العريش (صلوات الله وسلامه عليه)[2]، وهزم الله الكفار، وقُتل من أشرافهم سبعون، وقتلاهم مشهورون[3]، ممن قُتل منهم: أبو جهل، وأمية بن خلف، وزمعة بن الحارث بن الأسود، ومنبه ونبيه ابني الحجاج، وممن قُتل في ذلك اليوم: النفر الذين قالوا: إنا كنا مستضعفين في الأرض، وهم علي بن أمية، والحارث بن زمعة بن الأسود، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة بن عبد الله ابن عمرو بن مخزوم، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ابن عمه، والعاص[4]. هؤلاء النفر كانوا أسلموا وآمنوا بالنبي ﷺ وادعوا أنهم عجزوا عن الهجرة، وخرجوا يوم بدر مع قريش فقُتلوا جميعهم - والعياذ بالله - وأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ

---

(١) السابق ص٦٧٣ - ٦٧٥ .وأما خبر قتل أبي جهل فهو ثابت في الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن عوف وأنس بن مالك، وعند البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) خبر قطع ابن مسعود رأس أبي جهل أخرجه البيهقي في الدلائل (٨٦/٣، ٨٨)، والبزار (كشف الأستار (٣١٧/٢) وذكره الهيثمي في المجمع (٧٩/٦) وعزاه للطبراني والبزار، وقال: «وفيه أبو بكر الهذلي وهو ضعيف» ا.هـ. وذكره ابن كثير في تاريخه (٢٨٨/٣) وعزاه لابن إسحاق. كما ذكره الحافظ في الفتح (٢٩٥/٧) وعزاه لابن إسحاق والحاكم.

(٣) السيرة لابن هشام ص٧٤٧.

(٤) هو العاص بن منبه بن الحجاج.

﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾[1] [النساء: الآية ٩٧] ـ والعياذ بالله ـ فقُتل هذا من أشراف قريش، وأُسر من أشرافهم سبعون. وممن أُسر منهم: العباس بن عبد المطلب، وابنا أخيه وهما: عقيل بن أبي طالب (رضي الله عنه)، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب (رضي الله عنه)، وممن أُسر: سهيل بن عمرو (رضي الله عنه)، كان أسره مالك بن الدخشم، وكان يقول[2]:

أسرتُ سُهيلاً فلا أبتغي أسيراً به من جميع الأُمم
وخِنْدفُ تعلمُ أن الفتى سهيلاً فتاها إذ يُظَّلَمْ

فمنح الله المسلمين أكتاف الكفار يقتلون ويأسرون، وكسر الله شوكة الكفر، وأعلىٰ كلمته، وأيد دينه.

ولما جمع النبيّ ﷺ الأسارىٰ مكث في عرصة بدر ثلاثة أيام، ثم في اليوم الثالث أمر بناقته فرُحِّلت، فتبعه أصحابه وقالوا: ما ذهب إلا لشأن!! فأمر بأربعة وعشرين من صناديد قريش، ثم ناداهم بأسمائهم: «**يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا أمية بن خلف، يا فلان بن فلان، إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟!!**» ولما قال له عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): ماذا تخاطب من أجساد لا أرواح لها؟ قال له: «**ما أنتم بأسمع منهم ولا لما أقول، ولكن لا يقدرون علىٰ أن يجيبوا**»[3]. أو كما قال ﷺ.

ولما اجتمعت عنده الأُسارىٰ، وهزم الله الكافرين، وقتل سبعين من خيارهم، وأُسر من أشرافهم سبعون، استشار أصحابه فيما يفعل بالأُسارى؟ مع أن سعد بن معاذ (رضي الله عنه) كان متوشحاً بسيفه علىٰ عريش رسول الله ﷺ، وقد رأىٰ النبي في وجهه الكراهة، فقال: «**ما بالك؟؟**»

---

(١) السيرة لابن هشام ص٦٨١، البداية والنهاية (٣/٢٩٦).
وأصل الحديث في الصحيح من غير تسميتهم، كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾. حديث رقم: (٤٥٩٦) (٨/٢٦٢).

(٢) السيرة لابن هشام ص٦٩٠.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة الأعراف، وانظر السيرة لابن هشام ص٦٧٨.

قال: رأيت شيئاً أكرهه، رأيت الناس يأسرون الرجال، وهذا أول مشهد في الإسلام، وكان الإثخان في القتل أحب إلي من أسر الرجال واستبقائهم[١]. فلما استشارهم اختلفوا له، فكان أبو بكر (رضي الله عنه) يقول: هم بنو عمك فاستبق منهم؛ لعل الله أن يهديهم أو يهدي من أصلابهم، وتستعينوا بفدائهم علىٰ أمر الحرب. وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول: اقتلهم جميعاً، أعط العباس لعلي فليقتله، وأعط كل رجل لقريبه فليقتله؛ ليعلم الله أن لا هوادة بيننا وبين الكفار. قال بعضهم: وقال عبد الله بن رواحة: إنك في واد كثير الحطب فأضرم عليهم ناراً. قالوا: والنبي ﷺ فيما ذكره المؤرخون قال: «**إن أبا بكر قال كما قال عيسىٰ بن مريم**: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: الآية ١١٨]، **وإن عمر قال كما قال موسىٰ**: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: الآية ٨٨] **وإن ابن رواحة قال كما قال نوح**: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ [نوح: الآيتان ٢٦، ٢٧]» فاستقر أمره علىٰ أنهم يأخذوهم ليستعينوا بفدائهم علىٰ الحرب؛ لأنهم كانوا يحتاجون إلى المال[٢].

وقال بعض المؤرخين: إن جبريل قال للنبي ﷺ: خَيِّر أصحابك أن يقتلوهم أو يفدوهم ويستعينوا بالمال علىٰ أن يُقتل منهم قدر الأسارىٰ في العام القادم. وأنهم قالوا: نستعين بالمال الآن وينال الشهادة منا هذا العدد في العام القادم[٣]. ذكر بعضهم هذا، وأنه قُتل منهم سبعون يوم أحد لما

---

(١) السيرة لابن هشام ص٦٦٧، البداية والنهاية (٢٨٤/٣).

(٢) أحمد (٣٨٣/١) وابن أبي شيبة (٤١٧/٥)، وعبد الرزاق (٢٠٨/٥)، والترمذي في الجهاد، باب ما جاء في المشورة، حديث رقم: (١٧١٤) (٢١٣/٤). وأخرجه في موضع آخر، انظر الحديث رقم: (٣٠٨٤)، والحاكم (٢١/٣)، وابن أبي حاتم (١٧٣١/٥)، والبيهقي في الدلائل (١٣٩/٣). وذكره السيوطي في الدر (٢٠١/٣) وعزاه لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه.

(٣) أخرجه الترمذي في السير، باب ما جاء في قتل الأسارى والفداء. حديث رقم: (١٥٦٧) (١٣٥/٤)، والنسائي في الكبرى، كتاب السير، باب قتل الأسرى. حديث رقم: (٨٦٦٢) (٢٠٠/٥)، والبيهقي في السنن (٦٨/٩)، وفي الدلائل (١٣٩/٣)، =

أسروا السبعين هذه. هكذا قاله بعض المؤرخين، والذي جاء به القرآن أن الذين رأوا أن يقتلهم ويضعفوا شوكة الكفر بقتلهم أن رأيهم كان هو الصواب، وأن الله تعالىٰ تجاوز لأهل بدر ولو ارتكبوا غير ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: الآية ٦٧] ومعنىٰ: ﴿يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يوجع فيها قتلاً ليضعف شوكة الكفر بقتل الرجال وقتل الصناديد والرؤوس، ثم قال: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٨] ثم بعد ذلك قال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: الآية ٦٩].

وقال النبي ﷺ للعباس: «**افد نفسك وابني أخويك: عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب**». فقال: لا مال عندي. قال له ﷺ: «**عندما أردت الخروج أخذت المال الفلاني ودفنته في محل كذا وقلت لأم الفضل: إن لم أرجع فاستعينوا بهذا**». فقال: والله لا يعلم هذا غيري وغير أم الفضل، وأشهد أنك رسول الله. وفدىٰ نفسه وابني أخويه وحليفاً له[(١)]. وأنزل الله فيه ـ مع أنها في الأسارىٰ كلهم، إلا أن المفسرين يجعلونها في العباس؛ لأنه من أشهر من نزلت فيه ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٧٠][(٢)] فلما جاء النبي ﷺ مال البحرين وجاء

= والحاكم (١٤٠/٢) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ا.هـ. ووافقه الذهبي. وابن حبان (الإحسان ١٤٣/٧) عن علي (رضي الله عنه). وقال ابن كثير (٢٩٨/٣) «غريب جداً» ا.هـ.

وأخرجه عبد الرزاق (٢١٠/٥)، وابن سعد (١٤/٢) عن عبيدة مرسلاً.

(١) أخرجه الحاكم (٨١/٣) وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ا.هـ ووافقه الذهبي. والبيهقي في الدلائل (١٤٣/٣)، وفي السنن (٣٢٢/٦)، وأبو نعيم في الدلائل (٢٧١/٢)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٤١ .وذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢٩٩/٣) وعزاه لابن إسحاق. وذكره السيوطي في الدر (٢٠٤/٣).

(٢) جاء ذلك صريحاً في سياق الرواية المخرجة في الهامش السابق. وقد أورد ابن جرير (٧٢/١٤ ـ ٧٥) جملة من الروايات في هذا المعنى، وكذا ابن كثير (٣٢٧/٢)، والسيوطي في الدر (٢٠٤/٣ ـ ٢٠٥).

العباس وقال: يا نبي الله فاديت نفسي وعقيلاً. فقال له: «**خذ من هذا الذهب**». فهال منه العباس في ثوبه حتى أراد أن يقوم فَنَاءَ به ولم يقدر أن يقوم، فطلب أحداً يساعده، فقال له النبيّ ﷺ: «**لا يساعدك أحد، ولا تحمل منه إلا قدر ما تقدر علىٰ حمله**». فهال منه عن ثوبه حتى قدر على حمله[١] ثم قال: «أما أحد الأمرين فقد عايناه، وهو: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ فقد آتانا خيراً مما أُخذ منا، وأما الثانية وهي قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فإنا نرجوها من الله جل وعلا»[٢].

وفي ذلك اليوم استُشهد وقُتل من أصحاب رسول الله شهيداً يوم بدر أربعة عشر رجلاً[٣]، ستة من المهاجرين، والبقية من الأنصار، ستة منها من الخزرج، واثنان من الأوس. فشهداء بدر: ستة منهم من المهاجرين، وستة منهم من الخزرج، واثنان منهم من الأوس؛ لأن الأوس في ذلك اليوم أقل من الخزرج؛ لأن ديار الخزرج في داخل المدينة قرب رسول الله، وديار الأوس في العوالي وقباء، كديار بني عمرو بن عوف، فالذين في داخل المدينة أكثرهم من الخزرج؛ ولذا كانوا هم الحاضرين فتمكنوا من الخروج، والنبي لم ينتظر الغائبين[٤].

والستة الذين استُشهدوا من المهاجرين هم: عبيدة بن الحارث بن المطلب الذي ذكرنا أن قدمه بنصف ساقه قطعها عتبة بن ربيعة في المبارزة، ومنهم: عمير بن أبي وقاص (رضي الله عنه)، أخو سعد بن أبي وقاص، قتله عمرو بن عبد ود، وقد كان أخوه سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه)

---

(١) خبر مجيء المال من البحرين وأخذ العباس منه أخرجه البخاري في الصلاة، باب القسمة وتعليق القنو في المسجد. حديث رقم: (٤٢١) (٥١٦/١). وأخرجه في موضعين آخرين، انظر الأحاديث رقم: (٣٠٤٩، ٣١٦٥).

(٢) مضى تخريجه قريباً.

(٣) السيرة لابن هشام ص٧٤٦.

(٤) قال ابن هشام في السيرة (ص٧٣٢): «فجميع من شهد بدراً من الأوس مع رسول الله ﷺ ومن ضرب له بسهمه وأجره: واحد وستون رجلاً» ا.هـ. ونقل عن ابن إسحاق (ص٧٤٥): «فجميع من شهد بدراً من الخزرج مائة وسبعون رجلاً» ا.هـ.

قتل ذلك اليوم العاص بن هشام، ومن الذين استُشهدوا ـ أول من قُتل من المسلمين في ذلك اليوم ـ مِهْجَع مولىٰ عمر بن الخطاب[١]، ومِهْجَع هذا أصله رجل من بني عك، أصابه سباء فأعتقه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فكان مولاه، ويقال له مهجع عمر، وهو أول قتيل من المسلمين استشهد يوم بدر، ومات بعده من المسلمين رجل من الخزرج يُسمىٰ حارثة بن سراقة (رضي الله عنه)[٢]، وهو الذي سألت أمه النبي ﷺ عنه فقال لها: «**إنه أصاب جنة الفردوس**»[٣].

والحاصل أن الستة الذين ماتوا شهداء من المهاجرين يوم بدر هم: عبيدة بن الحارث بن المطلب، وعمير بن أبي وقاص، وعاقل بن البُكَير، وصفوان بن وهب المعروف بصفوان بن بيضاء، وذو الشمالين، واسمه: عمير بن عبد[٤]. هؤلاء الستة هم الذين استشهدوا من المهاجرين: عبيدة بن الحارث بن المطلب، وعمير بن أبي وقاص، ومهجع مولىٰ عمر، وذو الشمالين، وصفوان بن وهب، وعاقل بن البُكَير. هؤلاء ستة من المهاجرين[٥].

والاثنان اللذان ماتا في سبيل الله يوم بدر من الأوس هم[٦] مبشر بن عبد المنذر ـ أخو أبي لبابة بن عبد المنذر ـ وسعد بن خيثمة (رضي الله عنه)، فإن سعداً هذا قُتل شهيداً يوم بدر، وأبوه خيثمة قُتل شهيداً يوم أحد.

---

(١) السابق ص٦٦٦.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣/٢٧٤).

(٣) البخاري في الجهاد، باب من أتاه سهم غرب، حديث رقم: (٣٩٨٢) (٦/٢٥)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (٣٩٨٢، ٦٥٥٠، ٦٥٦٧).

(٤) المثبت في ابن هشام ص٧٤٦، والتمهيد (١/٣٦٣ ـ ٣٦٤)، والاستذكار (٢/٢٣٣)، نظم الفرائد للعلائي ص٦١ ـ ٧٠، والبداية والنهاية. (٣/٣٢٧): ذو الشمالين بن عبد عمرو.

(٥) السيرة لابن هشام ص٧٤٦.

(٦) السابق ص٧٤٧.

والستة الذين استشهدوا من الخزرج ـ ماتوا شهداء ـ منهم[١]: يزيد بن الحارث بن قيس بن مالك بن أحمر الخزرجي (رضي الله عنه)، وعوف ومُعَوِّذ ابنا عفراء، أولاد الحارث بن عفراء، وهما أخوان ماتا ذلك اليوم، ورافع بن المعلىٰ، وعمير بن الحمام (رضي الله عنه)، عمير بن الحمام بن الجموح، كان يأكل تمرات فسمع النبي ﷺ يقول: «**أيها المسلمون قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، والله لن يقتل هؤلاء رجلاً منكم مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة**». فقال له عمير بن الحمام (رضي الله عنه): أما بيني وبين الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ قال: «**نعم**»، فلفظ التمرات من فِيه وقال: إني إن أكلت هذه التمرات إنها لحياة طويلة، ثم أخذ سيفه (رضي الله عنه) فقاتل القوم حتى قتلوه[٢].

هذه أربعة عشر رجلًا، ستة من المهاجرين وستة من الخزرج، واثنان من الأوس قُتلوا شهداء يوم بدر (رضي الله عنهم وأرضاهم).

وكانت في بدر أشعار كثيرة ومداولات بين المشركين وغيرهم، تكلم فيها كثير من شعراء المسلمين والكفار، فيها من شعر حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه)، وحسان بن ثابت، وغيرهما، وفيها من شعر الكفار: شعر ضرار بن الخطاب الفهري وغيره من شعراء قريش، وذلك باب إذا ذكرناه يطول بنا المقام، فنذكر منه قليلًا: فحسان (رضي الله عنه) شاعر رسول الله ﷺ، ومن أشهر ما كان من المداولات في بدر ما كان بين حسان وبين الحارث بن هشام (رضي الله عنه) أخي أبي جهل بن هشام؛ لأن حسان دائماً يُعيِّر الحارث بن هشام بفراره يوم بدر، وقتل إخوانه، وبقاء أخيه طريحاً في الملحمة ـ أعني أبا جهل قبحه الله ـ وكان حسان (رضي الله

---

(١) السابق.

(٢) مسلم في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد. حديث رقم: (١٩٠١) (١٥٠٩/٣) وفيه التصريح أن ذلك يوم بدر. وأخرج البخاري نحوه في المغازي، باب غزوة أُحد. حديث رقم: (٤٠٤٦) (٣٥٤/٧) وليس فيه تسمية صاحب القصة. وفيه التصريح أن ذلك يوم أحد. وقد ذهب الحافظ إلى أنهما قصتان. الفتح (٣٥٤/٧).

عنه) ذكر تَمَثُّل إبليس لهم في أبيات قال ـ يعني تمثل إبليس في صورة سراقة بن مالك ـ قال في ذلك[١]:

سِرْنَا وسَارُوا إلى بدر لِحَيْنِهِمُ ... لو يَعْلَمُونَ يَقينَ الأَمْرِ ما سَارُوا
دَلاَّهُمُ بغرورٍ ثم أَسْلَمَهُم ... إن الخَبِيثَ لمن والاهُ غَرَّارُ
وقال إني لكم جَارٌ فَأَوْرَدَهُم ... شَرَّ المَوَارِدِ فيه الخِزْيُ والعَارُ

وكان حسان (رضي الله عنه) يذكر في أشعاره بدراً، له فيها قصائد، وفيها لحمزة بن عبد المطلب وغيرهم من الصحابة، وفيها لجماعة من قريش، منهم ابن الزبعرى، ومنهم ضرار بن الخطاب الفهري وغير ذلك، وكان حسان (رضي الله عنه) قال[٢]:

لَقَدْ عَلِمَتْ قُريشٌ يومَ بدرٍ ... غَداةَ الأَسْرِ والقَتْلِ الشَّدِيدِ
بأنَّا حينَ تشْتَجِرُ العَوَالي ... حُمَاةُ الحرب يومَ أبي الوليدِ
قَتَلنا ابني ربيعةَ يومَ سارُوا ... إلينا في مضاعَفَةِ الحديدِ
ومرَّ بها حكيمٌ يومَ جَالَتْ ... بنُو النجارِ تخطرُ كالأُسودِ
وَوَلَّتْ عند ذاكَ جموعُ فِهْرٍ ... وأَسْلَمَها الحويرثُ من بعيدِ

الحويرث: يعني الحارث بن هشام؛ لأنه ينكد عليه في شعره دائماً، كقوله هنا:

وأَسْلَمَهَا الحويرثُ من بعيد

وكتعييره له في ميميته المشهورة التي هي من أشهر ما قيل في بدر[٣]:

تَبَلَتْ فُؤادَكَ في المَنَامِ خريدةٌ ... تَسْقِي الضَّجيعَ بِبَارِدٍ بَسَّامِ
كالمِسْكِ تَخْلِطُهُ بماءِ سَحَابَةٍ ... أو عَاتِقٍ كَدَمِ الذَّبيحِ مُدَامِ

---

(١) الأبيات في السيرة لابن هشام ص٧٠٦.
(٢) ديوانه ص٨٧ ـ ٨٨.
(٣) ديوانه ص٢١٣ ـ ٢١٤.

نُفُجُ الحَقِيْبَةِ بَوْصُهَا مُتَنَضِّدٌ بَلْهَاءُ غَيْرُ وشِيكَةِ الأَقْسَامِ[1]
أما النهارُ فلا أُفَتِّرُ ذِكْرَهَا والليلُ تُوزِعُني بها أَحْلاَمِي[2]
يا مَن لِعَاذِلَةٍ تلوم سفاهة ولقد عصيتُ على الهوى لُوَّامي[3]
إن كنتِ كاذبةَ الذي حَدَّثْتِني فَنَجوتِ مَنْجىٰ الحارِثِ بن هشَامِ
تَرَكَ الأَحِبَّةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُم ونَجَا برأسِ طِمِرَّةٍ ولِجَامِ

وأجابه الحارث بن هشام (رضي الله عنه)، وكان المؤرخون يقولون: أحسن اعتذار اعتذر به معتذر عن جواب: اعتذار المَخْزُومِيَّيْن، أعني: اعتذار الحارث بن هشام يخاطب حسان لما قال له:

إن كنتِ كاذبةَ الذي حَدَّثْتِني فنجوتِ مَنْجَىٰ الحارثِ بن هشامِ
تَرَكَ الاحبةَ أن يُقَاتِلَ دونهم ونَجَا برأسِ طِمِرَّةٍ ولِجَامِ

أجابه الحارث يعتذر عن فراره قال[4]:

اللهُ يعلمُ ما تركتُ قتالَهُم حتى رموا فرسي بأَشْقَرَ مُزْبِد
وعَلِمتُ أني إنْ أُقَاتِلْ واحداً أُقْتَلْ ولا يَضْرُرْ عَدُوي مَشْهدي
فَصَدَدْتُ عنهم والأَحِبَّةُ فيهم طمعاً لهم بقتال يوم مُرْصِدِ

هذا هو المخزومي الأول، والمخزومي الثاني: هبيرة بن أبي وهب، زوج أم هانىء بنت أبي طالب (رضي الله عنها)، فإن النبي ﷺ لما فتح مكة عام ثمان هرب هبيرة بن أبي وهب المخزومي إلى نجران ومات بها كافراً ـ والعياذ بالله ـ وكان يعتذر عن فراره من رسول الله وأصحابه يوم الفتح، ويخاطب زوجه أم هانىء بنت أبي طالب (رضي الله عنها):

---

(١) بعد هذا البيت بيتان أسقطهما الشيخ رحمه الله.
(٢) بعد هذا البيت بيت أسقطه الشيخ رحمه الله.
(٣) بعد هذا البيت بيتان أسقطهما الشيخ رحمه الله.
(٤) الأبيات في ديوان حسان (رضي الله عنه) ص٢١٦ وهي أربعة أبيات أسقط الشيخ (رحمه الله) البيت الثاني منها. وفي السيرة ص٧٧٣ ثلاثة أبيات.

لعمرك ما وليتُ ظهري محمداً وأصحابَهُ جبناً ولا خيفةَ القَتْلِ
ولكنني قَلَّبْتُ أمري فلم أجدْ لسيفي غَنَاءً إن ضربتُ ولا نبلي
وقفتُ فلما خفتُ ضَيْعَةَ موقفي رجعتُ لِعَوْد كالهزبرِ أبي الشبلِ[1]

فهذا اعتذاره كاعتذار الحارث بن هشام.

ولما أخذ ﷺ الغنائم، ومكث في عرصة بدر ثلاثة أيام، ورجع قافلًا إلى المدينة، وأرسل ابن رواحة إلىٰ العوالي يبشرهم، وزيد بن حارثة إلى أهل المدينة يبشرهم بما فتح الله على نبيه[2]، لما نزل وادي الصفراء راجعاً قدَّم النضر بن الحارث للقتل[3]- النضر بن الحارث بن كلدة العبدري، وكان من بني عبد الدار، وكان شديد العداوة لرسول الله، له قينتان تغنيانه بهجاء رسول الله - قدمه للقتل فقُتل صبراً، ولم يُقتل من الكفار في وقعة بدر صبراً إلا رجلان: النضر بن الحارث هذا، وعقبة بن أبي معيط، قتل أولًا النضر بن الحارث في قُفوله في وادي الصفراء؛ فلما بلغ موضعاً آخر بعده يقولون: إن اسمه عرق الظبية قدم عقبة بن أبي معيط فقتله أيضاً[4]، ولما قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث بن كلدة العبدري ـ قبحه الله ـ الذي سيأتي خبره في قوله في هذه السورة الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يأتي خبره في هذه السورة، وفي سورة الروم، وفي سورة المعارج ـ سورة (سأل سائل) ـ لما قتله ﷺ صبراً وبلغ مقتله إياه بلغ أخته قتيلة بنت الحارث العبدرية وقد أسلمت بعد ذلك وصارت صحابية (رضي الله عنها) أرسلت إلى النبي ﷺ شعرها المشهور، الذي لما قُرأ عليه ﷺ بكىٰ حتى أَخْضَلَ الدمع لحيته لشدة رحمته وشفقته، وذكروا أنه

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأعراف، ولفظ البيت الثالث عند ابن هشام:
وقفتُ فلما لم أجد لي مُقدَّماً صدرتُ كضرغَامٍ هِزَبرٍ أبي شِبلِ

(٢) السيرة لابن هشام ص٦٨٢.

(٣) السابق ص٦٨٤.

(٤) السابق.

قال: لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لعفوت عنه[١]. لأنه رؤوف رحيم (صلوات الله وسلامه عليه)، وكان شعرها الذي أرسلت إليه به الذي أبكاه ﷺ وقال: لو بلغه قبل أن يقتله لعفىٰ عنه. هو قولها[٢]:

يا راكباً إن الأُثَيْلَ مَظِنَّةٌ ... من صُبحِ خامسةٍ وأَنْتَ موفَّقُ
أبلغْ بها مَيْتاً بأن تحيةً ... ما إن تزالُ بها النجائبُ تَخْفِقُ
مني إليكَ وعبرةً مسفُوحةً ... جَادَتْ بِوَاكِفِهَا وأُخْرىٰ تخنُقُ
هل يسمعنَّ النضرُ إن ناديتُه ... أم كيف يسمعُ ميتٌ لا ينطقُ
أمحمدٌ يا خيرَ ضَيْءِ كريمة ... في قومِهَا والفَحْلُ فحلٌ مُعْرِقُ
ما كان ضَرَّكَ لو مَنَنْتَ وربَّما ... مَنَّ الفَتىٰ وهو المغيظُ المُحْنَقُ[٣]
فالنَّضْرُ أقربُ مَنْ أَسَرْتَ قرابةً ... وأحقُّهم إن كانَ عِتْقٌ يُعْتَقُ
ظَلَّتْ سيوفُ بني أبيهِ تَنُوشُه ... للهِ أرحامٌ هُنَاكَ تُشَقَّقُ
صَبْراً يُقادُ إلى المنيةِ مُتْعَباً ... رَسْفُ المُقَيَّدِ وهو عانٍ مُوثَقُ

ولما أراد قتل عقبة بن أبي معيط قال: أَأُقتل بين قريش صبراً؟ من للصبية؟ قال له ﷺ: «**لهم النار**»[٤]. وذكر بعض المؤرخين أنه قال: أَأُقتل بين قريش صبراً؟؟ قال: «**إنما أنت من يهود صفورية**»[٥] كما ذكره بعضهم[٦].

وعقبة هذا كان شديد العداوة لرسول الله ﷺ ذكروه أنه مرّ عليه يوماً

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة ص٨٠٣.

(٢) السابق ص٨٠٢ ـ ٨٠٣.

(٣) أسقط الشيخ (رحمه الله) بيتاً بعد هذا البيت.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٥/٢٠٥، ٢٠٦)، وأبو داود في المراسيل ص٢٣١، والبيهقي (٩/٦٤ ـ ٦٥) والحاكم (٢/١٢٤). وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ا.هـ ووافقه الذهبي.

(٥) لم أقف على هذه الجملة الأخيرة إلا في «معجم ما استعجم» (٣/٨٣٧).

(٦) السيرة لابن هشام ص٦٨٤ .وفي البزار كشف الأستار (٢/٣٢٠): «**بكفرك بالله وافترائك على رسول الله ﷺ**».

ساجداً فوضع رجله على عنق رسول الله ﷺ وهو ساجد حتى آذاه ـ قبحه الله ـ فقتله الله وأراح المسلمين منه.

وهذا طرف من هذا المشهد العظيم والغزوة الكبيرة سنُلمّ في بعض أطرافه بعد هذا، وهذه السورة الكريمة كلها نازلة في هذه الغزوة، وسيُكرر بعض هذا ويأتي ما لم يذكر فيه في مناسبة قرآنية من هذه السورة الكريمة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١﴾ [الأنفال: الآيات ٧ ـ ١١].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال: الآيتان ٧، ٨].

قد ذكرنا فيما سبق أن النبيّ ﷺ لما خرج من مدينته هذه ـ حرسها الله ـ يتلقى عِير أبي سفيان، وأن أبا سفيان سَاحَل بالعِير، أي: تيامن بها إلى جهة الساحل، وأرسل ابن عمرو الغفاري يستنفر جيش قريش، فاستنفر الجيش، وصار أصحاب رسول الله ﷺ لما علموا بذلك يُحتمل عندهم أن يلتقوا بالجيش، وأن يلتقوا بالعِير، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ ووعده إحدى الطائفتين: إما أن يعطيه العِير فيغتنمها، أو يسلطه على النفير فيهزمه. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ حين يعدكم الله وعده الصادق ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ (وَعَدَ) من الأفعال التي تطلب مفعولين، فقوله ﴿إِحْدَى﴾ هو مفعولها الثاني.

وقوله: ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدل من (إحدى) أي: وعدكم الله إحدى الطائفتين أن الله جعلها لكم، إما أن يكون لكم العِيْر فتغتنموها، أو يكون لكم النفير فتهزموه وتنتصروا عليه. هذا معنى قوله ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٧].

ولما بشر النبي ﷺ أصحابه بنصر الله، وأنه وعده إحدى الطائفتين، كان أصحاب رسول الله يتمنون أن تكون الطائفة التي هي لهم عير أبي سفيان؛ لأنه مال كثير ليس دونه قتال، وهذا معنى قوله: ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ خطاب للنبي وأصحابه ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ والذي ودّها في الحقيقة إنما هو بعض أصحاب رسول الله ﷺ. والودادة معناه: التمني ﴿وَتَوَدُّونَ﴾: تتمنون وتحبون أن تكون الطائفة التي سيحقق الله لكم إنجاز الوعد بها أن تكون الطائفة التي هي ﴿غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾، يعني: العِيْر، أصل الشوكة: واحدة الشوك؛ لأن رأسها فيه حِدَّة، والعرب تطلقها على كل سلاح حديد تسميه (شوكة)، فتقول للرجل الحديدِ السلاح: «فلان شائك السلاح، وشاكي السلاح». على القلب؛ لأن قولهم: «فلان شاكي السلاح». أصله: شائك السلاح. قلبوه وأخّروا الهمزة فأبدلوها ياءً، همزة مبدلة من الواو، وهو معنى معروف في كلامهم، ومنه قوله[1]:

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السِّلَاحِ مُقَذَّفٍ   لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

تتمنون أن الطائفة الضعيفة التي لا حِدَّة عندها ولا سلاح - وهي العير - أنها هي التي يتحقق لكم فيها الوعد، وأن لا تجتمعوا بالنفير؛ لأنه جيش له شوكة وسلاح وَحِدَّة. وهذا معنى قوله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٧] كأن الله يقول: الله يريد هنا غير ما تريدون، ويحب لكم غير ما تحبون لأنفسكم؛ لأن الله يعلم وأنتم لا تعلمون، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ

---

(١) البيت لزهير بن أبي سُلمى، وهو في ديوانه ص٨٤.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: الآية ٢١٦] ويريد الله (جل وعلا) أن يجعل الطائفة الموعود بها - التي سينجز فيها وعده، ويحقق بها نصر نبيه - يريد أن يجعلها الطائفة ذات الشوكة، وهي: النفير، الجيش في عَدَدِه وَعُددِه؛ لأن الله يريد، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الحق هو في نفسه حق، الحق حق مهما كان، ومعنى ﴿أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يظهره على الدين كله، ويجعله عاليًا غير سافل، ويجعل الكلمة والسلطة والقوة له. هذا معنى إحقاق الحق، أي: إظهاره وإعلاؤه، أما الحق فهو حق في نفسه مهما كان، هذا معنى قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ أن يحقق لكم الوعد في الطائفة ذات الشوكة؛ لأن الله يريد بذلك ﴿أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يظهر دين الإسلام ويعليه، ويعلي كلمته، ويضعف الكفرة ويهزمهم، ويهزم دينهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ معنى إحقاقه الحق بكلماته فيه أوجه متقاربة من التفسير لا يكذب بعضها بعضا[1].

قال بعض العلماء: المراد بكلماته التي يريد أن يحق بها حقه هي: كلمته التي أمر نبيه بها ﷺ أن ينهض وأن يقاتل النفير إذا لم يكن إلا هو، فَأَمْرُهُ (جل وعلا) بقتالهم وإلزامهم ذلك بعد أن نجت العير وصار النفير، أمره بهذا القتال هي كلمته التي أراد أن يحق الحق بها، أن يذل دين الكفر، ويقتل صناديده، ويعز دين الإسلام، ويعلي كلمته.

وقال بعض العلماء: كلماته التي يريد أن يحق بها حقه هي الكلمات التي وعد فيها بالنصر يوم بدر، والله (جل وعلا) وعد بالنصر يوم بدر في آيات من كتابه على ما قاله جماعة من المفسرين، منها في الدخان، ومنها في السجدة، ومنها في غير ذلك؛ لأن جماعة من أهل العلم قالوا: إن الله في سورة الدخان بشر بقصة بدر مع أن سورة الدخان مكية نازلة قبل الهجرة. قال غير واحد من كبار العلماء: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ هو بطشه بنفير قريش يوم بدر على أيدي أصحاب النبي ﷺ والملائكة ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: الآية ١٦] أي: من سادة الكفرة يوم بدر

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٤٠٧).

بما فعلنا بهم[١]. وقالت هؤلاء الجماعة: هو العذاب الأدنى في السجدة في قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ [السجدة: الآية ٢١] قالوا: هو عذاب النفير يوم بدر كما سلط الله عليهم رسوله وأصحابه فقتلوا منهم وأسروا[٢].

وقال بعض العلماء هو: اللزام؛ لأنه عذاب دنيوي يلازمه عذاب الآخرة في كونه لزاماً[٣].

ولا شك أن سورة القمر من القرآن النازل في مكة قبل وقعة بدر، وعن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه ما كان يعلم شيئاً عن معنى قوله: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ ويقول: من هذا الجمع المهزوم الذين يولون الدبر؟! ولم يفهم معنى الآية إلا يوم بدر لما كشف الله المشركين ونصر نبيه ﷺ فإذا رسول الله ﷺ يثب في درعه ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾[٤] [القمر: الآية ٤٥] وعند ذلك عرف عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن آية ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ وإن كانت من سورة القمر وهي من القرآن المكي النازل بمكة قبل الهجرة بلا خلاف أن الله وعد فيها في مكة نصر المؤمنين على الكفار يوم بدر، قالوا: فهذه كلمات الله التي وعد بها نبيه أن ينصره فحق الحق وأنجز وعده، كما قال

---

(١) انظر: ابن كثير (٤/١٤٠).

(٢) المصدر السابق (٣/٤٦٢).

(٣) المصدر السابق (٣/٣٣٠).

(٤) خبر وثوبه ﷺ في الدرع وقراءته الآية ثابت في الصحيح، كتاب التفسير، باب: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ حديث رقم: (٤٨٧٥) (٨/٦١٩). وأخرجه في مواضع أخرى، حديث رقم: (٢٩١٥، ٢٩٥٣، ٤٨٧٧)، وأما أثر عمر فقد أخرجه ابن جرير (٢٧/١٠٨) عن عكرمة، كما أخرجه ابن أبي شيبة (١٤/٣٥٧)، وابن أبي حاتم (١٠/٣٣٢١) عن عكرمة مرسلاً. وعزاه في الدر (٦/١٣٧) لعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وابن راهويه، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه. كما أخرجه الطبراني في الأوسط (٩/٥٨) من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه)، وأورده السيوطي في الدر (٦/١٣٦) وعزاه لابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه. كما أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/١٤٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

هنا: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الدابر: الآخِر. وإذا كان جماعة يمشون فالذي يمشي وهو الآخر منهم تسميه العرب: دابراً؛ لأنه يمشي عند دبر من قدامه، والعرب تعبر به عن الآخر، ويقولون: «قطع الله دابرهم». معناه: أهلكهم واستأصلهم ولم يبق منهم أحداً، هذا معنى قطع الدابر وأصله لغة. ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: يهلكهم ويستأصلهم إما بالموت، وإما بانقضاء دينهم وقهره حتى لا يبقى كافر، وكانت وقعة بدر هي أول عز الإسلام وظهوره، وهي أول وقعة ذل فيها الكفر وأهله؛ ولذا قال: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال: الآية ٨] واختلف العلماء في متعلق اللام في قوله: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ اختلفوا في متعلقها[1]، قال بعض العلماء: تتعلق بما قبلها؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قطع دابر الكافرين لأجل أن يحق الحق، بأن يظهر الحق بإضعاف الكافرين وقطع دابرهم، وذهب جماعة من العلماء إلىٰ أن متعلق اللام محذوف، قالوا: ويقدر مؤخراً ليدل على الحصر، قالوا: وإيضاح تقديره: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ فعل ذلك الذي فعل بالكفار، أي: ما فعل بهم ذلك إلا لأجل أن يحق الحق ويبطل الباطل. والمراد بالحق هنا: دين الإسلام. وأصل الحق في لغة العرب: الشيء الثابت الذي لا يزول ولا يضمحل، وكذلك دين الإسلام فهو ثابت، وأعماله ثابتة في الدنيا والآخرة، يجدها صاحبها ثابتة في الآخرة، جزاؤها عظيم، كما صرح الله بضرب المثل لذلك بالنخلة ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: الآية ٢٤] أما الباطل فهو زائل مضمحل لا ثبوت له، كما ضرب له المثل بالشجرة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فلا ثبوت لها، بل هي تضمحل وتزول، وكل زائل مضمحل تسميه العرب باطلاً، ويجمعونه على أباطيل على غير قياس، ومنه قوله[2]:

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/٥٦٤).

(٢) شرح قصيدة بانت سعاد للتبريزي ص١٧.

كانت مواعيدُ عرقوبٍ لها مَثَلاً ... وما مَوَاعيدُها إلا الأَبَاطِيلُ

هذا كعب بن زهير جمع الباطل على (أباطيل) على غير قياس، ويجوز جمعه على القياس، وجمع الباطل على القياس أن يقال في جمعه: (بواطل) كما هو معروف؛ لأن (الفاعل) إذا كان اسماً أو وصفاً لغير عاقل اطَّرد جمعه على (فواعل) كما هو معروف في محله.

قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٨] يعني يفعل ذلك والحال لو كره المجرمون ذلك، والمجرمون[١]: جمع تصحيح للمجرم، والمجرم اسم فاعل الإجرام وهو مرتكب الجريمة، والجريمة: الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه عليه النكال. وهذا معنى قوله: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٨].

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: الآيتان ٩، ١٠].

﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٩] قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير نافع وحده: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بكسر الدال، بصيغة اسم الفاعل. وقرأه نافع من السبعة وحده: ﴿مردَفين﴾ بفتح الدال بصغية اسم المفعول[٢].

وقوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ قال بعض العلماء (إذ) منصوب بـ (اذكر) مقدراً، وقد ذكرنا أنه يكثر في القرآن نصب الظرف الذي هو (إذ) بلفظة (اذكر) كقوله: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ﴾ [الأحقاف: الآية ٢١] ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ [الأعراف: الآية ٨٦] ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: الآية ٢٦] ونحو ذلك. قال بعض العلماء: (إذ) في قوله:

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٢٠.

انظر: الدر المصون (٥/٥٦٥).

﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ﴾ بدل من (إذ) في قوله: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: الآية ٧] و ﴿تَسۡتَغِيثُونَ﴾ معناه: تطلبون الإغاثة من ربكم (جل وعلا). تقول العرب: استغاث يستغيث إذا طلب الغوث. وهذه الاستغاثة كانت من رسول الله ﷺ على ما ثبت في الأحاديث الصحيحة، وعليه جمهور العلماء. خلافاً لمن قال: كانت من جميع الأفراد الذين شهدوا بدراً، وذلك أن النبي ﷺ لما بُني له العريش يوم بدر وجلس فيه ورأىٰ جيش قريش متصوبين من العقنقل - كثيب بدر - فإذا عددهم كبير، وهم حول ألف مقاتل، فنظر إلى أصحابه فإذا هم قليل - ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا - قام في ذلك الوقت وتوجه إلى القبلة وهتف بربه (جل وعلا) واستغاث بخالقه يسأله ويدعوه، وألح في المسألة أشد إلحاح، ورداؤه علىٰ منكبيه يناشد ربه؛ ربي أنجز ما وعدتني، اللهم عهدك ووعدك، اللهم إن تهلك هذه الطائفة لن تُعبد في الأرض. ويناجي ربه ويهتف به، ويلح عليه في المسألة، ويستغيث به (جل وعلا) حتى سقط رداؤه عن منكبيه (صلوات الله وسلامه عليه)، فجاءه أبو بكر من خلفه وجعل رداءه على منكبيه وقال: «**يكفيك مناشدتك ربك، فإن ربك منجز لك ما وعدك**»[1]. هذا معنىٰ: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: الآية ٩].

وهذه الآية وأمثالها في القرآن، تُؤخذ منها أسرار ينبغي لنا معاشر المسلمين أن نسير عليها، هذا سيد الخلق محمد (صلوات الله وسلامه عليه) لما جاءه أعظم كرب يكون كرباً للأنبياء؛ لأن الكروب إنما تعظم على الأنبياء من جهة ضياع الدين؛ لأن الدنيا لا أهمية لهم فيها. وهذه الطائفة جزم ﷺ أنها لو هلكت وقُتلت لانكسرت شوكة الإسلام، ولضاع الإسلام، ولم يُعبد الله في أرضه، وانتشر الكفر، وظهرت قوته، وطائفة الإسلام قليلة ضعيفة ليست بذات عددٍ ولا عُدد، وطائفة الكفر كثيرة قوية؛ هذا أعظم كرب دهم رسول الله ﷺ فلما دهمته هذه الكروب جعل التجاءه الصادق إلى خالق السماوات والأرض. ومن ذلك يُعلم أن من دهمته الكروب وجاءته

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر. حديث رقم: (١٧٦٣) (١٣٨٣/٣).

البلايا والزلازل أنه في ذلك الوقت إنما يكون التجاؤه كما كان التجاء رسول الله ﷺ إلىٰ خالق السماوات والأرض (جل وعلا)، فعلى كل مسلم أن يفهم هذا ويعقله، ويفهم أن العبد إذا دهمته الكروب، وجاءته البلايا والمحن والزلازل، أن التجاءه في ذلك الوقت يجب انصرافه إلى ما صرف إليه النبي ﷺ التجاءه في ذلك الوقت، وهو الاستغاثة بخالق السماوات والأرض جل وعلا.

والله قد بين لنا معاشر المسلمين أن الإنسان إذا اضطر بأن دهمته الكروب، وأحدقت به النوائب والحوادث، أن الالتجاء في ذلك الوقت من خصائص خالق السماوات والأرض (جل وعلا)، فلا يجوز صرفه لغيره كائناً من كان. وأوضح الله لنا هذا إيضاحاً شافياً في آيات كثيرة من كتابه، من أوضح تلك الآيات: آيات سورة النمل، لأنه إيضاح لا لَبْسَ فيه كهذا النهار؛ لأن الله يقول: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [النمل: الآية ٥٩] وفي القراءة الأخرى: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]. ثم شرع تعالى يُعدد خصائص ربوبيته التي لا حق فيها لغيره ألبتة فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ الجواب: لا ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ثم ذكر خاصية أخرى من خصوص الربوبية فقال: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ الجواب: لا إلٰه مع الله. ثم قال: وهو محل الشاهد: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النمل: الآيات ٦٠ ـ ٦٢] الجواب: لا والله، فهذه توضح ما وضَّحه رسول الله ﷺ بفعله أن من ألجأته الكروب واضطرته النوائب والزلازل أنه لا إله مع الله في ذلك الوقت يرفع إليه ذلك إلا خالق السماوات والأرض؛ ولذا كان ﷺ في ذلك الوقت الضنك، والموقف الحرج، رفع ذلك الالتجاء إلى خالقه (جل وعلا)، وأثنى الله عليه في ذلك، وأجابه بمدد السماء

---

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص٢٣٤.

٢/ب ملائكة منزلين [وهكذا شأن][1]/ الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم) يلتجئون إليه في تلك الظروف الحرجة والأوقات الضنكة. وكان الكفار ـ لأن عندهم عقلاً معيشياً دنيوياً ـ إذا نزلت بهم البلايا ودهمتهم الكروب أخلصوا في ذلك الوقت الدعاء لله، وأعطوا الحق لمن له الحق، حتى إذا أنقذهم الله من ذلك رجعوا إلى كفرهم. والآيات الدالة على هذا لا تكاد تحصيها في المصحف الكريم ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ أي: وخافوا من الموت من هيجان تلك الأمواج ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: الآية ٣٢] ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ أي: ودهمتهم الأمواج، وعاينوا الهلاك ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٥] ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: الآيتان ٢٢، ٢٣] ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩)﴾ [الإسراء: الآية ٦٧ ـ ٦٩] والآيات بهذا المعنى لا تكاد تحصيها في المصحف، والمعروف في التاريخ أن سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل (رضي الله عنه) أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) لما فتح مكة ـ وكان عكرمة شديد العداوة له ﷺ ـ هرب من مكة ذاهباً إلى الحبشة، فركب في البحر الأحمر ذاهباً إلى الحبشة، فلما لَجَّجُوا في البحر هاجت عليهم عواصف الريح، واضطربت عليهم الأمواج، فخافوا الهلاك وعاينوا الموت، فإذا كل من في السفينة يتناذرون ويقول بعضهم لبعض: لا تدعوا في هذا الوقت غير الله؛ لئلا تغرقونا؛ لأن هذه الكروب لا ينجي منها إلا الله (جل وعلا) وحده. ففهمها عكرمة وقال: والله إن كان لا ينجي

(١) في هذا الموضع مسح في التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

في ظلمات البحر إلا هو فلا ينجي من كربات البر إلا هو. ثم قال: اللهم لك علي عهد إن أنجيتني من هذه لأضعن يدي في يد محمد ﷺ فلأجدنه رؤوفاً رحيماً[١]. وأمثال هذا في القرآن لا تحصى، فعلينا معاشر المسلمين أن نضع كل شيء في موضعه، ونمشي في نور القرآن العظيم، ونعلم أن الواحد منا إذا نزلت به البلايا ودهمته الكروب أن الالتجاء في ذلك الوقت من خصائص خالقه (جل وعلا)، فخصوص ذلك لخالقه (جل وعلا) مما يرضي الله، ويرضي رسوله، ويكفل له النجاح. وهذا سيد الخلق (صلوات الله وسلامه عليه) صرحت هذه الآية من سورة الأنفال أنه لما دهمه هذا الكرب العظيم صدق في ذلك الالتجاء، وصرفه إلى من له الحق في ذلك، وهو خالقه (جل وعلا). ومن حِكَم ذلك أن يعلم أمته الاقتداء به في ذلك، فعلينا معاشر المسلمين محبة لنبينا وتعظيماً له ورغبة في اتباع ديننا أن نفعل كما كان يفعل نبيّنا ﷺ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: الآية ٣١] ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: الآية ٨٠] ونصرف الحقوق لمستحقها، ولا نصرف حق خالقنا إلى بشر، ولا إلىٰ ملك مقرب، ولا إلى مخلوق كائناً من كان؛ لأن إعطاء حقوق الله لله مما يرضي الله ويرضي رسول الله، وهو الذي يتَّبع صاحبه المرسلين (صلوات الله وسلامه عليهم). وهذا معنى قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ الفاء سببية والإجابة مسببة عن الاستغاثة بالله. وهذا يدل على أن من استغاث بالله كانت استغاثته بالله سبباً للإجابة وإزالة المكروه عنه؛ ولأجل هذا الذي كنا نقرر لما أنزل الله مدد السماء من الملائكة علَّم أصحاب نبيه أن لا يعتمدوا عليهم فقال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ١٠] لا تظنوا أن النصر من الملائكة وإن نزلت عليكم الآلاف المؤلفة منهم، الذي بيده النصر وبيده كل شيء ويُفزع إليه في كل شيء، ويُطلب منه كل شيء، هو خالق الملائكة وخالق الرسل (جل وعلا) صلوات الله وسلامه عليهم.

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٠) من سورة الأنعام.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ استجاب لهم بأنه ممدهم. وقوله: ﴿مُمِدُّكُم﴾ أي: جاعلها لكم مدداً يمدكم الله ويعينكم بها. وقد أوضح وجه هذا الإمداد وبينه في هذه الآيات في قوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: الآية ١٢] وهذا معنى قوله: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ العرب تقول: أَمَدَّنا الإمام بكذا ـ معناه: جاءنا بزيادة من الجيش مدداً. أي: زائدة على الأول. فقوله: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٩] قراءة الجمهور: ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ قال بعض العلماء: كان الإمداد يوم بدر بألف واحدة بدليل آية الأنفال هذه.

وقوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ معناه: متتابعين يتبع بعضهم بعضاً، ذكروا في بعض الأحاديث أن النبي ﷺ خفق في العريش خفقة ـ أصابته نعسة وغفوة خفيفة ـ فاستيقظ يتبسم وقال لأبي بكر: أبشر جاء نصر الله. فذكر له أنه رأى جبريل نازلاً وعلى ثناياه النقع[1] ـ والنقع: الغبار الذي يكون على الثَّنِيَّتَيْن من أسنان الرجل فيكون عليها.

قال بعض العلماء: نزل جبريل في خمسمائة من الملائكة على الميمنة وفيهم أبو بكر، ونزل ميكائيل في خمسمائة من الملائكة على الميسرة وفيهم علي[2]. والأظهر أن المدد يوم بدر كان أكثر من ألف كما قدمناه في سورة آل عمران؛ لأن أصح القولين أن المدد من الملائكة المذكور إلىٰ خمسة في آل عمران أنه في بدر، وأن قول من قال: «إنه وُعد به في أُحد والصحابة لم يفوا بالشرط». أن ذلك خلاف الظاهر وخلاف التحقيق؛ لأن الله قال في سورة آل عمران مشيراً إلى وقعة بدر هذه، التي بسطها وشرحها في الأنفال

---

(١) هذا الحديث أورده ابن هشام في السيرة ص٦٦٦، وابن كثير في البداية والنهاية (٣/٢٧٦)، وقد أورده السيوطي في الدر (٣/١٨٨) وعزاه لابن إسحاق وابن المنذر.

(٢) أورد ابن كثير في تفسيره (٢/٢٩٠) والبداية والنهاية (٣/٢٧٥). في هذا المعنى أثراً عن ابن عباس (رضي الله عنهما) من طريق علي بن أبي طلحة.

مشيراً إلىٰ النصر بالملائكة والإمداد بهم: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: الآيتان ١٢٣، ١٢٤] والتحقيق: إذ تقول لهم يوم بدر لما أمدكم الله بالملائكة ـ ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ١٢٤، ١٢٥] والقصة هذه المذكورة في آل عمران هي قصة بدر هذه المذكورة في الأنفال والسياق واحد كما ترى؛ لأنه قال في الأنفال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: الآية ١٠] وقال في آل عمران: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٢٦] وقال هنا: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٧] وقال في آل عمران: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ [آل عمران: الآية ١٢٧] فالسياق هو السياق.

ولكن هنا سؤال، وهو أن يُقال: المدد الذي ذكرتم أنهم إلى خمسة آلاف، وأن ذلك في يوم بدر، فكيف يجمع به مع الاقتصار على ألفٍ واحدة هنا في الأنفال في قوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٩].

أُجيب عن هذا: بأنه لا تعارض؛ لأن آية الأنفال هذه أشارت إلى أن المدد من الملائكة لا يقتصر على الألف؛ لأن قوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ على قراءة الجمهور معناه: يتبع بعضهم بعضاً، من أردف الرجل الرجل إذا كان وراءه رِدْفاً له، فدل على أنهم وراءهم شيء أُردفوا به، ويوضح هذا المعنى قراءة نافع: ﴿مُرْدَفين﴾ بصيغة اسم المفعول، معناه: مردَفين بغيرهم، أنهم متبوعون بغيرهم.

وقال بعض العلماء: الوعد بخمسة آلاف كان يوم أُحد، ولكن الله شرط عليهم شرطاً وقال: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ [آل عمران: الآية ١٢٥] قالوا: ولم يصبروا ولم يتقوا ذلك اليوم؛ لأنهم زلت بهم أقدامهم كما نص الله عليه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: الآية ١٥٥] قال: ولما لم يثبتوا لم

ينزل عليهم ملك واحد؛ لأنهم لم يفوا بالشرط. هذا قاله جماعة من أهل العلم. والأول أظهر، والسياق واحد. وهذا مبني على قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ فصرح تعالى أن ذلك ببدر والكلام متصل آخره بأوله ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: الآية ١٢٣] إلى أن قال: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ في ذلك اليوم الذي نصركم الله فيه وأنتم أذلة ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾ [آل عمران: الآية ١٢٤].

والحاصل أنه مختلف في المدد هل هو ألف واحدة أو إلى خمسة آلاف؟ وأظهر القولين: أن المدد المذكور في آل عمران هو المذكور في الأنفال هذه، وأنه خمسة آلاف، ومما يؤيده: أنه لم يعلم أن الملائكة نزلت للقتال ظاهراً إلا يوم بدر، وغير ذلك تنزل جنوداً لم يرها الناس كما جاء في حنين وغيره والأحزاب؛ لأن الله بين أن الملائكة نزلت في الأحزاب وفي حنين حيث قال في الأحزاب: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: الآية ٩] وقال في قصة حنين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: الآية ٢٦] ولم يقل أحد من العلماء: إن جنود الملائكة التي نزلت في غزوة الأحزاب وفي غزوة حنين أنهم قاتلوا. وإنما اختلفوا في ذلك في [بدر](١)، فذهب جماعة من أهل العلم وجاءت به آثار: أن الملائكة قاتلوا. وظاهر سياق آية الأنفال هذه تدل على أن الملائكة هم الذين أُمروا بالضرب فوق الأعناق وضرب البنان؛ لأنه قال: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ فهذا السياق للملائكة ﴿أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: الآية ١٢] فهذا السياق ظاهر في الملائكة، وقد ذكرنا بالأمس روايات عن بعض الصحابة أن بعضهم قال: بينما أنا أتبع رجلاً إذ سقط ميتاً أمامي، وسمعت ضربة سوط فوجدت وجهه مشقوقاً مخطوماً واخضر محل الضربة كله(٢). وأن رجلاً قال: أردت أن

---

(١) في الأصل: «أُحد» وهو سبق لسان.

(٢) تقدم تخريجه في بداية تفسير الآية.

أقتل رجلاً فسقط رأسه قبل أن أضربه[١]. وأنهم أعْلَموا النبي ﷺ، وأنه قال: «**ذلك من مدد السماء**».

والذين قالوا: إن الملائكة لم تقاتل يوم بدر لا حجة قوية معهم؛ لأنهم إنما استدلوا علىٰ ذلك بأن ملكاً واحداً يقدر على إبادة جميع الناس، وأن جبريل رفع مدائن قوم لوط على ريشة من جناحه. ولا مانع من أن الله يجعل الملائكة مدداً وعوناً يَقْتُلُون معهم ليكون شرف الهزيمة لأصحاب محمد ﷺ؛ لأن الملك لو أهلكهم ما كان للصحابة في ذلك من فضل ولا من شرف، ولكن الله أعانهم ليكون النصر بأيديهم، وإهانة الكفار بأيديهم، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ الآية [التوبة: الآية ١٤]، وهذا معنى قوله: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ [الأنفال: الآيتان ٩، ١٠] هذه الآية مما استدل بها من قال: إن الملائكة لم تقاتل؛ لأن الضمير في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ﴾ راجع إلى الإمداد بالملائكة الذين يتبع بعضهم بعضاً ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: إمدادكم بالملائكة يقاتلون معكم ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي: إلا بشارة لكم بالنصر، قالوا: فالله (جل وعلا) قصره على البشرىٰ، ولم يقل: إن فيه قتالاً. وبعضهم يقول: لما قيل لهم: إنهم معكم، يقاتلون معكم، كانت البشرى أعظم؛ لأنهم يعاونونهم في قتل عدوهم. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ فالبشرى (فُعْلىٰ) مؤنث بألف التأنيث اللفظية. والبشرىٰ: هي الإِخبار بما يسر. وقد قدمنا مراراً أن العرب تسمي الإخبار بما يسر (بشرى) و (بشارة)، وتقول: «بَشَّرَه وبَشَرَه». إذا أخبره بما يسره، كما هو معروف. وقد قدمنا: أن من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن: إطلاق البشرى أيضاً على الإخبار بما يسوء، كأن تقول له: بشّره بما يسوءُه، بشره بويل وعذاب. كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ [الجاثية: الآيتان ٧، ٨] ومعلوم أن العرب تطلق

(١) تقدم تخريجه في بداية تفسير الآية.

البشارة في لغتها على الإخبار بما يسر أكثر، وربما أطلقتها على الإخبار بما يسوء. ومن إطلاق البشارة على الإخبار بما يسوء قول الشاعر[1]:

وبشرتني يا سعدُ أن أَحِبَّتي جَفَوني وقالوا: الود موعده الحشْرُ

وقول الآخر[2]:

يُبشرُني الغرابُ ببينِ أَهْلي فقلتُ له ثكلتُكَ من بشيرِ

وعلماء البلاغة يقولون: إن البشارة بما يسوء من نوع ما يسمونه (الاستعارة العنادية) ويقسمون الاستعارة العنادية إلى (تهكمية، وتلميحية) كما هو معروف في فن البيان عندهم[3].

ونحن نقول: إن الذي يظهر أن هذه أساليب عربية، نطقت بها العرب، ونزل بها القرآن. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ [آل عمران: الآية ١٢٦] أي: فعل الله ذلك لكم لأجل أن يبشركم؛ ولأجل أن تطمئن قلوبكم به. الطمأنينة معناه: السكون وعدم القلق والانزعاج. ومحل الطمأنينة والانزعاج: القلب؛ لأنه محل الإدراك؛ ولذا قال ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ لأن أصحاب رسول الله ﷺ كان عددهم قليلاً، فلما نزل المدد من السماء وثقوا من النصر، وسكنت قلوبهم، واطمأنت، وزال عنها الخوف والقلق والانزعاج، وهذا معنى قوله: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ ثم إن الله بيّن أن الخير كله من قِبَله فكأنه يقول للمسلمين: لا تظنوا ـ وإن أنزلت عليكم ألفاً من ملائكة السماء لا تظنوا ـ أن النصر بيد الملائكة، لا، النصر بيدي وحدي؛ ولذا قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ١٠] هذا حصر بالنفي والإثبات، وهو أبلغ غايات الحصر. معناها: لا نصر يوجد ألبتة كائناً من كان إلا من عند الله (جل وعلا). وأصل النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ العزيز في لغة العرب: هو الغالب. والعزة في لغة العرب: الغلبة. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: الآية ٨] أي: ولله الغلبة ولرسوله ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: الآية ٢٣] غلبني في الخصام. والعرب تقول: (مَنْ عَزَّ بَزَّ)[1] يعنون: من غلب استلب. وقد قالت الخنساء في شعرها[2]:

كأنْ لم يكونُوا حِمىً يُختشى إذْ الناسُ إذْ ذاكَ مَنْ عَزَّ بَزّا

تعني: من غلب استلب.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: غالب لا يغلبه شيء؛ ولذا قهر جند أبي جهل ورؤساء الكفر وقمعهم وقتلهم بعزته حيث كانت العزة له، وأعز عباده المؤمنين، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: الآية ٨].

وقوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ الحكيم في الاصطلاح: هو من يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها. ولا تتم الحكمة إلا بتمام العلم، فكل نقص في الحكمة إنما يتسبب عن نقص في العلم، فترى الرجل القُلَّب البصير الحاذق يفعل الأمر يظنه في غاية السداد ثم ينكشف الغيب عن أن فيه هلاكه ومضرة عظيمة عليه، فيندم وقد فات الأوان، ويقول: ليتني لم أفعل، لو فعلت لكان كذا!!

لَيْتَ شِعْري وأين مني ليت إنَّ ليتاً وإنَّ لوّاً عَناءُ[3]

لأن: (ليتني فعلت)، و(لو فعلت كذا لكان أصوب!!) كل هذا في اختلال الحكمة من عدم العلم بعواقب الأمور.

أُلامُ على لوٍّ ولو كنتُ عالماً بأذنابِ لوٍّ لم تفتني أوائلهُ[4]

الله (جل وعلا) وحده هو الذي لا يجري عليه: (لو فعلت كذا لكان

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.
(٢) السابق.
(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.
(٤) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

أصوب). أو: (ليتني لم أفعل)؛ لأنه عالم بعواقب الأمور وما تؤول إليه، فلا يضع أمراً إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه؛ لإحاطة علمه (جل وعلا) بالخبايا والخفايا، وبما يكون وبما ينكشف عنه الغيب؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ١٠].

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: الآية ١١].

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ في هذا الحرف ثلاث قراءات سبعيات[1]: قرأه ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ مضارع غشَّاه يُغشِّيه. ومنه بهذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم: الآية ٥٤]. وقرأه نافع وحده من السبعة: ﴿إذ يُغشِيْكم النعاس﴾ مضارع أغشىٰ يُغشي، من قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: الآية ٩]. وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿إذ يَغْشَاكم النعاسُ أمنة منه﴾.

فعلىٰ قراءة نافع: (النعاس) منصوب مفعول: ﴿يُغْشِيكم﴾ وكذلك هو علىٰ قراءة ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ هو مفعول ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ ولا فرق بين قراءتهم وبين قراءة نافع، إلا أن الفعل علىٰ قراءتهم مُعدّىٰ بالتضعيف، وعلىٰ قراءة نافع مُعدّىٰ بالهمزة، والتعدية بالهمز والتضعيف معروفان متساويان، أما علىٰ قراءة ابن كثير، وأبي عمرو: ﴿إذ يَغْشَاكم النعاسُ أَمَنةً مِنهُ﴾ (النعاسُ) مرفوع، فاعل ﴿يغشاكم﴾[2] وقد جاء النعاس فاعلاً - كقراءة أبي عمرو، وابن كثير هنا جاء ذلك - في سورة آل عمران في قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٤] أي: النعاس ﴿طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ كما قال هنا: ﴿إذ يَغْشَاكم النعاسُ أمنة منه﴾ النعاس: معروف، وهو أوائل النوم.

---

(١) انظر المبسوط لابن مهران ص٢٢٠.

(٢) انظر حجة القراءات ص٣٠٨.

وأجرى الله العادة أن النعاس لا يكون للخائف ـ أن الخائف يطير منه النعاس ويطير منه النوم فلا ينعس ولا ينام ـ وأن الذي يصيبه النعاس فينام هو الآمن؛ ولذا كانوا يقولون: «الأمن مُنيم، والخوف مُسهر»؛ لأن صاحب الأمن ينعس فينام، فترىٰ الآمن ناعساً ونائماً، والخائف قلقاً لا يأتيه النعاس ولا النوم. وأجرى الله العادة أنه إذا أراد نصر حزبه ألقىٰ عليهم النعاس؛ لأن النعاس لا يغشاهم إلا وقد زال من صدورهم الخوف وقلق الجزع والحزن، وهذا تأمين منه لهم، وتثبيت لهم، كما تقدم في قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٤] وقد قدمنا في تفسيرها في آل عمران عن أبي طلحة أنه ذكر أنه سقط منه سيفه ثلاث مرات وهو قائم في الصّف من شدة النعاس[(١)]، وأنهم يميدون تحت السلاح لشدة نعاسهم. وقد ذكر هنا أنه غشاهم النعاس في وقعة بدر.

وقوله: ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: الآية ١١] مفعول من أجله. إذ يغشيكم (جل وعلا) النعاس لأجل الأَمَنَة منه. والأَمَنَة: مصدر أَمِن يأمن أَمَنَةً وأمناً وأماناً. والأَمَنَة والأمان ضد الخوف. أي: لأجل أن تكونوا آمنين ليس في قلوبكم خوف ولا جزع ولا قلق، وهذا من تثبيت الله لعباده المؤمنين.

وقد اختلف العلماء في وقت هذا النعاس الذي صرّح الله أنه غشّاه أهل بدر، فقال بعض العلماء: كان هذا النعاس غشاهم الله إياه في الليلة التي في صبيحتها وقعة بدر، وكانت ليلة الجمعة، وهي السابعة عشرة من شهر رمضان، في عام اثنين من الهجرة. المفروض أنهم كانوا يكونون في خوف وقلق؛ لأنهم غداً يتلاقون مع عدوهم، وهو جيش عرمرم قوي، فالعادة أن من هو إذا أصبح يلاقي جيشاً عرمرماً، وينتظر الموت أنه يبيت والنعاس طائر عنه، والنوم طائر من عينيه لما يصيبه من خوف الموت والفزع والقلق، إلا أن الله خرق العادة لحزبه هنا، وغشاهم النعاس. قالوا: ففي تلك الليلة ناموا ملء عيونهم نوماً مستغرقاً كنوم الآمنين في غاية الأمن حتى احتلموا وأصبح

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ حديث رقم: (٤٠٦٨) (٣٦٥/٧)، وأخرجه في موضع آخر، حديث رقم: (٤٥٦٢).

كثير منهم جُنباً من الاحتلام!! والغالب أن الرجل لا يحتلم إلا إذا كان نومه مستغرقاً، والنوم لا يكون ثقيلًا مستغرقاً إلا للآمن الذي لا يخالجه خوف؛ لأن الخائف والقلق ولو قدرنا أنه أصابته غفوة فعن قليل يستيقظ فزِعاً مرعوباً، فهم في تلك الليلة غشاهم الله النعاس فباتوا في أمن ونوم عميق نائمين، وأجنبوا تلك الليلة. قالوا: ومن حكمة ذلك أن النوم الثقيل العميق تستريح منه الأعضاء من التعب، فأصبحوا مستريحين قادرين علىٰ كفاح العدو، قال المفسرون: أُخبر النبي ﷺ وأصحابه أن نفير قريش سبقهم إلى الماء، وكانوا في العدوة الدنيا من بدر، وكان الوادي الذي هم فيه فيه رمال دهسة، يصعب المشي فيها؛ لأن الأقدام تسوخ فيها، وأجنبوا وعطشوا، فجاءهم إبليس برِجْزِه فوسوس لهم وسوسة عظيمة ثقلت علىٰ بعض الصحابة، وقال: تزعمون أنكم علىٰ الحق وأنتم في عطش، والقوم قد سبقوكم إلىٰ الماء وغلبوكم عليه، فإذا أجهدكم العطش جاؤوكم فقتلوا من شاؤوا، وأسروا من شاؤوا، وأنتم تُصلّون بالجنابة في عطش، وأرجلكم تسوخ في الرمل، والعدو بخلاف هذا[١]!! فأنزل الله مطراً من السماء، وسلط عليهم النوم، فسال الوادي، فاغتسلوا من الجنابة، وشربوا، وسقوا دوابهم، ولبَّد لهم الأرض حتى صارت الخُطا تثبت عليها، والأقدام تثبت عليها ولا تسيخ فيها؛ لأن الرمل المتهائل إذا ضربه المطر اشتد وصار الإنسان يمشي عليه ولا تسوخ قدمه فيه، وإن كان يابساً صعُب المشي فيه؛ لأن الرِّجْل تسوخ فيه.

وقال بعض العلماء: النعاس الذي غشاهم إياه: بعد أن التحم القتال أصاب المسلمين نعاس يوم بدر كما أصابهم يوم أحد. والله تعالىٰ أعلم[٢]. ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال: الآية ١١] لأجل الأمن، سواء قلنا: إنه في الليل، أو إنه في النهار وقت التحام الصفين. هذا معنىٰ قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو هذا المطر الذي كنا نذكر خبره الآن.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/٢٨٢).

(٢) انظر: الأضواء (٢/٣٤٦).

وقرأه السبعة غير ابن كثير وأبي عمرو: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بتشديد الزاي وفتح النون. مضارع نَزَّله يُنَزِّله. وقرأه ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾[1] أي: من الجنابة كما طهر باطنكم طَهّر لكم ظاهركم من الجنابة.

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: وسوسة الشيطان الذي أثقل عليكم بها: أنكم تصلون بالجنابة، وأنكم عطاش يهلككم العطش فيأخذكم العدو. أذهب عنكم بنزول ذلك الماء. أنزل ذلك المطر ليطهركم من الجنابة، وكل حدث أصغر وأكبر. ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: وسوسته التي كان يوسوس لكم بها.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ حيث أزال عنكم وسوسة الشيطان: أن العطش يُضعفكم، وأن القوم يأخذونكم حيث شربتم من ذلك المطر وتقويتم ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ معناه: يشدها ويقويها حيث أزال وساوس الشيطان التي أثقل عليكم بها.

﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ يعني: يثبت بالمطر أقدامكم علىٰ دهس الرملة؛ لأنها قبل المطر كانت تسوخ فيها الأقدام. وعلىٰ هذا القول أكثر المفسرين. وقال بعض العلماء[2]: الربط علىٰ القلوب وتثبيت الأقدام هنا: الربط على القلوب: هو تثبيت الجأش والشجاعة. وتثبيت الأقدام: هو تثبيتها في الميدان، وأن السبب المُسَبِّب لهذا هو الإمداد بالملائكة. وهذا يبعد من ظاهر القرآن، والذي عليه الجمهور: هو ما ذكرنا أن تثبيت الأقدام هنا تثبيت حسي؛ لأن المطر لبّد الأرض الدهسة فصارت الأقدام تثبت عليها ولا تسوخ فيها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

يقول الله جل وعلا: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ

---

(١) انظر: الإتحاف (٢/٧٧).

(٢) انظر هذا القول والرد عليه في ابن جرير (١٣/٤٢٧ ـ ٤٢٨).

ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ [الأنفال: الآية ١٢].

قال بعض العلماءِ: قوله: (إذ) بدل من (إذ) قبله. قالوا: قوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾ [الأنفال: الآية ١١] بدل من قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: الآية ٧] وقوله: ﴿إِذْ يُوحِى﴾ بدل من قوله: ﴿يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ﴾. وقال بعض العلماء: العامل في (إذ) ﴿إِذْ يُوحِى﴾ هو العامل في (إذ) المتكررة قبلها. وقال بعض العلماء: العامل فيه: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ١١] حين يوحي إلى الملائكة. وقال بعضهم: منصوب بقوله: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ﴾ [الأنفال: الآية ١١] أي: يثبتهم حين أوحى إلى الملائكة أن ثبتوا الذين آمنوا[1].

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الأنفال: الآية ١٢] يمكن أن يكون وحي إلهام، وأن يكون وحي إعلام، كل ذلك جائز للملائكة (صلوات الله وسلامه عليهم). يوحي إليهم الله: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ معيّة نصر وإعانة ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني النبي ﷺ وأصحابه يوم بدر. وتثبيت الملائكة لهم كان من جهات متعددة[2]: منها: أن الملائكة يلقون في قلوبهم الأمن والطمأنينة، كما يلقي الله الرعب في قلوب الكفرة. ومنها: أنهم يثبتونهم بالقتال معهم وإعانتهم؛ لأنهم بذلك يوقنون بالنصر فتقوى قلوبهم وتثبت أقدامهم. وقال بعض العلماء: كانوا يثبتونهم بغير ذلك، كان الملك يتمثل للناس بصفة رجل يعرفونه ويمشي بين الصفوف ويقول: أبشروا فإن الله ناصركم عليهم ومظهركم عليهم، وكان الملك يتمثل في صورة الرجل يعرفونه ـ كما قال به بعض العلماء ـ ثم يقول للمسلمين: أبشروا فإني سمعتهم يخافون منكم ويقولون: إنكم إن حملتم عليهم انكشفوا هاربين عنكم. لتقوى قلوب المؤمنين وتثبت، ويستحقرون الكفرة. هذا معنى قوله: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ

(١) انظر: الدر المصون (٥/٥٧٧).
(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٤٢٨)، القرطبي (٧/٣٧٨)، ابن كثير (٢/٢٩٢).

كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ كان بعض من شهد بدراً كافراً أسلم بعد ذلك، وكان الناس يسألونه ويقولون له: صِفْ لنا الرعب الذي ألقىٰ الله في قلوبكم يوم بدر. فيأخذ حصاة ويضربها على طشت من الحديد فيُسمع لها دويّ عظيم، فيقول: كنا نسمع مثل هذا في أجوافنا من شدة الخوف[١]؛ وهذا معنى قوله: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾.

قرأ هذا الحرف من السبعة: نافع، وابن كثير، وعاصم، وحمزة - كل هؤلاء الأربعة - من السبعة قرؤوا: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ بإسكان العين من قوله: ﴿ٱلرُّعْبَ﴾ وقرأه ابن عامر، وحمزة[٢]، والكسائي: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ الرُّعُب﴾ بضمتين. فالذي قرأ: (الرُّعُب) بضم العين: هو ابن عامر، وحمزة[٣]، والكسائي. والذي قرأ (الرُّعْب) بسكون العين: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم[٤]، هؤلاء الأربعة قرؤوا: (الرُّعْب) بسكون العين، وأولٰئك الثلاثة قرؤوا: (الرُّعُب) بضمتين[٥]. وهما لغتان فصيحتان وقراءتان صحيحتان.

والرعب شدة الخوف في قلوب الذين كفروا؛ لأن القلب هو محل الإدراك، وهو الذي يكون فيه الأمن ويكون فيه الخوف. وهذا معنى قوله: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾.

وقوله: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ المأمور بالضرب في قوله: ﴿فَٱضْرِبُوا۟﴾ أصله فيه وجهان معروفان[٦]:

أحدهما: أن المأمور به الملائكة، قال بعض العلماء: ما كان الملائكة يعرفون مَقَاتِلَ الضرب حتى علمهم الله ذلك يوم بدر فقال: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ

---

(١) ابن جرير (٨٨/١٤)، البيهقي في الدلائل (٨٠/٣)، (١٤٥/٥)، البداية والنهاية (٣٣٣/٤).

(٢)(٣) ذِكْر حمزة هنا وهم، وإنما قراءته بإسكان العين كما ذكر الشيخ قبل ذلك.

(٤) ومعهم حمزة.

(٥) انظر: السبعة ص٢١٧، المبسوط لابن مهران ص١٧٠.

(٦) انظر: القرطبي (٣٧٨/٧).

ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ وكون هذا الخطاب للملائكة (صلوات الله وسلامه عليهم) هو أظهر القولين؛ لأن ظاهر السياق يقتضيه؛ لأن هذا في الظاهر من جملة ما أوحي إلى الملائكة.

والقول الثاني: أن المأمور بقوله ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ المسلمون من أصحاب محمد ﷺ.

وقوله: ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ المراد بالفوقية هنا فيه أوجه معروفة للعلماء لا يكذب بعضها بعضاً[1]: أما الذين قالوا: إن لفظة (فوق) زائدة، وأن المراد: فاضربوا الأعناق، واستدلوا بقوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: الآية ٤] فهذا القول لا يجوز أن يقال به في القرآن؛ لأن لفظاً جاء في القرآن لا ينبغي لأحد أن يحكم عليه بأنه زائد لا معنى له.

وقال بعض العلماء: (فوق) هنا بمعنى (علىٰ) العرب تقول: «ضربته على عنقه، وضربته فوق عنقه» وعلى هذا القول فمفعول الضرب محذوف، أي: فاضربوهم فوق الأعناق، أي: فاضربوهم علىٰ الرقاب، وهذا قول ليس ببعيد.

وقال بعض العلماء: المراد بما فوق الأعناق: الرؤوس؛ لأن الرأس فوق العنق، قال: ومعناه فاضربوا رؤوسهم، والعرب معلوم أنها في الحرب تبادر لضرب الرؤوس، ويمدحون الرجال بضرب الرؤوس وفلق الهام، وهو معنى مشهور، كثير في كلام العرب وفي أشعارها، قال الشاعر[2]:

غَشَّيْتُه وهو في جَأْوَاءَ باسلةٍ عَضْباً أَصَابَ سَواءَ الرأسِ فانْفلقا

يفتخر بضرب الهام. ومنه قول عمرو بن الإطنابة[3]:

---

(١) انظر: ابن جرير (٤٢٩/١٣)، القرطبي (٣٧٨/٧).

(٢) البيت لبلعاء بن قيس، وهو في البحر (٤٧٠/٤)، الدر المصون (٥٧٩/٥).

(٣) البيتان في وفيات الأعيان (٢٤١/٥)، سير أعلام النبلاء (١٤٢/٣) مع اختلاف في بعض الألفاظ والبيت الثاني في اللسان (٣٩٠/٢)، الدر المصون (٥٧٩/٥).

أَبَتْ لي هِمَّتي وأَبَى إِبَائي وأَخْذِيْ المَجْدَ بالثمنِ الرَّبيحِ
وإقْدامي على المَكْروهِ نفسي وضَربي هَامةَ البطلِ المُشيحِ

والآخر قال[1]:

نُفَلِّقُ هَاماً من رجالٍ أَعِزَّةٍ علينا وهُم كانُوا أعَقّ وأَظْلَمَا

وضرب الهام مشهور في كلام العرب وفخرها وأشعارها، ومن مدح الرجل للفارس: هذا يضرب القوانس، وهذا يضرب القونس. والقوانس: جمع القونس، والقونس: هو مقدم البيضة من الحديد على رأس الفارس. وقال بعض العلماء: القونس على البيضة، وضرب القوانس: كناية عن ضرب الهام، وهي فوق الرقاب. ومن هذا المعنى قول امرىء القيس بن عابس الكندي[2]:

كلاَهُما كان رَئِيساً بَيْئَسَا يضربَ في يوم الهياج القَونسَا

ومنه شعر العباس بن مرداس ـ المشهور ـ السلمي[3]:

فَلَمْ أَرَ مثل الحي حياً مُصَبَّحاً ولا مثلنا يوم التقَيْنا فوارسَا
أكرّ وأَحْمَى للحقيقةِ منهمُ وأضرب منا بالسيوفِ القوانسَا

هذا قال به بعض العلماء، أن المراد بما فوق الأعناق: الرؤوس؛ لأن الرأس فوق العنق، أي: فاضربوا رؤوسهم وفَلِّقُوا هامهم. وأظهر الأقوال وأقربها للصواب ما قاله بعض العلماء: أن الله علّم الملائكة أو أصحاب النبي ﷺ حز الرؤوس، وبين لهم مفصل الرأس الذي يُطير الرأس عن الجثة، وأنه فوق الأعناق؛ لأن الرقبة المحل الذي تركب منه في الرأس هو مفصل للحز إذا ضربه الإنسان طار الرأس بسرعة، وكان ذلك أهون لإبانة الرأس؛ ولذا كانت العرب تفتخر بضرب القَمَاحِدِ، والقَمَاحِدُ جمع قُمْحُدَة

---

(١) البيت في ابن كثير (٢/٢٩٣).
(٢) مضى عند تفسير الآية (١٦٥) من سورة الأعراف.
(٣) مضى هذان البيتان عند تفسير الآية (١١٧) من سورة الأنعام.

وهو العظم الذي خلف الأذن؛ لأنه تحت عظم الرأس وفوق عظم الرقبة، وذلك وهو مفصل الرقبة وموضع حزها الذي يسهل به إطارة الرأس وإبانته عن الجثة كما هو معروف، ومن هذا المعنى قول الشاعر يمدح خالد بن الوليد رضي الله عنه[(١)]:

رأيت رجالاً من قريش كثيرةً ولم أرَ في القوم القيام كخالد
كَساكَ الوليدُ بن المغيرة مجده وعلَّمكَ الشيخان ضَرْبَ القَمَاحِدِ

والقَماحِد جمع القُمْحُدَة، وهي العظم الذي خلف الأذن؛ لأنه نازل عن عظم الرأس، مرتفع عن عظم الرقبة، محله من جوانب الرقبة محل المذبح، تسهل منه إبانة الرأس وإطارته عن الجثة، وهذا معنى قوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: الآية ١٢].

قال بعض العلماء: واحد البنان بنانة. والتحقيق أن البنان أطراف الأصابع، كما هو معناه المشهور في كلام العرب، والعرب يعرفون ضرب البنان؛ لأن الرجل إذا ضُرِبَ أطراف يده ـ أصابِعِهِ ـ بالسيف لا يقدر أن يحمل سيفاً ولا رمحاً، فبقي لا بأس فيه ولا نكاية عنده، من جاءه قدر على قتله. فالضرب الذي عُلِّمُوه على نوعين: إصابة المقاتل، وإصابة الشَّوَى، وهي الأطراف التي تمنع صاحبها من أن يفعل شيئاً، وكانت العرب تعرف هذا، ومنه قول عنترة بن شداد[(٢)]:

وكانَ فتى الهيجاءِ يَحْمي ذِمَارَهَا ويضربُ عند الكربِ كلَّ بَنَانِ

والعرب تسمي أطراف الأصابع: بناناً، ومنه قول عنترة أيضاً[(٣)]:

وإنَّ الموتَ طوعُ يدي إذا ما وصَلْتُ بنانها بالهندُواني

وما زعمه بعض علماء العربية من أن المراد بالبنان هنا يصدق بجميع

---

(١) البيت لحزن بن أبي وهب المخزومي. وهو في الإصابة (٣٢٥/١) مع اختلاف يسير في لفظ صدر البيت الأول، وبين البيتين بيت آخر.
(٢) البيت في القرطبي (٣٧٩/٧)، الدر المصون (٥٨٠/٥).
(٣) ديوانه ص١٤٨.

المفاصل وبالوجه والعينين، هو خلاف التحقيق المعروف من اللغة؛ لأن المعروف في اللغة: أن البنان أطراف الأصابع، بعضهم يقول: أطراف أصابع اليد. وبعضهم يقول: تدخل فيه أطراف أصابع الرِّجْل، والإطلاق المشهور: إطلاق البنان على أطراف أصابع اليد. والعرب تقول: «بنانٌ مُطَرَّف، ومُطَرَّفَة» إذا خضبت المرأة أطراف أصابعها بالحناء، وهذا هو المعنى المشهور المتعارف في كلام العرب، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي[١]:

بَدَا ليَ منها مِعْصَمٌ يَوْمَ جَمَّرَتْ وكَفٌّ خَضِيبٌ زُيِّنَت بِبَنَانِ

فوالله ما أدري وإني لحاسبٌ بسبع رميتُ الجَمْرَ أمْ بثَمَانِ

فقوله: «كف خضيب زُيِّنَتْ ببنان» أي: بأصابع. والبنان مؤنثة، وربما ذكَّرتها العرب نادراً، ومن تذكيرها النادر قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي أيضاً[٢]:

وأَرْسَلَتْ فَجَاءَني بنانُها المُطَرَّف

ولم يقل: المُطَرَّفَة، والمُطَرَّف: هو الذي خُضب أعاليه بالحناء، وهذا معنى قوله: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ [الأنفال: الآية ١٢].

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي ذاقوه من ضرب الأعناق، وضرب البنان، وتسليط الله عليهم أصحاب رسوله وملائكته، ذلك كله واقع بسبب أنهم ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ﴾. شاقوه: معناه خالفوه ولم يتبعوا أمره، بل كذبوا رسوله وتمردوا على أوامره، وعبدوا معه الأصنام، وجعلوا له الأولاد والأنداد، فالمشاقة في لغة العرب: المخالفة. وفلان وفلان في شقاق، أي: في خلاف. وقد تقدم إيضاحه في تفسير قوله: ﴿فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖ﴾ [البقرة: آية ١٣٧] أي: في خلاف، ومن المعنى قوله الشاعر[٣]:

---

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٧٦) من سورة الأنعام.

(٢) البيت في ديوانه ص٢٥٢.

(٣) البيت لبشر بن أبي خازم. وهو في الدر المصون (٢٧٦/٤).

وإلاَّ فـاعـلـمـوا أَنَّـا وأنـتُـم بـغـاةٌ مـا بـقـيـنـا فـي شِـقَـاقِ

قال بعض العلماء: أصل اشتقاق الشقاق من الشِّق؛ لأن المُتَخالِفَين المُتَعَادِيَيْن كل منهما يكون في الشق الذي ليس فيه الآخر. فقيل: هو من شَقِّ العصا بمعنىٰ الاختلاف، وقيل: هو من المشقة؛ لأن كلّا من المُتَخالِفَين المُتَعانِدَين يطلب لصاحبه الإيقاع في المشقات. فمعنى مشاقتهم لله: مخالفتهم لأوامره ونهيه وتكذيبهم رسله، وجعلهم له الأنداد والشركاء. وهذا معنى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: الآية ١٣] وشاقوا رسوله محمداً ﷺ، ثم قال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ﴾ الظاهر أن جواب الشرط في قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ﴾ محذوف، دل عليه قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ والتقدير: من يشاقق الله يعاقبه، فإن الله شديد العقاب لمن عاقب، والشدة: ضد اللين. والعقاب: هو التنكيل على الجريمة. قال بعض العلماء: سُمي عقاباً لأنه يأتي عقب الذنب من أجله. وهو معروف في كلام العرب، يقولون: عَاقِب هذا عقاباً ومعاقبة. أي: نَكِّل به لأنه عصاك أو أجرم إليك. وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول نابغة ذبيان يخاطب النعمان بن المنذر[1]:

ومـن عـصـاكَ فـعـاقِـبْـهُ مُـعَـاقَـبَـةً تَنهى الظلومَ ولا تَقْعُد على ضَمِدِ

والله (جل وعلا) هو شديد العقاب وحده، ولا عقاب هو العقاب الشديد إلا عقاب الله (جل وعلا)، فعلىٰ المسلمين أن يحذروا عقاب الله، ولا يتعرضوا لسخط الله الموجب لعقابه؛ لأن الله لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد؛ لأن أعظم جبار من ملوك الدنيا ليس في وسعه من التعذيب والتنكيل إلا قدر ما يستوجب الموت مرة واحدة، فإن شدد التعذيب على المُعَذَّب إلى قدر يقتل صاحبه عادةً مات وانتهى ذلك العقاب، أما خالق السماوات والأرض شديد العقاب فإنه ينكل المذنب بآلاف التنكيل المستوجبة للموت وصاحبه لا يموت. فهذا هو العقاب الذي لا ينقطع ولا ينجي منه موت، فهو الذي يجب أن يُحذر ويُخاف منه، وتتجنب أسبابه في

(١) مضى هذا الشاهد عند تفسير الآية (١٦٧) من سورة الأعراف.

دار الدنيا وقت إمكان الفرصة، والله (جل وعلا) يقول: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: الآية ١٧] ويقول تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: الآية ٥٦] هذا هو العذاب الذي يُخشى، والعقاب الذي يجب على (. . .)[1]/ لأن الأمر كله بيد الله؛ ولأجل فهم النبي ﷺ لهذا كان يكثر في دعائه: (**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**)[2]. ١/٣

اعلموا كُلّا أيها الناس أن قلوبكم بيد خالقكم (جل وعلا) يُصرفها كيف شاء، يوفق من شاء، ويضل من شاء ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: الآية ٨٨] وعلينا معاشر المسلمين أن نتفهم في هذه الآية، وأن نبتهل ونتضرع إلى ربنا أن يُثبتنا، وأن لا يزيغنا، وأن لا يُحوِّل قلوبنا إلا لما يرضيه (جل وعلا)؛ لأن هذه الآية يخافها العاقل جداً، فقد جاء عن النبي ﷺ أن كل إنسان قلبه بين أصبعين من أصابع الرحمٰن (جل وعلا) يصرفه كيف يشاء[3]. فيا مقلب القلوب، مثبت من شاء، ومضل من شاء، وهادي من شاء، ومضل من شاء؛ [ثبت قلوبنا على دينك][4] ولذا أثنىٰ (جل وعلا) على عباده الراسخين في العلم بأنهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ﴾ [آل عمران: الآية ٧] إلىٰ أن قال عنهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران: الآية ٨].

ومعنىٰ: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: الآية ٢٤] إنما عبر بالقلب لأن القلب محل العقل الذي به الإدراك، لا كما يقوله الملاحدة: إن محله الدماغ[5]. يحول بينه وبين قلبه فيصرف قلبه حيث شاء، وكيف شاء، يصرفه من هُدىٰ إلىٰ ضلالة، ومن ضلالة إلى هدىٰ، قال بعض العلماء[6]:

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وما بعده متعلق بتفسير الآية رقم (٢٤).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٠) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

(٤) ما بين المعقوفين [ ] زيادة يقتضيها السياق.

(٥) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

(٦) انظر: القرطبي (٣٩١/٧).

وكذلك يصرفه من أمنٍ إلى خوف، ومن خوف إلىٰ أمن، كما نقل قلوب أصحاب النبي ﷺ من الخوف إلىٰ الأمن، وقلوب الكفرة من الأمن إلى الرعب والخوف الذي ألقاه في قلوبهم، والأول هو الصحيح في معنى الآية؛ لأن هذه الآية تدل علىٰ أن الأمور كلها بيد الله، وأنه يصرف القلوب كيف يشاء، فيهدي من يشاء هداه، ويضل من يريد إضلاله.

وما يزعمه المعتزلة من أن الله لا يريد الشر، وأن العبد يخلق معاصيه باستقلال مشيئة العبد وقدرته مذهب لا يخفىٰ سقوطه علىٰ عاقل، فإن خالق السماوات والأرض لا يمكن أن يكون في ملكه شيء إلا بمشيئته وقدرته جل وعلا.

﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٢٤] ﴿وَأَنَّهُۥٓ﴾ أي: الله ﴿إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ وحده. الحشر في لغة العرب معناه: الجمع. تقول: حشر الإمامُ العلماءَ أي: جمعهم، وحشر الناس أي: جمعهم. ومنه قوله: ﴿وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١١١] أي: جامعين يجمعون لك السحرة. فالحشر في لغة العرب: الجمع. والناس كلهم يُجمعون يوم القيامة إلى رب السماوات والأرض كما قال: ﴿وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ [الكهف: الآية ٤٧] وقد بين في سورة الأنعام أنه يحشر جميع الدواب والطير وجميع ذلك كله، يحشرهم ويجمعهم يوم القيامة، كما تقدم في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام: الآية ٣٨] فكما أنه يحشر الناس كذلك يحشر الدواب والطير وغير ذلك. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

(. . .)[1] وهذه الآية جاءت ناهية عن ذلك، مبينة أن الناس إذا رأوا المنكر يُرتكب علناً ولم يغيروه وهم قادرون على أن يغيروه أن الله يعم الجميع بعذاب من عنده، ولا يصيب ذلك خصوص الذين ظلموا وارتكبوا المعاصي، بل يصيب الجميع، هؤلاء بمعصيتهم، وهؤلاء بسكوتهم على المعصية وعدم نهيهم عنها. هذا الذي عليه جمهور المفسرين.

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل والكلام الآتي يتعلق بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ [الأنفال: الآية ٢٥] قد قدمنا في هذه الدروس مراراً أن الفتنة أُطلقت في القرآن إطلاقات متعددة[1]:

أُطلقت الفتنة بمعنى الابتلاء. وهذا أكثر إطلاقها، ومنه قوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: الآية ٣٥] أي: ابتلاء، ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: الآيتان ١٦ ـ ١٧] أي: لنختبرهم، ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: الآية ١٥] أي: امتحان وابتلاء واختبار.

وأصل الفتنة في لغة العرب[2]: هي الوضع في النار، تقول العرب: «فتنت الذهب» إذا وضعته في النار وأذبته فيها ليظهر أخالص هو أم زائف. ولذا كان أحد إطلاقات الفتنة: هي الإحراق بالنار، ومنه بهذا المعنى قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: الآية ١٣] أي: يُجعلون فيها ويحرقون فيها، ومنه على أصح التفسيرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: الآية ١٠] أي: أحرقوهم بنار الأُخدود.

وتُطلق الفتنة على نتيجة الاختبار إن كانت سيئة خاصة، ومن هنا أُطلقت الفتنة على الكفر وعلى المعاصي، كما قال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: الآية ١٣] أي: لا يبقى شرك على وجه الأرض، كما يدل له قوله ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**»[3]. وجاء في سورة الأنعام إطلاق الفتنة على الحجة في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: الآية ٢٣] وفي القراءة الأخرى: ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾[4] (...)[5] وهذا معنى قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾. ودخول نون

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى تخريجه في الموضع السابق.

(٤) مضت عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأعراف.

(٥) في هذا الموضع انقطع التسجيل.

التوكيد على ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ [مع أنه في غير قسم، ولا طلب، ولا شرط، فيه سؤال معروف،][1] واختلف علماء العربية في توجيهه[2]، والذي يظهر أنه يُفهم من هذا أن نون التوكيد تدخل في مثل هذا الأُسلوب، إذ لا حاجة إلىٰ التعسفات التي يرتكبها من يريد الجواب عن هذا، مع أن القرآن في أعلىٰ درجات الإعجاز.

و ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ معناه: ارتكبوا المعاصي فظلموا أنفسهم.

﴿خَآصَّةً﴾ أي: في حال كونها خاصة بهم لا تتعداهم إلىٰ غيرهم؛ بل هي تتعداهم إلى غيرهم، أي: لا تصيب خصوصهم بل تعمّ وتصيب الجميع. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ العقاب: هو النكال علىٰ الذنب، قيل: سُمي عقاباً لأنه يأتي عَقِبَه من أجله.

فعلينا معاشر المسلمين أن نتفهم هذه الآية، وأنّا إذا رأينا السفهاء ومن لا يطيعون الله يتعالنون بمعاصي الله أن نغيرها بحسب استطاعتنا؛ لئلا يعُمنا الله بعذاب من عنده، وقد بين النبي ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) مراتب تغيير المنكر فقال: «**من رأىٰ منكم منكراً فليغيره بيده؛ فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وهو أضعف الإيمان**»[3].

فمن قدر منا أن يُغير بيده فليغير بيده، ومن لم يقدر على التغيير باليد فباللسان، ومن عجز عن ذلك كله فبالقلب، وهو أضعف الإيمان. ويوشك أن المعاصي إذا لم تزل تُرتكب ولا ينهى عنها أحد أن ينزل عذاب من الله

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) انظر: الدر المصون (٥/٥٨٩ ـ ٥٩٣).

(٣) مسلم في الإيمان، باب (بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص..) حديث رقم: (٤٩) (١/٦٩).

عام يعم الصالح والطالح، والعاجز حقيقة يبعثه الله على نيته، ولا يناله شيء من إثم أولئك الآثمين، إلا أن العذاب وقت نزوله يعم الجميع كما جاءت الأحاديث بذلك. وهذا معنى قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال: الآية ٢٥] كونه شديد العقاب فيه تحذير شديد وتخويف لمن يُقصر في امتثال أمره واجتناب نهيه، فليس للمسلم أن يُقصر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: الآية ٢٦].

[أي: واذكروا حين كان][1] عددكم قليل جداً مستضعفون في الأرض، أي: يستضعفكم أعداؤكم، يرونكم ضعفاء، ويعاملونكم معاملة القوي للضعيف، وهذا قبل هجرة النبي ﷺ؛ لأنهم كانوا في [مكة][2] قبل الهجرة عددهم قليل، والكفار يستضعفونهم، ويضربونهم، ويعذبون بعض أصحاب رسول الله ﷺ، وكانوا مختفين في دار الأرقم بن أبي الأرقم قبل إسلام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وكان لهم بعض عزة نسبياً بإسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما). واذكروا نعمة الله وتذكروا ما نقلكم به من حال الضعف إلى حال القوة، ومن حال القلة إلى حالة الكثرة، وتذكروا هذا الإنعام لتشكروا لمن أنعم عليكم به. وهذا معنى قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ القليل: ضد الكثير، والمستضعف: الذي يراه غيره ضعيفاً ويعامله معاملة القوي للضعيف.

﴿فِي الْأَرْضِ﴾ هي: أرض مكة التي كانوا فيها قبل الهجرة.

﴿تَخَافُونَ﴾ الخوف في لغة العرب: هو الغم من أمر مستقبل. والحزن

---

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) في الأصل: «المدينة» وهو سبق لسان.

في لغة العرب: الغم من أمر فائت[١] ـ أعاذنا الله منهما ـ وربما وضعت العرب الخوف في معنىٰ الحزن، والحزن في معنىٰ الخوف.

﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [الأنفال: الآية ٢٦] التخطف: هو أن يقع منهم الخطف مرة بعد مرة. والخطف في لغة العرب معناه: الأخذ بسرعة، فكل ما أخذته بسرعة شديدة فقد خطفته ﴿أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ لقلتكم وضعفكم ليست لكم مناعة بكثرة ولا بقوة، فالناس قادرون على أن يتخطفوكم ويأخذوكم بسرعة واحداً واحداً فيقتلوكم.

﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ جل وعلا، أي: ضمكم إلى عزة ومنعه بأن ضمكم إلى هذه المدينة ـ حرسها الله ـ وقواكم بالأنصار، هداهم فأسلموا، وكان لكم محل مأوى وقوة.

﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ العرب تقول: «أَيَّدَهُ» إذا قَوَّاه. و«رجل أَيِّدٌ». معناه: قوي، و (الأَيْد) في اللغة و (الآد) معناه: القوة[٢]، ومنه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات: الآية ٤٧] أي: بقوة. فليست من آيات الصفات. ووزن (أَيْد): (فَعْل)[٣]، أما (الأيدي) التي هي جمع (يَد) فوزنها بالميزان الصرفي (أَفْعُل)[٤]، فوزن قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ أَيْد معناه: (فَعْل) من (أَيَدَ) بمعنىٰ: القوة، والعرب تقول: «فلان أَيِّد» أي: قوي، و«رجل ذو أَيْد وآد» أي: ذو قوة ﴿وَأَيَّدَكُم﴾ قواكم بنصره.

والنصر في لغة العرب: إعانة المظلوم. نصرهم الله بالأنصار، وقواهم بكثرة المؤمنين وقوة شوكتهم، وبما أوقع بالكفار يوم بدر، وبإنزال الملائكة تثبتهم، وتلقي الرعب في قلوب عدوهم. وهذا معنىٰ قوله: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ كأن في الكلام محذوفاً دل المقام عليه ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فقراء لا

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.
(٢) انظر: القاموس (مادة: آد) ص٤١.
(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص٤١.
(٤) السابق ص٢٩٤.

أموال لكم ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ الله وقواكم بنصره وجعل لكم الأموال ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ كما رزقكم بغنائم يوم بدر، وهو مال طيب أطابه الله لهم بعد أن لامهم عليه لوماً شديداً، وقال: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٨] ثم قال بعد ذلك: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: الآية ٦٩] وهي الطيبات التي رزقهم ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٢٦] لله نعمه.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً[1] أن الشكر في القرآن يُطلق من الرب لعبده، ويُطلق من العبد لربه.

فإطلاق الشكر من الرب لعبده كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: الآية ٣٤] ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ١٥٨].

وإطلاقه من العبد لربه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: الآية ١٣] ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: الآية ١٨٥].

فشكر الرب لعبده معناه: أن يُثيبه الثواب الجزيل من عمله القليل.

وشكر العبد لربه قال بعض العلماء: ضابطه المنطبق على جزئياته: هو أن يستعمل جميع نعم الله فيما يرضي الله، فهذه العيون التي فتحها في أوجهكم تبصرون بها، نعم عظمىٰ منه إليكم، فشكرها: أن لا تستعملوها إلا في طاعة الله، ولا تنظروا بها إلا فيما يرضي من خلقها ومنّ عليكم بها، وهكذا الأيدي والأرجل وسائر النعم. أما العبد المسكين الضعيف الذي يُنعم عليه خالق السماوات والأرض بنعمه ثم يصرف نعمه فيما يسخطه ويغضبه فهذا مجنون. وهذا معنىٰ قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لأجل أن تشكروا علىٰ ذلك الإنعام.

ثم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ قال جماعة من المفسرين[2]: نزلت هذه الآية الكريمة في أبي

---

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٣) من سورة البقرة.

(٢) انظر: القرطبي (٣٩٤/٧)، ابن كثير (٣٠٠/٢).

لبابة بن عبد المنذر الأوسي الأنصاري (رضي الله عنه)، كان بنو قريظة حلفاء الأوس من الأنصار، وكان أبو لبابة صديقاً لهم، وكان في بني قريظة أمواله وأهله، فلما حاصر النبي ﷺ بني قريظة وأرادوا أن يُحكّموا فيهم سعد بن معاذ (رضي الله عنه) قال بنو قريظة ـ أرسلوا ـ للنبي أن يرسل إليهم أبا لبابة بن عبد المنذر (رضي الله عنه)، وكان مناصحاً لقريظة يثقون فيه أشد الثقة، فلما جاءهم استشاروه: هل ينزلون على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار بيده إلى حلقه، يعني: أنه الذبح إذا نزلتم على حكمه. قال أبو لبابة (رضي الله عنه): والله ما برحت قدماي مكانهما حتى علمت أني خنت الله ورسوله وخنت أمانته. فندم أبو لبابة (رضي الله عنه) ندماً شديداً، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ، فرجع من قريظة إلى هذا المسجد الشريف ـ مسجد رسول الله ﷺ ـ فربط نفسه في سارية من سواري هذا المسجد، وحلف بالله أن لا يأكل ولا يشرب حتى يموت أو يتوب الله عليه، فمكث سبعة أيام لا يأكل ولا يشرب حتى خرّ مغشياً عليه، فأنزل الله التوبة عليه، وقيل له: «تيب عليك فحُل عنك الرباط» فقال: «والله لا أحله ولا يُحله عني غير رسول الله ﷺ» فجاء فحله عنه[1].

وكان بعض العلماء يقول: إن الآية التي تاب الله عليه فيها هي التي بعد هذه وهي قوله: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٢٩] فهو قد اتقى الله بالندم على ما فات منه، ونية أن لا يعود، وتأنيبه نفسه على الزلة التي صدرت منه بالعطش والجوع حتى خرّ مغشياً عليه، واعترافه بما وقع منه، وجعل الله له فرقاناً أي:

---

(١) روى هذا الحديث جماعة منهم:

١ ـ الزهري. عند ابن جرير (٤٨١/١٣). وعزاه في الدر (١٧٨/٣) لسنيد.

٢ ـ عبدالله بن أبي قتادة مرسلاً (مختصراً). عند ابن جرير (٤٨٢/١٣)، وابن أبي حاتم (١٦٨٤/٥)، وعزاه في الدر (١٧٨/٣) لسعيد بن منصور، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبي الشيخ.

٣ ـ الكلبي. وعزاه في الدر (١٧٨/٣) لعبد بن حميد.

٤ ـ السدي. وعزاه في الدر (١٧٨/٣) لأبي الشيخ.

وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٢٣٥ من غير تعيين راويه.

مخرجاً من ذلك بأن تاب عليه كما يأتي في شرحها. وهذا معنىٰ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: الآية ٢٧] خيانة الله: هي تقصيرهم في امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وخيانة الرسول: هي التقصير في طاعته كهذا الصحابي الذي أفشىٰ سره إلى يهود بني قريظة، فقد خان الله ورسوله ثم تاب الله عليه.

﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ لأن جميع التكاليف كلها أمانات عند المكلفين كما سيأتي إيضاحه في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: الآية ٧٢].

وكان بعض العلماء يقول(١): الأمانات: أوامر الله ونواهيه التي لا يطّلع عليها أحد ولا يعلمها إلا هو؛ لأن الإنسان في بيته قد تكون عليه الجنابة لا يعلم بها الناس، وقد يكون عليه الحدث، وقد يجيء المسجد ولم يغتسل ولم يصل، وقد يغتسل وقد يصلي. هذه أمانات أمَّنها الله عند هذا لا يعلمها إلا هو، فليس عليه أن يخونها.

والتحقيق: أن الأمانة تشمل جميع التكاليف.

٣/ب / [وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: الآية ٢٨].

نزلت هذه الآية في أبي لبابة (رضي الله عنه) حين قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار](٢) بيده إلى حلقه أنه الذبح إن نزلتم على حكم سعد بن معاذ (رضي الله عنه). كان سبب ذلك أن أولاده وماله في بني قريظة فأشفق علىٰ أولاده وماله، فأنزل الله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ أيها الناس ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(٣) أي: ابتلاء واختبار كما أوقع الأموالُ والأولادُ ـ

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٤٨٥).

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وما بين المعقوفين [ ] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) في الروايات التي وقفت عليها أن الآية النازلة فيه هي الآية قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ...﴾. وذلك أنه كان حليفاً لهم، فلما قدم إليهم قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقّ لهم... إلخ.

الإشفاقُ عليهم ـ أوقع أبا لبابة في الزلة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أجر الله أعظم من الأموال والأولاد، فما عند الله خير من غيره، وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [الأنفال: الآية ٢٨].

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: الآيات ٢٩ ـ ٣٣].

يقول الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ [الأنفال: الآية ٢٩] نادىٰ الله المؤمنين في هذه الآية الكريمة باسم الإيمان، وبين لهم أنهم إن اتقوا الله فامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه أنه يجعل لهم بسبب ذلك فرقاناً فيغفر لهم الذنوب ويكفر عنهم السيئات ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أيها المؤمنون بامتثال أمره واجتناب نهيه ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ روى ابن وهب وابن القاسم عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة (رحمه الله) أنه سُئل عن قوله: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ قال: معناه يجعل لكم مخرجاً. وتلا قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾[1] [الطلاق: الآية ٢] والعرب تسمي المخرج من الشيء: فرقاناً. كأنه مصدر زيدت فيه الألف والنون؛ لأن من كان في كرب من كروب الدنيا أو الآخرة وقد فارقه ووجد منه مخرجاً كأنه وجد فارقاً يفرق بينه وبينه ويفصل بينه وبينه. وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومن إطلاق الفرقان بمعنىٰ المخرج قول الراجز[2]:

---

(١) انظر: القرطبي (٣٩٦/٧).

(٢) البيت في السابق.

ما لَكَ من طول الأسى فرقانُ بعد قَطِين رحلوا وبانوا

أي: ما لك من طول الأسى مخرج، ومنه قول الآخر[(١)]:

وكيف أُرَجِّي الخُلد والموتُ طالبي وما لي من كأس المنية فرقانُ

أي: ما لي من الموت مخرج ولا بد.

وقال بعض العلماء: ﴿فُرْقَانًا﴾: نصراً وتأييداً؛ لأن الله سمى يوم بدر: (يوم الفرقان) في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] لأنه يوم نصر فَرَقَ الله به بين الحق والباطل بأن نصر الفئة المؤمنة القليلة على الفئة الكافرة الكثيرة.

قال بعض العلماء: فرقاناً: فتحاً.

وقال بعض العلماء: يجعل الله لكم بسبب تقوى الله فرقاناً، أي: علماً تُفرِّقُون به بين الحق والباطل، والحسن والقبيح. والأقوال متقاربة[(٢)]. وتقوى الله (جل وعلا) كفيلة بكل خير من خيري الدنيا والآخرة ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٢٩] مادة الكاف والفاء والراء في لغة العرب أصل معناها: الستر والتغطية[(٣)]. فمعنى: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: يسترها ويغطيها بحلمه وعفوه حتى لا يظهر لها أثر تتضررون به ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ كذلك الغفران معناه أيضاً: الستر والتغطية؛ لأنه (جل وعلا) يغفر الذنوب، أي: يسترها ويغطيها[(٤)]. فالتعبير بالتكفير والغفران كلاهما معناه ستر الذنوب وتغطيتها حتى لا يظهر لها أثر. وفي ذلك التوكيد من الترغيب في التقوى ما لا يخفى، ﴿وَٱللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ففضله عظيم، ومن فضله ما تفضل عليكم به، وما نصركم به يوم بدر، وغير ذلك من فضله وإنعامه العظيم. قال بعض علماء التفسير: هذه الآية

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: الأضواء (٣٤٩/٢).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٤) مضى عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأعراف.

الكريمة من سورة الأنفال هي التي نزلت فيها توبة الله على أبي لبابة لما قال ما قال لبني قريظة، وجاء تائباً إلىٰ الله نادماً، وربط نفسه في سارية من سواري هذا المسجد الكريم، وحلف أن لا يأكل ولا يشرب حتى يموت أو يتوب الله عليه، وأُغشي عليه بعد سبع فتاب الله عليه، قالوا: هذه فيها توبته؛ لأنه اتقَى الله بالندم على ما فات، والإقلاع، وربطه نفسه، واعترافه بالزلة، فجعل الله له من زلته في بني قريظة فرقاناً، أي: مخرجاً أخرجه به من مأزق الذنب. وتاب عليه (جل وعلا)، هكذا قاله بعض العلماء والله تعالى أعلم. وهذا معنى قوله: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: الآية ٢٩] فضله عظيم على خلقه إذ يتفضل عليهم بخيرات الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: الآية ٣٠].

قال بعض العلماء: هذه الآية من سورة الأنفال مكية[1]، مع أن الأنفال مدنية. والأظهر أن هذه الآية كغيرها من سورة الأنفال مدنية؛ وذلك أن الله لما فتح على نبيه، ونصره يوم بدر، وأنزل سورة الأنفال في وقعة بدر، ذكَّر نبيه بنعمه الماضية عليه في مكة قبل هجرته منها، وعرَّفه إنعامه عليه حيث أنجاه من مكر أعدائه ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: الآية ٣٠]. واذكر يا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أيام كنت في مكة بعد أن مات عمك الذي كان ينصرك ويحوطك، وهو أبو طالب، وتمكنت قريش من أن يؤذوك ويخرجوك، ودبروا لك ذلك المكر العظيم، اذكر إنعامي حيث مكرتُ بهم وجعلتها عليهم لا لهم. واذكر إذ ﴿يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ المكر: المكيدة، وهو إخفاء الكيد ليوصل الشر إلى الممكور به في خفاء.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كفار مكة؛ وذلك أن أشراف قريش اجتمعوا في دار

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٥٠٢).

الندوة يتشاورون في أمر محمد ﷺ، وجاءهم شيخ في صفة شيخ جليل، فقالوا له: ممن أنت؟ فقال: أنا شيخ من أهل نجد، وهو الشيطان، تمثل لهم في صورة ذلك الشيخ، قال لهم: لست من أهل تهامة وإنما أنا من أهل نجد ـ وكان أهل نجد في ذلك الوقت كفاراً، وقريش يثقون فيهم لكفرهم، وأن الجميع على ملة واحدة ـ قال لهم إبليس في صفة ذلك الشيخ اللعين: سمعت أنكم تجتمعون لتتشاوروا في رأي هذا الرجل فجئتكم، ولا تعدمون مني رأياً حسناً في هذا الأمر.

فقال بعض قريش ـ فقالوا: ممن قاله: أبو البختري ـ: خلونا نكبله بالحديد، ونسجنه في دار، ونقفل بابها، ولا تترك إلّا كوة ندخل إليه منها الطعام والشراب ونتربص به الدوائر حتى يموت كما مات من قبله من الشعراء، زهير والنابغة وأمثالهم من الشعراء، وفي ذلك يقول الله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: الآية ٣٠] وهذا الرأي هو المراد بقوله: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] أي: يكبلوك بالحديد ويسجنوك ويتربصوا بك الدوائر حتى تموت.

وقال بعضهم ـ ويروى أن ممن قاله هشام بن عمرو ـ: اطردوه عنا، نجعله على بعير ونبعده من أرضنا وما علينا ما فعل.

فلما قال أبو البختري الرأي الأول قال له ذلك الشيخ الذي في صورته الشيطان: بئس الرأي رأيك، هذا ليس برأي؛ لأنكم إن أثبتموه بقيود الحديد وأغلقتم عليه الأبواب جاء قومه فأخرجوه وقاتلوكم عليه حتى يخرجوه، وهذا ليس برأي.

فلما قال الثاني: نبعده ونطرده من بلادنا وما علينا فيما فعله هو وسائر العرب. فقال ذلك اللعين: بئس الرأي الذي رأيت، أنتم تعلمون حلاوة لسانه، واستجلابه لقلوب الناس، فإذا خرج عنكم فلا يأمن أن يأخذ بقلوب الناس حتى يكونوا تبعاً له، ثم يغزوكم في بلادكم.

فقال اللعين عمرو بن هـ ام بن المغيرة المعروف بأبي جهل: الرأي عندي الذي لا رأي غيره: أن تأخذوا من كل قبيلة من قريش شاباً، وتعطوه

سيفاً صارماً، فيأتيه ذلك الشباب من جميع قبائل قريش فيبتدرونه فيضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في قبائل قريش، ولا أرى هذا الحي من بني هاشم يقدرون على محاربة جميع قريش، فعند ذلك سيرضون بالدِّية، فإذا رضوا بديته دفعنا لهم عقله واسترحنا منه.

فقال ذلك اللعين: هذا هو الرأي الذي لا رأي غيره، أما هذا الفتى فهو أجودكم رأياً. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: بالسجن وقفل الأبواب عليك ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ إلى غير مكة من البلاد ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ قتلة رجل واحد حتى يتفرق دمك في قبائل قريش. ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ هذا المكر ليوصلوا إليك الشر في خفية. ﴿وَٱللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] ـ مكر لك بهم، وأخرجك، ونجاك، وأظفرك بهم يوم بدر حتى قتلتهم وأسرتهم، هذا مكرهم وهذا مكر الله.

ولما أجمعوا على هذا الرأي، واتفقت عليه كلمة الجميع، جاء جبريل إلى النبي ﷺ فأخبره بجميع ما قالوا، وقال له: «لا تَبِت الليلة في موضع مبيتك» فنادىٰ علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وأمره أن ينام في المحل الذي كان ينام فيه رسول الله ﷺ، وخرج رسول الله، وقريش محدقون بمنزله، ينتظرون أن يخرج فيقتلوه القتلة التي أشار عليهم بها أبو جهل وإبليس، فأعمى الله عيونهم، وخرج رسول الله ﷺ، وهو يقرأ أوائل سورة (يس) وفي يده تراب، فَذَرَّ التراب على رؤوسهم ويقرأ إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[1] [يس: الآية ٩] وأذن له في ذلك الوقت في الهجرة فخرج هو وصاحبه إلى الغار، فانتظر قريش حتى الصبح، فوثبوا عليه ليقتلوه، فوجدوا المكان فيه علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) فقالوا: أين صاحبك؟ قال: لا أدري!! فاقتصوا أثره حتى جاؤوا الجبل الذي فيه الغار فخفي عليهم أثره، وجاؤوا الغار، قال بعض علماء السير: فوجدوا

---

(١) مصنف عبدالرزاق (٣٨٩/٥)، الطبقات لابن سعد (١٥٣/١)، تاريخ الطبري (٢٤٢/٢)، تفسير الطبري (٢٩٤/١٣، ٤٩٨)، السيرة لابن هشام ص٥٠٢.

على الغار نسج العنكبوت[١]، فقالوا: لو دخل هنا لما كان على الغار نسج العنكبوت، ومكث هو وصاحبه في الغار ثلاث ليال ـ كما قاله بعضهم ـ واتفقوا مع عبد الله بن الأريقط من بني دُئل من كنانة، وأعطوه مراكبهم، وجاءهم في الوعد؛ لأنهم في ذلك الوقت محتاجون إلى دليل خبير بالأرض فيما بين مكة والمدينة؛ لأن الطرق السابلة المعروفة عليها العيون والرصد؛ لأن قريشاً جعلت الجعائل والأموال الطائلة لمن يأتيها بمحمد ﷺ، فصار يحتاج إلى أن يمشي في طرق غير معهودة، وسبل غير معروفة، فآجر لذلك عبد الله بن الأريقط الدئلي، فلما كان بالموعد وأيس قريش من أن يجدوه ورجعوا جاءه فركبوا، وأخذ بهم طرقاً غير الطرق المعهودة فلم يطلع عليهم أحدٌ من العرب، حتى مروا ببلاد بني مدلج بن بكر بن كنانة، ذكرهم أحد فقال: أخاف أن يكون هو الرجل الذي يطلبه قريش. فقال له سراقة بن مالك بن جعشم (رضي الله عنه): ليس هو. يريد أن يستأثر بأخذه؛ ليأخذ المال من قريش، فركب على فرسه في أثرهم، وقصته مشهورة، وعلماء التاريخ يقولون: إن فرسه ساخت به في الأرض، وكاد أن تبتلعه الأرض مرات، وأنه طلب النبي ﷺ أن يكتب له أماناً[٢] ورجع خائباً لم ينل النبي ﷺ بسوء. وسافر في الهجرة، ومر في سفره هذا بالجحفة، ونزلت عليه في الطريق في الجحفة آية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾[٣] [القصص: الآية ٨٥] حتى جاء الأنصار (رضي الله عنهم). وهذا

---

(١) قصة نسج العنكبوت هذه أخرجها أحمد (٣٤٨/١)، وعبد الرزاق (٣٨٩/٥)، وابن سعد (١٥٤/١)، وابن جرير في التفسير (٤٩٧/١٣). وقد حسنها الحافظان: ابن كثير وابن حجر. انظر: البداية والنهاية (١٨١/٣) وقال: «وهذا إسناد حسن، وهو من أجود ما رُوي في قصة نسج العنكبوت على فم الغار» ا.هـ. يعني إسناد الإمام أحمد. وانظر الفتح (٢٣٦/٧)، أحاديث الهجرة ص١٣٨ ـ ١٤٠.

(٢) البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم. حديث رقم: (٣٦٥٢) (٨/٧). وأخرجه في موضعين آخرين، انظر الحديثين رقم: (٣٩٠٦، ٣٩٠٨). ومسلم في الزهد والرقائق، باب في حديث الهجرة. حديث رقم: (٢٠٠٩) (٢٣٠٩/٤). كما أخرجه في موضع آخر قبله (١٥٩٢/٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن الضحاك مرسلًا (٣٠٢٦/٩). وانظر ابن كثير (٤٠٢/٣ ـ ٤٠٣).

معنى قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٠].

وفي قصة الهجرة هذا دليل يبين للناس ويوضح لهم حقيقة أمر ضل فيه الآن أكثر الناس؛ لأن غالب الناس الآن ـ وإنا لله وإنا إليه راجعون ـ اجترفتهم التيارات، فذهبوا يقلدون كل ناعق من كفرة الإفرنج وملاحدتهم؛ لأنهم رأوا عندهم بعض القوة المادية وبعض الصنائع، ولو كانوا يقتفون أثر رسول الله ﷺ ويعلمون كيف كان يفعل لعرفوا ما يأخذون من ذلك وما يتركون؛ لأن المسلمين يجوز لهم أن يأخذوا من الكفار ما ينفعهم من علوم الكفار الدنيوية، وألّا يتبعوهم في شيء مما يمس دينهم وطاعة ربهم ـ جل وعلا ـ وهذا النبي ﷺ لمّا تكالبت عليه قوى الشر، واتفق الكفار وشيخهم إبليس على أن يمكروا به، واضطر إلى خبير له خبرة بالأرض، ووجد رجلًا كافراً هو عبد الله بن الأُريقط لم يمنعه كفره من أن يستفيد من خبرته الدنيوية، فاستفاد من خبرته حتى أوصله المدينة بسلام، ومع ذلك لم يأخذ عنه من الكفر شيئاً، بل هو مرضٍ ربه. فعلى المسلمين أن يعتبروا بأمثال هذا، وينتفعوا من الكفار بخبرتهم الدنيوية، ولا يتبعوهم فيما يضر دينهم ويسخط ربهم. وأمثال هذا كثيرة، وسنضرب لكم بعض الأمثلة منها:

من ذلك ما يأتي في تفسير سورة الأحزاب من تفاصيل وقعة الخندق وأن النبي ﷺ فيما يذكره الأخباريون لما سمع بمقدم أهل الأحزاب قال له سلمان الفارسي: كنّا إذا خفنا خندقنا[1]. والخندق هذا هو خطة عسكرية ابتدعتها أفكار الفرس، وهم قوم يعبدون النار، فالنبي ﷺ لعلمه ومعرفته بالخير والشر لم يمنعه من هذه الخطة العسكرية أن الذين اخترعوها كفرة، بل انتفع بعلم الكفرة الدنيوي وخَنْدَق، مع أنه لا يقلدهم في شيء يضر بدينه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

ومن أمثلة ذلك ما ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه هَمَّ أن

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

يمنع وطء النساء المراضع؛ لأن العرب كانوا يزعمون أن الرجل إذا أتى امرأته في رضاعها أن ذلك يُضعف ولدها، ويضعف عظمه، وكانوا إذا ضرب الرجل ونبا سيفه عن الضريبة ولم يقطع قالوا: هذا وُطئت أمه وهو يرضع؛ لأن الغيلة تضعف الرجال، وكان شاعرهم يقول[١]:

فَوارسُ لم يُغالُوا في رَضَاعٍ فَتَنْبُو في أكُفِّهِم السُّيُوفُ

فأخبرته فارس والروم أنهم يفعلون ذلك ولا يضر أولادهم[٢]. فأخذ هذه الخطة الطبية من فارس والروم وهم كفرة، وأخذ تلك الخطة العسكرية من الفرس وهم كفرة، وانتفع بخبرة ذلك الخبير الكافر وهو كافر.

وهذا يعلمنا أن نفرق بين حضارة الإفرنج ـ عليهم لعائن الله ـ ونفصل بين ضارها ونافعها، فننتفع بنافعها وهو منافعها الدنيوية، ونجتنب سمومها الفتاكة القاتلة، وهي ما تدعوا إليه من سوء الأخلاق وضياع كل قيمة، والتمرد على خالق السماوات والأرض (جل وعلا). ففيها ماء زلال وسم قاتل، فعلينا أن نجتنب السم، ونأخذ الماء الزلال كما كان ﷺ يفعل كما مثلنا له[٣].

ومن المؤسف كل المؤسف أن الذين صار عندهم شيء من هذه القشور التي يعبرون عنها بالتقدم والحضارة وأمثال ذلك لا يأخذون عن الكفار إلا السم القاتل الفتاك، من الانحلال الخلقي، وضياع الأخلاق، والتمرد على نظام السماء، ومجاهرة رب العالمين بالمعاصي، والتزهيد في القرآن وفي الرسل، في الوقت الذي لا ينتفعون من مائها الزلال وقوتها المادية شيئاً!! فإنا لله وإنا إليه راجعون من عاقل يأخذ السم ويترك الماء، فهذا من طمس البصائر لا يعلمه إلا من رآه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ

---

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

(٢) تقدم تخريجه في الموضع السابق.

(٣) السابق.

ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٠] مكرهم: هو ما أرادوا من قتل النبي ﷺ بعدما أجمعوا عليه، وتفرق دمه في قبائل قريش. ومكر الله: هو أن نجاه منهم، وأنقذه منهم، وأدخله في الغار لحكمة يعلمها (جل وعلا). مع أنه قادر على أن يهلكهم بالجنود، ومع أنه مختفٍ منهم في الغار، فجنود السماء حوله تحوطه لا يقدر أحدٌ أن يأتيه، كما سيأتي في براءة في قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠] تلك الجنود يعلمها الله ويراها، والناس لا يرونها، فالكفار لا يقدرون على شيء معها، ولكن الله أمره بهذه الأسباب، مع أن جنود الملائكة تحوطه لحكمة يعلمها هو (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ لأن مكره بالغ من الجمال ما لا يخفى؛ لأنه لا يوصل الشر فيه إلا لمن يستحق الشر، ولا يدفع الشر فيه إلا عمن هو أهل أن يدفع عنه الشر كما لا يخفى.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣١].

قال بعض العلماء(١): نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث بن كلدة العبدري، كان ذهب في تجارته إلى بلاد فارس، وجاء الحيرة وغيرها، واشترى كتباً وفيها تاريخ رستم وإسفنديار، وكان إذا وجد النبي ﷺ يقرأ القرآن ويقص فيه أخبار الأمم الماضية. جلس هو يقرأ عليهم من تلك الأساطير من أخبار رستم وإسفنديار ويقول لهم: أنا آتي بمثل ما يأتي به محمد.

وقال بعض العلماء: إن قريشاً كذبوا فقالوا: نحن نقدر على أن نتكلم بمثل هذا القرآن. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٥٠٣)، تفسير ابن أبي حاتم (٥/١٦٨٩). ابن كثير (٢/٣٠٤).

قَدْ سَمِعْنَا﴾ [الأنفال: الآية ٣١] سمعنا هذا الذي يتلوه لو نشاء معارضته بمثله لقلنا مثله، وقدرنا على الإتيان بمثله. وهذا كذب محض منهم، سواء قلنا: إن قائله النضر بن الحارث، وأنه يعارضه بأساطير الأولين مما أتى به من تاريخ فارس، أو قلنا: إنه قاله غيره من قريش، ومعلوم أن القرآن العظيم لا يقدر أحدٌ أن يأتي بمثله، وأن هذه الدعوى كاذبة، وأن صاحبها من أظلم الظالمين كما قدمنا إيضاحه في سورة الأنعام في تفسير قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: الآية ٩٣] أي: لا أحد أظلم من هذا ولا هذا. فقد ذكرنا مراراً أن الله تبارك وتعالى تحدىٰ الكفار بسورة من هذا القرآن العظيم، في سورة واحدة، في سورة البقرة وسورة يونس، قال في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: الآية ٢٣] ثم قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ [البقرة: الآية ٢٤] فصرّح بأنهم لن يفعلوا أبداً ولا يقدرون أبداً، وتحداهم بسورة واحدة أيضاً في سورة يونس في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس: الآية ٣٨] وتحداهم في سورة هود بعشر سور، قال في هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: الآية ١٣] ثم أوضح عجزهم وأنه منزل من رب العالمين حيث قال: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: الآية ١٤] ثم تحداهم في سورة الطور بالقرآن كله، وذلك في قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: الآية ٣٤]. ثم صرّح في سورة بني إسرائيل وهي سورة (سبحٰن الذي أسرى) أن جميع البشر من الإنس والجن لا يقدرون على معارضة هذا القرآن، ولا الإتيان بمثله حيث قال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ [الإسراء: الآية ٨٨] وبذلك يُعلم كذب النضر بن الحارث وغيره من قريش في قوله: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: الآية ٣١] مفعول (نشاء) محذوف ـ لو شئنا قولاً مثل هذا لقلناه. وقد قدمنا مراراً[١] أن فعل المشيئة إذا عُلق بأداة الشرط يُحذف مفعوله؛ لأن جزاء الشرط يكفي عنه، وهو الغالب في القرآن وفي لغة العرب، وربما ذكر المفعول في القرآن، ولم أجده مذكوراً في كتاب الله إلا إن كان مصدراً منسبكاً من (أن) وصلتها، كقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: الآية ١٧] ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: الآية ٤] وربما ذُكر مثل هذا في كلام العرب، ومنه قول الشاعر[٢] ـ:

ولو شئتُ أن أبكي دماً لبكيتُه ... عليك ولكن ساعةَ الصَّبرِ أوسَعُ

وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. (إن) هذه هي النافية، والإشارة في (هذا) إلى القرآن المعبَّر عنه بالآيات التي تتلى في قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: تُلي عليهم هذا القرآن قالوا: كذا وكذا، وقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ ما هذا القرآن المعبَّر عنه بالآيات التي تتلى ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الأساطير: جمع أسطورة أو إسطارة، وهي ما كتبته الأمم الماضية من تاريخ ونحوه[٣]، كما كان النضر بن الحارث يأتي بالأساطير التي كانت مكتوبة عن فارس. وهذا معنى قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣١] يزعمون أن النبي استملاها من غيره، فأملاها عليه غيره فكتبها، كما قال في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: الآية ٥] قبحهم الله، ما أوضح كذبهم!! وهذا معنى قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٣١].

---

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) انظر: المفردات للراغب (مادة: سطر) ص٤٠٩، المعجم الوسيط (مادة: سطر) (٤٢٩/١).

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: الآيتان ٣٢، ٣٣] ثبت في صحيح مسلم والبخاري من حديث أنس بن مالك أن قائل هذه المقالة: أبو جهل ـ لعنه الله ـ عمرو بن هشام بن المغيرة[(١)]. والأكثرون من المفسرين يقولون[(٢)]: إن قائل هذه المقالة: النضر بن الحارث. وهذا الدعاء هو العذاب الأليم المذكور في أول سورة المعارج سورة سأل سائل[(٣)] ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ﴾ أي: دعا داع ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [المعارج: الآيتان ١، ٢] قالوا: هو قوله: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: الآية ٣٢]. ولن يُعْقَل أحمق من قريش حيث قالوا: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾. ولو كانوا في مرتبة أدنى العقلاء لقالوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه!! زعم بعضهم[(٤)]: أن يهودياً مر بابن عباس وقال له: أنت من قريش؟! قال: نعم. قال: إن قومك من أجهل خلق الله حيث قالوا: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾ ولم يقولوا: فاهدنا إليه!! فقال له ابن عباس: وكذلك قومك أنت من أجهل خلق الله فإنهم وأرجلهم بها بلل البحر الذي أنقذهم الله منه وأهلك به عدوهم ـ قالوا في ذلك الوقت لنبيهم ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ فقال نبيهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٨] فسكت اليهودي مفحماً. وعلى كل حال

---

(١) البخاري في التفسير، باب: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ حديث رقم: (٤٦٤٨) (٣٠٨/٨). ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. حديث رقم: (٢٧٩٦) (٢١٥٤/٤).

(٢) انظر: ابن جرير (٥٠٥/١٣)، ابن كثير (٣٠٤/٢).

(٣) النسائي في التفسير (٤٦٣/٢)، والحاكم (٥٠٢/٢)، وابن أبي حاتم (١٦٩٠/٥)، والواحدي في أسباب النزول ص٤٤٥، وعزاه في الدر (٢٦٣/٦) للفريابي، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه.

(٤) نقله القرطبي (٣٩٨/٧) مُصَدِّراً له بقوله: «حُكي عن ابن عباس...». ولم يعزه.

من يقول مقالة قريش هذا فهو من أجهل خلق الله، وأشدهم تمرداً وعتواً على الله.

وقوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ذكروا عن سفيان بن عيينة أنه ما جاء في القرآن العظيم المطر إلا بمعنى العذاب. أما الماء النازل قال: فإن العرب تقول له الغيث[1]. كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى: الآية ٢٨] واستدرك عليه بعض العلماء[2]، قال: في سورة النساء كلمة أطلق فيها المطر على النازل من السماء وهي قوله: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ [النساء: الآية ١٠٢].

ومعنى: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾. معناه: أنزلها من السماء متتابعة كما ينزل المطر، وهي حجارة السجيل التي تنزل من السماء محماة بالنار في غاية الحرارة. والحجارة: جمع حجر، وجمع (فَعَل) على (فِعَالَة) موجود في أوزان قليلة، كحجر وحِجَارة، وجَمَل وجِمَالة، وذَكَر وذِكَارَة. وهذا الجمع وجوده قليل، وهو من جموع الكثرة.

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تكون هذه الحجارة نازلة من السماء، وذلك مفهوم من قوله: ﴿فَأَمْطِرْ﴾ إلا أن هذا النوع من التوكيد أسلوب عربي معروف كثير في القرآن وفي كلام العرب[3]، كقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: الآية ٣٨] ومعلوم أنه لا يطير إلا بجناحيه وقوله: ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: الآية ٧٩] ومعلوم أنه لا يكتبونه إلا بأيديهم. ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ﴾ [النساء: الآية ١٠] وهم لا يأكلون إلا في بطونهم. وكذلك قوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾ قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مع أنه لا مطر إلا من السماء.

---

(١) أورده البخاري في التفسير، في ترجمة باب ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ...﴾. الفتح (٨/٣٠٨).

(٢) انظر: فتح الباري (٨/٣٠٨)، فقه اللغة للثعالبي ص٣٥٣، المفردات للراغب ص٧٧٠، تفسير ابن عاشور (١/١٢٤).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة، والآية (٤٨) من سورة الأنعام، وانظر: الدر المصون (٥/٥٩٧).

وهذا معنى قوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قرأه بعضهم بتسهيل الهمزة الثانية، وبعضهم بتحقيقها، وبعضهم بإبدالها ياءً. وكلها قراءات معروفة[١]. وهذا معنى قوله: ﴿أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: الآية ٣٢] أي: مؤلم شديد الألم.

ثم إن الله قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٣] هذه الآية الكريمة تُشكل كثيراً على العلماء وعلى من يتعاطون التفسير[٢]، ونحن - إن شاء الله - سنوضح ما فيها من الإشكال حتى يفهمها طالب العلم فهماً واضحاً - حاصل هذا أنه أولاً جعل لهم أمانين من العذاب:

أحد الأمانين: وجود رسول الله ﷺ بين أظهرهم، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ لأن الله (جل وعلا) لم ينزل العذاب بأمة ونبيها موجود فيها، بل إذا أراد إنزال العذاب بهم أمر نبيهم أن يخرج عنهم فينزل عليهم العذاب بعد أن فارقهم.

الأمان الثاني هو المذكور في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

ومع ذكر الأمانين قال بعده: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: آية ٣٤] أيُّ شيء ثبت لهم يمنعهم من التعذيب ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، ويفعلون ويفعلون؟ فيقول طالب العلم: كيف يقول: إن لهم أمانين ويصرح بأنه لا شيء يمنعهم من العذاب؟ هذا محل الإشكال الذي أشكل على كثير من المنتسبين للعلم.

والجواب عن هذا من أربعة أوجه:

(١) مضت عند تفسير الآية (٧٧) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٥٠٩)، ابن كثير (٢/٣٠٥).

أحدها: أن المعنى: وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم، فخرج رسول الله ﷺ فبقي المستغفرون.

واعلموا أن هذا الاستغفار فيه أقوال معروفة عند العلماء متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً، كل واحد منها مروي عن جماعة من السلف من علماء التفسير[١]، قال بعض العلماء: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ هذا من إطلاق المجموع مُراداً به بعضه، وأن المراد بالمستغفرين خصوص المؤمنين المستضعفين. الكائنين بين أظهرهم، ومن أساليب اللغة العربية: إطلاق المجموع مراداً بعضه[٢]. كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: الآية ١٤] والعاقر واحد، كما قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر: الآية ٢٩] ومما يوضح هذا قراءة حمزة والكسائي[٣]: ﴿فإن قتلوك فاقتلوهم﴾ [البقرة: الآية ١٩١] بالفعلين من القتل بالفعل المجرد؛ لأن المقتول لا يقتل قاتله - والمعنى: فإن قتلوكم، أُسند الفعل إلى مجموعهم الصادق ببعضهم وهو المقتولين، والمراد بالقتال: الذين بقوا ولم يُقتلوا منهم. وهذا أسلوب عربي معروف، ونظيره في القرآن بأن الله بين في سورة الحديبية أن وجود أولئك المستضعفين كان سبباً مانعاً من نزول العذاب الدنيوي بالكفار، كما سيأتي إيضاحه في تفسير قوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: الآية ٢٥] ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي: لو يتميز بعضهم عن بعض، فتميز المشركون عن ضعفاء المسلمين الكائنين فيهم لعذبناهم عذاباً شديداً فرفع الله عنهم العذاب لوجود ضعفاء المسلمين الكائنين بين أظهرهم. والذين قالوا هذا القول قالوا: خرج رسول الله ﷺ فبقي لهم أمان، وهو استغفار المؤمنين الكائنين فيهم، منع الله به أن ينزل العذاب؛ لأنه إذا نزل عَمَّ الصالح والطالح. فبعد ذلك خرج المؤمنون الذين كانوا

---

(١) المصدران السابقان.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

يستغفرون فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: الآية ٣٤] وقد زال عنهم الأمانان بخروج رسول الله ﷺ وخروج المستضعفين الذين كانوا يستغفرون.

واختار كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير (رحمه الله)(١) أنه جعل لهم أمانين: أحدهما على التعليق والمعنى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٣] لو استغفروا. إلا أنك أنت خرجت وهم لم يستغفروا فانتفى الأمانان فحق عليهم العذاب؛ ولـهـذا قـال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٤]. وهذا معنى معروف في كلام العرب؛ لأن المعنى: وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون لو استغفروا، إلا أنهم لم يستغفروا فصار لا مانع من العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: الآية ١١٧] أي: لو كانوا مصلحين لما نزل بهم العذاب، لكنهم لم يصلحوا فنزل بهم العذاب.

وقال بعض العلماء: المستغفرون هم المشركون، وذلك أنهم كانوا إذا لبوا تلبيتهم المعروفة وقالوا: «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك» ابتهلوا بعد ذلك يستغفرون وقالوا: «غفرانك ربنا، غفرانك ربنا، غفرانك ربنا» قال بعض العلماء: هذا الاستغفار الدنيوي دفع الله عنهم به العذاب. وهذا أضعفها وأبعدها.

القول الثاني: أن معنى ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾: يتوبون إلى الله من كفرهم ويُسلمون؛ لأن الله علم بأن في أهل مكة وقت قولهم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٢] علم بعلمه الأزلي أن فيهم ناساً وطائفة سينيبون إلى الله ويستغفرونه ويؤمنون بالله كما آمنت خلائق منهم يوم الفتح وناس قبل ذلك. وعلى هذا القول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ﴾ في علمه ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ويتوبون من الكفر إلى الإيمان، فلذلك أخّر عنهم العذاب.

(١) جامع البيان (١٣/٥١٧).

وعلى هذا القول: فقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ في الذين علم في سابق علمه أنهم لا يسلمون ولا يتوبون، وهم الذين عذبهم الله وقتلهم يوم بدر، وجعل لهم عذاب الآخرة متصلاً بعذاب الدنيا والعياذ بالله.

وهذه هي الأوجه في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٣] ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أيُّ شيء ثبت لهم يمنعهم من تعذيب الله لهم ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٤] (يصدون) تستعمل استعمالين[1]: تستعمل متعدية ولازمة، فإذا استعملت متعدية فمصدرها (الصَّد) على القياس، ومضارعها (يصُد) بضم الصاد لا غير، وإذا استُعملت لازمة فمصدرها (الصدود) على الأغلب، وفعلها المضارع يجوز في عينه الكسر والضم، تقول: صَدَّ زيدٌ عَمْراً يَصُدُّه صَدّاً. ويَصُد بالضم لا غير، وتقول: صَدَّ زيدٌ عن هذا الأمر إلى غيره، يَصِدُّ ويَصُدُّ صدوداً، وعلى ذلك القراءتان[2] في قوله: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: الآية ٥٧] ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ﴾ [الزخرف: الآية ٥٧] والفعل هنا متعدي، والمفعول محذوف، أي: يصدون الناس عن بيت الله الحرام، عن المسجد الحرام، كما صدوا النبي ﷺ وأصحابه في غزوة الحديبية، كما سيأتي في قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: الآية ٢٥] وكما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [المائدة: الآية ٢] وإخراجهم النبي ﷺ وأصحابه من مكة من صدهم عن المسجد الحرام. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٤] وكانت قريش إذا صدوا بعض الناس عن المسجد الحرام قالوا: هذا البيت بيتنا، ونحن أولياؤه، فولايته لنا، فنترك من نشاء، ونصد من نشاء!! فبيّن الله كذبهم فقال: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٤] ما أولياء هذا البيت ولاية حقيقية

(١) انظر: المفردات (مادة: صدد) ص٤٧٧ .

(٢) مضت عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

إلا الذين يؤمنون بالله ويتقون الله، أما الكفرة الفجرة فليسوا بأوليائه، وإن زعموا أنهم أولياؤه. فهذا معنى قوله: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ قال بعض العلماء[1]: عبر هنا بالأكثر عن الجميع، والعرب تعبر بالأكثر عن الجميع، وبالقلة عن لا شيء، وهو أسلوب معروف.

وقال بعض العلماء: الأكثر على ظاهره؛ لأن بعضهم يعلم أن ولاية بيت الله لمن هو مطيع لله لا من هو عاص له. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٤].

٤/أ / ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ٣٦ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٣٧﴾ [الأنفال: الآيات ٣٥ ـ ٣٧].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾ [الأنفال: الآية ٣٥].

بين الله (جل وعلا) في هذه الآية أن كفار مكة الذين يزعمون أنهم أولياء البيت، ما كانوا يصلون عنده، ولايعبدون الله عنده، يعني: ليس لهم من الصلاة فيه إلا شيء هو بعيد كل البعد عن الصلاة، يعني: ما كان صلاتهم عند البيت الذي هو أول بيت وضعه الله للناس ما كانت صلاتهم عنده إلا مكاء وتصدية والتحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه في معنى المكاء والتصدية[2]: أن المكاء هو: الصفير، والتصدية هي: التصفيق.

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٨/٥٥)، البحر المحيط (٤/٤٩١)، وراجع ما مضى عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: ابن جرير (١٣/٥٢١)، ابن كثير (٢/٣٠٦)، الأضواء (٢/٣٥١).

كان قريش يجتمعون ويطوفون بالبيت عراة، يصفرون ويصفقون، يزعمون أن هذا التصفير والتصفيق والعري عند بيت الله أنه عبادة، ومن أغراضهم بالتصفير والتصفيق: ألّا يسمع الناس ما يتلوه النبي ﷺ؛ لأن التصفيق والتصفير أصله من إلغائهم ليمنعوا من سماع القرآن، الآتي في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ۝٢٦﴾ [فصلت: الآية ٢٦].

العرب تقول: مَكَا، يَمْكُو، مَكْواً، ومُكَاً، ومُكَاءً، إذا: صفر.

والصفير: هو الصوت الذي يخرجه الإنسان من فيه، المعروف، وهذا معنىً معروف في كلام العرب، يُسمون التصفير: المكاء. وقد أطلقه عنترة في معلقته على صوت الطعنة العظيمة يشخب منها الدم ويُسمع لها صوت كالصفير في قوله(١):

وَحَلِيلِ غَانِيَةٍ تركت مُجَدَّلاً ... تَمكُو فريصتُه كَشِدْق الأَعْلَمِ

قال بعض العلماء: أصله كصوت المُكَّاء. والمُكَّاء: طائر أبيض معروف يصوّت تصويتاً كالصفير، وهذا الطائر معروف في كلام العرب، وفيه يقول الشنفرى(٢):

ولا خَرِقٍ هَيْقٍ كأن فؤاده ... يظل به المُكَّاءُ يعلُو ويسفُلُ

وقال بعضهم(٣):

إذا غَرَّدَ المُكَّاء في غير رَوْضَةٍ ... فَوَيْلٌ لأهلِ الشَّاءِ والحُمُراتِ

وقوله: ﴿وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ التحقيق أنه مصدر (صدَّىٰ، يُصدِّي، تصدية) إذا صفَّق. لأن التصفيق يرتفع به صدى الصوت، هذا هو الصحيح في المعنى خلافاً لمن قال: إن أصله: تَصْدِيْدَة أُبدلت الدال الأخيرة ياء، وأنها (تَفْعِلَة)

---

(١) ديوانه ص١٢٣.

(٢) البيت في ديوانه ص٥٧.

(٣) البيت في القرطبي (٧/٤٠٠)، الدر المصون (٥/٦٠٠).

من الصَّد؛ لأنهم يصدون الناس عن المسجد الحرام[١]. والأول هو الصحيح. والمعنىٰ: أن هؤلاء الكفار الذين يزعمون أنهم أولياء البيت الحرام كيف يكونون أولياءه، وكيف يمتنعون من نزول العذاب ولا صلاة لهم عند البيت إلا الصفير والتصفيق؟ هذه صلاتهم عند البيت!! وإذا كانوا لا صلاة لهم عند البيت إلا الصفير والتصفيق فمعنىٰ ذلك أنهم لا صلاة لهم أصلاً عنده ألبتة. وهذا أسلوب عربي معروف، تقول العرب: «لا له كذا إلا كذا» ويكون ذلك بعيداً منه، فيدل على الانتفاء المطلق، وهذا أسلوب عربي معروف يكثر في القرآن وفي كلام العرب، قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: الآية ٢٩] إن كانوا لا يُغاثون إلا بهذا الماء الذي يشوي الوجوه فلا إغاثة لهم أبداً، وهذا كثير في كلام العرب، ومنه قول بشر بن أبي حازم[٢]:

غَضِبَتْ تَميمٌ أن تُقتَّل عامرٌ ... يَوْمَ النسار فأُعْتِبُوا بالصَّيْلَمِ

معناه: أُرضوا بالسيف، فإن كانوا لا عُتْبَى لهم ولا رضا إلا السيف معناه: لا عُتْبى ولا رضاً لهم أصلًا، ومنه قول الآخر يصف ناقته[٣]:

شَجْعَاءَ جِرتها الذميل تلوكه ... أصلاً إذا راح المطي غراثا

يقول: إن ناقته ليس لها من الجِرَّة إلا الذميل. والذميل: ضرب من السَّيْر. والجِرَّة: هي أن الناقة ـ مثلًا ـ في النهار تأكل المرعى، فإذا كان الليل أخرجت ما في بطنها فمضغته لترققه، يعني: إن كانت لا جرة لها إلا جرر المشي فلا مأكل لها ولا جرة. وأمثال هذا كثيرة في كلام العرب،

---

(١) قال في الدر المصون (٦٠١/٥) ما ملخصه: والتصدية فيها قولان:
أحدهما: أنها من الصَّدى، وهو ما يُسمع من رجع الصوت في الأمكنة الخالية الصلبة. يُقال منه: صَدِي يَصْدَى تَصْدِيَة. وقيل: هي مأخوذة من التَّصْدِدَة وهي الضجيج والصياح والتصفيق، فأُبدلت إحدى الدالين ياءً تخفيفاً.
والثاني: أنه من الصَّد، وهو المنع، والأصل: (تَصْدِدَة).

(٢) البيت في الدر المصون (٥٦/٩).

(٣) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ص٦٦.

وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أيها الكفرة الزاعمون كذباً أنكم أولياء البيت وأنكم قُطّان بيت الله الحرام، وأنكم أهدىٰ من محمد ﷺ ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الباء سببية، و(ما) مصدرية، أي: بسبب كفركم.

وهذه الآية الكريمة تدل على أن التصفيق والتصفير ليسا من العبادة في شيء، وبه يُعلم أن ما يفعله كثير من الجهلة المدعين للتصوف كذباً من الرقص والتصفيق والصراخ، زاعمين أنه عبادة أن ذلك من الخذلان وتلبيس الشيطان، وأن ذلك لا يكون عبادة أبداً، بل أول من رقص وصفق في شيء يظنه عبادة هم عبدة العجل، وكان ذلك من أفعال الكفار، فالنبي ﷺ وأصحابه كانوا في مجالسهم كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا رأيتم الذين يصفقون ويضربون بالمعازف، ويزعمون أن هذا دين وأحوال ووجدان، فهو غرور من الشيطان، فلا ينبغي أن يُغتر بهم، كما ظن قريش أن مكاءهم وتصديتهم عند بيت الله الحرام عبادة، فقد وبخهم الله على ذلك في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنفال: الآية ٣٥].

ثم قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٦] قال بعض العلماء[١]: نزلت هذه الآية في المطعمين في بدر الذين ينحرون عشراً أو تسعاً، وقد ذكرناهم في ذكرنا لهذه الغزوة[٢]، وبينّا أن المؤرخين يقولون: إن أول من نحر لهم: أبو جهل عشراً من الإبل، ثم نحر لهم أمية بن خلف تسعاً بعسفان، ثم نحر لهم سهيل بن عمرو عشراً بقديد، ثم ذهبوا إلى المياه من ناحية الساحل، وأقاموا هناك يوماً، فنحر لهم شيبة بن أبي ربيعة[٣] ذلك القدر من الإبل، ثم أصبحوا بالجحفة، فنحر لهم أخوه

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤٩٢/٤).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥) من سورة الأنفال.

(٣) هكذا في الأصل، والصواب: ابن ربيعة.

عتبة، ثم أصبحوا بالأبواء فنحر لهم منبه ونبيه ابنا الحجاج السهميان المشهوزان الذين هم ممن قُتلوا يوم بدر، ثم نحر لهم العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه)، ونحر لهم أبو البختري بن هشام عشراً على ماء بدر، فهذه الإبل التي ينحرون ينفقونها ليصدوا عن سبيل الله.

وقال بعض العلماء[1]: نزلت في أبي سفيان بن حرب، أنفق أربعين أوقية على جماعة من الأحابيش - والأحابيش: جمع أحبوش، وهم جماعة متجمعون ساكنون في ظواهر مكة، أنفق عليهم - أربعين أُوقية ليذهب معه جماعة منهم إلى أُحُد.

والذي عليه جمهور العلماء من المفسرين وأصحاب المغازي والتاريخ: أن هذه الآية من سورة الأنفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٦] نزلت في قضية قريش مع عير أبي سفيان؛ لأن عير أبي سفيان لما نجت وقُتل من قُتل من أشرافهم يوم بدر اجتمع أشراف قريش وطلبوا كل من كانت له تجارة في تلك العير أن يمنحهم ذلك المال ليستعينوا به ويستعدوا على حرب النبي ﷺ طالبين منهم إدراك الثأر، فكانت إمكانيات أُحد هي من أموال تجارات تلك العير، وأن ذلك هو معنى إنفاقهم ليصدوا عن سبيل الله. هذا هو الأصوب إن شاء الله، وعليه جماهير العلماء.

﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ كإنفاقهم أرباح تجارة عير أبي سفيان ليحاربوا بها النبي ﷺ، ليصدوا الناس عن سبيل الله، في زعمهم أنهم يأخذون ثأرهم من محمد ﷺ فيُضْعِفُون الإسلام ويُقَوُّون الكفر. هذا معنى صدهم عن سبيل الله.

وقد قدمنا مراراً[2] أن لفظة (صد) تستعملها العرب استعمالين، تستعملها (صد) متعدية إلى المفعول ومضارع هذه (يصُد) بالضم على

---

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٥٢٩)، ابن كثير (٢/٣٠٧).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

القياس لا غير، ويستعملون (صد) لازمة لا متعدية، ومضارع هذه فيه الضم والكسر، ومصدرها (الصدود)، تقول: «صد زيدٌ عَمْراً، يصُده صَداً، وصد عمرو عن هذا الأمر، يَصِد ويصُد صدوداً». هذا معروف في كلام العرب، ومن اللازمة ولُغتَيْها: القراءتان[1] في قوله: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ﴾ [الزخرف: الآية ٥٧] وهذه متعدية، والمفعول محذوف لدلالة المقام عليه، وحذف الفضلة إذا دل الدليل عليها مطرد شائع في القرآن وفي كلام العرب، أي: ليصدوا الناس عن سبيل الله، لإضعاف الإسلام في زعمهم وقوة شوكة الكفر، حتىٰ يسيطر على الناس فلا يتركهم يسلمون. هذا معنىٰ قوله: ﴿لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ كأنه قال: إن الذين أرادوا ذلك سيفعلونه وينفذونه، ثم تكون العاقبة وخيمة ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ الحسرة: أشد الندامة، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [البقرة: الآية ١٦٧] أي: ندامات شديدة ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ [يس: الآية ٣٠] أي: يا ندامتهم احضري فهذا وقتك، وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: ندامة شديدة حيث أضاعوها ولم تُجْدِ عنهم شيئاً، بل كانت الدائرة منتهاها عليهم، والغلبة عليهم، وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٦] ثم يكون المآل أن يُغلبوا ويُقهروا كما كان المآل أن قُتل هؤلاء وفُتحت مكة يوم فتح مكة، وصاروا الطلقاء، وضاعت تلك الأموال، ولم تُجْدِ عنهم شيئاً، ولم تغن لهم شيئاً.

وهذه الآية الكريمة أشارت إلى ركنٍ من ركني ما يسمىٰ (الاقتصاد)؛ لأن القرآن العظيم تنزيل رب العالمين، يوضح الله به أصول جميع الأشياء التي يحتاج لها البشر، والنبي ﷺ يبسط ذلك ويبينه، وهذا الذي يعبر الناس عنه اليوم في عرفهم بـ (الاقتصاد)، أشارت هذه الآية الكريمة إلىٰ أحد ركنيه، وإيضاح ذلك أن ما يسمى بـ(الاقتصاد) أن جميع مسائله المتشعبة راجعة في الحقيقة إلى أصلين لا ثالث لهما:

---

(١) مضت عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

أحد هذين الأصلين: هو حسن النظر في اكتساب المال، ومعرفة الوجوه التي يحصل بها ذلك.

والثاني منهما: هو حسن النظر في صرف المال في مصارفه، ولا بد لأحدهما من الآخر، فالاقتصاد إذن عمل مزدوج لا يصح أحد ركنيه دون الآخر؛ لأن الذي لا يقدر على اكتساب المال، ولا يعرف الطرق التي يكتسبه بها لا يكون صاحب اقتصاد، وكذلك الذي يعرف طرقه وهو ماهر في تحصيله، إذا كان لا يعرف صرفه بالحكمة فإنه لا يجديه شيئاً؛ لأن الإناء المخروق لو جعلت فيه البحر لما ملأه، فلا بد من حسن النظر في الاكتساب أولًا، ثم حسن النظر في الصرف ثانياً. وهذه الآية الكريمة من سورة الأنفال أشارت إلى أحد الركنين، وهو حسن النظر في الصرف في المصرف؛ لأن الصنيعة إذا لم تطابق مصرفها فلا فائدة فيها:

إن الصَّنيعة لا تُعدّ صنيعةً حتى يُصَاب بها طريق المَصْنَعِ[1]

والبذل فيما لا يجدي ليس من الاقتصاد في شيء، وإنما هو تبذير، وقد ذم بعض الأدباء من يعطي ويمنع غير مركز ذلك على الحكمة فقال[2]:

لا تَمْدَحَنَّ ابنَ عباد وإن هَطَلتْ يداهُ كالمُزنِ حتى تُخْجِل الدِّيَما
فإنها فلتات من وسَاوسه يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرما

فقوله في هذه الآية: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: الآية ٣٦] بينت أن الصرف فيما لا يرضي الله أنه ندامة وحسرة، وأنه إخلال بأحد ركني الاقتصاد، فلا بد أن يكون الصرف واقعاً موقعه فيما يرضي من خلق هذا الكون.

وهذا الأمر ـ الذي هو الاقتصاد ـ أمر عظيم؛ لأن المال شريان الحياة، ولا سيما في هذا الزمن التي كانت طرق الاقتصاد إنما مهّدها ومهد

(١) البيت في تاريخ دمشق (٢٧/٢٩٤)، الكامل ص١٧٩ وذكره الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (١/٤٧) وهو لعيسى بن يزيد البجلي، أو للهذيل الأشجعي.

(٢) البيتان لدعبل بن علي الخزاعي، وهما في ديوانه ص١٧٠.

جميع الطرق إلى اكتساب الأموال كائنة ما كانت، مهدها كفرة فجرة لا يدينون لله، ولا يأتمرون بأمره، فجعلوا أسسها مبنية على الربا وعلى الحرام، وعلى الغرر وعلى جميع المعاملات التي لا ترضي الله، ومع الأسف كان المتسمون باسم الإسلام ذَنَباً لهم يرتكبون المحرمات في تلك المعاملات، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ونحن نلم بشيء قد دلت عليه هذه الآية كأصول لهذا الأمر المهم، لأن هذه الآية، والآيات غيرها من كتاب الله دلت على أن له أربعة أمور، إذا نظر الناس فيها وأتقنوها كان اقتصادهم على الوجه المطلوب؛ لأنا ذكرنا الآن أن جميع مسائل الاقتصاد وإن تشتت وتشعبت راجعة في الحقيقة إلىٰ أصلين لا ثالث لهما، هما: حسن النظر في اكتساب المال، وحسن النظر بعد أن يحصل المال في صرفه في مصارفه. وهذان الركنان لا بد لكل منهما من نظرتين مختلفتين، فتكون أربعاً من ضرب اثنين في اثنين، والنظرتان المختلفتان لا بد منهما لكل من الركنين.

أما أحدهما: فهو معرفة حكم الله (جل وعلا) في نوع ذلك الاكتساب، وفي نوع ذلك الصرف؛ لأن الله (جل وعلا) خلق الإنسان محتاجاً للنساء، ومفتقراً للغذاء، وخلق له ما في الأرض جميعاً، ولم يتركه سدىً يتصرف فيه باختياره، بل التصرف لا بد أن يكون بإذن مالك الملك، خالق هذا الكون (جل وعلا)، فالنظرة الأولىٰ إذا أردت أن تكتسب مالاً بوجه من أوجه الاكتساب، أو تصرف مالاً في وجه من أوجه الصرف أن تعرض هذا الاكتساب أو هذا الصرف على ضوء هذا المحكم المنزل، ونور هذا الوحي الذي جاء به محمد ﷺ، فتنظر أيجيزه أو يمنعه؟ فإن عرفت أنه يمنعه تركته؛ لأن خالق هذا الكون المشرع لهم ما جعل عليهم تضييقاً في التشريع، وما شرع لهم إلا ما فيه السعة الكاملة لهم تكفيهم كل مهماتهم، وإذا نظرت في حكم الله، في طرق الاكتساب، وفي حكم الله في صرف المال؛ لأن بعض المصارف التي يصرف فيها المال قد تكون على صاحبها حسرة ثم يغلب، كما قال هنا: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٦] وبهذه النظرة أن تنظر في وجه اكتساب المال

وفي وجه صرفه في مصرفه إذا عرضتها على ضوء القرآن، وما جاء به محمد ﷺ كفاك هذا من الفِكَر الهدامة، والمذاهب المفقرة الخسيسة - عليها وعلى من جاء بها لعائن الله - كنظرة الماركسيين، واللينيين، وأتباعهم - دمرهم الله جميعاً - فإن هذا إذا عرضته على كتاب الله وجدت ذلك الذي يدعون إليه ويبنون عليه نحلتهم لا يجيزه الله ولا يرضاه، فاكتفيت شره بالكلية.

ثم بعد ذلك إذا عرضت وجه الاكتساب ووجه الصرف على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وعرفت أنه جائز؛ فالنظرة الثانية: هي تحقيق المناط وتطبيق هذا، فقد يكون هذا الوجه الاكتساب به حلالاً إلا أنه ما كل الناس يقدر على تحصيل هذا الوجه والاكتساب بهذه الطريق، فيُنظر له من يعرف ذلك بالخبرة الدنيوية ليقدر على تحصيل المال به في ضوء الشرع الكريم، وكذلك الصرف في المصارف يحتاج إلى من يقدر عليه؛ لأن بعض المصارف لا يقدر كل الناس أن يقوم به، ولا سيما ما يسمونه (المشاريع العامة) فإنه ما كل الناس يقدر على تنفيذها، فإن المشروع العام الذي عُرف أن الشرع يجيزه، وأن فيه مصلحة لجميع المسلمين، وأن ولي أمر المسلمين إذا بذل فيه من مال المسلمين كان ذلك البذل جائزاً، لعظم المصلحة العائدة لعامة المسلمين منه، فإنه يحتاج إلى خبراء دنيويين يعرفون كيف ينفذون ذلك الصرف على الوجه المطلوب.

فهذه الأركان الأربعة أشارت إليها هذه الآية، وهي أصول الاقتصاد، ولو وفق الله المسلمين ونظروا في أصول الاقتصاد، وما جاء به من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ لأمكنهم استغلال ثرواتهم، والانتفاع بها في ضوء كتاب الله على طريق يغمرهم فيها المال، ولا يزاولون ما يسخط ربهم (جل وعلا)؛ لذا قال تعالى: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾.

ثم قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٦]، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: الآية ٣٦] ومن جملتهم: الذين ينفقون المال ليصدوا بإنفاقه عن سبيل الله ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: إلى النار، كما قال

(جل وعلا)، في أصحاب جهنم: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: الآية ٤٤] والعياذ بالله ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ يُجمعون يوم القيامة، وقد بين الله كيفية جمعهم إليها في آيات كثيرة من كتابه، كما قال: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: الآية ٨٦] وقال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآية [الزمر: الآية ٧١] وهذا معنىٰ قوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ وتقديم المعمول الذي هو الجار والمجرور يؤذن بالحصر. أي: لا يحشرون إلى شيء غير النار والعياذ بالله جل وعلا.

وقوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٧] قال بعض العلماء[١]: اللام في قوله ﴿لِيَمِيزَ﴾ تتعلق بقوله: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٣٦].

قرأه حمزة والكسائي: ﴿لِيُمَيِّزَ الله الخبيث من الطيب﴾ وقرأ باقي السبعة: ﴿لِيَمِيزَ﴾ بفتح الياء وكسر الميم[٢].

كما أن حمزة والكسائي قرءا: ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: الآية ٣٥] بإشمام الصاد الزاي[٣]. وقرأ غيرهم من السبعة: ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ بالصاد الخالصة غير المشمة بالزاي.

وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ حشرهم الله إلى جهنم ليميز بذلك ـ يزيّل ويفرق ـ بين الخبيث والطيب، فالخبيث أهل النار، والطيب أهل الجنة، فالله حشر هؤلاء إلى شر دار، وحشر هؤلاء إلى خير دار ليميز ويفرق ويُزيّل بين الخبيث والطيب، وعلى هذا القول فالمَيْزُ بينهم في الآخرة، وقال بعض العلماء[٤]: هي تتعلق بقوله: ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٦] يعني: أقدر الله الكفار على

(١) انظر: البحر المحيط (٤٩٣/٤).
(٢) انظر: الإتحاف ص (٧٩/٢).
(٣) السابق.
(٤) انظر: ابن كثير (٣٠٧/٢).

عداوة الإسلام والصد عنه ومحاربته ليُميز للناس ويبين لهم الخبيث من الطيب. وهذا التفسير مثله قد جاء موضحاً في سورة آل عمران، حيث قال الله جل وعلا: ﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٩] إلى آخر القصة. وهذا معنى قوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي: يجعل كل واحد منهما متميزاً عن الآخر، منفصلاً عنه لا لبس بينهما، ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ﴾ وهو الكفار، الكفر وأهله. قال بعضهم: ويدخل فيه المال المنفق ليصد به عن سبيل الله. وعلى هذا القول فالمال الذي ينفقه الإنسان ليصد به عن سبيل الله، يركم معه في النار، كما قال جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٣٤ ـ ٣٥] فصرح في هذه الآية من براءة أن ذلك الذهب والفضة الذي كانوا يكتنزونه يدخل معهم في النار ويكوون به فيها، فهذا يشابه هذا التفسير الذي قال: إن المال الخبيث الذي صرفه صاحبه في الدنيا للصد عن سبيل الله أنه يركم معه في جهنم، فيعذب به، وقد ثبتت الأحاديث عنه ﷺ أن الذي كانت عنده ماشية ولا يزكيها تُجعل لها في ضحضاح من جهنم، فتدوسه بأرجلها[1] (والعياذ بالله)، هذا معنى قوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ﴾ من أهل الكفر وما كانوا ينفقونه ليصدوا به عن سبيل الله ﴿بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾، العرب تقول: ركمه يركمه، إذا جعله ركاماً متراكماً، أي: يركب بعضه بعضاً، ويعلو بعضه بعضاً، كما في قوله: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: الآية ٤٣] فيجعله كله في النار ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ هؤلاء الذين يُجمعون كلهم فيركمون في جهنم موصوفون بصفة الخبث هم الخاسرون الذين غُبنوا في حظوظهم من ربهم (جل وعلا)، وخسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

---

(١) مسلم في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة. حديث رقم: (٩٨٧) (٢/ ٦٨٠).